معجم التعبيرات القرآنية

الكاتب الإسلامى
محمد عتريس

الدار الثقافية للنشر
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة للناشر
الدار الثقافية للنشر ـ القاهرة
ص.ب : ١٣٤ بانوراما اكتوبر ـ هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧
EMail - fnassar@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة

الحمد لله، نزّل القرآن الكريم، تثبيتاً لنبيّه وتشريفاً، وهدىً وموعظة للمتقين، ونوراً وذكرى للمؤمنين، وبشرى للمسلمين، وترغيباً في أعمال الخير، وترهيباً من أفعال الشر، ووعداً للمستغفرين بالجنة، ووعيداً للمصرّين بالنار، فالمصرّ هالك، والنادم ناجٍ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلاة تنجينا من ظلمات الوهم، وتكرمنا بنور الفهم، وعلى آله الطيّبين الطاهرين...

وبعد ...

فإن الله جلّ جلاله إذا رضى عن عبد من عباده، استعمله في طاعته، وحبّب اليه النظر في كتابه الكريم، وذكره الحكيم، قارئاً متدبراً، وتالياً متأنياً، لسانه رطب بذكره، وعينه قريرة بنظره، وأذنه منصتة لسماعه، وقلبه مطمئن بفهمه، وصدره منشرح بحفظه، وعقله كاشف لبيانه، وأعضاؤه نشطة للعمل بمحكمه، فيصبح بذلك، محباً ومحبوباً، وناكراً ومذكوراً، وراضياً مرضيًّا، يلهمه الله رشده، ويسدّد مقاوِلَه، ويعلمه من علمه، ويفهّمه عنه، وينفعه بما علم، وبما فهم، فيعلم علم ما لم يكن يعلم، فيزداد يقينه، ويقبل على أحسن الحديث، مستنبطاً من تعبيراته، حكماً بالغة وأحكاماً شافية، وتشريعات راقية، وآداباً عالية، وأساليب بليغة، ومعاني سامية، تصفِّي النفس، وتصلح الفؤاد، وتقيم معالم الطريق أمام السالكين والراغبين في رضوان الله، والفوز بالحسنى وزيادة، ولا شك أن القرآن أعظم النعم شأناً، وأرفعها مكانة، وعليه تدور السعادة الدنيوية والأخروية، وهو المعجزة الخالدة الى يوم القيامة، وقد تكفل الله بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾(١)، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾(٢)...

ثم ان المؤلف قد نال شرف النظر في فصاحة القرآن وبلاغته، ونظمه وإعجازه، وفي صحة معانيه وأحكامه، وصدقه وحكمته، وفي قصصه ومواعظه، فزكّى الله به

(١) سورة «الحجر»: آية ٩.
(٢) سورة «ص»: آية ٢٩.

عقله، ونقّى قلبه، وطهّر لسانه، فوُفّق الى صراط مستقيم، ونهج قويم، بتأليف كتاب «معجم التعبيرات القرآنية» الذي نقدمه بين أيدي القرّاء والمطلعين، دراسة مستنيرة، متعددة الجوانب، وزاداً علمياً لا ينضب، ومدداً ثقافياً لا ينفذ، فيه فقه الفقهاء، وأدب الأدباء، وبلاغة الفصحاء، وثقافة العلماء، المحدثين منهم والقدماء، فجمع الفضل، وحاز السبق، بما حوى من معارف، ومهارات، واشارات، وإبداعات، تشفي العليل، وتروي الظمآن، وتضع أمام الباحثين والدارسين خزانة علم نافع، بأُسلوب موضوعي واضح، يروق المطّلع عليه ترتيبُه، لتعبيراته القرآنية، التي بلغت خمسمائة وسبعة وستين تعبيراً، موزعة في مائة واثنتي عشرة سورة، بحث المؤلف مفرداتها، وبيّن معانيها في النسق القرآني، فبلغ المؤلف بذلك هدفه، وحقق غرضه، بإخراج تلك الموسوعة العلمية الزاخرة، بجهد مشكور، وبحث دؤوب، وتحليل واعٍ، وفهم وافٍ، ملتزماً صحيح الآراء، موثّقاً النقول، مسجلاً لمصادرها، ضابطاً لآيات القرآن بأرقامها وسورها، مخرجاً الأحاديث النبوية الشريفة، والحق أن هذا المعجم مرجع مفيد لا يستغني عنه، طالب علم، ولا قاصد معرفة... والله نسأل أن ينفع به مؤلفه، ومن قرأه، أو إطّلَعَ عليه... وصلّى الله على سيدنا ومولانا مُحَمّدٌ وعلى آله وصحبه وسلّم... هذا وبالله التوفيق...

عبدالعظيم علي عبدالمجيد الحميلي

عضو لجنة الفتوىٰ بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

عايشت القرآن منذ الصبا الباكر عندما أرسلت الى الكتّاب[1] لتعلم القراءة وحفظ القرآن.

وبعد ذلك داومت على قراءة ما تيسر منه كل يوم، وهي عادة ما برحت تلازمني حتى اليوم.

وتدرجت في مراقي الإنصات إليه مجوداً بأصوات القرّاء المحليين في قريتنا وما حولها، وبأصوات القرّاء العظام في الإذاعة[2]؛ فنمت لديّ حاسة التذوّق للأداء المتمكن، والمقدرة على تقييم الأصوات ومدى التزام أصحابها بأحكام التجويد.

وأورثتني معايشة القرآن بنظمه الفريد الخلاب وبتعبيراته المعجزة الأخاذة، شغفاً بالعربية وولعاً بها. فعكفت على دراسة نحوها الزاخر بحره، وعلى قراءة ما تصل إليه يدي من آثار أدبائها وكتّابها.

وفي الجامعة تخصصت – عن ميل وهوى – في درس الأدب الإنجليزي ولغته، وفي الترجمة. وهكذا جمعت بين حبين: حب العربية وحب الإنجليزية، وهما حبّان استغرقا مني كل الوقت والاهتمام. ولقد وجدت أنهما توأمان متشابهان، ولِمَ لا؟ لقد انبثقتا – هما وكل اللغات – عن أصل واحد وهو: تلبية حاجة الإنسان للتعبير عن نفسه.

كما ألجأني عملي في الترجمة الى التعامل اليومي مع عشرات المعاجم الإنجليزية والعربية. ووجدت أن المعاجم العربية قليلة قليلة، بينما المعاجم الإنجليزية كثيرة كثيرة. ووجدت كذلك أن المعاجم المتخصصة باللغة العربية لا وجود لها تقريباً بينما المعاجم الإنجليزية المتخصصة تغطي كل فروع العلم والفن والمعرفة؛ بل وهناك معاجم، للتعبيرات اللغوية الإنجليزية أقتني منها العديد. وهناك معجم للتعبيرات والمقتطفات الشيكسبيرية أي التي

---

(١) الكتاب: مكان لتحفيظ الصبيان القرآن وتعليمهم القراءة والكتابة.

(٢) رحم الله قراءنا العظام: محمد رفعت، عبدالباسط عبدالصمد، محمود علي البنا، كامل يوسف البهتيمي، مصطفى اسماعيل، منصور الشامي الدمنهوري، محمد الصيفي ومحمد صديق المنشاوي. وليت ذويهم يحرصون على جمع تراثهم وتسجيله وحفظه.

وردت في مسرحيات شكسبير وشعره.

كان القرآن الكريم محيط المعارف والأسرار. مدده لا ينفد، ومن منهله يمكن للعاشقين أن يغترفوا مادة قشيبة لمعاجم قرآنية متخصصة: بعضها في العقيدة، وبعضها في الأحكام، وثالث في التعبيرات القرآنية وغيرها وغيرها.

وهكذا اجتمعت عليّ الأسباب، فتبلورت لديّ فكرة تصنيف معجم للتعبيرات القرآنية.

رحت أقرأ كل يوم، وبكل تمّعن مستطاع، ربعاً من القرآن وأُحاول أن أستخرج منه ما أدرجه في المعجم من تعبيرات. ولم يكن الأمر سهلاً. فالقرآن كله بلاغة تسلب الألباب، والنفس لا تطاوعني أن أدع هذا التعبير أو ذاك؛ فأُعاود القراءة والتأمل، ومع المعاودة أُضيف إلى ما كنت أدرجته من قبل أو أعدل عنه. وظللت على هذه الحال في التأرجح والتردد زماناً؛ وأخيراً استخرت الله واستقر عزمي - بفضله وتيسيره تعالى - على التعبيرات الواردة في هذا المعجم، وتناهز عدتها خُمسَمائة وسبعين. وحسبي أني بذلت في هذا العمل كل ما في الوسع من جهد وطاقة.

الخاصية الأولى للتعبير أن تأثيره ومعناه يتأتيان من مبناه، أي من كلماته ككل، مجتمعة لا منفردة. ففي قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ «الاعراف: ٢٦»، أضاف اللباس الى التقوى، والتقوى هي الخشية من الله المستتبعة للأعمال الصالحة، وإضافة اللباس إليها لأنها تقي صاحبها النار، كما يقي اللباس صاحبه من الحر والبرد. فإذا اتقى العبد ربه، ستره من المعايب في الدنيا ومن العقوبة في الاخرة.

والتعبير يتميز بالعمومية بمعنى إمكان تعميمه وإطلاقه على حالات وأوضاع غير التي وردت في القرآن: مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴿٢٠٦﴾﴾ «البقرة: ٢٠٦»، فيمكن أن يقال في المزهو بنفسه عندما تحمله الأنفة والحمية على مداومة الخطأ وعدم الامتثال للنصح.

وهناك بلاغة التعبير بما فيه من مجاز وإيجاز يستلفتان الانتباه بشدة. ففي التعبير: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ «البقرة: ٢٢٣» تشبيه لأن النساء مزدرع الذرية أي مكان زرعها، ففرج المرأة كالحرث أي الأرض المحروثة المعدة للزراعة، والنطفة كالبذرة، والولد كالنبات. ورتب على ذلك ألا تؤتى النساء إلا في الفرج وحرم الإتيان في غيره.

وهناك تعبيرات لا أثر فيها للكنايات أو الاستعارات، وإنما هي كلمات عادية وضع بعضها إلى جوار بعض بطريقة فريدة جعلت منها تعبيراً بالغ الأثر والتأثير. خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ «الإسراء: ٥٣». الجناس والجوار بين «قل»

و«يقولوا» لا يثيران ضجراً، وإنما ترتاح إليهما النفس وتستعذبهما؛ وإضافة ضمير المتكلم (الياء) إلى (عباد) تنزل على القلب برداً وسلاماً؛ ويتبع ضمير الغيبة (هي) اسم الصلة (التي) وتأتي في أثرهما صيغة أفعل التفضيل (أحسن) ليتألق الثلاثة بهاء ورواء تصفو بهما الأرواح من كدر الإحَن والثارات - تُرى أي سلام يظلل حياة العباد لو توخى كل منهم قول «التي هي أحسن»؟.

وتشيع على الألسنة بعض التعبيرات القرآنية، لكن مفاهيمها في الأذهان مشوشة أو خاطئة - ومن ثم لزم شرحها على وجوهها الصحيحة. ففي التعبير: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ «البقرة: ١٥٩»، تعني التهلكة ما يتأتى نتيجة التقاعد عن الجهاد في سبيل الله، فنص الآية: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فالتقاعد عن الجهاد وعن الاستعداد له يؤدي إلى طمع العدو في ديار الإسلام عندما يجد في المسلمين الوهن والضعف والركون إلى متع الحياة.

هذه التعبيرات الخمس أوردتها كأمثلة وحسب، ولست أقصد من تقديمها أن أستقصي ما وراء كل تعبير من أسرار وأسباب - فلكل تعبير قرآني خصوصيته ودواعيه.

إن دراسة هذه التعبيرات والوقوف على شيء من أسرار بلاغتها وإعجازها - بعد تأصيل معاني كلماتها وبيان اشتقاقها - إنما تستتبعه فوائد جمَّة، منها اكتساب المعارف والمهارات اللغوية من صرف ونحو وإعراب وبلاغة وترقية للأُسلوب وغيرها، فضلاً عن المعلومات الفقهية والدينية والتاريخية وغير ذلك مما يرد في ثنايا شرح التعبير وتحليله، ذلك الذي يمتد ليشمل الآية، بل ويمتد ليشمل السياق ولربما شمل هذا السياق أكثر من آية - إنها سياحة إيمانية في ربوع القرآن الكريم.

أوردت التعبيرات في المعجم حسب ترتيب سورها في المصحف بادئاً بسورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، وهكذا إلى سورة الناس.

وألحقت بالمعجم كشافين. أولهما: كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأولى من كل تعبير. فالتعبير: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ يأتي تحت حرف النون.

وثانيهما: كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأساسية في كل تعبير. فالكلمة الأساسية في التعبير: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ هي التهكلة، فيطلب التعبير في حرف التاء. ومن الممكن أن يكون في التعبير كلمتان متساويتان في الأهمية، ففي التعبير ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ تتساوى في الأهمية كلمتا «العزة» و«الإثم»، وهنا يشير الكشاف إلى هذا التعبير مرتين: مرة في حرف العين أي الحرف الأول من كلمة

غزة، ومرة فى حرف الهمزة أى الحرف الأول من كلمة إثم - على أن تحديد الكلمة الأساسية فى كل تعبير إنما يخضع للاجتهاد الشخصى ، ومن ثم تباين الرأى بشأنها.

وفى الكشافين أوردت أمام كل كلمة رقم التعبير الذى جاءت فيه . ولم أرد الكلمات إلى مصادرها وفقا لما هو متبع فى معجمنا العربى ، وإنما جعلت ترتيبها على حسب مبناها وفقا لما هو متبع فى المعجم الإنجليزى راجيا أن يكون فى ذلك تيسير على الباحث.

وإنى أتوجه بالدعاء إلى الله أن ينفع به ، وأن تشيع التعبيرات القرآنية وتدور على الألسنة، فتظل رَطْبةً نَدِيَّةً بذكر الله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ٢٨ - الرعد.

محمد محمد عتريس إبراهيم

القاهرة فى ١٥ شعبان ١٤١٨ هـ
١٥ ديسمبر ١٩٩٧م

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ١

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ١ ـ الفاتحة (١)

ذهب الجمهور إلى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة (١) ، ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ، فلذلك لايثنى ولايجمع كمايثنى الرحيم ويجمع . وهو ممنوع من الصرف ، كما قال الزمخشرى .

والرحمن : المنعم بجلائل النعم ، وهو الرحمن بما ستر فى الدنيا وأفاض من الخير على خلقه .

والله وحده المختص بصفة الرحمن ، إذ يمتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن ، ولايجوز أن يسمى به غيره . قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ (٢) فعَادَل الإسم الذى لا يشركه فيه غيره (وهو لفظ الجلالة)، وقال : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٣) فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز .

والرحيم صيغة مبالغة من الرحمة على وزن فعيل . والرحيم هو المنعم بدقائق النعم، وهو رحيم بما غفر فى العقبى وجاء بالفضل على عباده .

ويصح إطلاق صفة الرحيم على المخلوقات . قال تعالى فى وصف النبى ﷺ : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) وقال فى وصف المؤمنين : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ ﴾(٥) .

والرحمن الرحيم صفتان لله ـ تعالى ـ وصيغة كلتيهما تدل على الكثرة ، وقد جمع بينهما لتأكيد كثرة رحمته جل وعلا . وفى التوكيد أعظم الفائدة وهو كثير فى كلام العرب ، قال محمد بن يزيد : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين ، ووعد لا يخيب أمله .

وأصل الرحمة فى اللغة : رقة القلب وانعطافه بالشفقة . وهذا المعنى ينطبق على

---

(١) ومما يدل على الاشتقاق ماأخرجه الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله عز وجل : أنا الرحمن خلقت الرحم واشتققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» .

(٢) ١١٠ ـ الإسراء .
(٣) ٤٥ ـ الزخرف .
(٤) ١٢٨ ـ التوبة .
(٥) ٢٩ ـ الفتح .

المخلوقات ، وإطلاقه على الله تعالى إنما يكون باعتبار لازمه الذى يليق به تعالى ، وهو التفضل والإحسان .

والرحمن الرحيم هو الذى وسعت رحمته كل شىء . فصفة الرحمن الرحيم تستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها . وهى تتكرر فى فاتحة الكتاب : فى البسملة ، وفى آية مستقلة هى الآية الثالثة ، لتؤكد السمة البارزة فى تلك الربوبية الشاملة ، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه ، وبين الخالق ومخلوقاته ـ إنها صلة الرحمة والرعاية التى تستجيش الحمد والثناء ، وتقوم على الطمأنينة ، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

وقيل فى تفسير « الرحمن الرحيم » : أرحم بالعبد من نفسه وأولى بالناس من أنفسِهم .

وقال الشيخ الباقورى : صفة الرحمن ، كما تقتضى صيغة « فعلان» ، تقتضى بلوغ غاية الصفة حتى لا يكون وراءها شىء منها . وصفة الرحيم ، كما تقتضى صيغة «فعيل» ، تقتضى لزوم الصفة للموصوف بها لزوم الغرائز والسجايا التى لا تحول ولا تّزول . فإذ قد جمع الله ـ تعالى ـ لذاته العلية هاتين الصفتين فى البسملة ، وفى كثير من آيات الكتاب العزيز ، فقد وعد الله عبادة بأنهم داخلون فى نطاق رحمة بالغة غايةَ مداها ، وملازمة للموصوف بها فى الوقت نفسه ملازمة السجايا والغرائز ، حتى لا تنفكّ عنه فى حال . فاَعرف ذلك وتمثله وأنت تقرأ كتاب الله ، ثم تمثله كلما أصابك عَنَت ، أو أحاطت بك مشقةٌ ، تعلم أنك من الله ـ تعالى ـ فى لطف لا يتناهى ، ورحمة لايكاد يبلغها وصف .

﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٢ ـ الفاتحة (١)

العالَمون (بالرفع) والعالَمين (بالنصب والجر) : جمعُ عالَم ، ولايُجمع شيء على وزن فاعَلَ بالواو والنون إلا هذا .

والعالَم مشتق من العلامة لأنه علم دالٌّ على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته ، كما قال ابن المعتز :

فيا عجبا كيف يعصى الإلهَ ... أم كيف يجحده الجاحدُ
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحدُ

وجاء فى « لسان العرب » : معنى العالمين كل ما خلق الله ، كما قال تعالى : ﴿ وهو رب كل شىء ﴾ ، وقال : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ « ٢٣ ، ٢٤ ـ الشعراء» وقال قتادة فى تفسير « رب العالمين» : رب الخلق كلهم .

وقال ابن عباس : رب الجن والإنس . وقال الأزهرى : والدليل على صحة قول ابن عباس قول الله عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ « ١ ـ الفرقان » ، وليس النبى ﷺ نذيرا للبهائم ولا الملائكة ، وهم كلهم خلق الله ، وإنما بعث محمدا نذيرا للجن والإنس .

وجاء فى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » توضيح لذلك : العالَم كل جنس من الخلق ، وجُمع جمع العقلاء تغليبا للناس على غيرهم ، لكون الناس فى جملة الكائنات ، والإنسان إذا شارك غيره فى النظر غُلب عليه . أو أنه جُمع جمع العاقلين لأن المراد به أصناف الخلائق من الملائكة والناس دون غيرهما .

وروى عن وهب بن مُنبِّه قال : لله تعالى ثمانية عشر ألف عالَم ، الدنيا منها عالم واحد . وما العمران فى الخراب إلا كفُسطاط فى صحراء (الفسطاط : بيت يتخذ من الشَّعَر) .

وقال الشيخ أحمد حسن الباقورى فى كتابه « معانى القرآن بين الرواية والدراية» فى تفسير كلمة «العالمين » : إنها كلمة فاجأت العرب من جانبين : جانب الجمع ، وجانب تذكير الجمع ؛ إذ كان العرب لايعرفون إلا عالما واحدا هو العالم الذى كانوا يعيشون فيه . . وقد جاء علم الفلك الحديث بمراقبه ومراصده وتحليلاته فبيّن أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ، ليست فى هذا العالم المجرى شيئا مذكورا . ثم بيّن علم الفلك أن هناك عوالم مجرِّية أخرى مترامية المطارح لا تعد بالمئات ولا بالألوف وقد تعد بالملايين .

فحرفية اللفظ القرآنى وحقيقة الجمع الذى أورده القرآن العظيم ، يقتضيان أن تكون هناك

عوالم أخرى فيها أرض تدور حول شمس ، يتحقق فيها ما هو متحقق لنا فى هذا العالم الذى جمعه الله ـ سبحانه ـ جمع تذكير فى أول آية من كتابه العزيز [1] ينبه الناس بذلك إلى ما فى الكلمة الكريمة من أسرار ، فيطلبوها . . وهذا السر هو سر وجود الحياة فى أرض غير أرضنا فى عالم غير عالمنا .

وإذا شئت الاستزادة من هذا المعنى ، فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ « ٢٩ ـ الشورى » .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد من الدواب فى السماء إنما هم الملائكة . . وإطلاق الدابة على الملك إطلاقا غير سائغ ؛ ولذلك ذهب الإمام القاسمى إلى أن هذه الدواب ليست هى الملائكة ، بل هى حيوانات كحيوانات الأرض ، وربما كان بين هذه الحيوانات حيوان عاقل من نوع الإنسان .

﴿ رب العالمين ﴾ : الرب هو المالك المتصرف ، ويطلق فى اللغة على السيد[2] والمصلح[3] . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة ، فمتى أدخلت الألف واللام على رب ، اختص الله تعالى به لأنها للعهد ؛ وإن حذفتا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد ربُّ الدار . قال بعض العلماء : إن هذا هو اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الداعين به ، وتأمل ذلك فى القرآن ، كما فى آخر آل عمران ، وسورة إبراهيم وغيرهما ؛ ولما يشعر به هذا الوصفُ من الصلة بين الرب والمربوب ، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال [4] .

والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملاً [5] . إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه . وكل العوالم والخلائق تُحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين . والربوبية المطلقة التى تشمل العالمين جميعا هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى العقيدة؛ لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد ، تقر له بالسيادة المطلقة ، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، وعنت الحيرة بين شتى الأرباب .

والحمد لله هو الشعور الذى يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله ، فإن وجود الإنسان ابتداء ليس إلا فيضا من نعمة الله تستجيش الحمد والثناء . وفى كل لمحة وفى كل خطوة تتوالى آلاء الله ونعمه وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان . ومع هذا يبلغ فضل الله سبحانه على عبده المؤمن أنه إذا قال : الحمد لله ، كتبها له حسنة ترجح كل الموازين .

(١) البسملة ليست آية من سورة الفاتحة فى قول مالك ، وعليه تكون ﴿الحمد لله رب العالمين ﴾ هى أول آية فى القرآن الكريم .

(٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ « ٤٢ ـ يوسف» ، وفى الحديث : « أن تلد الأمة ربتَها » أى سيدتها .

(٣) يقال لمن قام بإصلاح شىء وإتمامه ، قدربَّه يربُّه فهو ربٌّ له .

(٤) قيل إن كلمة رب مشتقة من التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله بحسب استعداده شيئا فشيئا ، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم ﴾ فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

(٥) الهمل : المهمل المتروك ليلا ونهارا بلا رعاية وبلا عناية .

٣ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ٥ ـ الفاتحة (١)

استعان فلانٌ فلانًا واستعان به : طلب منه العونَ أى المساعدة.

« إياك » : إيَّا ضمير منفصل للمنصوب ، واللواحق التى تلحق به وهى الكاف والهاء والياء فى : إياك وإياه وإياى لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب.

﴿ وإياك نستعين ﴾ : قدم المفعول به للاهتمام مع إفادة القصر والإختصاص ، والمعنى : ومنك وحدك يا الله أطلب العون . وشأن العرب تقديم الأهم ؛ وأيضا قدم المفعول به لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولانعبد إياك ونستعين إياك ، وإنما يتبع لفظ القرآن (١).

﴿ إياك نعبد ﴾ : العبادة فى اللغة من الذِّلة ، يقال : طريق مُعَبَّد وبعير معبد أى مُذَلل . والعبادة فى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ، وتشمل عمل القلوب وعمل الجوارح وتشمل فعلَ المأمور به وترك المنهى عنه . فلا يتحقق معنى العبادة إلا بذلك كله . والمعنى : نخصك وَحدك يا ربنا بالعبادة.

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ : قدمت العبادة على طلب العون (الاستعانة) لأنها وسيلة الإجابة. وتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة . ﴿إياك نعبد ﴾ تبرؤ من الشرك. ﴿ وإياك نستعين ﴾ تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل . وهذا المعنى موجود فى غير آية من القرآن . قال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾، وقال : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾.

تحوَّل الكلام عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب «إياك» ، وهذا يسمى الالتفات فى علم البيان، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم. وذلك على عادتهم فى الافتنان فى الكلام والتصرف فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك تنشيطا للسامع وإيقاظا لقدرته على الاصغاء بدلا من إجرائه على أسلوب واحد.

---

(١) انظر « تفسير القرطبى ».

يضاف إلى ذلك أنه لما ذكر الحقيق بالحمد فى قوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وأجرى عليه تلك الصفات العظام : ﴿ الرحمن الرحيم . ملك يوم الدين﴾ ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن جدير بالثناء والعبادة والاستعانة فى المهمات والملمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات. فيقول المصلى : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة ، لانعبد غيرك ولا نستعينه.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل إذا قال العبد ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم﴾ قال الله : أثنى على عبدى ، فإذا قال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله : مَجدَّنى عبدى ، وإذا قال ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

٤ ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ٣ - البقرة (٢)

إقَامَةُ الصلاة : أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها . وقيل : يقيمون : يديمون ، وأقامه : أدامه [١] .

والصلاة أصلها فى اللغة : الدعاء [٢] .

وقد قيل : إن الصلاة اسم عَلَم وُضِع لهذه العبادة ، فهى لا اشتقاق لها ، وهذا قول الجمهور .

والصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض . ومن شروطها : الطهارة وستر العورة .

وقد علمنا النبى ﷺ فيما رواه مسلم عن أبى هريرة فى الرجل الذى علمه النبى الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : « إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، ثم كبِّر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها » . والجلوس الأخير فرض ، والتشهد فرض ، والسلام فى نهاية الصلاة فرض . وأصل فرضها (أى الصلاة) مُجْمل يفتقر إلى البيان ، وقد بينه لنا النبى ﷺ ، عندما قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

وتكبيرة الإحرام فرض وركن من أركان الصلاة ، وهو الصواب وعليه الجمهور ، لما جاء فى الحديث الصحيح عن عائشة وعن على قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » خرجه أبو داود والترمذى ورواه سفيان الثورى . قال القرطبى : وهذا الحديث أصل فى إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزىء عن الطهارة غيرها باتفاق .

قال القرطبى : هذه جملة من أحكام الصلاة ، وفيما يلى من سورة البقرة يأتى ذكر الركوع ، وصلاة الجماعة ، والقبلة ، والمبادرة إلى الأوقات ، وبعض صلاة الخوف . ويأتى ذكر قصر الصلاة ، وصلاة الخوف فى سورة النساء . والأوقات فى سور هود وسبحان والروم . وصلاة الليل فى سورة المزمل . وسجود التلاوة فى سورة الأعراف . وسجود الشكر فى سورة ص .

والقلب الذى يسجد لله حقا ، ويتصل به على مدار الليل والنهار خمس مرات كل يوم ، يشعر أنه موصول السبب بموجد الوجود ، ويجد لحياته غاية أعلى مما فى الأرض وحاجات الدنيا القصيرة الأمد ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق - وهذا كله مصدر قوة للضمير ، كما أنه مصدر تحرج وتقوى .

---

(١) ويقال : قام الشىء أى دام وثبت ، وقام الحق أى ظهر وثبت .

(٢) لما ولدت أسماءُ ابنَها عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبى ﷺ ؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلى عليه ، ، أى دعا له . وقال تعالى : « وصلِّ عليهم » أى ادع لهم .

٥ ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٧ ـ البقرة (٢)

خَتَم يختم خَتْمًا وختامًا على الطعام والشراب وغيرهما : غَطَّى فُوَّهةَ وعائه بطين أو شمع أو غيرهما حتى لا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء . فالختم معناه التغطية على الشيء ، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه خَتَم الكتابَ والبابَ وما يشبه ذلك حتى لا يُوصَلَ إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه . فالختم يكون محسوسا .

وقد يكون الخَتم معنًى ، يقال : ختم على قلبه أى جعله لا يفهم شيئا كأنه غطّاه . فالختم على القلوب : عدم الوعى عن الحق ـ سبحانه ـ مفهوم مخاطباته (١) والفكرَ فى آياته . والختم على السمع : عدمُ فهمهم للقرآن إذا تُلى عليهم أو دُعُوا إلى وحدانيته ـ « ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم » فلا يعقلون ولا يسمعون .

فالإنسان إذا تمادى فى اعتقاد الباطل أو ارتكاب المحظور ، دون تلفت إلى الحق ، فإن ذلك يورثه تمرُّنًا على استحسان المعاصى ، وكأنما يُختم بذلك على قلبه ـ وإنما خص القلبَ بالخَتم لأنه محل الفهم والعلم . وهو فى الاصل مصدرُ قلبتُ الشيء أقلبه قلْبا ، وقلبت الإناءَ : رددته على وجهه ؛ ثم نُقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذىَ هو سيد الجوارح لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سُمى القلبُ إلا من تقلبه ، فاحذر على القلب من قلب وتحويل . روى ابن ماجة عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل القلب ريشة تقلبها الرياح بفلاة » ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول «اللهم يا مثبت القلوب ثَبِّتْ قلوبنا على طاعتك » .

والجوارح ، وإن كانت تابعة للقلب ، فقد يتأثر القلب بأعمالها للارتباط بين الظاهروالباطن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه . » وقال عليه السلام : «إن فى الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

والقلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر ؛ قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾(٢) ،

---

(١) أى عدم فهم كلام الله .

(٢) ٣٢ ـ الفرقان .

وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [1] يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [2] أى عقل.

والوقف التام على قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم» فالختم على القلوب والسمع. و«غشاوة» رفع على الابتداء، وما قبله «وعلى أبصارهم» خبره، فالغشاوة على الأبصار.

وفى هذه الآية دليل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال؛ وإنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل، فالذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى فلا يكون للإيمان إليها مَسلك ولا الكفر عنها مخلص.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ٢٤ ـ الشورى، وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ٢٣ ـ الجاثية.

«سمعهم»: السمع مصدر سمعت، والسمع أيضا اسم للجارحة والمسموع بها سميت بالمصدر، فالختم على قلوبهم وأذنهم.

والتعبير موجود أيضا فى ٢٣ ـ الجاثية.

---

(١) ١ ـ الشرح.
(٢) ٣٧ ـ ق.

٦ ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٧ ـ البقرة (٢)

الغشَاوة والغَشاء : الغطاء .

غَشَّى الشيءَ : جعل عليه غشاء يُغَطِّيه . يقال : غشَّى الله على بصره .

وجمع غشاوة : غَشَاوَى ، قاله الفراء .

« وعلى أبصارهم غشاوةٌ » أى عدم هداية الأبصار للنظر فى مخلوقات الله ، وعجائب مصنوعاته . فالغشاوة هنا غشاوة التعامى عن آيات الله ودلائل توحيده(١) .

« غشاوةٌ » : مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة : « على أبصارهم » : خبر مقدم . والواو فى قوله : « وعَلَى » عاطفة جملة على جملة . والوقف على هذا : وعلى سمعهم ، فالختم على القلوب والسمع ، والغشاوة على الأبصار .

وقال بعض المفسرين : الغشاوةُ على السمع والأبصار والوقف : على قلوبهم .

وقرئ : غشاوةً بالنصب على معنى : وجعل ، أى جعل على أبصارهم غشاوةً . وقراءةُ الرفع أحسنُ .

---

(١) قال الحارث بن خالد المخزومى .

صَحِبتك إذْ عَينى عليها غِشاوةٌ ... فلما انْجلَت قَطعت ُنَفسى ألومُها

٧ ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ١٠ ـ البقرة (٢)

« فى قُلوبهم مَرَضٌ » : مبتدأ مؤخر وخبر مقدم . والمرض كلمة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم ، وَذلك إما أن يكون شكا ونفاقا . وإما جحدا وتكذيبا . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق ، والرعاية والتأييد [١] .

قال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها .

وقال حسنين مخلوف : سمى النفاق الذى فى قلوبهم مرضًا لكونه مانعا من إدراك الفضائل ؛ كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل . أو لكونه مانعا من تحصيل السعادة الأخروية أو لمَيْل النفس به إلى الاعتقادات الفاسدة ميلَ المريض إلى الأشياء المُضرَّة .

قال الجُنَيْدَ : علَل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علَل الجوارح من مرضَ البدن .

« فزادَهُمُ اللهُ مَرضا » أى وكلهم إلى أنفسهم ، وجمعَ عليهم همومَ الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين ولهم عذاب أليم بما يَفْنَى عما يَبْقَى . وقيل : هو دعاء عليهم ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المرض الشك الذى دخلهم فى الإسلام ، وقرأ « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم [٢] » أى شرا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم .
التعبير موجود أيضا فى مواضع عديدة .

---

(١) قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسانُ عن حَدِّ الصحة ، من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر

(٢) من الآيتين ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .

٨ ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾١٦ - البقرة (٢)

أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بيعُك ، وخسرت صفقتُك ؛ وقولهم : ليلٌ قائم ، ونهارٌ صائم ؛ والمعنى : ربحت وخسرت فى بيعك ، وقمت فى ليلك وصمت فى نهارك . وعلى هذا فإن التعبير « فما ربحت تجارتهم » معناه : فما ربحوا فى تجارتهم .

« فما ربحت تجارتهم » : التعبير مجازى ويعنى ضلالَ سعيهم وخسرانَهم .

كما أن الشراء فى قوله « اشْتَرَوُا الصلالةَ بالهدى » مستعار . والمعنى استحبوا الكفرَ على الإيمان [1] ، فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه .

---

(١) كما قال : « فاستَحبُّوا العَمَى على الهدى » ١٧ فصلت .

٩ ﴿ الَّذين ينقضُون عهْدَ اللَّه منْ بعْد ميثاقه ﴾

﴿ الَّذين ينقضُون عهْدَ اللَّه منْ بعْد ميثاقه ويقطعُون ما أمرَ اللَّهُ به أن يُوصل ويُفْسدُون في الأرْض أُولَئك هُمُ الْخاسرُون ﴾ ٢٧ـ البقرة (٢)

نَقَضَ الشيءَ ينقضه نقْضًا : أفسده بعد إحكامه . ونَقَضَ البناءَ : هدمه ونقض الحبل أو الغَزْل : حل طاقاته . ونقض العهد : نبذه وتخلى عنه .

الميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مفعال من الوثاقة وهى الشدة فى العقد والربط ونحوه .

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقون بنقضه . فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه وعلى لسان رسله ؛ ونقضُهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون : نزلت الآية فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم . وعهد الله الذى نقضوه هو : العمل بما فى التوراة ، واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم . ونقضهم ذلك هو جحودُهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد أن أعطوا الميثاق ليُبَيِّنُنه للناس ولايكتمونه . فأخبر تعالى أنهم نبذوا العهد وراء ظهورهم ـ وهذا اختيار ابن جَرير ومقاتل .

الصفات التى وردت فى هذه الآية وردت أيضا في سورة الرعد : ﴿ وَالَّذين ينقضُون عهْد اللَّه منْ بعْد ميثاقه ويقطعُون ما أمر اللَّهُ به أن يُوصل ويُفْسدُون في الأرْض أُولَئك لهُمُ اللَّعْنةُ ولهُمْ سُوءُ الدَّار ﴾ « الآية ٢٥ » .

١٠ ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٢٧ـ البقرة (٢)

القَطْع معروف ، والمصدر فى الرحِم : القطيعة . يقال : قَطَع رَحِمَه فهو رجل قُطَعَة مثل هُمزَة .

« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، قيل المراد به صلةُ الأرحام والقرابات كما فسره قتادة، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ٢٢ ـ محمد ، تقطيع الأرحام كناية عن ترك المودة والتواصل وفساد العلاقات .

وقيل : أمر أن يوصلَ القولُ بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا .

وقيل : أمر أن يوصلَ التصديقُ بجميع أنبيائه ، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم .

وقيل : المراد أعم من ذلك . فالإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده ، فهى عامة فى كل ما أمر الله تعالى بوصله ، والرحم جزء منه ـ هذا قول الجمهور .

١١ ﴿ وَكُلا منْهَا رَغداً حَيْثُ شئْتمَا ﴾

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٣٥ـ البقرة (٢)

« رغدًا : منصوب على الصفة لمصدر محذوف ، أي : كُلاَ منها أكْلاً رَغَدًا أى أكلاً طيبًا .

رَغُدَ العيش يرغُد رَغَدًا : اتّسع ونَعُمَ وطاب ، فهو رَغْدٌ وراغدٌ .

قرأ الجمهور « رغدًا » بفتح الغين ، وقرأ النخعىّ وابن وثاب بسكونها . والرغْد من العيش : الكثير الواسع الذى لا يتعَب فيه . ويقال : عيشة رَغَد أى واسعة طيبة .

والتعبير موجود أيضا فى الآية ٥٨ من نفس السورة (البقرة) :

« وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغدًا وادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا حطةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » .

١٢ ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾

﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ ٤١ ـ البقرة (٢)

يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى ، بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية . فالدنيا ومدتها وعيشها نَزْرٌ (١) لا خطر له ؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوَضًا فانطلق عليه اسمُ الثمن وإن لم يكن ثمنا .

وحدث عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى :

« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » إن آياته كتابُه الذى أنزله إليهم ، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتُها .

وقيل معناه : لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع فى الناس ، بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الزائلة عن قريب .

---

(١) يقال : شىء نَزْر : قليل تافه .

١٣ ﴿ أَتأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ٤٤ ـ البقرة (٢)

البرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . وأصل كل بر : الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان أحبار اليهود وعلماؤهم يأمرون الناسَ بالطاعة والكف عن المعصية ولايفعلون ذلك . قال ابن كثير : كان أهل الكتاب والمنافقون يأمرون الناس بالصوم والصلاة ، ويَدَعون (أى يتركون) العملَ بما يأمرون به الناس ، فَعَيَّرهُم الله بذلك ، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة .

« أتأمرون الناسَ بالبُر وتنسون أنفسكم» استفهام معناه التوبيخ ، فالله ـ تعالى ـ ذَمَّهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه . وليس المراد ذمَّهم على أمرهم بالبر مع تركهم ، فإن الأمر بالمعروف واجب على العالم ؛ ولكن الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم .

فكلٌّ من الأمر بالمعروف ، وفعله ، واجبٌ لا يَسقُط أحدهما بترك الآخر .

وفى شدة عذاب من هذه صفَتَه مارواه أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ليلة أسْرىَ بى مررتُ على ناس تُقرضُ شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت يا جبريلُ من هؤلاء قال هؤلاَء الخطباءُ من أهل الدنيا[1] يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » .

وروى ابن عساكر وابن جرير الطبرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بمَ دخلتمُ النارَ؟ فو الله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل » . وروى الإمام أحمد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله يعافى الأميِّين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء ». وقدورد فى بعض الآثار : « إنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ـ ليس من يعلم كمن لا يعلم» . وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين بعلمون والذين لا يعلمون » .

والتوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر وليس بسبب الأمر بالبر . قال أبو الأسود الدؤلى :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم

---

(١) كذا فى مسند الإمام أحمد بن حنبل .

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبى عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير فسكت حتى طال سكوته ، فناداه رجل قائلا : تُرى أن تقول فى سكوتك شيئًا ؟ فأنشا يقول :

وغيرُ تَقيٍّ يأمر النــاس بالتقــى   طبيبٌ يداوى والطبيبُ مريضُ

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

لكن علينا أن نتذكر ما قاله سعيد بن جبير : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شىء ، ما أمر أحدٌ بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصَدَق ، من ذا الذى ليس فيه شىء ؟

« أفلا تعقلون » أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم ؟ والعَقْل : المنع ؛ ومنه عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة ؛ ومنه العَقل للديَّة لأنه يمنع ولىَّ المقتول عن قتل الجانى ؛ ومنه يقال للحصن : معقل .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ٢ ، ٣ ـ سورة الصف .

١٤ ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ٤٩ ـ **البقرة (٢)**

سَامَه الأمر سومًا : كلفه إياه وألزمه به .

وسامه خسفا أوذلا : جشمه إياه وأراده عليه [١] .

« يسومونكم سوءَ العذاب » أى يجشمونكم (يكلفونكم) ، إياه . جاء فى « تفسير القرطبى » : يسومونكم معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه (أى سوء العذاب) . . . . . وقيل : يديمون تعذيبكم ؛ والسَّوم : الدوام ، ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعى . قال الأخفش : وجملة « يسومونكم سوءَ العذاب » فى موضع رفع على الابتداء ، وإن شئت كانت فى وضع نصب على الحال أى سائمين لكم .

وجاء فى « صفوة البيان لمعانى القرآن « للشيخ حسنين مخلوف :

« يسومونكم سوءَ العذاب » أى يبغون لكم أشدَّ العذاب وأفظعه ، من السَّوْم ، وهو مطلق الذهاب ، أو الذهاب فى ابتغاء الشىء . يقال : سامت الإبل فهى سائمة ، أى ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة : إذا طلبها وابتغاها .

والسُّوءُ : كل ما يَغُم الإنسانَ من أمر دنيوى أو أخروى .

وهو فى الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال : السُّوءَى .

« سوءَ العذاب » مفعول ثان ليسومونكم ، ومعناه أشد العذاب .

---

(١) قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناسَ خسفا   أبينـا أن نقـر الخسـف فينـا

١٥ ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١ ـ البقرة (٢)

« ضُرِبت عَلَيْهمُ الذلةُ والمسكنةُ» أى ألزمُوهُما وقُضى عليهم بهما ، مأخوذ من ضرب القباب . فالذلة والمسكنة جُعلتا محيطتين بهم إحاطة القبةَ بمن ضُرِبت عليه . مجازاة لهم على كفرانهم .

وأصله : ضربَ الخيمة والقبة ونحوهما : نصبها . ويقال : ضربَ الليلُ بظلامه : أقبل وخيَّم ؛ وضربَ عليه الحصارَ : حاطه به وضيق عليه . والذِّلَّة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر .

قال ابن كثير : لا يزالون (أى اليهود) مُسْتَذَلِّين ، مَنْ وَجَدَهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار ؛ وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون . قال القرطبى : فلا يوجد يهودى وإن كان غنيا خاليا من زىٍّ الفقر وخضوعه ومهانته .

قال الحسن وقتادة : الذلة فرض الجزية . وقال الزجاج : المسكنة : الخضوع ؛ وهى مأخوذة من السكون أى قلّل الفقر حركته .

قال حسنين مخلوف : وجملتهم (أى اليهود) فى غالب الأمر فى ذلّة ومسكنة . أوْهم مستحقون للذلة والهوان ؛ بسبب ارتكاب المعاصى والاعتداء على حدودَ الله فى كل شىء ، والإفساد فى الأرض وجحود الحق عنادا ، وقتْل الأنبياء ظلما ، وبما طبعوا عليه من الكذب والنفاق والمكر السىء والخداع ، وعبادة المال وشدة الحرص على جمعه والشُّح به .

وأما إحاطة المسكنة بهم فَلِمَا يبدو عليهم من الاستكانة والخضوع عند الضعف ، والخوف من القهر .

والتعبير موجود فى ١١٢/ آل عمران .

١٦ ﴿ وبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١ ـ البقرة (٢)

بَاءَ بالشيء يَبُوءُ بَوْءًا وبَوَاءً : رجع . وباء به : احتمله .

قال ابن جرير الطبرى : يعنى بقوله « وباءوا بغضب من الله » انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : بَاءَ إلا موصولاً إمَّا بخير وإما بشَر . . ومنه قوله تعالى : «إنى أريد أن تبوءَ بإثمى وإثمك» [1] يعنى تنصرف متحملهما وتَرجع بهما ، قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام : إذا رجعوا (أى اليهود) منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سُخط .

١٧ ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ٦٣ ـ البقرة (٢)

« بقوةٍ » أى بجد واجتهاد . قاله ابن عباس وقتادة والسدى . وقيل : بنية وإخلاص .

وقيل : بقوة أى بكثرة درس .

وقال مجاهد : القوةُ العملُ بما فيه .

«خذوا ما آتيناكم بقوة » أى فقلنا خذوا ما أعطيناكم يعنى التوراة بجد واجتهاد والعمل بما جاء به .

قال القرطبى : هذا هو المقصود من الكتب (المنزلة من عند الله تعالى) العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وحسب ، فإن ذلك نَبْذٌ لها على ما قاله الشعبى وابن عيينة . وقدروى النَّسائى عن أبى سعيد الخُدرى أن رسول الله ﷺ قال : « إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شيء منه» . فبين ﷺ أن المقصود هو العمل . . . قال تعالى : «واتبعوا أحسنَ ما أنزل إليكم من ربكم » . فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه .

والتعبير موجود فى ٩٣ ـ البقرة ، ١٧١ ـ الأعراف .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة المائدة .

١٨ ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُـزُواً قَالَ أَعُـوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُـونَ مِـنَ الْجَاهِـلِينَ ﴾ ٦٧ ـ البقرة (٢)

هَزِئَ بالشيء ومنه يَهْزأ هُزْءاً وهُزُؤاً : سخر به أو منه .

والهُزُء : اللعب والسخرية . وخفف حفص همزة « هُزُؤاً » وجعلها واوا مفتوحة .

روى ابن أبى حاتم قال : كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يُولَد له ، وكان له مال كثير . وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم يصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضُهم على بعض . فقال ذوو الرأى منهم والنُّهَى (العقل) : عَلاَمَ يقتل بعضُكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم ؛ فأتَوْا موسى عليه السلام ، فذكروا ذلك له وسألوه البيان ، فسأل موسى ربه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عما سألوه عنه ، قالوا : أتتخذنا هزوا[1] ؟ فأجابهم : « أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » لأن الخروج عن جواب السائل إلى الهزؤ جهل ، فاستعاذ موسى عليه السلام من الجهل لأنه صفة تنتفى عن الأنبياء .

---

(١) قرأ الجحدرى : أيتخذنا بالياء أى قال ذلك بعضُهم لبعض .

١٩ ﴿ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه ﴾

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤ ـ البقرة (٢)

هَبَطَ يهبط هُبوطًا : نزل وانحدر .

يقول القرطبى : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم ، لخروج الماء منها وتَرَدِّيها (سقوطها) .

قال مجاهد : ما تَرَدَّى حجرٌ من رأس جبل ، ولا تفجر نهرٌ من حجر ، ولاخرج منه ماء إلا من خشية الله ؛ نزل بذلك القرآن .

وحكى الطبرى أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله «يريد أن ينقض (١) » . وكما قال زيد الخيل :

لما أتى خبرُ الزبير تواضعت ... سور المدينة والجبال الخُشَّع

ونقل ابن كثير عن ابن أبى حاتم فى تفسير « وإن منها لما يهبط من خَشْيَة الله » قال : بكاء القلب من غير دموع العين . وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز ، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار فى قوله : « يريد أن ينقض» . قال الرازى والقرطبى وغيرهما من الأئمة : ولا حاجة إلى هذا فإن الله يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ٧٢ ـ الأحزاب ؛ وقال : « تسبح له السموات السبعُ والأرضُ ومن فيهن » ؛ وقال : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ٦ ـ الرحمن ؛ وقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ٢١ ـ الحشر ؛ وقال : «وقالوا لجلودهم لمَ شَهِدتم علينا قالوا أَنْطَقَنَا الله » .

وثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « إن حجرا كان يُسلمّ عليّ فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن » . وما روى عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، فلما تحول عنه حَنَّ أى صوّت وصاح شوقا(٢) . كما روى أن النبى ﷺ قال : «قال لى ثبير اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله » فناداه حراء : إليَّ يا رسولَ الله .

(١) « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضَّ فأقامه » ٧٧ ـ الكهف وينقَضّ ينهدم ويسقط بسرعة .

(٢) حَنَّ يحنُّ حنينًا : صوَّتَ . يقال : حنَّت الناقةُ : مدَّت صوتها شوقا إلى ولدها . وحنت الرياحُ : صوَّتت صوتا يشبه حنينَ الإبل .

٢٠ ﴿ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾٧٥ - البقرة (٢)

حَرَّفَ الكلامَ : غَيَّرَه وصَرَفَه عن معانيه .

« ثم يحرفونه » قال مجاهد والسدى : هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم .

ومثل ذلك قوله تعالى « يحرِّفون الكلم عن مواضعه » .

« من بعد ما عقلوه » أى عرفوه وعلموه - وهذا توبيخ لهم ، أى أن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد ، وهؤلاء على سننهم وطريقتهم فكيف تطمعون فى إيمانهم !

٢١ ﴿ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾٨١ - البقرة (٢)

كَسَبَ الإثمَ : تَحمَّلَه .

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتهون . بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو مَنْ وافَى (أتَى) يومَ القيامة ، وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار .

وقال ابن عباس : « بلى من كَسَبَ سيئةً » أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره ، فما لَهُ من حسنة . وفى رواية عن ابن عباس أن السيئة هنا : الشرك ، ورُوى نحو ذلك عن وائل وأبىَ العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس .

٢٢ ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٨١ - البقرة (٢)

أحاطَت الخطيئةُ بفلان : لزمته فلم يجتنبها .

« أحاطَت به خطيئة » . قال أبو هريرة وعطاء والحسن : أحاط به شركُه .

وقال الأعمش والسدى وأبو رزين : هو الذى يموت على خطاياه مَن قبل أن يتوب .

٢٣ ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ٨٣ ـ البقرة (٢)

الحُسْنُ : حالةٌ حسيَّةٌ أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشيء ورغبة النفس فيه . ويكون فى الأقوال والأفعالَ والذوات والمعانى .

حَسُنَ الشيءُ يَحْسُنُ حُسْنًا : صار حَسَنًا جميلا .

« حُسْنًا » : نُصب على المصدر . وضع المصدر موضع الاسم للمبالغة فى تأكيد الوصف مثل قولهم : رجلٌ عدلٌ ، وفى ذلك تأكيد على إحسان القول إلى الناس .

وقيل : حُسْنًا أى قولا هو حَسَنٌ فى نفسه لإفراط حسنه .

« وقولوا للناس حُسْنًا » : « كلموهم كلاما طيبا ، ولينوا لهم جانبا ، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على أن يكون هذا النهى بالمعروف أيضا . وفى هذا حض على مكارم الأخلاق . فينبغى للإنسان أن يكون قوله لينا ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر والسُّنى والمبتدع ، من غير مداهنة ، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضى مذهبَه[1] . روى الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحقرن من المعروف شيئا وإن لم تجد فالْق أخاك بوجه متطلق » وأخرجه مسلم والترمذى .

قرأ حمزة والكسائى حَسَنًا بفتح الحاء والسين ؛ قال الأخفش : هما بمعنى واحد ، مثل البُخْل والبَخَل والرُّشْد والرَّشَد[2] .

وقال الحسن البصرى : الحُسْن هو كل خلق حَسَن رضيه الله .

قال ابن كثير : ناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حُسْنًا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفى الإحسان : الفعلى والقولى . ثم أكد الأمرَ بعبادته « لا تعبدون إلا الله » والإحسان إلى الناس « وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين » بالمُتَعَيَّن من ذلك وهو الصلاة والزكاة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

---

(١) أمر الله موسى وهارون « فقولا له قولا لينا » ، فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون ، والفاجر ليس بأخبث من فرعون ـ والله أمرهما باللين معه .

(٢) حكى الأخفش : حسنى بغير تنوين على فُعلى . قال النحاس : وهذا لا يجوز فى العربية ، لا يقال من هذا شىء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى .

٢٤ ﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ٨٥ ـ البقرة (٢)

« تَظَاهَرونَ » : أصلُه تتظاهرون ، حذف الكوفيون التاء الثانية لدلالة الأولى عليها .

ومعنى تظاهرون : تتعاونون ، مشتق من الظَّهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر والسَّند . ومن ذلك قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلوبُكما وإن تَظَاهَرَا عليه فإن الله هو مولاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ٤ ـ التحريم .

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان الإفراط فى الظلم والتجاوز فيه . فأنتم تتعاونون ضدهم بالإثم والظلم .

كان الأوسُ والخزرجُ ـ وهم الأنصار ـ فى الجاهلية عُبَّادَ أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة . وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير ، وكانوا حلفاء الخزرج ، أما القبيلة الثالثة وهى بنو قريظة فكانت، حليفة الأوس . وكانت الحرب إذا نشبت قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه ، فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد قتل أخاه اليهودى من الفريق الآخر وقتل اليهودى لليهودى حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم ـ بل ويُخرج اليهودُ اليهودَ من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ـ وهذا محرم عليهم أيضا أن يخرج بعضهم بعضا من دياره . وقد قال تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » ذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمى » ، ولهذا قال تعالى : « تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » . فكل واحد من الفريقين يُظاهر حلفاءَه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة التى تحرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضا .

٢٥ ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٨٥ ـ البقرة (٢)

فى الحرب بين الأوس والخزرج ، كان يهود المدينة ينقسمون قسمين ، قسم يحارب فى صفوف الأوس وقسم يحارب فى صفوف الخزرج . وعلى هذا كان اليهودى يقتل اليهودى ويخرجه من بيته ـ وهذا محرم عليهم فى التوراة .

وكانت الحرب إذا وضعت أوزارها ، افتدى اليهود أسراهم (أنقذوهم أو استفكوهم من الأسر بالمال وبغيره) تصديقا لما فى التوراة وأخذابه ـ ولهذا قال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب » وهو افتداء أسراكم « وتكفرون ببعض » وهو قتل بعضكم بعضا وإخراج بعضكم بعضا من ديارهم » .

(انظر : تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان)

٢٦ ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٨٨ - البقرة (٢)

غَلفَ يغلَف غلَفًا : كان فى غطاء خلْقىّ . يقال : غَلفَ الصبىُّ : لم يُختَن .

ويقال : غَلفَ قلبُه : لم يَعِ الرُّشدَ ، كأن على قلبه غلافا ، فهو أغلَف ، وهى غلفاء والجَمع : غُلْفٌ .

قال الزمخشرى : قلب أغلف مستعار من الأغلف الذى لم يُختَن . كقولهم : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لأنها خُلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم ، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التى تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين .

قال على بن أبى طلحة « وقالوا قلوبنا غلْف » أى لا تفقه وقال العوفى : هى القلوب المطبوع عليها . وقال مجاهد : عليها غشاوة . وقال السدى : عليها غلاف وهو الغطاء ، فلا تعى ولا تفقه .

وقرأ ابن عباس : غُلُفٌ بضم اللام وهو جمع غلاف أى أوعية بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى : «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » أى ليس الأمرُ كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها . ومعنى « فقليلا ما يؤمنون » لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ وقيل معناه لا يؤمنون قليلا ولاكثيرا .

٢٧ ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٩٣ ـ البقرة (٢)

أُشْرِبُ فى قلبه حُبَّ كذا : أى خالط حُبُّه قلبَه ، كأنه شربه .

أَشْرَبَ فلانا : سقاهُ . وأشْرَبَ اللونَ غيرَه : خلطه به يقال : أشربَ البياضَ حمرةً ، ويقال : أشرب قلبُه حُبَّ الإيمان .

« وأشْربوا فى قلوبهم العجلَ » أى حُبَّ العجل . والمعنى جُعلت قلوبهم تَشْربه ؛ وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل فى قلوبهم ؛ وفى الحديث : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا فأيما قلبٌ أشربَها نكت فيه نكتة سوداء » خَرَّجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « حبك الشىءَ يعمى ويَصُمُّ[1] » ؛ وقال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل ... والحب يشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها . وزاد على هذا المعنى أحدهم فقال فى زوجته التى طلقها وكان يحبها (وكان اسمها عثمة) :

تغلغل حب عثمة فى فؤادى ... فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها ... أطير لو أن إنسانا يطير

وقال قتادة : أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم ، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس .

وقال الزمخشرى : تداخلهم حُبُّه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوبَ الصبغُ . وقوله : « فى قلوبهم » بيان لمكان الإشراب .

« بكفرهم » : بسبب كفرهم .

---

(١) أصَمَّ فلانا : أفقده حاسة السمع .

٢٨ ﴿ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

١٠٨ ـ البقرة (٢)

سَوَاء[١] تدل على معنى التوسط والتعادل

والسواء من كل شيء : وَسَطه[٢] . وقيل السَّواء القَصْد ، والقصدُ الاستقامة والتوسّط من غير إفراط ولا تفريط . والسبيل : الطريق . « ضَلَّ » هنا هو المتعدى[٣] ، « ضل سواءَ السبيل » : خَفِيَ عليه وَسَطُ الطريق ، أى حاد عن الصراط السوى وبعد عن الطريق المستقيم . وقال القرطبيَ : ذهب عن قصد الطريق وسمته أى طريق طاعة الله . وفى « تفسير الجلالين » : أخطأ الطريق الحق .

والتعبير موجود فى ١٢ ـ المائدة ، ١ ـ الممتحنة .

---

(١) مادة س و ى فى المعجم .

(٢) ومنه قوله تعالى : « فرآه فى سواء الجحيم » ٥٥ ـ الصافات .

(٣) اللازم فى مثل ضَلَّ الشىءُ : خَفِىَ وغاب .

٢٩ ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنـــدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١١٢ ـ البقرة (٢)

أَسْلَمَ الشيءَ إليه : دَفَعَه . وأسلم أمرَه إليه : فَوَّضه [١]

« أسلم وجهَه لله » : خص الوجه بالذكر لأنه أشرف ما يُرى من الإنسان ؛ ولأنه موضع الحواس ؛ وفيه يظهر العز والذل . والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء .

ويصح أن يكون معنى الوجه هنا : المقصد .

وقيل : « أسلم وجهه » : أخلص عمله لله وحده لا شريك له ، كما في قوله تعالى : «فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » . وقال سعيد بن جبير : بلى من أخلص دينه « وهو محسن » أى اتبع فيه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصا لله وحده ، والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة . فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا ، لم يُتَقَبل ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ » أى مردود على فاعله . فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم ، قال تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منشوراً » .

وكذلك العمل الذى يكون موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص صاحبه القصد لله ، فهو مردود كذلك على فاعله ؛ وهذا حال المرائين والمنافقين «يراؤون الناسَ ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

والتعبير موجود فى ١٢٥ ـ النساء .

---

(١) الفعل ، أَسْلَم ، يمكن أن يكون لازما بمعنى : دخل فى دين الإسلام وبمعنى : أخلص الدين لله .

٣٠ ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١٣٠ ـ البقرة (٢)

أصل السَّفَه : الخفَّة والحركة ، ومنه قيل : ثوب سفيه ، أى خفيف النسج ، وزمام سفيه أى كثير الاضطراب .

ثم صار السفه يستعمل فى الجهل وخفة الحلم ، والطيش والجهل فى الأمور الدنيوية والأمور الدينية .

سَفِه يَسْفَه سَفَهًا وسفاهة فهو سفيه وهى سفيهة : خَفَّ وطاش وسَفِه نفسَه : حَمَلَها على السَّفَه . ويمكن أن يكون أصل التركيب : سفهت نفسُه ، فلما حُوِّل الفعلُ إلى الرجل وقع الفعل على ما بعده فانتصب انتصاب المفعول ، مثل رَشِد أمرَه وبَطِرَ عيشَه .

قال حسنين مخلوف فى تفسير « سفه نفسَه » : خَسِر نفسه ، أو جهلها أو امتهنها وأذلَّها واستخف بها .

وقال ابن كثير : ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اتخذه الله خليلا ـ إذ رغبَ عن ملة إبراهيم أى انصرف عنها .

وقال أبو عبيدة : المعنى أَهلك نفسَه .

وقال الأخفش : فعل بنفسه من السفه ما صار به سفيها .

وقال ابن بحر : جهل نفسَه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قال القرطبى : « ومن يرغبُ عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسَه » هو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ، أى وما يرغب . قال الزمخشرى : إذا رغبَ عما لايرغب عنه عاقل قط فقد بالغ فى إذالة (إهانة) نفسه وتعجيزها .

٣١ ﴿ فِي شِقَاقٍ ﴾

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ١٣٧ ـ البقرة (٢)

شَاقَّه مشاقَّةً وشقاقًا : خالَفَه .

« فإنما هم فى شَقَاق » قال زيد بن أسلم : الشّقاق المنازعة ؛ وقيل : الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادى .

وأصله من الشّق وهو الجانب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه ؛ قال الشاعر

وإلاّ فاعلموا أنّا وأنتم　　　بُغاةٌ ما بقينا فى شقاق

وقيل إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشُقّ ويصعُب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشُق على صاحبه .

وقيل «فإنما هم فى شقاق » أى فى مناوأة ومعاندة ومخالفة لله ، وليسوا من طلب الحق فى شىء إن تولوا عن الشهادة والدخول فى الإيمان بها .

٣٢ ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾

﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ١٣٧ ـ البقرة (٢)

كفاهُ الشىءُ يكفيه كفاية : استغنى به عن غيره . وكفى فلانًا الأمرَ : قام فيه مقامَه .

وكفى اللهُ فلانًا فلانًا ، أو شرَّ فلان : حفظَه من كيده .

« فسيكفيكهم اللهُ » أى فسينصرُك عليهمَ ويظفرُك بهم ، قاله ابن كثير . وقال القرطبى : فسيكفى اللهُ رسولهُ عدوَّه ، فالكاف وَهُم فى موضع نصب مفعولان . وكان هذا وعدا من الله تعالى لنبيه عليه السلام أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه فأنجز له الوعد ، وكان ذلك فى قتل بنى قَيْنقاع وبنى قُريظة وإجلاء بنى النَّضير .

وقال الزمخشرى : « فسيكفيكهم الله » ضمان من الله لإظهار [١] رسول الله عليهم . وقد أنجز وعده بقتل قُريظة وإجلاء بنى النضير . ومعنى « السين » أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين .

« وهو السميع العليم » : وعيد لهم ، أى يسمع ما ينطقون به ، ويعلم ما يضمرون من الغل والحسد وهو معاقبهم عليه .

---

(١) أظهرَ فلانًا على عدوه : أعانه .

٣٣ ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ١٣٨ ـ **البقرة (٢)**

صَبغَ الثوبَ ونحوه يصبُغُه صَبْغًا : لَوَّنَه .

والصِّبغة : ما يُصبَغ به . والصِّبْغَة : الهيئة المكتسبة بالصبغ . وصبغة الله : الفطرة التى خلق عليها الناسَ ، والدين الذى شرعه لهم وهو الإسلام ، لأن الفطرة إبتداءُ الخلق ، وابتداءُ ما خلقوا عليه الإسلامُ .

قال ابن عباس : سمَّى اللهُ الدينَ صبغةً استعارة ومجازا حيث تظهر أعمالهُ وسِمتُه على المتديّن ، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب (١) .

وقال القرطبى ، بعد أن أورد المعنى السابق ، إن هناك معنى آخر لصبغة الله هو غُسْل الله ، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغُسلَ الذى أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة فى قيس بن عاصم وثمامة ابن أُثال حين أسلما (٢) .

ونصبَ « صبغةَ » إما على الإغراء كقوله « فطرةَ الله » أى الزموا ذلك وعليكم به ، وإما على تقدير اتبعوا .

وقيل « صبغة » بدل من « ملةَ » فى قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملةَ إبراهيم حنيفا وما كان مَن المشركين » الآية ١٣٥ .

وقال الزمخشرى فى « الكشاف » : معنى صبغة الله أى تطهير الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس . « ومن أحسنُ من الله صبغة » يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم به من أوضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته .

---

(١) قال بعض شعراء ملوك هَمْدان :

وكـل أنـاس لهـم صبغـةٌ ... وصبغةُ همدانَ خير الصِّبَغ
صبغنـا علـىّ ذاك أبناءنـا ... فأكرمْ بصبغتنا فى الصِّبَغ

(٢) روى أبو حاتم البُسْتىّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثمامة الحنفى (هو ابن أثال) أسر فمر به النبى صلى الله عليه وسلم يوما فأسلم ؛ فبعث به إلى حائط (بستان نخل عليه جدار) أبى طلحة فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَسُن إسلامُ صاحبكم » .
وخرَّج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بماء وسِدْر (نبق) . وذكره النَّسائى . وقيل : الصبغة هى القُربة إلى الله تعالى ، وقيل هى الختان .

٣٤ ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ ١٦٦ ـ البقرة (٢)

السَّبَب : الحبل الذى يُرتَقَى به الشجرُ ونحوه ، ثم سُمى به كلُّ ما يُتَوصَّل به إلى غيره عينا كان أو معنى . والجمع : أسباب والمراد بالأسباب هنا : وسائل النجاة ، فلا خلاص لهم ؛ إذ عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيلُ وأسباب الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا .

وقيل : الأسباب [1] هى الوُصُلات التى كانوا (أى الذين اتُّبعوا والذين اتبعوا) يتواصلون بها فى الدنيا من رَحم وغيره ؛ فهى الوشائج التى كانت بين الأتباع والمتبوعين فى الدنيا من القرابات والمودات والاتفاق على الدين والاتباع . وتقطيعها : فصلُها فصلا شديدا .

و « الذين اتُّبعوا » هم السادة والرؤساء تبرءوا ممن تبعهم على الكفر . وقيل : هم الشياطين المضلون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام فى كل متبوَع .

(١) وقيل أيضا : السبب هو الناحية ، ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسبابَ السماء بِسلَّم

٣٥ ﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

١٦٧ ـ البقرة (٢)

حَسَرَ فلانٌ يحسَر حسَرًا وحسْرًا : أسف وندم .

والحَسْرة : أشَدّ الندم على شىء فائت ، والجمع : حسرات .

« يريهُمُ اللهُ أعمالَهم حسرات عليهم » معناه أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم ، فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم .

والحسرة مشتقة من الشيء الحسير الذى قد انقطع وذهبت قوته . وقيل : هى مشتقة من حَسَر إذا كشَف ؛ ومنه الحاسر فى الحرب الذى لا درع معه ؛ فالانحسار الانكشاف .

« يريهُمُ اللهُ » قيل : هى من رؤية البصر ؛ فيكون متعديا لمفعولين : هم وأعمالهم ، وتكون « حسراتٍ » حال . ويحتمل أن يكون من رؤية القلب ؛ فتكون « حسرات » المفعول الثالث .

« أعمالهم » أى الأعمال الفاسدة التى ارتكبوها فوجبت لهم بها النارُ .

وقال ابن كثير فى تفسير « كذلك يريهم اللهُ أعمالَهم حسرات عليهم » أي تذهب وتضمحل ، كما قال تعالى : **﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾** (١) وقوله : **﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾** (٢) وقوله : **﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾** (٣) .

ومعنى الآية : يتمنى الذين اتَّبعُوا سادتَهم على الكفر أو اتبعوا الشياطين المضلين ، لو أن لهم عودة (كرة) إلى الدار الدنيا حتى يتبرءوا من هؤلاء الذين اتبعوهم ويعبدوا الله وحده ويعملوا صالحا ؛ لكن الله يريهم أعمالهم السيئة فى الصحائف ويتيقنون الجزاء عليها فيتحسرون ويندمون .

---

(١) ٢٣ ـ الفرقان . (٢) ١٨ ـ إبراهيم . (٣) ٣٩ ـ النور .

٣٦ ﴿ ولا تتَّبعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨]

يقال : اتبع خطواته ، ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته .

والخُطُوات [١] جمع خُطوة وخَطوة ، وأصلها ما بين قدمى الخاطى ، ثم استعيرت لما ذُكر .

والمعنى : ولا تقفوا أثر الشيطان وعمله وطرقَه التى يُحرِّم بها الحلال ويحلل الحرامَ ، وقرئَ : خُطْوات بضمة وسكون .

ورُوى عن على بن أبى طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعمش «خطؤات» بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو ، وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة من الخطأ لا من الخطو ، أى لا تتبعوا خطاياه ، قاله مجاهد .

وقال ابن كثير : خطوات الشيطان هى طرائقه ومسالكه .

وفى معنى الآية نورد الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم « ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلال طيبا » فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلَنى مستجاب الدعوة ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« يا سعد أطب مطعمك تكن مُستجاب الدعوة والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتقَبل منه أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من السُّحت[٢] والربا فالنار أولى به »

« حلالاً » مفعول « كلوا »، أو حال « مما فى الأرض ». و «طيبا»: طاهرا من كل شبهة. قال سهل بن عبد الله : النجاة فى ثلاثة، أكل الحلال وأداء الفرائض والاقتداء بالنبى ﷺ. وقال:

ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم ، ولا يكون المال حلالا حتى يصفُو من ست خصال : الربا والحرام والسّحت وهم اسم مجمل والغُلُول[٣] والمكروه والشبهة .

وقال أبو عبد الله الساجى واسمه سعيد بن زيد : خمس خصال بها تمام العلم؛ وهى معرفة الله عز وجل ، ومعرفة الحق ، وإخلاص العمل لله ، والعمل على السنة ، وأكل الحلال ـ فإن فقدت واحدة لم يُرفع العملُ .

وسمى الحلال حلالا لا نحلال عقدة الخطر عنه ، قاله القرطبى .

---

(١) قال الجوهرى : جمع القلة خطوات ، وجمع الكثرة : خطًا .

(٢) السُّحت : ما خَبُث وقَبُح من المكاسب ، فلزم عنه العار ، كالرشوة وغيرها .

(٣) غَلَّ فلانٌ يَغُلُّ غُلولاً : خان فى المغنم وغيره .

٣٧ ﴿ يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ ﴾

﴿ وَمَثَلُ الَّذِيـــنَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٧١ ـ البقرة (٢)

نَعَقَ فى الفتنة ينعق نعقًا : رفع فيها صوته فهو ناعق . ونَعَق الراعى بغنمه ينعقُ وينعَق نعقًا ونعيقا : صاح بها وزجرها . المعنى : مثل الكافرين فى دعائهم آلهتهم كمثلَ الراعى الذى يصيح بغنمه التى لا تسمع إلا جرس النغمة ودوى الصوت فهى لا تفقه ولا تعى شيئا .

وقال قطرب : مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم ، يعنى الأصنام ، كمثل الراعى إذا صاح بغنمه وهو لا يدرى أين هى .

وفى هذين التأويلين يُشَبَّه الكفارُ بالناعق الصائح والأصنام بالمنعوق به .

ويورد الزمخشرى فى « الكشاف » تفسيرا يرتبط بالآية السابقة رقم ١٧٠ : «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فيقول : ومثلهم فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم، كمثل البهائم التى لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته . فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل ؟

ويورد الزمخشرى تفسيرا آخر يقيمه على أساس أن هناك مضافا محذوفا تقديره : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع . أى أن الذى يدعوهم إلى الإيمان مثله كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء الناعق الذى هو تصويت وزجر لها ولكنها لا تفقه ولا تعى شيئا ، فهو يشبههم بالبهائم التى لا تعى ولذلك قال : «صم بكم عمى فهم لا يعقلون » صُمٌّ عن سماع الحق ، وبُكْمٌ لا يتفوهون به ، وعُمْيٌ عن رؤية طريقه ومسلكه .

وقال ابن كثير : « ومثل الذين كفروا » أى فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نَعَق بها راعيها أى دعاها إلى ما يرشدها ، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط . هكذا روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس .

والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون :

« أجهلُ من راعى ضأن » . قال الأخطل يهجو جريرا :

فَانْعق بضَأنك يا جـــرير فإنمَا   منَّتك نفسُك فى الخلاء ضلالاً

ولم يكن جرير راعىَ ضـأن ، وإنما أراد الأخطل أن يصفه بالجهل ويقول له : صوت لغنمك يا جرير ، واكتف بذلك عن المفاخر فلست أهلاً لها ، إنما أنت راعى غنم منتك نفسك أى سولّت لك فى الفضاء بعيدا عن الناس ضلالا وكذبا .

٣٨ ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾١٧٨ ـ البقرة (٢)

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ١٨٠ ـ البقرة (٢)

ووردت كلمة « بالمعروف » فى مواضع أخرى عديدة من القرآن الكريم .

والمعروف اسم جامعٌ لكل ما عُرف من طاعة الله والتَّقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكُلِّ ما ندب (حَبَّبَ) إليه الشرعُ من المُحسَّنات ونهى عنه من المقبَّحات .

والمعروف من الصفات الغالبة ، أى أمر معروف بين الناس إذا رأوْه لاينكرونه .

والمعروف : النَّصَفَة [1] وحُسنُ الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس ، والمنكر : ضدُّ ذلك جميعه .

وفى الحديث : « أهلُ المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة » أى من بذَلَ معروفَه للناس فى الدنيا آتاه اللهُ جزاءَ معروفه فى الآخرة . وقال ابن عباس فى معناه : يأتى أصحاب المعروف فى الدنيا يومَ القيامة فيُغفرُ لهم بمعروفهم ، وتبقى حسناتُهم جامَّةً [2] ، فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته ، فيُغفَر له ويدخل الجنةَ؛ فيجتمع لهم (أى لأهل المعروف) الإحسانُ إلى الناس فى الدنيا والآخرة .

ونحن النظر الآن فى المواضع التى وردت فيها هذه الكلمة ، كلمة المعروف ، لنقف على بلاغتها من دراسة السياق فى كل موضع .

ففى الآية الأولى : « فمن عُفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان» أى فالقاتل عمدا إذا عُفىَ له عن جنايته من جهة أخيه ولىِّ الدَّم بأن صفح عنه من القصاص الواجب عليه ،ورضَى منه بالدِّيَة بدلَ الدم ، فعلى صاحب الدم اتباعٌ بالمعروف فى المطالبة بالدية ، فلا يأخذ منه أكثر من حقه ولايرهقه ، وعلى القاتل أن يؤدى إليه الدية أداء حسنا من غير مماطلة وتأخير عن الوقت .

---

(١) النَّصَفَة : الإنصاف والعدل .

(٢) كثيرة .

« ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » ففى شرع العفو تسهيل على القاتل ، وفى شرع الدية نفع لأولياء المقتول . وأهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك ، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود [١] ولا دية . فخَيَّر الله هذه الأمة بين القصاص والعفو وأخذ الدية ؛ توسعة عليهم .

الموضع الثانى قوله تعالى : « كُتِبَ عليكمْ إذ حَضَرَ أحدَكم الموتُ إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » . « بالمعروف » يعنى بالعدل ، لاوكس فيه ولا شطط [٢] ، وكان هذا موكولا إلى اجتهاد الميت ونظر الموصى ، ثم تولى اللهُ سبحانه تقدير ذلك على لسان نبيه عليه السلام فقال : «الثلث والثلث كثير[٣]» . قال ابن كثير : والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لاتجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير . وقال الحسن : لا تجوز وصية إلا في الثلث ، وإليه ذهب البخارى واحتج بقوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » ، وحُكمُ النبى صلى الله عليه وسلم بأن الثلثَ كثير هو الحكمُ بما أنزل الله ؛ فمن تجاوز ما حده الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد على الثلث فقد أتى مانهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه .

---

(١) القَوَد : القصاص .

(٢) الوكْس : النقص ، والشَطَط : مجاوزة الحد .

(٣) ثبت فى الصحيحين أن سعدا قال : يا رسول الله إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى أفأوصى بثلثى مَالى ؟ قال : « لا » ، قال : فبالشطر (النصف) ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

٣٩ ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

١٧٩ ـ البقرة (٢)

وردت كلمة « القصاص » أربع مرات فى القرآن الكريم : فى الآيات ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٤ من سورة البقرة ، وفى الآية ٤٥ من سورة المائدة .

قَاصَّ الجانى يُقَاصُّه مُقَاصَّةً وقِصاصًا : عاقبة بمِثل جريمته .

والقِصاص : معاقبة الجانى بمِثل ماجنى : النفس بالنفس والعين بالعين .

وهذا التعبير من الكلام البليغ الوجيز ، ففيه تعليل لإيجاب القصاص ، وتوضيح لمحاسنه على وجه بديع ، حيث جعل الشىء سببا فى ضده . فقد ذكر فى إيجاز معجز أن الهدف من القصاص هو حياة المجتمع فى أمن وسلام .

فإذا انحرف بعض الأفراد ، اقتضت مصلحة المجتمع استئصال المنحرف محافظة على سلامة غيره ، فالقصاص من الجناة إذا أقيم وتحقق ازدجر من يريد قتل أو إيذاء آخر مخافة أن يقتص منه وامتنع عن ارتكاب جريمته . ويتسبب ذلك الامتناع فى حياة نفسه وحياة من يريد قتله . كما أن فى القصاص شفاءً لصدرو أهل القتيل ، شفائها من الحقد والرغبة فى الثأر الذى لم يكن يقف عند حد فى القبائل العربية ، والذى نراه اليوم فى بعض المناطق ، وتزهق بسببه أرواح كثيرة . وفى إقامة القصاص وقف لهذه المذابح فيسود الأمن والسلام بين الناس ، وتتوفر لهم الحياة .

ففى القصاص ، إذن ، حياة على معناها الأشمل والأعم ، لأن الاعتداءَ على حياة فرد اعتداءٌ على الحياة كلها واعتداء على كل إنسان حى . وإذا كف القصاصُ الجانى عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها : ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾ ٣٢ ـ المائدة . فللناس فى القصاص ، بكل هذه النتائج المترتبة عليه ، حياة .

قال ابن كثير : فى شرع القصاص حكمة عظيمة هى بقاء المهج وصونها . وقال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافةُ أن يُقتَل . ورُوى مثل ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .

والتعبير القرآنى يعنى أن فى إقامة شرع القصاص إقامة نظام سليم لحياة الناس بالمعنى الشامل المطلق لكلمة « حياة » كماجاءت فى النص ـ بمعنى أن إقامة شرع القصاص يترتب عليه انضباط حياتهم وانتظامها على الوجه الأمثل .

وقد عنى علماء البلاغة والتفسير بالموازنة بين التعبير : « ولكم فى القصاص حياة » وبين الحكمة العربية : « القتل أنفى للقتل » . إذ يمتاز التعبير القرآنى بوضوح الهدف وهو الحياة للأمة ، وأن القتل فيه للقصاص . وهو وضوح تفتقده الحكمة العربية . كما أن كلمة « القصاص » معناها أشمل من القتل ، إذ يشمل إصابة الأعضاء وليس فى الحكمة العربية تعرض لذلك (١) .

قال القرطبى : اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقَّه دون السلطان ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو مَن نصبه السلطان لذلك .

« لعلكم تتقون » أى تتجنبون القتل فتسلمون من القصاص وتتركون محارم الله . فالتقوى ، أى حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله وتحرجه من غضبه وتطلعه إلى رضاه ، إنما تنشأ فى القلب بأداء العبادات التى فرضها الله وبالالتزام بتوجيهات الله وبتنفيذ شرع الله فى جميع أمور الحياة . وبعد ذلك تكون التقوى هى الحارس اليقظ الذى يكف النفوس عن المعاصى ، والرباط الذى يعقل النفوس عن الاعتداء ـ فبدون الخوف من قوة أكبر من قوة الإنسان لا تفلح القوانين ولا تجدى التنظيمات .

---

(١) أورد السيوطى فى كتابه : « الإتقان » عشرين وجها لتفضيل التعبير القرآنى على الحكمة العربية .

٤٠ ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ ١٨٧ - البقرة (٢)

لَبِس الثوبَ ونحوَه يلبَسُه لُبْسًا : استتر به .

واللِّباس : ما يُلبَس ويستُر الجسمَ ونحوه .

ويستعمل اللباس مجازا فيما يشبه الثوب ، ويشمل هذا المرءَ يستر قبائح غيره أو معايبَه . وأطلق لباس على كل من الزوجين فى هذه الآية ؛ لأن كلا منهما يستر عيوب الآخر .

وقيل : لأن كلا منهما يخالط الآخر ويلامسه كما يلامس الثوبُ لابسَه . قال الزمخشرى : لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه فى عناقه ، شُبه باللباس المشتمل عليه . قال النابغة الجعدى :

إذا ما الضَّجيعُ ثَنَى عِطفَهَا ... تَثَنَّتْ فكانت عليه لِبَاسا (١)

قال القرطبى : أصل اللباس فى الثياب ، ثم سمى امتزاجَ كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسا ، لانضمام الجسد إلى الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيها بالثوب .

وقال بعضهم : يقال لما ستر الشىءَ وداراه : لباس . فجائز أن يكون كل واحد منهما سترا لصاحبه عما لا يحل . قال حسنين مخلوف فى « صفوة البيان » : هن سكَنٌ لكم أو ستر لكم عن الحرام . وقال أبو عبيد وغيره : يقال للمرأة هى لباسك وفراشك وإزارك . وأوضح « التفسير الوسيط » هذا المعنى المجازى فقال :

جملة « هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن » فى قوة التعليل للإباحة ، وهى مجاز عن أن كليهما يمنع الآخر عما لا يحل ، فكما يمنع اللباسُ الحرَّ والبردَ ، فكذلك كل من الزوجين يمنع الآخر ويستره عن الفاحشة ، بما أحله الله له من مباشرة زوجه .

« هُنَّ لباسٌ لكم » مبتدأ وخبر . وهو استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قَلَّ صبركم عنهن وصعُب عليكم اجتنابهن ، فلذلك رخّص لكم فى مباشرتهن .

---

(١) « ما » زائدة . والضجيع : المضاجع . والعطف ، بالكسر ، الجانب .
تثنت : بالغت فى مطلوبه من التعانق فكانت مشتملة عليه كاللباس .

٤١ ﴿ بَاشِرُوهُنَّ ﴾

﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧]

بَاشَرَ الرجلُ امرأته : وليَتْ بَشَرَتُه بشرتَها ، ويكنى به عن الاتصال الجنسى . وقال القرطبى : هو كناية عن الجماع . . . وسُمِّى الوقاع مباشرة لتلاصق البشرتين فيه .

والمباشرة من الكنايات البديعة التى كنى [١] بها القرآن عن الجماع . ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ [٦] ، وقوله : ﴿ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [٧] وقوله : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ [٨] ، وقوله : ﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ [٩] . وسيأتى بيان كل منها فى موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) كَنَى عن كذا يكنى كِنَايةً : تكلم بما يُسْتَدَلُّ به عليه ولم يُصرِّح .

(٢) ٢١ ـ النساء . (٣) ١٨٩ ـ الأعراف .

(٤) ٤٣ ـ النساء . (٥) ٢٣ ـ النساء .

(٦) ٢٢٣ ـ البقرة . (٧) ٢٣٦ ـ البقرة .

(٨) ٢٤ ـ النساء . (٩) ٢٢٢ ـ البقرة .

﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ ٤٢

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٨٨ ـ البقرة (٢)

أدلى بمالَ إلى الحاكم : دفعه إليه .

والمعنى : لا تدفعوا أموالكم إلى الحكَّام على سبيل الرِّشْوة . أى لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها . تُدلوا من إرسال الدلو تشبيها بالذى يرسل الدَّلو فى البئر . يقال : أدلى دلوَه أرسلها ، ودلاها : أخرجها . والرشوة[1] من الرِّشاء وهو الحبل ، كأنه يمد بها ليقضى الحاجة . قال ابن عطية : وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرِّشا إلا من عُصِم .

وهناك معنى آخر لهذا التعبير هو : لا تلقوا شئون أموالكم والمخاصمة فيها عند الحكام إذا كان لديكم من ظاهر البيِّنة ما يقضى لكم ، وأنتم تعلمون أن الأمر غير هذا . قال القرطبى : من أخذ مال غيره على غير إذن الشرع فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل : أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مُبْطل ؛ فالحرام لا يصير حلالا بحكم القاضى لأنه إنما يقضى بالظاهر . روى الأئمة عن أم سلَمة قالت : قال رسول ﷺ : «إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحَن[2] بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار » . وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء ، وهو نص فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن . وقال الزجاج فى هذا المعنى أيضًا : تعملون ما يوجبه ظاهر الأحكام وتتركون ما علمتم أنه الحق . ورُوِى عن ابن عباس قال : هذا (أى القول الذى جاء فى الآية) فى الرجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بيِّنة (دليل)، فيجحد (ينكر) المال ، ويخاصَم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام . ورُوِى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى ومقاتل وعكرمة أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وهكذا يربط النص القرآنى الأمر فى التقاضى وفى المال بتقوى الله والخوف منه ، كما ربطه فى الآيات السابقة فى القصاص وفى الوصية وفى الصيام .

ومعنى الآية : لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة

---

(١) رَشَا الفرخُ يَرْشو : مَدَّ رأسَه إلى أمة لتَزُقَّه .

(٢) أكثر فطانه وانتباها إلى بيان حجته وتبريرها .

لتأكلوا فريقا (أى جزءا أو بعضا) من أموال الناس بالباطل [١] . اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مال ، قل هذا المال أو كثر ، فإنه يفسُق بذلك وأنه محرم عليه أخذه . ففى الحديث الصحيح : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » .

وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهى فى قوله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » لأن كل واحد منهما منهيٌ ومنهى عنه . ويدخل فى أكل البعض مال البعض بغير الحق : القمار والخداع والغصوب [٢] وجحد الحقوق ، ومالا تطيب به نفس مالكه ، أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغى وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير .

وأضاف بعض العلماء الحالَ إلى ضمير المالكين على أساس أن معنى « ولا تأكلوا أمولكم بينكم بالباطل » أى : فى الملاهى والقيان والشرب والبطالة .

---

(١) وهو كقوله : « ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ٤٢ ـ البقرة .

(٢) غَصَبَ الشيءَ يغصبِهُ غَصبًا : أخذه قهرًا وظلمًا .

٤٣ ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٨٩ ـ البقرة(٢)

كان الأنصار إذا حجوا وعادوا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها وإنما يدخلونها من ظهورها ، وكانوا يرون هذا من النسك [١] والبر . فبين لهم الرب أن هذا ليس من البر وإنما البر فى امتثال أوامره تعالى واتقاء المحارم والشهوات [٢] فاتصل هذا بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقوع القضيتين فى وقت السؤال عن الأهلة وعن دخول البيوت من ظهورها، فنزلت الآية فيهما جميعا .

وقد قيل إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البر من وجهه ، وهو الوجه الذى أمر الله تعالى به ؛ فذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلا ليشير به إلى أن تؤتى الأمور من مأتاها الذى ندبنا الله تعالى إليه . قال أبو عبيدة: الآية ضَرْبُ مَثَل ، فهذا كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه . وقال الزمخشرى : «وأتوا البيوت من أبوابها » أى وباشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تُباشَر عليها ولا تعكسوا . فليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره .

---

(١) النُسُكُ والنُسْكُ : كل حق لله تعالى .

(٢) أورد ابن كثير عدة روايات تدور حول هذا المعنى . منها ما رواه البخارى عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتَوْا البيت من ظهره ، فأنزل الله الآية . وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن البراء قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه ، فنزلت الآية . وقال عطاء بن أبى رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر ، فقال الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » .

٤٤ ﴿ والْفِتْنَةُ أَشَدُّ من الْقَتْلِ ﴾

﴿ وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفتُمُوهُمْ وأَخْرِجُوهم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ١٩١ ـ البقرة (٢)

فتَنَ فلانًا يفتنه فتْنًا وفتُونًا : عَذَّبه ليحوله عن رأيه أو دينه . وفتَنَ فلانًا عن الشيء : صرَفَه عنه [1] قال تعالى : ﴿ واحْذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أنزلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ٤٩ ـ المائدة . قال حسنين مخلوف فى تفسير « والفتنة أشد من القتل » إن فتنتهم المؤمنين بالتخويف والإيذاء والإلجاء إلى مفارقة الأهل والوطن أصعب من القتل ـ لذلك أمرهم، سبحانه ، فى صدر الآية بقتل الكفار حيث وُجدوا وحيث تم الظفر بهم ، فى حل أو حرم ، وبالمبالغة فى تخويفهم والتشديد عليهم حتى يضطروا إلى الخروج من مكة . فلا تستعظموا قتلهم لأن فتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد قبحا من قتلكم إياهم فى الحرم .

والفتنة تحويل الإنسان عن دينه ، وهو أشد من قتل النفس وإزهاق الروح ، لأن العقيدة هى أقدس ما فى الحياة . ومن الفتنة كذلك إقامة أوضاع فاسدة تزين للناس البعد عن منهج الله .

وجاء فى « لسان العرب » فتنَ الرجلَ أى أزاله عما كان عليه ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ وإن كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ٧٣ ـ الإسراء ، أى يميلونك ويزيلونك . والفتنة : المُمِيلَة عن الحق . . .

وقوله تعالى : « والفتنة أشد من القتل » معنى الفتنة ههنا الكفر ، كذلك قال أهل التفسير . قال ابن سيده : الفتنة الكفر .

وقال الجمهور : معنى الفتنة هنا فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا .

---

(١) قال الأزهرى وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب ، إذا أذبتهما بالنار لتميز الردئ من الجيد . وقال ابن الأعرابى : الفتنة الاختبار ، والفتنة المحنة ، والفتنة المال ، والفتنة الأولاد ، والفتنة الكفر ، والفتنة اختلاف الناس بالآراء ، والفتنة الإحراق بالنار ، والفتنة الظلم . وفتَنَ الشيُ فلانًا : أعْجبَ به وأستهواه : يقال : فَتَنَه المالُ ، وفَتَنَته المرأةُ : وَلَّهَتْه .

٤٥ ﴿ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٩٥ ـ البقرة (٢)

التهلُكة : الهلاك والموت . مصدر هَلَكَ يهلك هُلْكًا وهَلاكًا وتهلكةً .

والأيدى : كناية عن النفس [١] ؛ أى ولا تلقوا أنفسكم فيما فيه هلاككم بترك الجهاد والإمساك عن الإنفاق فيه لتجهيز المقاتلين . فالآية تحذر المسلمين من التقصير فى الإعداد للقاء العدو ، حتى لا يصيبهم بغتة مكروه منه يهلكون فيه .

روى يزيد بن حبيب عن أسلم أبى عمران قال : غزونا القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مَه مَهْ [٢] لا إله إلا الله ، ، يلقى بيديه إلى التهلكة ! فقال أبو أيوب الأنصارى (وكان معهم) : سبحان الله [٣] ! أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر دينه . قلنا : هلمّ نقيم فى أموالنا ؛ فأنزل الله عز وجل : «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد فى سبيل الله [٤] وأن الآية نزلت فى ذلك . ورُوى مثله عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد .

وسبيل الله هنا : الجهاد واللفظ يتناول جميع سبل الجهاد .

فالنهىُ عن ترك الغزو والذى هو تقوية للعدو .

وقيل : التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب .

والباء فى « بأيديكم » زائدة ، والتقدير تلقوا أيديكم . وقيل تقديره : ولاتلقوا أنفسكم بأيديكم ، كما يقال : أهلك نفسه بيده ، إذا تسبب فى هلاكها .

---

(١) عبَّر بالبعض عن الكل .   (٢) مَهْ : زجر ونهى .

(٣) وفى رواية : يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وفى رواية ثالثة : نحن أعلم بهذه الآية .

(٤) لم يزل أبو أيوب مجاهدا فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية .

٤٦ ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ١٩٦ ـ البقرة (٢)

أَتَمَّ الشيء : أكمله .

« وأتموا الحج والعمرة لله » : ائتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله ، من غير توان ولا نقصان يقع منك فيهما .

وقيل : أن تكون النفقة حلالا . وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ولهذا قال بعده : « فإن أحصرتم » أى صُدِدتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما .

وقيل : أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية . قال القرطبى : ثم سامح فى التجارة بعد ذلك فى الآية ١٩٨ : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » ومعناها : لا إثم عليكم في أن تبتغوا فضل الله ، وابتغاء الفضل ورد فى القرآن بمعنى التجارة ، قال تعالى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ١٠ ـ الجمعة . ففى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحاج مع أداء العبادة [١] .

وقال سفيان الثورى : تمامهما أن تخرج قاصدا لهما لا لتجارة ولالغير ذلك . ويُقوّى هذا قوله : « لله » . قال القرطبى : وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق ، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ، ولاحظ بقصد ، ولا قربة بمعتقد ؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وحقه .

والنية فى الحج والعمرة واجبة فرضا ، لقوله تعالى : « وأتموا » ومن تمام العبادة حضور النية . قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » .

قرأ الشعبى وابن مسعود وأبو حيوة : « وأتموا الحجَّ والعمرةُ لله » برفع التاء فى «العمرة » ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب . روى الدار قطنى عن جابر بن عبد الله قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : « نعم » فسأله عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : « لا وأن تعتمر خيرلك » . فهذه حجة من لم يوجبها . وقالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب لأن الله سبحانه إنما قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء ، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال : « وأقيموا الصلاة

---

(١) والدليل على صحة هذا ما رواه البخارى عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى المواسم فنزلت : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج .

وآتوا الزكاة » . وابتدأ بإيجاب الحج فقال : « ولله على الناس حج البيت » ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها .

وقرأ الجماعة « العمرة » بنصب التاء ، وهى تدل على الوجوب إذ أمر تعالى بإتمامها كما أمر بإتمام الحج . وممن قال بوجوبها على بن أبى طالب وابن عمر وابن عباس ، ومن التابعين عطاء وطاووس ومجاهد والحسن والشافعى وأحمد . فمذهب من أوجب العمرة هو تفسير «وأتموا الحج والعمرة » بأنها تعنى أداءهما والإتيان بهما ، كقوله تعالى : « ثم أتموا الصيام إلى الليل » أى ائتوا بالصيام .

وروى عن عمر أنه قال فى معنى قوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » : من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر[1] وأن تعتمر فى غير أشهر الحج ، فإن الله تعالى يقول : «الحج أشهر معلومات » .

(١) أى من غير تمتّع وقران .

٤٧ ﴿ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ١٩٦ ـ البقرة (٢) .

حاضرو المسجد الحرام : هم أهل الحَرَم ، والحرم : حرمُ مكة . وحدوده المنار[١] (أى العلامات) القديمة التى ضربها إبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، على أقطار الحرم ونواحيه ؛ وبها تُعرف حدود الحرم من حدود الحل . فما كان داخل المنار فهو حَرَمٌ لا يحل صيده ولا يُقطع شجره ، وما كان وراء المنار فهو مِنَ الحل . وكانت قريش تعرف المنار ، لأنهم كانوا سكان الحرم ويعلمون أن مادون المنار إلى مكة مَن الحرم ، وما وراء المنار ليس من الحرم .

واختُلف فى حاضرى المسجد الحرام . بعد الإجماع على أن أهل مكة وما اتصل بها من حاضرِيةَ . فقال مالك وأصحابه : هم أهل مكة وما اتصل بها خاصة . وقال أحمد والشافعى : هم أهل مكة ومن كان بينه وبين مكة مسافة لا تُقْصَر فيها الصلاة [٢] . وقال أبو حنيفة : هم أهل مكة وأهل الحل [٣] الذين منازلهم داخل المواقيت [٤] .

وتشير « ذلك » فى قوله : « ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » إلى التمتع ؛ فالآية تقول إن حاضرى المسجد الحرام ، أى أهل الحرم ، لامتعة لهم . ومعنى التمتع بالعمرة إلى الحج هو أن يتحلل الرجل من الإحرام بعد أداء العمرة ويتمتع بكل مالايجوز للمحرم فعله من الطيب وإتيان الزوجة ونحوه ، ويظل متمتعا بكل هذا إلى أن يحين موعد الإحرام بالحج . وعلى المتمتع أن يذبح هَدْيًا [٥] ، وهو معنى « فما استيسر من الهدى » أى فليذبح ما قدر عليه من الهدى ، وأقله شاة يذبحها ويعطيها للمساكين ؛ فإن لم يجد صام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده .

---

(١) المنار جمع منارة ، وهى العلامة تُجعَل بين الحدَّين . وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، « لعن الله من غَيَّر منارَ الأرض » أى أعلامها ، وربما أراد منار الحرم ، وربما أراد تخوم الأرضين ، وهو أن يقتطع جزءا من أرض جاره أو يحول الحد من مكانه .

(٢) قَصَرَ الصلاة يقصُرها قصرًا : صلى الرباعية (ذات الأربع ركعات) ركعتين بحسب ترخيص الشرع . وإنما يكون القصر فى السفر الطويل الذى تلحق به المشقة ، ومسافته فى قول الشافعى ٤٦ ميلا .

(٣) الحلّ : ما جاوز الحرم .

(٤) مواَقيت الحج : الأماكن التى تبدأ منها مناسكه .

(٥) الهدى : ما يُهدى إلى الحَرم من النَّعَم (النعم : الإبل والبقر والغنم) .

ولا خلاف بين العلماء فى أن النمتع جائز ، وأن الإفراد[1] جائز ، وأن القران[2] جائز . فى صحيح مسلم عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : « من أراد أن يَهلَّ[3] بحج وعمرة فليفعل ، ومن أراد أن يَهل بحج فليهل ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليهل » . قالت عائشة : فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج ، وأهل به ناس معه ، وأهل ناس بالعمرة والحج ، وأهل ناس بعمرة، وكنت فيمن أهل بالعمرة . ولأن النبى، صلى الله عليه وسلم ، أهل بالحج فإن البعض قال بالإفراد وفضله - ومنهم عمر وعثمان وكانا ينهيان عن التمتع ليُنْتَجَعَ البيتُ مرتين أو أكثر فى العام حتى تكثر عمارتُه بكثرة الزوار له ، ولإدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس . وقال آخرون : إنما نهى عمر عن التمتع لأنه رأى الناس مالوا إليه ليسارته وخفته ، فخشى أن يضيع الإفراد والقران ، وهما سنتان للنبى صلى الله عليه وسلم .

وقال مالك : الإفراد أفضل من القران ، والقران أفضل من التمتع . وقال أبو جعفر النحاس : المفرد أكثر تعبا من المتمتع لإقامته على الإحرام وذلك أعظم لثوابه .

---

(١) الإفراد : أن يُحرم بالحج .

(٢) القران : الجمع بين الحج والعمرة فى الإحرام .

(٣) تقول : أهَلَّ بحَجَّة أو بعُمرة بمعنى أحرم بها . وإنما قيل للإحرام إهلال لرفع المُحْرِم صوتَه بالتلبية . والإهلال : التلبية ، وأصل الإهلال رفعُ الصوت : وكل رافع صوتَه فهو مُهِلّ .

٤٨ ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ ١٩٧ ـ البقرة (٢)

« فرض فيهن الحج » : ألزم نفسه بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا وبالإحرام فعلا ظاهرا ، وبالتلبية نطقا مسموعا (١) .

وأصل الفرض فى اللغة : الحزّ والقطع ؛ وقيل : فرض أى أبان ، وهذا يرجع إلى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره .

كانت أشهر الحج معلومة عندهم ، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله أو بعضه على أقوال .

الرفث : الجماع ودواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك وكذلك الإفحاش للمرأة بالكلام . والفسوق : المعاصى . والجدال : المراء مع الرفقاء والخدم والمكارين .

« فمن فرض فيهن الحج » قال فيهن ، ولم يقل فيها ؛ قال قوم : هما سواء فى الاستعمال. وقال المازنى أبو عثمان : الجمع الكثير لما لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثة ، والقليل ليس كذلك .

« فلا رفث ولا فسوق ولاجدال فى الحج » : قال العلماء : الخبر هنا بمعنى النهى .

---

(١) يرى الشافعى أن التلبية ليست من أركان الحج .

٤٩ ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

٢٠٦ ـ البقرة (٢)

العِزَّة : القوة والغلبة . والعزة : الحَميَّة والأنَفَة .

أخذته بكذا حملته عليه وألزمته إياه .

ومعنى « أخذته العزة بالإثم » : حملته الأنفة والحمية التى فيه على فِعل الإثم الذى يُنهى عنه ، وألزمته ارتكابه .

فإذا وُعظ هذا الفاجر ليرتد عن أقواله وأفعاله الآثمة ، وإذا قيل له اتق الله وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب إلى ارتكاب الذنوب .

قال قتادة : إذا قيل له مهلا ازداد إقداما على المعصية والمعنى حملته العزة على الإثم.

وقيل : اعتز فى نفسه وانتحى[1] فأوقعته تلك العزة فى الإثم حين أخذته وحملته على ارتكابه .

وهذه صفة الكافر والمنافق المزهو بنفسه . وكفى بالمرء إثما أن يقول له أخوه اتق الله، فيقول : عليك بنفسك ؛ مثلك يوصينى !

« فحسبه جهنم وبئس المهاد » : تكفيه جهنم عقابا وجزاء وسميت مهادا لأنها مستقر الكفار ولأنها بدل لهم من المهاد [2] .

---

(١) انتحى : مال إلى ناحية .

(٢) المهاد : الموضع المهيأ للنوم .

٥٠ ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ٢٠٨ ـ البقرة (٢)

السِّلم هنا : الإسلام ، قاله القرطبى وابن كثير ، ومن قبلهما الزمخشرى فى أحد قوليه ، ومن بعدهما حسنين مخلوف .

المعنى : يأمر الله عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يعملوا بجميع أحكام الإسلام وشرائعه وأوامره ، وأن يقيموا حدوده ويتركوا جميع زواجره ؛ فكلمة « كافة » معناها جميعا وهى حال من « السِّلْم » ـ فالمؤمنون أمروا بأن يدخلوا فى الطاعات كلها ، وأن لا يدخلوا فى طاعة دون طاعة ، وإنما يدخلون فى شعَب الإسلام وشرائعه كلها ، وألا يُخلّوا بشىء منها .

وقيل « كافةً » حال من ضمير المؤمنين فى قوله « ادخلوا » أى ادخلوا فى الإسلام كلكم واعملوا بجميع شرائعه .

والقول الآخر للزمخشرى هو : السِّلم بمعنى الاستسلام والطاعة ، أى استسلموا لله وأطيعوه ، وهذا جوهر الإسلام (١) .

وأول هذه الدعوة إلى السلم أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ، فى ذوات أنفسهم وفى الصغير والكبير من أمرهم ـ استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة لليد التى تقود خطاهم وتريد لهم الخير والنصح والرشاد .

إنه إله واحد : يتجه إليه المسلم فلا تتفرق به السبل . وهو إله قوى قادر عزيز قاهر ، إذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة فى هذا الوجود وبعدها لا يخاف أحدا ولا يخاف شيئا . وهو إله عادل حكيم ، فقوته ضمان من الظلم . وهو رب رحيم ودود ، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، فالمسلم فى كنفه آمن آنس . وهكذا يجد المسلم فى كل صفة من صفات ربه ما يؤنس قلبه ويطمئن روحه ، ويضمن له الحماية والعزة والاستقرار والسلام .

كما يفيض السلام على قلب المؤمن من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب . فالله خلق هذا الكون بالحق ، وخلق كل شىء فيه بقدر وحكمة ، وهذا الإنسان مخلوق قصدا وغير

---

(١) قال الطبرى : السلم هنا لا تعنى المسالمة التى هى للصلح ، فالمؤمنون لم يؤمروا بالدخول فى المسالمة ، وإنما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسلم إذا جنحوا .

متروك سدى . هو خليفة الله فى الأرض وهيأله كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده ، والكون من حوله صديق له حين يتجه كلاهما إلى الله ربه . والإنسان مدعو إلى التعاطف مع كل شىء ومع كل حى فى هذا الوجود .

والاعتقاد بالآخرة يؤدى دورا أساسيا فى إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ، ونفى القلق والسخط والقنوط . فالحساب الختامى هناك فى الآخرة حيث العدالة المطلقة فى حساباتها ـ فلا قنوط إذن إذا توزعت الحظوظ فى رحلة الدنيا القصيرة على غير ما يريد الإنسان . والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذى تداس فيه القيم وتدهس فيه الحرمات ، فالاعتقاد بالآخرة يخلع التجمل على حركات المتسابقين ، ويخفف السعار الذى ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هى فرصة هذا العمر القصير فى هذه الحياة الدنيا الفانية .

أما التكاليف التى يفرضها الإسلام على المسلم فكلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة : لا تتجاهل طبيعة الإنسان ، ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته ولا حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجسمانى والروحى ، كما لا تحمله فوق طاقته . وإنما يقدم الإسلام الضمانات التى تحيط وتحمى النفس والعرض والمال ـ وذلك من شأنه أن يشيع السلم وينشر روح السلام .

هذا المجتمع الإسلامى تربطه آصرة واحدة ، هى آصرة العقيدة حيث تذوب الأجناس والأوطان واللغات والألوان : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ١٠ ـ الحجرات ؛ وفى الحديث المروى عن الإمامين أحمد ومسلم : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

ومن آداب المجتمع الإسلامى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ ٨٦ ـ النساء ، ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ (١) لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ١٨ ـ لقمان ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ٣٤ ـ فصلت ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ١١ ـ الحجرات وماتلا هذه الآية من ذات السورة من آداب أخرى : «ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب» و «ولا يغتب بعضكم بعضا» .

ومن الضمانات التى كفلها المجتمع الإسلامى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ٢٧ ـ النور ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ٦ ـ الحجرات .

---

(١) صعَّر خدَّه : أماله عُجبا وكبرًا .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مالك والشيخان :

« كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

والمجتمع الإسلامى نظيف عفيف لا تشيع فيه الفاحشة ، ولا ينتشر فيه التبرج ، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات ، ولا تحوم فيه الشهوات على الحرمات ، ولا ينطلق فيه سعار الجنس ـ ذلك أنه مجتمع تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ ١٩ ـ النور ، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ٢ ـ النور ، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ٣٠ ، ٣١ ـ النور . ويخاطب نساء النبى ، أطهر نساء الأرض ، ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ ٣٣ ـ الأحزاب . فى هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها ، ويأمن الزوج على زوجته ، حيث لا تقع العيون على المفاتن ، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم ـ فلا خيانة زوجية ولا رغائب مكبوتة .

والمجتمع الإسلامى يكفل لكل قادر عملا ، ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم ـ إذ يعتبر أهل كل حى مسئولين مسئولية جنائية لو مات فيهم جائع ، حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية .

كما يكفل لكل راغب فى الزواج والحصانة زوجة صالحة .

والمجتمع الإسلامى يحمى حريات الناس وحرماتهم وأموالهم وأرواحهم ـ فمع القصاص لا يذهب دم هدرا ، ومع الحدود لا يضيع على أحد ماله .

وهو مجتمع يخضع فيه البشر ، حاكمين ومحكومين ، لله ولشريعته ، فيقف الجميع متساوين مساواة حقيقية أمام أحكم الحاكمين .

هذه بعض معانى السلم التى تدعو الآية إلى الدخول فيه . فبعيدا عن هذا السلم ، تنطلق الحيرة ويعربد القلق فى النفوس رغم ما يتوفر من رخاء مادى . فالبشر ، كى يعوضوا خواء الروح بعد ضياع الإيمان وما يجلبه من طمأنينة وراحة بال ، يعكفون على المسكرات والمخدرات وتفترسهم الأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بكل قاذوراته ودنسه وتدمر نفوسهم وأعصابهم ، وتودى بهم إلى الانتحار ـ وهذا هو الحادث فى أمريكا وروسيا والسويد وباقى بلاد الغرب .

« ولا تتبعوا خطوات الشيطان » : ولا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليه الشيطان «إنه لكم عدو مبين» أى ظاهر العداوة .

٥١ ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾

﴿ هَلْ ينظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ ٢١٠ ـ البقرة (٢)

« قُضىَ الأمرُ » : تم الفصل والحكم فيه ، وانتهى كل شيء ـ ولا سبيل إلى تدارك مافات ! ونظرة إلَى السياق توضح معنى التعبير . هؤلاء الذين لا يدخلون فى السلم (الآية ٢٠٨) ماذا ينتظرون ؟ « هَلْ » يراد بها الجَحْد ، فالسؤال استنكارى . هل ينتظرون إلى يوم القيامة عندما يأتيهم أمر الله وحكمه ، وساعتها يكون كل شيء قد انتهى « وقضى الأمر » ، وطوى الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ؟

« ينظرون » ينتظرون ، نظرته وانتظرته بمعنىً .

« يأتيهم الله » ليس الكلام على ظاهره فى حقه سبحانه ، وإنما المعنى : يأتيهم أمر الله وحكمه ـ فلا يجوز أن يحمل الإتيان هنا على وجه الانتقال والحركة ، لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام ، تعالى الله الكبير المتعال ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام علوا كبيرا . ولهذا سكت بعضهم عن تأويل هذه الآية ، وقال ابن عباس : هذا من المكتوم الذى لا يفسر .

« ظلل من الغمام » : الظلل جمع ظُلّة وهى ما أظلك من شجر وغيره والغمام : السحاب الأبيض الرقيق ولا يكون ظلة إلا حيث يكون متراكبا .

٥٢ ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٢١٦ - البقرة (٢)

« عَسَى » من الله واجبة فى جميع القرآن إلا قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدلّه »، قال القرطبى .

ومعنى التعبير : عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم تَغلبون وتَظفرون وتَغنمون وتؤجرون ، ومن مات مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدَّعَةَ وتركَ القتال وهو شرّ لكم فى أنكم تُغلبون وتُذلون ويذهب أمرُكم [1] .

وإن هذا الإيحاء الذى يحمله هذا التعبير لا يقف عند حد القتال ، فالقتال ليس إلا مثلا لما تكرهه النفس ، ويكون من ورائه الخير ـ إن الإنسان لا يدرى أين يكون الخير وأين يكون الشر .

ففى يوم بدر خرج المسلمون يطلبون عيرَ قريش [2] وتجارتها ؛ ولكن الله جعل القافلة تفلت ، ولقاهم المقاتلة من قريش ـ فكان النصر الذى دوى فى الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام .

وكم من مطلوب كادت نفس الإنسان تذهب حسرات على فوته ، ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوّت عليه هذا المطلوب فى حينه . وقال الحسن فى معنى الآية : لا تكرهوا المُلمّات الواقعة ؛ فلَرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك ، ولرُبّ أمر تحبه فيه عطبك ؛ وأنشد أبو سعيد الضرير :

رُبّ أمرٍ تَتَقيه　　　جرّ أمرا تَرتضيه

خَفِى المحبوبُ منهُ　　　وبَدا المكروهُ فيه

« والله يعلم وأنتم لا تعلمون » أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبَرَ [3] بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم ـ فاستجيبوا له وانقادوا لأمره وسلموا إليه الأمر كله .

« كُرْهٌ لكم » كره يكرَه كُرْهًا ، فالكُرْه هنا بمعنى الكراهة ، على وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة ؛ وإما أن يكون كُرْه بمعنى مكروه ، جعل الفعل بمعنى المفعول ، كالخبز بمعنى المخبوز ، قاله الزمخشرى .

---

(١) قال القرطبى : وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق فى بلاد الأندلس ، تركوا الجهادَ وجَبُنوا عن القتال وأكثروا من الفرار ؛ فاستولى العدو على البلاد ، وأسَرَ وقَتَل وسَبَى واستَرقَّ .

(٢) العِير : ما جُلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير .

(٣) صفَة المقارنة مَن خبير ، والخبير : ذو الخِبرة الذى يخبُر الشىءَ بعلمه .

٥٣ ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

٢١٧ ـ البقرة (٢)

معنى الفتنة هنا : فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا ، قاله الجمهور . ومعنى فتنة المسلمين عن دينهم : إنزال أنواع التعذيب والأذى والبلايا لصرفهم عن دينهم ، وهذه الفتنة أعظم وزرا من القتل .

قال ابن كثير : كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » وفيه إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين ، وأنهم (الكفار) لا يتوقفون عن هذه العداوة حتى يردوهم (أى المسلمين) عن دينهم . و«حتى » معناها التعليل ، أى يقاتلونكم كى يردوكم . وقوله « إن استطاعوا » استبعاد لاستطاعتهم .

لقد صنع الكفار كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . وكفروا بالمسجد الحرام وانتهكوا حرمته وآذوا المسلمين فيه وأخرجوهم منه ، وهو الحرم الذى جعله الله آمنا . وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام . وفتنة الناس عن دينهم ـ طوال ثلاثة عشر عاما من الإيذاء والتعذيب قبل الهجرة ـ أكبر عند الله من القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم فى التحرز بحرمة البيت وحرمة الشهر الحرام . . فكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم .

إن الإسلام منهج واقعى للحياة ، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة ، إنه يواجه الحياة البشرية ـ كما هى ـ بعوائقها وملابساتها الواقعية ، يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها .

وهو يمضى على هذا المبدأ . ونأخذ الغيبة مثالا : إنه يحرم الغيبة ـ ولكن لا غيبة لفاسق ؛ فالفاسق الذى يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه . ومثال آخر هو الجهر بالسوء من القول الذى قال تعالى فيه : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » ١٤٨ ـ النساء فهو يستثنى المظلوم الذى يحق له أن يجهر بالسوء من القول فى حق ظالمه ، لأن السكوت عن الجهر بهذا الظلم والإعلان عنه إنما يُطمع الظالم فى الاحتماء بالمبدأ الكريم الذى لا يستحقه ـ فيُباح للمظلوم أن يجهر بما فى ظالمه من السوء ليدفع عن نفسه شره .

٥٤ ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ١٢٩ ـ البقرة (٢)

الإثم : تعنى بالإضافة إلى الذنب ، الشر والضرر ـ فلقد اجتمع فى الخمر الحرمة الشديدة وجلب الشر وإلحاق الضرر .

إثم الخمر (١) : ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاتمة وقول الفُحش والزور ، وزوال العقل الذى يعرف به ما يحب لخالقه ، وتعطيل الصلوات ، والتعوّق عن ذكر الله . روى النَّسائى عن عثمان رضى الله عنه قال : اجتنبوا الخمر فإنها أُم الخبائث . . . والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر .

ثم إن الشارب يصير ضُحكةً للعقلاء ، فيلعب ببوله وعَذرَته ، ورُئى بعضهم يمسح وجهه ببوله . ورُئى بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له : أكرمك الله .

وقد أثبت الطب أن تعاطى المخدرات يسبب التهاب الكبد ، وضعف المعدة ، وضعف مقاومة الجسم للأمراض وثبت من بحوث عديدة أن نسبة الوفيات بالمستشفيات العامة بين المدمنين ترتفع إلى خمسين فى المائة ، بينما لا تتجاوز نسبتها ـ فى غير المدمنين ـ أربعا وعشرين فى المائة .

وتأثيرها فى العقول ملموس . فقد تمت تجارب عديدة ثبت منها أن الغَوْل (الكحول) المتولد فى الخمر ، سبب مباشر لخُمس الإصابات فى مستشفيات الأمراض العقلية .

هذا فضلا عما تسببه من الجرائم الخلقية : فإنها تزين القبيح وتشوه الحسن ، وتدفع صاحبها دفعا إلى ارتكاب الموبقات والآثام والاعتداء على الحرمات .

والميسر : القمار ، مصدر يَسَرَ الشيءُ يَيْسرُ يُسْرًا : سَهُلَ . واشتقاقه من اليسر ، بمعنى السهولة ، لأنه أخذ الرجل مالَ غيره من غير كد ولا تعب . أو مشتق من اليَسَار (الغنى والثروة) لأنه سَلْب ثروة الغيْر وماله .

وإثم الميسر أنه يورث العداوة والبغضاء ، لأنه أكل مال الغير بالباطل . فهو يؤدى إلى إتلاف المال ، وإهمال الأعمال وتضييع الوقت ، والاتكال على الحظ ، والحرص على أكل أموال الناس بالباطل وما يترتب على هذا من إثارة العداوة والبغضاء فى النفوس . وكم من الثروات الطائلة تبددت على موائد القمار ، وفى ميادين السباق ؛ وكثيرا ما تمتد أيدى المقامرين إلى ما عندهم من أمانات فيكون مآلهم السجن ، وقد يصل بهم الأمر إلى الانتحار .

---

(١) يلحق بالخمر المخدرات مثل : الحشيش والأفيون والهروين والكوكاكيين . انظر : « التفسير الوسيط » .

والدور العظيم الذى قدره الله للأمة الإسلامية لا تتلاءم معه تلك المضيعة فى الخمر والميسر ، ولا تناسبه بعثرة العمر وبعثرة الوعى وبعثرة الجهد فى عبث الفارغين ، الذين لا تشغلهم إلا لذائذ أنفسهم ، أو الذين يطاردهم الفراغ والخواء فيغرقونه فى السكر والخمر والانشغال بالميسر ؛ أو الذين تطاردهم أنفسهم فيهربون منها فى الخُمار [1] والقمار [2] .

وأما منفعة الخمر فهى الربح من الاتجار فيها . وقيل أيضا إنها تهضم الطعام وتقوى الضعف . ومنفعة الميسر هى أن يصير إلى الناس ما تمت المراهنة عليه بغير كدّ ولا تعب ، فهو أكل المال بالباطل .

« وإثمهما أكبر من نفعهما » : أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعْوَدُ بالضرر فى الآخرة . ولقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم ، الخمرَ ولَعَن معها عشرة : بائعَها ومُبتاعَها والمشتراةَ له وعاصرَها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها .

والأشياء والأعمال قد لا تكون شرا خالصا ، فالخير يتلبس بالشر ، والشر يتلبس بالخير فى هذه الأرض . ولكن مدار الحلّ والحرُمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر ، وما فى الخمر والميسر من شر أكبر كثيرا مما فيهما من نفع . والخمر ، كما قال سيدنا عمر ، تُذهب المالَ وتُذهب العقلَ ، وهى أم الخبائث كما قال سيدنا عثمان .

ويستخدم هذا التعبير « وإثمهما أكبرُ من نفعهما » مجازا عند وصف الشىء الذى ضرره أكبر من نفعه ، أو الذى تكون مساوئه أكثر من مزاياه ، أو الذى تكون تكلفته أكبر من عائده .

وهذا التعبير كان أول خطوة من خطوات تحريم الخمر ؛ فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبرَ من النفع ، فتلك علة تحريم ومنع وإن لم يصرح هنا بالتحريم . أما الخطوة الثانية فكانت آية سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » والصلاة فى خمسة أوقات معظمها متقارب ، لا يكفى ما بينها للسكر والإفاقة ، وفى هذا تضييق لفرص مزاولة الشرب .

وقال سيدنا عمر : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » ، فنزلت الآية التى فى المائدة وفيها النهى الحازم الأخير بتحريم الخمر : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطانُ أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » فقال عمر : انتهينا ، انتهينا ، إنها تذهب المالَ وتذهب العقل .

« الْعَفْوَ » : ما فضل عن نفقة العيال ، أو هو السهل الميسور فكل ما زاد على نفقة العيال فهو محل للإنفاق .

---

(١) الخُمار : ما خالط الإنسان من سكر الخمر أو ما يصيب شاربها من ألمها وصداعها .

(٢) القِمار : كلُّ لعبٍ فيه مُراهنة .

٥٥ ﴿ ولا تقربوهن ﴾

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ٢٢٢ ـ البقرة (٢)

قَربَ الشيءَ يقْرَبُه قُربًا وقُربانًا : دنا منه . وقـربَه : باشـره . وقَرِب الرجلُ زوجـتَه : جامعها .

والتعبير عن الجماع بالقرب إنما هو من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة . وهذه وأشباهها فى كلام الله [1] آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ، ويتأدبوا بها ، ويتكلفوا مثلها فى محاوراتهم ومكاتباتهم .

« المحيض » مصدر حاضَت المرأة تحيض حَيْضًا ومَحيضًا ومحاضًا والحيض ضرر شرعًا وطبًا . ولذلك أكدت الآية على وجوب اعتزال النساء فىَ زمن الحيض : فوصفته بأنه أذى أى قَذَرَ وضرر ، وشددت على وجوب اعتزالهن (أى تجنب مجامعتهن) بإضافة « ولا تقربوهن » وإضافة « حتى يطهُرن » أى يتطهرن[2] بالاغتسال بعد انقطاع دم الحيض . وكررت الإشارة إلى وجوب التطهر بطريقة بديعة عندما قالت «فإذا تطهرن» فأفادت اشتراط التطهر . وجاء ختام الآية تأكيدا وتشديدا سادسا على وجوب التطهر بالهتاف الجميل : «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» .

إن الإسلام دين الطهر والنقاء ، والفطرة السليمة ولذلك أمر أن يكون إتيان النساء فى منبت الإخصاب دون سواه : « فأتوهن من حيث أمركم الله » وهو الفرج .

---

(١) من مثل ذلك قوله تعالى فى وصف النساء : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ١٨٧ ـ البقرة ، وقوله : « نساؤكم حرث لكم » ٢٢٣ ـ البقرة .

(٢) قرأ نافع وعاصم فى رواية حفص عنه « يَطْهرن ، والطُّهر : انقطاع دم الحيض . وقرأ حمزة والكسائى «يَطَّهَّرن» أى يتطهرن . والتطهر : الاغتسال . ورجح الطبرى قراءة تشديد الطاء وقال : هى بمعنى يغتسلن ، لإجماع الجميع على أن حراما على الرجل أن يقربَ امرأته بعد انقطاع الدم حتى تَطَّهَّر .

٥٦ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ ٢٢٣ ـ البقرة (٢)

حَرَثَ الأرضَ يحرثُها حَرْثًا : شَقها بالمحراث ليزرعها .

والحَرث : الأرض المحروثة (١) . واحترث الأرضَ : حرثها .

« نساؤكم حرث لكم » : تشبيه لأنهن مزدرع الذرية (أى مكان زرعها) ، ففرج المرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات . وأنشد ثعلب :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات .:. فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات والحرث بمعنى المحترث . وحَّد الحرث لأنه مصدر ؛ كما يقال : رجلٌ صومٌ وقومٌ صومٌ .

والتعبير بالحرث متسق مع السياق فى الآية السابقة : « فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » أى فى منبت الإخصاب دون سواه . فليس الهدف هو مطلق الشهوة ، إنما الغرض هو امتداد الحياة . إن السياق يتحدث عن الإخصاب والتوالد والنماء . سُئل مالك بن أنس : ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكَون الحرث إلا موضع الزرع ؟ لا تعدو (٢) الفرج . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » . وروى الإمام أحمد عن قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى » . وروى الثورى أن رجلا سأل عليا عن إتيان المرأة فى دبرها فقال : سفلت ، سفل الله بك ؛ ألم تسمع قول الله عز وجل : « أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العاملين » .

فالثابت عن مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة أنهم أنكروا ذلك أشد الانكار ، ومنهم من يطلق على فعله الكفر ، وهو مذهب جمهور العلماء . وهو أيضا ما قال به السلف : سعيد بن المسيب وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن وغيرهم .

« فأتوا حرثكم أنى شئتم » : جامعوهن كيف شئتم ، قائمات قاعدات مستلقيات مادام ذلك فى الفرج ولا يباح الإتيان فى غيره .

---

(١) حرث الدنيا : متاعها من مال وبنين وغيرهما . وحرث الآخرة : العمل الصالح الباقى .

(٢) لا تعدو الفرجَ : لا تجاوزه .

٥٧ ﴿ وَلا تجعلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانكُمْ ﴾

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٢٤ ـ البقرة (٢)

« عُرْضَة » : حاجزًا ومانعًا [١] وأوضح « التفسير الوسيط » معنى التعبير كما يلى : ولا تجعلوا الله ـ لأجل حلفكم به ـ عرضة وحاجزا يمنعكم عن البر والتقوى . وهو ، بهذا ، قدم كلمة «لأيمانكم » (التى فسرها بقوله : لأجل حلفكم به) على كلمة «عرضة » (التى فسرها بقوله : حاجزا أى ما نعا أن تبروا . وبعبارة أوضح يكون معنى التعبير : ولا تجعلوا الحلف بالله مانعًا لكم من عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس . وكان أحدهم يُدعى إلى برٍّ فيقول : حلفت ألا أفعله ؛ فيتعلل بيمينه ويترك فعل البر . فإذا حلف الإنسان على ترك خير ، فَلْيَفعل الخير ، ولْيُكَفِّر عن يمينه ، ولا يجعل اليمين مانعة له من عمل المعروف .

وقال الزمخشرى فى « الكشاف » : « ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم » أى حاجزا لما حلفتم عليه ، فالإيمان هنا هى الأشياء المحلوف عليها . سمى المحلوف عليه يمينا لتلبسه باليمين ، كما قال النبى ، ﷺ ، لعبد الرحمن بن سحرة : « إذا حلفت على يمين [٢] فرأيت غيرها خيرا منها فَأْت الذى هو خير وكفِّر عن يمينك » . قال ابن كثير : فالاستمرار على اليمين (أى التمسك بها فى هذه الحَالة) آثَمُ (أى أكثر إثما وذنبا) لصاحبها من الخروج منها بالتكفير (أى عن حلفها بإخراج كفارتها) .

أخرج ابن جرير أن الآية نزلت فى الصديق رضى الله عنه ، لَماَّ حَلَف ألا ينفق على مسطح بن خالته ، وكان من الفقراء المهاجرين ، لأنه شارك فى حديث الإفك ، فأنزلَ الله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ [٣] أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٤] » فرجع أبو بكر عن يمينه وكفر عنها .

هذا هو التفسير الذى قال به ابن عباس ومسروق والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل والربيع والضحاك والسدى ، رحمهم الله .

وهناك تفسير ثان أساسه أن كلمة « عرضةً » تعنى : المُعَرَّضَ للأمر ، فيكون معنى التعبير : ولا تجعلوا الله مُعَرَّضا لأيمانكم [٥] فتكثرون من الحلف به ، لأن فى ذلك جرأة على الله تعالى ؛ وعلة النهى عن كثرة الحلف بالله هى : « أن تبروا وتتقوا وتصلحوا » فالإكثار من الحلف بالله يكون معه الحنثُ ، والبعد عن الحلف أدعى للبر والتقوى .

« لأيمانكم » : الإيمان جمع يمين . وهى هنا اسم للحَلِف وهى فى الأصل مصدر لا فعل له ، تقول : حلفت يمينا ؛ ثَم أطلقت على المحلوف عليه .

---

(١) ويقال : سرتُ فَعَرَضَ لى فى الطريق عارضٌ أى مانع .

(٢) أى على شَىء مما يُحَلف عليه . وهذا الحديث أخرجه الأئمة الخمسة من رواية حسن البصرى .

(٣) آلَى يَأتلى أى يحلف : لا يحلف أصحاب الفضل والسعة فى المال على عدم الإحسان إلى من يستحقون الإحسان .

(٤) الآية ٢٢ ـ النور .

(٥) قال أبو تمام . دعونى أنُحْ وَجْدا كَنَوْح الحمائم ولا تجعلونى عُرضةً لِلَّوائم .

أى لا تجعلونى مُعَرَّضا للوم اللائمين .

٥٨ ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ ٢٣٣ ـ البقرة (٢)

الوُسْع : الطاقة والاحتمال . كلَّفه أمرًا : أوجبه عليه .

ومعنى التعبير أن التكليف يكون فى حدود الطاقة من غير إسراف ولا إقتار .

« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » أى على والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف أى بما عُرف وجرت عليه عادة أمثالهن فى بلدهن من غير إلزام الوالد بما يشق عليه ، بل يكون الأجر فى حدود طاقته . كما قال تعالى فى سورة الطلاق : « لينفق ذو سَعة [١] من سعته ومن قُدر عليه رزقه [٢] فلينُفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها [٣] الآية السابعة .

« لا تضارَّ والدةٌ بولدها » الفعل ضَارَّه يُضَارُّ مُضَارَّةً وضرارًا : ضَرَّه أى ألحق به أذى أو مكروهًا ، والمعنى : لا تضر والدةٌ زوجَها بسبب ولدها بأن تطلَب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شئون الولد .

«ولا مولود له بولده» أى لا يضر الأب (المولود له) زوجته المرضعة بسبب ولده ، بأن يمنعها شيئا مما وجب لها عليه من رزق أو كسوة أو يأخذ منها الصبى وهى تريد إرضاعه .

وقال بعض المفسرين إن كلمة « بالمعروف » [٤] يفسرها التعبير « لا تكلف نفس إلا وسعها» ، وما جاء بعد التعبير يزيد المعنى وضوحا .

قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى « تُضَارَّ » بفتح الراء المشَدَّدة ، وموضعه من الإعراب الجزم على النهى ؛ وأصله تضاررْ على الأصل ، فأدغمت الراء الأولى فى الثانية وفتحت الثانية لالتقاء الساكنين .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبَان عن عاصم : « تُضارُّ » بالرفع عطفا على قوله : « لا تكلفُ نفسٌ » وهو خبر والمراد به الأمر .

ويحتمل أن يكون الأصل « تضارِر » بكسر الراء الأولى ، وتكون « والدة » فاعل . ويحتمل أن يكون « تضارَر » بفتح الراء الأولى وتكون والدة نائب فاعل.

---

(١) السَّعَة : الغنى والطاقة . (٢) أى كان رزقه ضيقا .

(٣) إلاما آتاها : إلا بقدر ما أعطاها من الطاقة أو ومن الرزق .

(٤) قال الزمخشرى : « بالمعروف » تفسيره ما يعقبه ، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه ولا يتضاراً (أى لا يضر أحدُهما الآخر) .

٥٩ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ٢٣٥ ـ البقرة (٢)

يأتى هذا التحذير « واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه » فى ختام الآية وماقبلها من آيات تتحدث عن التشريع . فهذا التحذير يربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر . فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة قيمتها فى العلاقات بين الرجل والمرأة ، تلك العلاقات الشديدة الحساسية ، العالقة بالقلوب ، الغائرة فى الضمائر ـ وخشية الله ، والحذر مما يحيك فى الصدور أن يطلع عليه الله : هذه الخشية وهذا الحذر هما الضمانة الأخيرة لتنفيذ التشريع .

والتعبير ينطبق على كل صغيرة وكبيرة فى حياة النفس البشرية ، وعلى كل ما يعتمل فيها من خواطر وعزائم . فالله مطلع على كل ما يقع فى ضمائر البشر ، ما تعلق منها بأمور النساء وما تعلق بغير أمور النساء ، فاحذروه وخافوا أن تخالفوا أمره .

إنه تعبير يهز النفوس المؤمنة هزا ، ويزلزل القلوب خشيةً منَ الذى يعلم السر وأخفى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ٧ ـ طه ، والأخفىَ من السر هو حديث النفس وخواطرها ، أو هو المستور المخبوء فى الصدور .

٦٠ ﴿ وَأَن تَعفُوا أَقْرَبُ للتَّقْوَىٰ ﴾

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٧]

روى ابن جرير عن عكرمة قال : أذنَ اللهُ فى العفو وأمر به « وأن تعفو أقربُ للتقوى » : الخطاب هنا للرجال والنساء ، أى وأنَ تعفو المطلقات عن حقهن فى النصف ، لأن الأزواج لم يدخلوا بهن [١] ، وأن يعفوَ الأزواج فيعطون المطلقات أكثر من النصف جبرا لخاطرهن - أقربَ إلى التقوى ، والبادئ بالفضل أكرم .

عن جبير بن مُطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو . وعنه أنه دخل على سعد بن أبى وقاص فعرض عليه بنتاله فتزوجها ، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً ، فقيل له : لمَ تزوجتها ؟ فقال : عَرَضَها على فكرهت رده ، قيل : فَلمَ بعثت بالصداق ؟ قال : فأين الفضل ؟

« يعفون » أى يصفحن ويتركن النصف الذى وجب لهن عند الزوج . ولم تسقط النون مع « أنْ » لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع والنصب والجزم ، فالنون ضمير وليست علامة إعراب فلذلك لم تسقط ، ولو سقطت (أى النون) لاشتبه بالمذكر .

والعافيات ، أى اللاتى يعفون ، فى هذه الآية ، كل امرأة تملك أمر نفسها ، فأذن الله تعالى لهن فى إسقاط حقهن بعد وجوبه ، إذ جعله خالصا لهن يتصرفن فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شئن .

« وأن تَعْفُوا أقرب للتقوى » : ابتداء وخبر ، وهو خطاب للرجال والنساء فى قول ابن عباس ، فغلّب الذكور .

والعفو هو التجاوز عن الذنب ، وأصله المحو والطمس عفَا يَعْفو عَفْوًا فهو عاف وعَفُوٌّ ، والعَفُوُّ من أبنية المبالغة وهو من أسماء الله تعالى أى الكثير العفو [٢] .

ويقال : عفوتُ له عمّالى عليه إذا تركتُه له . رُوِىَ عن أبى هريرة أن النبى ، ﷺ، قال :

---

(١) تقول المرأة : ما رآنى ولا خدمته ولا استمتع بى فكيف آخذ منه شيئا ؟

(٢) وفى حديث أبى بكر ، رضى الله عنه : سلوا الله العفو والعافية والمعافاة . فأما العفو فهو محو الله تعالى ذنوب عبده ؛ وأما العافية فهو أن يعافيه الله من سقم أو بلية ؛ وأما المعافاة فهى مفاعلة من العفو ، وهى أن يعفو عن الناس ويعفوا هم عنه .

«كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه [1]. لعلّ الله أن يتجاوز عنا ـ فتجاوز الله عنه » .

وروى البخارى ومسلم وابن ماجة عن حُذيفة قال قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها : يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال [2] وكنتُ رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز [3] فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر [4] ، قال : فيقول الله عز وجل : « أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة » .

---

(١) اعفو عنه .

(٢) مالا زائدا عن الحاجة .

(٣) العفو عن المدين .

(٤) أمهله .

٦١ ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ ٢٣٧ ـ البقرة (٢)

الْفَضْل : الإحسان ابتداء بلا علّة .

« ولا تنسوُ الفضلَ بينكم » أى لا تجعلوا الفضل بينكم كالشيء المنسى ، وتتركوا التعامل به بينكم . والفضل هنا فى هذه الآية هو من جانب الزوج أن يدفع كل الصداق لزوجته التى لم يدخل بها جبرا لخاطرها ، ومن جانب الزوجة أن تترك النصف الذى لها لأن الزوج لم يستمتع بها ولم تخدمه .

وروى عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليأتينّ على الناس زمان عضوض [1] يعض المؤمن على ما فى يديه وينسى الفضل . وقد قال الله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » شرار يبايعون كل مضطر » . وقد نهى رسول الله ﷺ ، عن بيع المضطر وعن بيع الغَرَر [2] فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك ولا تَزِده هلاكا إلى هلاكه ، فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه .

يظل القرآن يلاحق القلوب كى تصفو وترف وتخلو من كل شائبة . يلاحقها باستجاشة شعور التقوى ، وباستجاشة شعور السماحة والتفضل . ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله ـ ليسود التجملُ والتفضلُ جوَّ العلاقات الإنسانية .

(انظر : وأن تعفو أقربُ للتقوى) .

---

(١) العَضُوض : الزمن الشديدُ الكلَب .

(٢) بَيْع الغَرَر : بيع ما يجهله المتبايعان ، أو مالا يوثق بتسلمه .

٦٢ ﴿ يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٢٤٥ ـ البقرة (٢)

القَرْض : ما تعطيه غيرك من مال على أن يردَّه إليك .

والله يدعونا ـ بهذا الأسلوب الاستفهامى البليغ ـ إلى بذل المال فى سبيله ابتغاءَ ثوابه ، وكأننا نقدم قرضا إلى مقترض . شبه ، سبحانه وتعالى ، عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثواب الله فى الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ١١١ ـ براءة .

فالآية تحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء المحتاجين والتوسعة عليهم ، وعلى الإنفاق فى سبيل الله بنصرة الدين .

وكَنَى اللهُ سبحانه عن الفقير بنفسه العَلِيَّة المنَزَّهَة عن الحاجات ترغيبا فى الصدقة ، كما كَنَى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام . ففى الصحيح عن الله تعالى : « يا ابن آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْنى واستطعمتك فلم تُطعمنى واستسقيتك فلم تسقنى» قال : يارب كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين ، قال : «استسقَاك عبدى فلان فلم تَسْقه أما إنك لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندى » . أخرجه مسلم والبخارى . وهذا كله خرج مخرجَ التشريف لمن كَنَى عنه ترغيبا لمن خوطب به .

وثواب القرض عظيم لأن فيه توسعةً على المسلم وتفريجا عنه . خَرَّج ابن ماجة فى سننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسْرِىَ بى على باب الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر فقلت لجبريل ما بال القَرْض أفْضَلُ من الصدقة قال لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

والقرض الحَسَن : ما كان بدون ربح أو فائدة تجارية . والمقصود بالقرض الحَسَن فى الآية أن يكون الغرض منه وجهَ الله ، لا الرياءَ ولا السمعة ، وأن يكون حلالا طيبا ؛ وقيل : لايَمُن به ولايؤذى .

ومع أن القرض مع الناس يُؤدَّى بمثله ، فإنه تعالى بيَّن لعباده أن القرض معه يؤدَّى مُضاعَفًا، إذ قال : « فيضاعفه له أضعافا كثيرة » ، وبين الله هذه المضاعفة فى أواخر السورة إذ يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]

« فيضاعفَه له » : قرأ عاصم وغيره « فيضاعفَه » بالألف ونصب الفاء . وقرأ ابن عامر ويعقوب « فيُضَعِّفَه » بالتشديد فى العين مع سقوط الألف ونصب الفاء . ودليل من شدَّد العين « أضعافا كثيرة » لأن التشديد للتكثير .

أما قرض الآدمى (بنى البشر فيما بينهم) : للواحد واحدٌ ، أى يرد عليه مثل ما أقرضه . وأجمع المسلمون نقلا عن نبيهم ﷺ أن اشتراط الزيادة فى السلف ربًا ولو كان قبضة من عَلَف أو حَبَّةً واحدة . ولا يجوز أن يُهدى من استقرض هديةً للمُقرض ، ولا يحل للمقرض قبولها إلا أن يكون عادتهما التهادى . قال رسول الله ﷺ : « إذا أقرض أحدكم أخاه قرضا فأهدى له أو حمله على دابته فلا يقبلها ولا يركبها إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك » .

« والله يقبضُ ويبسُطُ » أى يضيق الرزق على بعض ، ويوسعه على بعض . أو يضيقه تارة ويوسعه أخرى ، حسبما تقتضى حكمته . فإذا علمتم أنه هو واهب الأرزاق وأن ما عندكم هو من بسطه وعطائه فانفقوا ولا تبالوا .

لما نزلت ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؛ قال : « نعم يا أبا الدحداح فقال أبو الدحداح فإنى أقرضت ربى عز وجل حائطى [1] . وكان فيه ستمائة نخلة . وأنفق عثمان بن عفان فى تجهيز جيش العُسرة (جيش غزوة تبوك) ألف دينار غير الإبل والزاد .

التعبير موجود فى ١٢/ المائدة و ١٨ / الحديد وغيرهما .

---

(١) الحائط : البستان ، والجمع : حيطان وحوائط .

٦٣ ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ ٢٤٧ - البقرة (٢)

السَّعة : الطاقة والقوة . والسَّعة : الغنى والرفاهية .

« سَعَةً من المال » بَسْطَة (أى زيادة) فيه .

لمـــا فَسَق [١] بنو إسرائيل وقتلوا أنبياءهم ، سلَّط الله عليهم جيرانهم العبرانيين الذين استولوا على الكثير من البلاد الإسرائيلية وأسروا أشراف بنى إسرائيل واستباحوا نساءهم .

عندئذ طلب بنو إسرائيل من نبيهم يوشع ، عليه السلام أن يقيم عليهم ملكا [٢] يوحدهم ويقودهم فى محاربة العبرانيين . فاختار لهم طالوت ملكا عليهم ، لكنهم احتجوا بأن طالوت فقير وليس عنده مال كما أنه لم يكن من سبط الملك يهوذا ولا من سبط لاوى الذى فيه الأنبياء ، والملك عندهم يتوقف على الحسب واليَسَار .

قال الزمخشرى : كان طالوت سَقّاءً أو دبّاغا فقيرا . وروى أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكا ، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت .

---

(١) فَسَقَ : عَصَا وجاوز حدود الشرع .

(٢) كان الملك فى بنى إسرائيل هو الذى يسير بالجموع ، أما النبى فكان يشير على الملك ويرشده ، فيطيع الملك أمره .

٦٤ ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾٢٤٧ ـ البقرة (٢)

بَسَطَ الشيءَ يَبْسُطه بَسْطًا : نَشَرَه . وبَسَطَ اللهُ الرزقَ لعباده : كَثَّرَه ووَسَّعَه ، و «البَاسِط» من أسمائه عز وجل .

والبَسْطة : الزيادة .

ومعنى التعبير أن الله أعطاه العلم الواسع والجسَامة . وهذان سببان لاصطفاء الله واختياره لطالوت كى يكون ملكا على بنى إسرائيل (انظر : التعبير السابق » ولم يؤتَ سعةً من المالّ) . فالعلم ملاك الإنسان (١) ، والجسم معينُه فى الحرب وعدتُه عند اللقاء . فتضمن التعبير بيان صفة الإمام ، وأن الإمامة مستحقة بالعلم والدين والقوة وليس بالنسب .

قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ أعْلَمَ رجل فى بنى إسرائيل وكان أتمّهم جسما ، وزيادة الجسم مما يَهيب العدوَّ .

وزيادة الجسم لا تعنى مجرد عِظم الجسم ، وإنما هى كثرة معانى الخير والشجاعة(٢) .

---

(١) ملاكُ الأمر : قوامُه وخلاصته ، أو عنصره الجوهرى .

(٢) قال العباس بنَ مرداس :

تَرى الرجُلَ النحيفَ فَتزدَريه ∴ وفى أثوابه أسَدٌ هَصُورُ
ويُعجبك الطَريرُ فَتَبْتَليه ∴ فيُخْلف ظنك الرجلُ الطريرُ
وقد عَظُم البَعيرُ بغير لَبٍّ ∴ فلم يَسْتَغْنِ بالعظم البعيرُ

الطرير : ذو الرواء والمنظر . والهصور : الشديد الذى يفترس .

٦٥ ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ٢٤٩ ـ البقرة (٢)

الفئة : الجماعة من الناس والقطعة منهم ؛ من فَأَوْتُ رأسه بالسيف وفَأَيْتُه أى قطعته .

وكم من جماعة قليلة العَدَد والعُدَد ، استعصمت بإيمانها بالله وتوكلت عليه ، فغلبت فئة كثيرة العَدَد والعُدَد . وفى التعبير تحريض على القتال ، واستشعارٌ للصبر واقتداءٌ بمن صَدَّق ربه .

وجاءت في القرآن الكريم آيات عديدة تبين أسباب النصر وشروطه : **﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا**[١] **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾** ٤٥ ـ الأنفال ؛ **﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**[٢] **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾** ٤٠ ـ الحج ؛ **﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾**[٣] ؛ **﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا**[٤] **وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾** ١٢٨ ـ النحل ؛ **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**[٥] **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾** ٢٠٠ ـ آل عمران . وفى البخارى عن أبى الدرداء قوله : إنما تقاتلون بأعمالكم . وفيه قول النبى ﷺ : « هل تُرزقون وتُنصرون إلا بضعفائكم » .

هذا هو طالوت قائد جيش بنى إسرائيل يواجه جيش العبرانيين الغالب القاهر ، فكيف يواجههم طالوت إلا بتفجير الإرادة الكامنة فى ضمير جيشه . ولابد له أن يختبر هذه الإرادة وصمودها للرغبات ، وصبرها على الحرمان والمتاعب ، وإيثارها للطاعة . كان جنوده عطاشا وعندما وصلوا النهر ، أمرهم ألا يشربوا منه إلا غُرفة [٦] تبل العطش ، فلم ينفذ أمره سوى القليل منهم ، أما الأكثرون فشربوا وارتَوَوْا وتخلفوا عن القتال . وسارت القلة المؤمنة مع

---

(١) أى لا تفروا ولا تضطربوا .

(٢) أى ينصر دينَه وأولياءه .

(٣) اعتمد عليه وفوَّضَ أمره إليه سبحانه مع اتخاذ الأسباب وإعداد العدة .

(٤) اتقَوْا : تركوا المحرمات .

(٥) رابَطَ يُرابط رِبَاطا ومُرابطة : لازم الثغر وموضع المخافة ، كان كل فريق يربط خيله فى ثغوره استعدادا للحرب .

(٦) الغُرْفَة : اسم للشىء المُغْتَرَف ، وأما الغَرفة فهى اسم للمرة الواحدة من الغَرف ، وقيل : هما لغتان بمعنى واحد . رخص لهم فى الأخذ باليد دون الكرْع (والكرع تناول الماء بالفم من موضعه من غير أن يشرب بكفيه أو بإناء) .

طالوت لملاقاة الأعداء ؛ فلما نظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليل ، أوجس بعضهم خيفة وقالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ، قالوا هذا إظهارا للواقع الذى يرونه أمامهم ورجاء المعونة من الله .

أما أفضلهم وخلصاؤهم المستيقنون أنهم ملاقو جزاء الله يوم القيامة فقالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . و « كم » هنا خبرية تدل على عدد كثير ، والمعنى أنه حدث كثيرا وكثيرا أن غلبت فئة مؤمنة قليلة العدد فئة كافرة كثيرة العدد . وهذه هى القاعدة فى حس الذين يظنون أنهم ملاقو الله : الفئة المؤمنة تكون قليلة لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق حتى تصل إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار ، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ـ بالله الغالب على أمره القاهر فوق عباده . وهم يكلون هذا النصر لله : « بإذن الله » ويعللونه بعلته الحقيقية : «والله مع الصابرين» ، فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة .

٦٦ ﴿ أَفْرِغْ علَيْنَا صبراً ﴾

﴿ ولَمَّا برزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٥٠ ـ البقرة (٢)

أفرَغَ الشىءَ : ألقاه من وعائه .

وأفرغ الذهَبَ والفضةَ ونحوَهما من المعادن المصهورة : صبَّها .

وأفرغَ اللهُ الصبرَ على القلوب : أنزَلَه .

« ربنا أفرغ علينا صبرا » أى أنزلْ علينا من عندك صبرا عظيما غامرا يشملنا ويقوى نفوسَنا ـ هذا التعبير يصور مشهدَ الصبرَ فيْضًا من الله يفرغُه عليهم فيغمرهم ، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة .

فالفئة القليلة الواثقة ، الصابرة الثابتة ، التى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، هى التى تقرر مصير المعركة بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده .

والتعبير موجود فى الآية ١٢٦ ـ الأعراف .

٦٧ ﴿ وثَبِّتْ أَقْدَامنَا ﴾

﴿ ولَمَّا برزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٥٠ ـ البقرة (٢)

ثَبَّتَ فلانًا : مكنّه من الثبات عند الشدة ، والثبات : الاستقرار والرزانة والحزم .

« وثَبِّت أقدامنا » : فهى فى يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد . وإنما يكون تثبيته ببث الطمأنينة فى النفوس عند لقاء العدو ، فإن طمأنينة النفس تهب القوة والثبات . قال ابن كثير : جَنِّبْنَا الفرارَ والعجز .

والتعبير موجود فى ١٤٧ ـ آل عمران ، ١١ ـ الأنفال ، ٧ ـ محمد .

٦٨ ﴿ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا ﴾

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٥٦

ـ البقرة (٢)

استَمْسَكَ : مَسَكَ بقوة .

والعُروةُ من الدلو أو الكوز ونحوهما : مَقْبِضُهُ .

والعروة : ما يُستمسك به ويُعْتَصم (على المجاز)

« الوثقى » : تأنيث الأوثق ؛ من وثق وَثَاقَة أى قوى وثَبُتَ فهو وثيق أى ثابت ومحكم وأفعل التفضيل منه أوْثَق فالوثقى : الأشد والأحكم .

« استمسك بالعروة الوثقى » ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والسبب الأوثق الذى يصله بالحق .

« لا انفصام لها » : لا انقطاع لها ولا زوال .

« فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » : فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم ؛ فهى فى نفسها محكمة مُبرمة قوية وربطها قوى شديد (١) .

« الطاغوت » : الشيطان ، أو كل ذى طغيان ، أو كل معبود سوى الله تعالى ، من طغا يطغَى إذا جاوز الحد بزيادة عليه . ومنه كل منهج أو تقليد أو وضع غير مستمد من الله .

المعنى الكلى للآية : من خلع الأنداد والأوثان ، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، وعبد الله وحده وشهد أن لا إله إلا هو ، فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم .

---

(١) قال الزمخشرى : هذا تمثيل للمعلوم بالنظر ، والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه ، فيحكم اعتقاده والتيقن به .

٦٩ ﴿ وَلا تيمموا الْخَبيثَ منْهُ تُنفقُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيـــنَ آمَنُوا أَنــــفِقُوا من طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيـــهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ٢٦٧ ـ البقرة(٢)

يَمَّمَه : قَصدَه وتَوَخَّاه وتَعَمَّدَه . وأيضا : تَيَمَّمه .

والتيمم [١] فى اللغة : القصد، وفى أشعار العرب شواهد على أن التيمم هو القصد [٢].

« الخبيث » الدُّون (الخسيس الحقير) والردئ .

فالتعبير يبين الأساس الذى تقوم عليه الصدقة ، وهو أن يكون الجُودُ (البذل والعطاء) بأفضل الموجود ، فلا تكون بالدون والردئ الذى يعافه صاحبه ، ولو قدم إليه مثله فى إحدى المعاملَات ما قبله إلا أن ينْقصَ من قيمته (وهذا معنى قوله تعالى : « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) . فالله أغنى عن تقبل الردئ الخبيث ـ « واعلموا أن الله غنى حميد » .

ويمكن أن يكون معنى الخبيث : الحرام .

فمعنى التعبير هو : ولا تعمدوا الى الردئ من أموالكم وممتلكاتكم ، أو الحرام منها ، لتنفقوا منه .

روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال : نزلت فى الأنصار . كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل [٣] ، أخرجت من حيطانها [٤] البُسْرَ فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين [٥] فى مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه . فيعمد الرجل منهم إلى الْحَشَف [٦] فيدخله مع قناء البُسر ، يظن أن ذلك جائز . فأنزل الله فيمن فعل ذلك : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

وفى رواية ابن أبى حاتم عن البراء أيضا قال : نزلت فينا ، كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته ، فيأتى رجل بالقنو ، فيعلقه فى المسجد . وكان أهل الصفة

---

(١) والتيمم للصلاة : مسح الوجه واليدين بالتراب فى حالة عدم وجود الماء .

(٢) من ذلك قول الشافعى : علمى معى حيثُ يَممتُ أحملُه ∴ بطنى وعاءٌ له لابطن صندوق

وقال آخر : إنى كذاك إذا ماساءنى بلدٌ ∴ يَمَّمتُ بعيرى غيرَه بلدَا

(٣) قطع ثماره . (٤) أى بساتينها ، والبُسْر : ثمر النخل قبل أن يُرطِبَ .

(٥) العمودين . (٦) الحَشَف : أردأ التمر .

ليس لهم طعام . فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه ، فسقط منه البُسْر والتمر فيأكل ، وكان أناس ممن لا يرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص ، فيأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه ، فنزلت : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » . قال : لو أن أحدكم أُهدى له مثلُ ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض فيه . فكنا بعد ذلك يجىء الرجلُ منا بصالح ما عنده .

وفى معنى التعبير قال ابن عباس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه ، فإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبا . وفى الآية نداء عام للذين آمنوا - فى كل وقت وفى كل جيل - يشمل جميع الأموال التى تصل إلى أيديهم وتشمل ما كسبوه من حلال طيب ، وما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبترول .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسّم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه اللهُ الدينَ فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمنَ جارُه بوائقَه » - قالوا وما بوائقه يا نبى الله ؟ قال : «غشه وظلمه ، ولا يكسب عبدٌ مالاً من حرام فينفق منه فيُبارك له فيه ، ولا يتصدق فيُقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السىء بالسىء ولكن يمحو السىء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

« واعلموا أن الله غنى حميد » : فمن تصدق بصدقة من كَسْب طيب فليعلم أن الله غنى واسع العطاء ، كريم جواد ، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة .

٧٠ ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ٢٦٧ ـ البقرة(٢)

« ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » : أى أنكم لا تأخذون هذا الدون والردئ (الخبيث) من السلع والأشياء لو وجدتموه فى السوق يباع إلا أن يُهضَم لكم من ثمنه أى يترك منه شيء»، ولو أُهْدِى لكم هذا الدون فإنكم تقبلونه استحياءً مِنَ المُهْدِى .

أَغْمَضَ فلانٌ فى السلعة : استحط من ثمنها لرداءتها .

والإغماض فى اللغة : غَض البصر وإطباقُ الْجَفْن على الجفن ، ثم استعير للتغافل والتساهل[1] ، والمراد هنا : أنكم تتسامحون فى أخذ الردئ وتقبلونه تساهلا فى بعض حقكم ـ وعلى هذا فلتعطوا الناسَ مثلَ ما تحبون أن تأخذوا منهم ، وكأن هذا عتاب للناس أى فلا تفعلوا مع الله مالا ترضونه لأنفسكم .

قال ابن عباس : كانوا يتصدقون بحشف التمر وشِراره فَنُهُوا عنه . والله أغنى عن أن يتقبل الردئ والخبيث .

---

(١) قال القرطبى : أغمض الرجلُ فى أمر كذا إذا تساهل فيه ورضى ببعض حقه وتجاوز عن البعض الآخر ، قال الطِرِمّاح :

لم يَفُتْنا بالوَتْرِ قومٌ وللذُّ   لّ أناسٌ يَرضَوْن بالإغماض

وقد يحتمل أن يكون منتزعا من تغميض العين ، لأن الذى يريد الصبر على مكروه يغمض عينيه ، قال الشاعر :

إلى كَمْ وكَمْ أشياء منك تُرِيبُنى   أُغَمِّض عنها لَسْتُ عنها بذى عَمَى

٧١ ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾٢٧٣ ـ البقرة (٢)

« ضَرْبًا فى الأرض » : سعيا فيها للتكسُّب وجلب الرزق . ضَرَبَ الرجلُ فى الأرض : ذَهَبَ وأَبْعدَ ، وسار فى البلاد وتَقَلَّب فيها ابتغاء المكاسب والعيش ، وسُمِّىَ السيرُ ضَرْبا لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل .

قال ابن كثير : الضرب فى الأرض يعنى السفر للتسبب فى طلب المعاش ؛ والضرب فى الأرض هو السفر ، قال تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » ٢٠ ـ المزمل

« للفقراء » : اللام متعلقة بمحذوف تقديره الإنفاق أو الصدقة للفقراء الذين «أحصروا فى سبيل الله» أى أحْصَرهم الجهاد فلا « يستطيعون ضربا فى الأرض » للكسب لانشَغالهم بالجهاد . وقيل فى معنى « أحصروا فى سبيل الله » أى حبسوا أنفسهم عن التصرف فى معايشهم خوف العدو ، ولهذا قال تعالى «لايستطيعون ضربا فى الأرض » لكون البلاد كلها كفرا مُطبقا ، وكان هذا فى صدر الإسلام .

وقيل عن هؤلاء الفقراء : هم أصحابُ الصُّفَّة ، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجرى قريش لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، فكانوا فى صُفَّة المسجد أى سقيفته ، وكانوا يتعلمون القرآن بالليل ويخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله ﷺ . فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى .

قال صاحب « الظلال » : كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين ، تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم ، وأقاموا فى المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله وحراسة رسوله ﷺ ، كأهل الصُّفة الذين كانوا بالمسجد حرسا لبيوت الرسول ﷺ لا يخلص إليها من دونهم عدو . وأحصروا فى الجهاد لا يستطيعون ضربا فى الأرض للتجارة والكسب ـ وهم مع هذا لا يسألون الناسَ شيئا .

٧٢ ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ٢٧٣ ـ البقرة (٢)

« يحسبهم الجاهلُ أغنياء من التعفف » : يظنهم الجاهلُ بحالهم مستغنين بسبب تعففهم وامتناعهم عن السؤال .

والتعففُ : ترك الشيء والإعراضُ عنه ؛ بقهر النفس وحملها عليه . يقال عَفَّ عن الشيء يَعف إذا كَفّ عنه . وتعفف إذا تكلف الإمساك عنه . قال القرطبي : والتعفف تفعّل ، وهو بناء مبالغة من عَفّ عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه .

وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطَن له فيُتَصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضا .

والنص عام ينطبق على الكرام المعوزين في كل زمان ، أولئك الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب قهرا ، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون . إنهم يتجملون كي لا تظهر حاجتهم ، يحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء لتعففهم عن إظهار الحاجة ـ لكن ذا الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يفطن إلى حقيقة حالهم .

[راجع تعبير : « لا يسألون الناس إلحافًا]

﴿ تَعْرِفُهُم بسيمَاهُمْ ﴾ ٧٣

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ٢٧٣ - البقرة (٢)

السِّيما (مقصورة) : العلامة ، وقد تمد فيقال : السيماء . وقد اختلف العلماء فى تعيينها وتحديدها هنا ؛ فقال مجاهد : هى الخشوع والتواضع . وقال السّدى : هى أثر الفاقة والحاجة فى وجوههم وقلة النعمة . وقال ابن زيد : رثَاثة ثيابهم [1] .

والسّيما من الوَشم بمعنى العلامة .

« تعرفهم بسيماهم » : تعرف فقرهم بما يُرى عليهم من الضعف والرثاثة ، أو بما يبدو عليهم من الخشوع والتواضع ، أو صفرة الوجوه والجهد والانكسار ، فالمشاعر النفسية تبدو عليهم وهم يدارونها فى حياء .

[راجع تعبير : « لا يسألون الناس إلحافًا]

---

(١) أما السِّيما التى هى أثر السجود ، فقد اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى فى آخر سورة « الفتح » بقوله « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

٧٤ ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ٢٧٣ ـ البقرة (٢)

ألحفَ السائلُ إلحافًا : ألحَّ ، أو طلب المسألة (الصدقة) وهو مستغنٍ عنها ، فهو مُلحفٌ .

والإلحاف : الإلحاح ، وأن لا يفارق السائلُ المسئول إلا بشيء يُعطاه . وهو من قولهم : لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده .

« إلحافًا » : مصدر فى موضع الحال ، أى مُلحفين . واشتقاق الإلحاف من اللحاف ، سُمِّىَ بذلك لا شتماله على وجوه الطلب فى المسألة كاشتمال اللحاف من التغطية ، أى أن هذا السائل يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك .

وجمهور المفسرين على أن معنى « لا يسألون الناس إلحافًا » أى لا يسألون البتة ، فهم متعففون عن المسألة عفة تامة . وقال قوم : المراد نفى الإلحاف أى يسألون غير ملحفين ، وهذا أول ما يتبادر إلى الذهن .

وفى الآية تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافا . فعن النبى ﷺ : « إن الله تعالى يحب الحَيِىَّ الحليمَ المتعففَ ، ويبغض البذىَّ السَّئال الملحف » . وفى صحيح مسلم عن معاوية بنَ أبى سفيان أن النبى ﷺ قال : « لا تُلحفوا فى المسألة فو الله لا يسألنى أحد منكم شيئا فتُخرجُ له مسألته منى شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته » وفى حديث أبى سعيد الخُدرى : « من استعَفَّ أعفَّه اللهُ » . وحديث أبى ذر عن النبى ﷺ قال له : « تَعَفَّفْ » .

والإلحاح فى المسألة والإلحاف فيها ، مع الغنى عنها ، حرام لا يحل . قال رسول الله ﷺ : « من سأل الناسَ أموالَهم تكثرا فإنما يسأل جمرًا فَلْيَستَقل أو لَيْستكثر » رواه أبو هريرة فى صحيح مسلم . وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « لا تزَال المَسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مُزْعَة[1] لحم » رواه مسلم أيضا .

وأباح النبى ﷺ ، سؤال أهل الفضل والصلاح عند الحاجة إلى ذلك . روى أبو داود والنَّسائى وغيرُهما أن الفراسىَّ قال لرسول الله ، ﷺ : أسألُ يا رسول الله ؟ قال : « لا وإن كنتَ سائلا لابد فاسأل الصالحين » . وإن أوقع السائل حاجته بالله فهو أعلى . قال إبراهيم

---

(١) المزْعَة : القطعة . هذا المُلحف فى السؤال يُحشَر ووجهُه عَظمٌ لا لحم عليه عقوبةً له .

بن أدهم : سؤال الحاجات من الناس هى الحجاب بينك وبين الله تعالى ، فأنزل حاجتك بمن يملك الضرِّ والنفع ، وليكن مفزَعُك إلى الله تعالى يكفيك اللهُ ماسواه وتعيش مَسرورا .

أما إذا جاء الإنسانَ شىءٌ من غير سؤال فله أن يقبله ولا يرده ، إذ هو رزق رزقه الله . وفى ذلك ما قاله النبى ﷺ لسيدنا عمر بن الخطاب : « ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق رزقكه الله » .

الآية ترسم صورة عميقة الإيحاء لذلك النموذج الكريم الذى يتعفف عن السؤال رغم الحاجة . وكل جملة إنما هى لمسة ريشة ترسم ملمحا وتبين سمة أو انفعالا ، وبعد إتمام قراءة الآية تتجلى الوجوه نابضة بالحياة .

وختام الآية يوحى بأن يكون العطاء لهؤلاء المتعففين فى الخفاء وبتلطف لايخدش إباءهم ولا يجرح كرامتهم ؛ فهم ، رغم فقرهم ، كرام يكتمون الحاجة كأنما يغطون العورة ـ لكن الله يطمئن من يبذل لهم العطاء ، بأنه عليم بعطائهم ومجازيهم عليه ، فهو يعلم السر ولا يضيع عنده الخير : « وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

٧٥ ﴿ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

٢٧٥ ـ البقرة (٢)

« يتخبَّطُه الشيطانُ » يَتَخَبَّلُه ويصرعه بسبب مَسِّه إياه . وفى « المعجم الوسيط » : خَبَط الشيطانُ فلانًا وتخبَّطه : أصابه بشىء من الجنون والصرع . كان العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيُصرَع ، والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء ، فورد التعبير على ما كانوا يعتقدون .

والمس : الجنون ، ومنه رجل مَمْسُوس ، وهذا أيضا من زعمات العرب ، يزعمون أن الجنى يمس الرجلَ فيختلط عقله (أى يَفْسَد) . وكذلك جُنّ الرجلُ معناه ضربته الجن .

ومعنى التعبير أن المتعاملين بالربا المستحلين له لا يقومون يوم القيامة إلا كقيام المصروع الذى تخبله الشيطان وصرعَه ، فهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله فى بطونهم حتى أثقلهم ، فلا يقدرون على الإيفاض (أى العدو والإسراع) ـ وتلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف . قال الإمام القفال : هو تشبيه جاء على ما تعارفوه (أى العرب) من إضافة الصَّرَع وكل شىء قبيح إلى الشيطان .

وجمهور المفسرين على أن المقصود بالقيام فى هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث ، لكنا نرى هذه الصورة واقعة وقائمة فى حياة البشرية التى تتخبط كالممسوس فى ظل النظام الربوى .

فالمجتمع الذى يقوم كله على الأساس الربوى أهله كلهم ملعونون ، ومعرضون لحرب الله ومطرودون من رحمته . إنهم لا يقومون فى الحياة إلا قيام الممسوس المضطرب ، القلق المتخبط ؛ الذى لا ينال استقرارا ولا راحة ولا طمأنينة ـ إن العالم الذى نعيش فيه اليوم هو ، بإجماع الجميع ، عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصيبة والنفسية . وما فائدة الحضارة المادية والرخاء المادى إذا لم ينشىء فى النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة؟ إنها الشقوة البائسة والنكد المنكود .

ويتفق مع هذا ما قاله الفخر الرازى من أن المراد بمس الشيطان : دعاؤه إلى طلب الملذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، فمن استجاب له كان متخبطا فى أمر الدنيا .

والذين يأكلون الربا ليسواهم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم ـ وإن كانوا هم أول المهددين بهذا النص المرعب ـ وإنما هم أهل المجتمع الربوى كلهم . عن جابر بن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ ، آكل الربا وموكله ، وشاهديه وكاتبه ، وقال : «هم سواء » رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى .

٧٦ ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾٢٨٠ ـ البقرة (٢)

المعنى : وإن كان ذو عسرة أى ذو ضيق وعسر مالى مدينا لكم ، فنظرة أى فيجب إمهاله إلى ميسرة أى إلى أن يوسع الله عليه .

والعُسْرَة : ضيقُ ذات اليد ، والعجز عن الوفاء بالدْين ، من الفعل عَسرَ الأمر والزمان : صعُب واشتد .

والنَّظرة : الانتظار ، من الفعل نَظَره ينظره نَظَرًا ونَظِرًا : أخَّره وأمهله .

والميَسَرة : مصدر ميمى وهى السهولة ، وهى الغنى والثراء من الفعل يَسَر فلانٌ يَسَارًا ويُسْرًا : استغنى .

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاءً أى لا يجد ما يَسُد به الدين الذى عليه . واستنبط جمهور العلماء من هذه الآية وجوب إنظار المعسر وإمهاله حتى يُيسِّر الله عليه ، سواءٌ أكان مدينا فى دين ربا أو غيره ، لأن الآية برفع « ذو عُسْرة » معناها : وإن وقع فى الدين ذو عسرة من الناس .

وكان أهل الجاهلية يقول أحدُهم لمدينه ، إذا حَلَّ عليه الدين : إما أن تَقْضِى (أى تسدد الدينَ) وإما أن تُرْبِى أى تدفع الربا زيادة عَلى ما أخذتَ .

وروى فى سبب نزول الآية أن ثقيفا لما طلبوا أموالهم من بنى المغيرة ، شكابنو المغيرة العسرة . وقالوا : ليس لدينا مال ندفعه لكم ، فأمهلونا إلى وقت طيب الثمار ، فأبوا أن يمهلوهم ، فنزلت الآية بوجوب إنظار المعسر .

وتحبب الآية وتندب إلى الوضع عن المعسر أى التنازل عن بعض أو كل ما عليه من دين ، وتَعدُ على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال تعالى : « وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلَمون» أى : وإن تتصدقوا على المعسر بكل ما لكم عليه أو ببعضه فهو خيرٌ وأكثر ثوابا لكم من إنظاره ، فإن المعسر بحاجة إلى البر والمعونة أكثر من الإمهال ليسد عوزه ويطعم أهله ويكسوهم .

وقد وردت فى فضل ذلك أحاديث كثيرة . روى الطبرانى عن أبى أمامة أسعد ابن زرارة قال قال رسول الله ﷺ : « من سَرَّهُ أن يُظلهُ اللهُ يومَ لا ظل إلا ظلُّه فلييُسّر على معسر أو ليضعَ عنه » . وروى الإمام أحمد عن بريدَة قال : قلتُ سَمعتك يا رسول الله تقول : « من

انظر مُعسرا فله بكل يوم مثلُه صدقةٌ » ، ثم سمعتك تقول : « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة » فقال النبىَ ، صلى الله عليه وسلم : « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحلَّ الدين[1] . فإذا حَلَّ الدينُ فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة » .

وروى مسلم فى صحيحه قول النبى ﷺ : « من نَفَّس عن غريمه[2] أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » . أخرج البخارى ومسلم وابن ماجة عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها : يارب إنك كنت أعطيتنى فَضْلَ[3] مال وكنت رجلا أبايعُ الناس ، وكان من خلقى الجواز[4] فكنت أيَسِّر على الموسر وأنظر المعسر ، قال فيقول الله عز وجل : أنا أحق من يُيَسِّر ، ادخل الجنة ! » وروى الإمام أحمد عَن ابن عمر قال رسول الله ﷺ « من أراد أن تستجابَ دعوتُه وأن تكشف كربتُه فليفرج عن معسر » .

إنها السماحة الندية التى يحملها الإسلام للبشرية ، إنه الظل الظليل الذى تأوى إليه البشرية المتعبة المنهكة فى هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار ، إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع .

إن المعسر ـ فى الإسلام ـ لايُطارَد من صاحب الدين أو من المحاكم ، إنما يُنظر حتى يوسر . ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين ، فالنص القرآنى جعل لهذا المدين المعسَر ـ أى الغارم ـ حظا من مصارف الزكاة ليؤدى دينه وييسر حياته ؛ ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ ٦٠ ـ التوبة ، والغارمون هم أصحاب الديون الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم ولذائذهم ، إنما أنفقوها فى الطيب النظيف ، ثم قعدت بهم الظروف !

---

(١) حَلَّ الدينُ حُلولا : وَجَبَ أداؤه . (٢) نفَّس : فرَّج ، والغريم : المدين ، ومَحَا عنه : تنازل له عن الدين .

(٣) الفضل : الزيادةُ .

(٤) أى التساهل والتسامح فى البيع والاقتضاء . أو مايُعطاه المَدين المعسر من مهلة حتى يتيسر له السداد . وفى لسان العرب » : تجاوز الله عنه أى عفا وقولهم : اللهم تجوز عنى وتجاوز عنى بمعنى .

٧٧ ﴿ وَأَقْوَمُ للشَّهَادَة ﴾

﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا ﴾٢٨٢ ـ البقرة (٢)

« أَقْوَمُ للشَّهَادة » : أعْوَنُ على إقامة الشهادة . وأفْعَلُ التفضيل (أقومُ) من قويم أى الحَسَنُ القيام بالأمور ، من الفعل أقامَ الشىءَ : أنشأه مُوَفىّ حقَّه .

فهذا الذى أمرناكم به من كتابة الدين أو الحق ، صغيرا أو كبيرا ، قليلا أو كثيرا ، أعْدَلُ عند الله ، وأعْوَنُ على أداء الشهادة على وجهها . فهو أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة ، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع فى أغلب الأحيان . فالشهادة على مكتوب أقوى من الشهادة الشفوية التى تعتمد على الذاكرة وحدها .

الآية تؤكد ضرورة كتابة الدين ـ كَبُر أم صَغُر ـ وتعالج ما قد يخطر للنفس من استثقال الكتابة بحجة أن الدين صغير لا يستحق الكتابة أو لدواعى التجمل والحياء أو الكسل .

وتورد الآية أسباب التشديد فى وجوب الكتابة : « ولا تسأموا » ، فيها إدراك لانفعالات النفس حين تحس أن تكاليف العمل أضخم من قيمته ؛ « ذلكم أقسط عند الله » أى أعدل وأفضل ، وهو إيحاء بأن الله يحب هذا ويؤثره ؛ «وأقوم للشهادة » أى أصح وأحفظ ؛ «وأدنى ألا ترتابوا » أى أقرب إلى انتفاء شككم فى جنس الدين وقدره وأجله ونحو ذلك .

« أن تكتبوه » : فى موضع نصب بالفعل « تسأموا » .

« صغيرا أو كبيرا » : حالان من الضمير فى « تكتبوه » ، وقدم الصغير اهتماما به .

٧٨ ﴿ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا ﴾

﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا ﴾ ٢٨٢ ـ البقرة (٢)

« أدنى » : أقرب . « ترتابوا » : تشكوا .

أدْنى أفعل من الفعل : دنَا منه وإليه وله يدنُوا دُنُوًّا : قَرُب ، فهو دان . وترتابوا من الفعل ارتاب فيه وبه : شكَّ ، وأصله الفعل رابَه الأمرُ يَرِيبُه رَيْبًا وريبةً : جعله شاكا .

« وأدنى ألا ترتابوا » : أقرب إلى عدم الريبة ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة ولا تشكك ، ولا ارتباك . والتشكك يشمل التشكك فى صحة البيانات التى تضمنها العقد (جنس الدين وقدره وأجله ونحو ذلك) والتشكك فى أنفسكم وفى سواكم إذا ترك الأمر بلا قيد وبلا كتابة .

وهكذا تتكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ، ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع الإلهى ودقة أهدافه بما يؤدى إلى إيجاد الثقة والطمأنينة .

(انظر : وأقوم للشهادة)

٧٩ ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ ﴾

﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٢٨٢ ـ البقرة(٢)

بسطت هذه الآية الكريمة تشريع الدّين المسَمَّى والتجارة الحاضرة (أى التى لا أجل فيها) ؛ والتقى كلاهما عند شرطى الكتابة والشهادة . والآن تقرر فى نهايتها حقوق الكتاب والشهداء كما قررت واجباتهم من قبل . لقد أوجبت عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة ، والآن توجب لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب فى أداء التكاليف العامة .

« ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد » بسبب أدائه لواجبه الذى فرضه الله عليه . وإذا وقع فإنه يكون خروجا منكم عن شريعة الله . وهذا احتياط لابد منه لأن الكتاب والشهداء معرضون لسخط أحد الفريقين المتعاقدين ، فلابد من الضمانات التى تطمئنهم على أنفسهم ، وتشجعهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والحيدة .

وفى نهاية الآية ، على عادة القرآن الكريم فى إيقاظ الضمير واستجاشة الشعور عندما يأمر بالتكليفات ـ حتى يستمد التكليف دفعته من داخل النفس وليس من مجرد ضغط النص ـ يدعو المؤمنين إلى تقوى الله فى النهاية : « واتقوا الله » .

« ولا يُضَارَّ » من الفعل ضَارَّه مُضَارَّةً وضرارًا بمعنى ضَرَّه . ويحتمل البناء للفاعل بدليل قراءة عمر ، رضى الله عنه : « ولا يُضَارِرْ » بَفك الإدغام وكسر الراء الأولى ، ويكون النهى للكاتب وللشاهد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما ، وعن التحريف والزيادة والنقصان ، فإن فى ذلك مضارة وضررا للمتداينين .

ويحتمل الفعل « ولا يُضارَّ » البناء للمفعول ، والدليل على ذلك قراءة ابن عباس «ولا يُضارَرْ » بفك الإدغام وفتح الراء الأولى ، ويكون المعنى فى هذه الحالة : نهى المتعاملين عن الإضرار بالكاتب أو الشهيد بتعطيلهما عن أعمال مهمة لهما ، أو بعدم إعطاء الكاتب أجره على الكتابة ، أو تحميل الشاهد مؤونة المجئ من بلده .

قال ابن كثير : لا يضارر الكاتبُ فيكتب خلافَ ما يُملَى ، ولا يضارر الشاهدُ فيشهد بخلاف ما سمع أو يكتم الشَهادة بالكلية ، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهمَا . وقيل معناه لا يُضَرَّ بهما ، أى لا يُلحَق بهما ضررٌ أو أذى .

« وإن تفعلوا » يعنى المضارة ، « فإنه فسوق بكم » أى معصية ، وقوله « بكم » تقديره : فسوقٌ حالٌ بكم .

٨٠ ﴿ واتَّقوا اللَّهَ ويُعلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

﴿ واتَّقوا اللَّهَ ويُعلِّمُكُمُ اللَّهُ واللَّهُ بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ ٢٨٢ ـ البقرة (٢)

تقوى الله تفتح القلوب للمعرفة ، وتهئ الأرواح للتعليم . وهذا وعْد من الله ـ تعالى ـ بأن من اتقاه علّمه ، أى يجعل فى قلبه نورا يفهم به ما يُلقى إليه .

فإذا اتقى العبد ربه . وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وبالخوف منه ومراقبته سبحانه فى كل أعماله ـ وتركه الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات ، وشحن قلبه بالنية الخالصة وجوارحه بالأعمال الصالحة ، وتحفظ من شوائب الشرك الخفى والظاهر[1] ، جعل الله فى قلبه ابتداء فرقانا أى فيصلا يفصل به بين الحق والباطل : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إن تتَّقُوا اللَّهَ يجْعل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ٢٩ ـ الأنفال . ومثله قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا برسُوله يُؤْتكُمْ كفْلَيْنِ من رَّحْمته ويَجْعل لَّكُمْ نورًا تمْشُونَ به ﴾٢٨ ـ الحديد ؛ ومعنى كفلين : ضعفين ، والتثنية هنا للكثرة أى يضاعف لكم من رحمته . « ويجعل لكم نورا تمشون به » يعنى هدى يُتَبَصَّر به من العمى والجهالة .

(١) وإنما يكون الشرك بمراعاة غير الله فى الأعمال .

٨١ ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾

﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾

٢٨٣ - البقرة (٢)

كَتَمَ الشيءَ يكتُمه كتْمًا وكتمانًا ستَره وأخفاه . فهو كاتم وكتوم وكتّام (١) .

ولا تُخفوا الشهادة إذادُعيتم لأدائها . قال القرطبى : « ولا تكتموا الشهادة » تفسير لقوله : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » بمعنى يضارْر ، فنهى الشاهدَ عن أن يَضُر بكتمان الشهادة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولو علىَ أنفسكم و الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . . . ﴾

والشهادة أمانة فى عنق الشاهد وقلبه : « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » . ويتكئ التعبير هنا على القلب ، فينسب إليه الإثم تنسيقا بين الإضمار للإثم والكتمان للشهادة ، فكلاهما عمل يتم فى أعماق القلب . قال الزمخشرى عن فائدة ذكر القلب هنا : كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها ، فلما كان إثما مقترنًا بالقلب أسند إليه ، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يُعمل بها أبلغ ؛ والقلب هو رئيس الأعضاء . جاءَ فى الحديث الصحيح : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صَلُح الجسدُ كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » رواه الشيخان . ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر ، وهما من أفعال القلوب .

فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أكبر الكبائر الشرك بالله لقوله تعالى « فقد حرم الله عليه الجنة » وشهادة الزور وكتمان الشهادة .

وإذا أثم القلب أثم صاحبه ، لأن العبرة بأفعال القلوب . ولذا رُفعت المؤاخذة عمن يفعل المعصية ناسيا لأنه لا قصد له فيها .

وبعد أن تنسب الآية الإثم إلى القلب ، تعقب بتهديد ملفوف : « والله بما تعلمون عليم » ، فليس هناك خاف على الله ، وهو يجزى عليه . بمقتضى علمه الذى يكشف الإثم الكامن فى القلوب . ويستمرّ السياق فى الآية التالية فى توكيد هذه الإشارة ، واستجاشة القلب للخوف من مالك السموات والأرض وما فيهما ، العليم بمكونات الضمائر خفيت أم ظهرت ، المجازى عليها : ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ .

« آثم » خبر إنّ . و « قلبُه » رُفع بآثم على الفاعلية ، كأنه قيل : فإنه يأثم قلبُه . ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء ، وآثم خبر مُقدم ، والجملة خبر إن .

---

(١) وربما عُدِّى كتم إلى مفعولين ، فيقال : كتمت فلانًا الحديثَ . وكاتم السر : الأمين على عمل ، وهو ما يُسَمَّى السكرتير .

٨٢ ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ٧ ـ آل عمران (٣)

« هُنَّ أُمُّ الكتاب » أى أَصله الذى يُعَوَّلُ عليه فى الأحكام ، ويرجع إليه فى الحلال والحرام ، ويُرد إليه ما تشابه به من آياته وأشكل من معانيها .

وأمُّ كل شىء : أصله وعماده ؛ قال الخليل : كل شىء ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسمى فى لغة العرب أُمًّا . فالآيات المحكمات هى الأصل والمرجع لأحكام القرآن ومعانيه المتشابهة ، فأطلق عليها : أم الكتاب .

« آيات محكمات » : آيات بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا اشتباه ، ولا تحتمل من التأويل إلا وجها واحدا ، وذلك لإحكام عبارتها . والمحكَم اسم مفعول من أحكَم ، والإحكام : الإتقان ؛ ولا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردُّد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها . والمحكم أصلٌ تُرَد إليه الفروع .

« متشابهات » : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها ، فاشتبه [1] أمرُها على الناس ، فهى غير واضحة الدلالة على معانيها بنفسها ، فهذه ترجع ـ فى أحكامها ومعانيها ـ إلى ما تقرر فى الآيات المحكمات ومن ذلك [2] قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [4] ، فتُحمَل الأولى على معنى : لا تحيط به الأبصار ، وتُحمل الثانية على معنى أنها تنظر إليه من غير إحاطة . وبردها إلى المحكم وهو قوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » [5] ، فإنها تقتضى أن النظر إليه ـ سبحانه ـ لا يصح أن يكون فيه إحاطة به ؛ حتى لا يماثل مخلوقاته فى ذلك ، وليتفق هذا التأويل مع ما جاء فى الآية الأولى من أن الأبصار لا تدركه سبحانه . وهكذا يُحمل ما يكون متشابها على المحكم .

قال الزمخشرى : لو كان القرآن كله محكما لأعْرض الناس عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال . ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به (وهو التفكر العقلى والتدبر فى الآيات) . ولما فى المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتعاب القرائح ـ فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم ـ من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله . ولأن المؤمن المعتقد أن لامناقضة فى كلام الله ، ولا اختلاف فيه ـ إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره ـ وأهَمَّه طلبُ ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم ، ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة فى إيمانه .

---

(١) اشتبه الأمرُ عليه : اختلط . واشتبه فى المسألة : شك فى صحتها .

(٢) انظر : « التفسير الوسيط » ، مجمع البحوث الإسلامية .

(٣) سورة الأنعام من الآية ١٠٣ . (٤) القيامة ، الآيتان ٢٢ ، ٢٣ . (٥) الشورى ، من الآية ١١ .

٨٣ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ٧ ـ آل عمران (٣)

« زَيْغٌ » : مَيْل عن الحق إلى الباطل .

زاغَ يزوغَ زَوْغًا وزَوَغانًا : مَالَ عن القَصْد ، والقصد : استقامة الطريق .

يكشف التعبير أولئك الذين فى قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة ، الذين يتركون الحقائق القاطعة فى آيات القرآن المحكمة ويجرون وراء الغيبيات التى يصعب على الإدراك الإنسانى المحدود معرفتها ، وغرضهم أن يصوغوا حولها الشبهات ، ويتعلقوا بالمتشابهات ابتغاء فتنة الناس عن دينهم ؛ بالتشكيك فى كونه من عند الله ، فيزعُمون تناقضه ، ويؤولونه إلى معان توافق مذاهبهم المبتدعة فى الدين ، ليحدثوا فرقا تشق وحدة المسلمين .

والذين يتبعون المتشابه فريقان : فريق من الكفار صرحاء مجاهرون ، يريدون هدم الدين بزعمهم أنه متناقض مع نفسه ، وفريق منافقون ملحدون منحرفون عن جماعة المسلمين . قال القرطبى : « الذين فى قلوبهم زيغ » تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة .

« ابتغاء تأويله » : أى بغرض تفسيره بما يوافق أهواءهم ، كما قال حسنين مخلوف .

قال القرطبى : متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك فى القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون فى القرآن . فهم بتعلقهم بالآيات المتشابهات يبغون اللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم ويردوا الناس إلى ما فيه هؤلاء الزنادقه من زيغ وانحراف وضلال .

وقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات فى القرآن ، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزيز[١] . وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العَتْب [٢] بما اجترم من الذنب ، إذ أوجد

---

(١) التعزير شرعا : التأديب الذى لا يبلغ الحد الشرعى ، والفعل عزَّره : لامه وأدبه .

(٢) العَتْب : مصدر عَتَبت عليه يعتِبُ عَتْبًا وعتابًا : لامه وراجعه فيما كرهه منه .

للمنافقين الملحدين سبيلا إلى أن يتصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن . ومن ذلك أن صُبَيْغَ بن عسلَ كان يتَعَنَّتُ الناسَ بسؤالات فى مُشْكل القرآن ، ولما قدم المدينة ، جعل يسأل عن متشابه القرآن ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين [1] من عراجين النخل . وقام إليه عمر فضرب رأسه بعُرجون فشجه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها فى قلبه فتاب وحسنت توبته .

---

(١) العِذْق ، وهو من النخل كالعنقود من العنب .

٨٤ ﴿ لا تزغْ قُلوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا ﴾

﴿ ربَّنا لا تزغ قُلوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا من لَّدُنـــكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنـــتَ الْوَهَّابُ ﴾ ٨ ـ آل عمران (٣)

زَاغَ يزوغ زَوْغًا وزَوَغَانًا : مال عن القَصْد (والقَصْد الاستقامة والرشاد) .

وأزَاغَهُ : جعله يزوغ .

ويقال : إزاغَة القلب فسادٌ وميْلٌ عن الدين .

والمعنى : ياربنا لا تُملْ قلوبنا عن نهج الحق بتأويل المتشابه تأويلا لا ترتضيه ، وهذا المعنى مرتبط بما جاء فى الآية السابقة مَن قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيْغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » . ومن الممكن أن يكون المعنى : ياربنا لا تَفْتنَّا ولا تَبْلُنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا .

روى الترمذى من حديث شهْر بن حَوْشَب قال قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مُقلبَّ القلوب ثبّت قلبى على دينك» . فقلت يا رسول الله ، ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ؟ قال : « يا أم سلمة إنه ليس آدمىٌّ إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » .

روى أبو داود والنسائى عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ، كان إذا استيقظ من الليل قال : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك اللهم زدنى علما ولا تُزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال ، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش ، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة ، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده . ويدرك القلب المؤمن أن الله منحــه بالإيمان كل هذا الزاد ـ ومن ثَم يُشـفق من العــودة إلى الضلال ، كما يشفق السائر فى الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التخَبط فى المنعرجات المظلمة ، وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى قيظ الهجير ، وهكذا يتجه المؤمنون إلى ربهم بهذا الدعاء الخاشع : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ .

قرأ أبو واقد الجرّاح : ﴿ لا تَزِغْ قلوبُنا ﴾ بإسناد الفعل إلى القلوب ، وهذه رغبة إلى الله تعالى (١) .

---

(١) وفى المُوَطَّأ عن أبى عبد الله الصُّنَابحِى أنه صلى وراء أبى بكر الصديق فسمعه يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا ﴾ الآية .

قال العلماء : قراءته بهذه الآية ضربٌ من القُنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الرِّدة . والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم ، وفى كل صلاة إذا دَهِم المسلمين أمر عظيم يُفزعهم ويخافون منه على أنفسهم .

(انظر : تفسير القرطبى)

٨٥ ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيـنَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ الـلَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾١١ ـ آل عمران (٣)

دأَبَ فى العمل وغيره يَدْأَب دَأْبًا ودأَبًا ودُؤوبًا : جَدَّ فيه وداوَمَ عليه [١] .

والدائبان : الليل والنهار .

والدَّأب : العادة والشأن والحال .

« كـدأب آل فـرعـون والذين من قـبلهم » أى حـال هؤلاء الذين ورد ذكـرهم فى الآية السابقة : ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار﴾ فى الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم .

فالكاف فى موضع رفع تقديره : دَأْبُهم كدأبْ آل فرعون . وقال ابن عرفة والأزهرى : اعتاد هؤلاء الكفرة الإلحادَ والإعناتَ للنبى ﷺ ، كما اعتاد آل فرعون من إعنات الأنبياء .

والمعنى الإجمـالى للآية : أن الكافـرين لن تغنى عنهم الأمـوال ولا الأولاد بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من الذين كذبوا الرسل وما جاءوا به من معجزات وبراهين وأدلة على وجود الله ووحدانيته .

أمـا قـوله فى سـورة الأنفـال : « كـدأب آل فـرعـون والذين من قـبلهم كـفـروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم » الآية ٥٢ فـالمعنى : جوزى هؤلاء بالقتل والأسر كما جوزى آل فرعون بالغرق والهلاك .

---

(١) قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون لا تأسف أسى وتَحَمَّلِ
كدأبـك من أم الحويرث قبلها ... وجارتهـا أم الربـاب بمأسَـلِ

أم الحويرث وأم الرباب : امرأتان كان يشبب بهما فى أشعاره . ومأسَل : موضع والمعنى : كعادتك فى أم الحويرث وأم الرباب حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمَها .

٨٦ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ ١٤ ـ آل عمران (٣)

يخبر تعالى عما زُيِّن للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ والشهوات .

« زُيِّنَ للناس » : صياغة الفعل للمجهول تشير إلى أن التركيب الفطرى للناس قد تضمن هذا الميل إلى الشهوات ، فهو مُحَبب ومُزَين ، وهو ضرورى لحفظ الحياة البشرية وامتدادها . والإسلام لا يشير بكبت هذه الشهوات وقتلها ، ولكن يشير إلى ضبطها وتخفيف حدتها ، وإلى أن يكون الإنسان مسيطرا عليها ، لا أن تكون هى المسيطرة عليه . فالإسلام يمتاز بمراعاة الفطرة البشرية وقبولها بواقعها ؛ وهو يحاول تهذيبها ورفعتها ، لا كبتها وقمعها .

ومن ثم يجمع السياق القرآنى أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل المسومة والأرض المخصبة والأنعام فى آية وفى الآية التالية يعرض لذائذ أخرى فى الحياة الآخرة : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ـ هذه المتع الأخروية الخالدة ينالها من يضبطون أنفسهم فى هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق فى شهواتها القريبة ؛ هؤلاء هم المتقون الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم ، وشعور التقوى يهذب الروح والحس معا ، فلا تغرق النفس فى الشهوات ولا تنساق فيها كالبهيمة : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد [1] » بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونوازع ، بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات ، بصير بتصريفها فى الحياة الدنيا وما بعد الحياة الدنيا .

والشهوات جمع شَهْوَة ، وهى المشتهيات [2] واتباع الشهوات مُرْدٍ وطاعتها مهلكة . وفى صحيح مسلم : « حُفَّت الجنةُ بالمكاره وحُفَت النارُ بالشهوات » وفائدةُ هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز [3] المكاره والصبر عليها ، وأن النارَ لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها .

---

(١) الآية التالية رقم ١٥ من ذات السورة طبعا .

(٢) قال الزمخشرى : جعل الأعيانَ التى ذكرها شهوات مبالغة فى كونها مشتهاة محروصا على الاستمتاع بها . يريد إلحاقها بباب : رجلٌ صومٌ وفطرٌ ، مما يوضع فيه المعنى موضع الأسم مبالغة .

(٣) مَفَاوِز : جمع مفازة ، وهى هنا بمعنى الصحراء .

وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت فى الصحيحين ، البخارى ومسلم ، أن الرسول ، ﷺ قال : « ما تركت بعدى فتنة أضرَّ على الرجال من النساء » . ففتنة النساء أشد من جميع الأشياء . ولأنهن قد خُلقن من الرجل ، فهمتهن فى الرجل والرجلُ خلق فيه الشهوة وجُعلت سكنا له ؛ فغيرُ مأمون كلٌ واحد منهما على صاحبه . أما إذا كان القصد بهن الإعفاف بالزواج منهن وصولا إلى العفة والبعد عما لا يحل وإلى كثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه ، وقوله ﷺ : «الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » . ولهذا حَثّ النبى ﷺ ، على البحث عن ذات الدِّين عند اختيار الزوجة ، فقال : « عليك بذات الدِّين تربت [1] يداك » أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

« والبنين » : المراد الأولاد مطلقا ، والتذكير للتغليب . وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة ، فهو داخل فى هذا ؛ وتارة يكون لتكثير النسل ، وتكثير أمة محمد ﷺ ، ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محسود ممدوح كما ثبت فى الحديث : «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

« والقناطير المقنطرة » : القناطير جمع قنطار ، وهى فى التعريف القاموسى مائة رطل ، ويطلق أحيانا على المال الكثير بغير عدد ، وهو المراد كما أخرجه ابن جرير عن الضحاك . ووصف القناطير بالمقنطرة للمبالغة ، فمن عادة العرب أن يصفوا الشىء بما يشتق منه للمبالغة والتوكيد ، فيقولون : ألف مؤلفة ، ودراهم مُدَرْهَمة ، وظل ظليل . وصيغة « القناطير المقنطرة » تلقى ظلا خاصا هو النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة ، ذلك أن التكديس ذاته شهوة . وحب المال تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الفقراء ، فهذا مذموم . وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح شرعا .

« والخيل المسومة » أى الراعية فى المروج ، يقال : سَوَّم ما شيتَه إذا أرسلها فى المرعى . أو المطهَّمة الحسان من السِّيما بمعنى الحسن . أو المعلَّمة ذات الغُرَّة من السمة بمعنى العلامة . وسيمت خيلا لاختيالها فى مشيتها . والخيل : اسمُ جَمع كرهط .

« والأنعام والحرث » أى المزروعات ، وهو مصدر حرث يحرُث حرثًا [2] .

---

(١) تَرِبَ الرجلُ : افتقر ، أى لصق بالتراب . وأترب إذا استغنى . وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولاَ وقوع الأمر به ؛ كما يقولون : قاتله الله فى مقام الثناء والمدح .

(٢) ومعنى حَرَثَ : أثار الأرض لزراعتها . والحرث مصدر سُمّى به كل ما يُحرث ، ويقع اسم الحراثة على زرع الحبوب وعلى البساتين وعلى غير ذلك من أنواع الفلاحة .

« حُسنُ المآب » : المرجع الحسن وهو الجنة ، فهى الأحق بالرغبة فيها لبقائها دون متع الدنيا الفانية .

روى ابن حرير عن ابن سعد قال قال عمر بن الخطاب : لما نزلت « زين للناس حب الشهوات » قلت : الآن يارب حين زينتها لنا فنزلت ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا﴾ الآية ١٥ ، وبهذا قال تعالى : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ أى قل يا محمد للناس : أأخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذى هو زائل لا محالة ، ثم أخبر عن ذلك فقال : «للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ خالدين فيهاَ ﴾ أى ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا ، ﴿وأزواج مطهرة ﴾ أى من الدنس والخبث والأذى ، « ورضوان من الله » أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا .

٨٧ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ ١٩ ـ آل عمران (٣)

المعنى : إن المِلَّةَ التى يرضاها الله هى الإسلام ، فلا يُقبَل من أحد دينٌ غيره : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ٨٥/ آل عمران . فليس لأحد من أهل الكتاب أن يتمسك بملته بعدما أنزل الله القرآن ناسخا لما قبله من الأديان والشرائع .

والإسلام هو الاستسلام والانقياد إلى الله تعالى والدخول فى طاعته . يقال : أسلم أى انقاد واستسلم ، وأسلم أمرَه لله : سَلَّمه إليه . قال القرطبى : والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ، والأصل فى مسمى الإيمان والإسلام التغاير ، وقد يكون بمعنى المرادفة ، فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر ؛ كما فى حديث وفد عبد القَيْس وأنه ﷺ أمرهم بالإيمان وحده وقال : « هل تدرون ما الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خُمسًا من المغنم » .

والإسلام ليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد فى الصلاة والحج والصيام ، وإنما هو ـ بالإضافة إلى ذلك وقبل ذلك ـ الاستسلام والطاعة والاتباع أى تحكيم كتاب الله فى أمور العباد . فالله وحده هو وحده الذى يتعبده الناس ، وهو وحده الذى يضع لهم القيم والموازين والتعليمات التى يقيمون حياتهم عليها . على أن يكون هذا الاستسلام لله تاما بحيث لا يبقى معه شىء فى نفوس العباد ولا فى حياتهم خارجا عن سلطان الله .

٨٨ ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ٢٠ - آل عمران (٣)

« وجهى » بمعنى : ذاتى ، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأن الوجه أعلى وأكرم ما فى الإنسان ، وأشرف الأعضاء وأجمعها للحواس ، وهو ترجمان النفس وعليه تظهر آثارها .

وإسلام الوجه كناية عن استسلام الطاعة والاتباع ، فهى صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع . قال ابن كثير فى تفسير هذا التعبير : أخلصت عبادتى لله وحده لا شريك له ، ولاند له ، ولا ولد ولا صاحبة له . وقال الزمخشرى : أخلصت نفسى وجملتى لله وحده لم أجعَل فيها لغيره شركاء .

وتسمية الذات بالوجه هو من إطلاق اسم الجزء على الكل لأهميته ؛ وقد قال حذاق المتكلمين فى قوله تعالى ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ [١] إنها عبارة عن الذات .

« ومَن اتبعن » : مَن فى محل رفح عطفا على التاء فى قوله « أسلمت» أى ومن اتبعن أسلم أيضاً [٢] . والتعبيرَ بالاتباع ذو مغزى هنا ، فليس هو مجرد التصديق - إنما هو الاتباع .

---

(١) من الآية ٢٧ - الرحمن .

(٢) ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فتكون مَنْ مفعولا معه .

٨٩ ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ٢٨ ـ آل عمران (٣)

ولِيَ فلانًا ووالاه : أحبَّه ونصرَه . والمُوالاة تُطلق على الحب والصداقة والمباطنة بالأسرار ، وتطلقَ أيضا على النصرة .

أولياء : أصدقاءَ ، أو أنصار .

معنى التعبير : لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين ، بأى معنىً من معانى الموالاة . ومن يفعل ذلك فليس من دين الله فى شىء . وقد تكرر النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين فى عديد من آى القرآن ، لخطورة تلك الموالاة على كيان المؤمنين الذين يتربص بهم الكافرون الدوائر ، ويبغونهم الفتنة . وفى المسلمين سماعون لهم ، وهم المنافقون وضعاف النفوس . من ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً (١) ... ﴾ ١١٨ ـ آل عمران ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٢) ﴾ ١٤٤ ـ النساء ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ٥١ ـ المائدة ، وقوله : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٣) ﴾ ٢٢ ـ المجادلة ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ ١ ـ الممتحنة .

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالاة الكافرين حتى يأمنوا شرهم ، فإن الموتور لا تخمد فى نفسه جذوة الحقد على وتَر ، ولا يبغى لواتره سوى الشر . وعلى المؤمنين أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين ، لا يتجاوزونهم إلَى الكافرين « إلا أن تتقوا منهم تقاة » أى إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه ، من الضرر فى النفس أو المال أو العرض ، وذلك إذا كان الكفار غالبين ظاهرين . (انظر تعبير : « تتقوا منهم تقاة » .

والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان .

---

(١) « لا يألونكم خبَالاً : لا يقصرون ولا يدخرون وسعا فى إنزال الخبال (أى الشر والفساد بكم ـ والمعنى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصفياء تجعلونهم مواضع سركم ومشورتكم لأنهم لا يدخرون وسعا فى إلحاق الشر بكم .

(٢) سلطانا مبينا : حجة ظاهرة . والمعنى : أتريدون ـ بموالاة الكفار ـ أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى عذابكم إذ أنكم اتخذتم أعداءه أولياءَ لكم .

(٣) يوادون : يكنون لهم المودة . حادَّ الله : عصاه .

« فليس من الله فى شىء » أى فليس من حزب الله ولا من دينه ولا من أوليائه فى شىء ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأسا ؛ قال الزمخشرى : وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الوالى وموالاة عدوه متنافيان ، قال الشاعر :

تَـوَدُّ عـدُوى ثـم تزعـمُ أننـى   صديقك ليس النَّوْكُ عنك بعازبِ (١)

« ويحذركم الله نفسه » : فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ، وهذا وعيد شديد .

سبب النزول : كان بعض اليهود يباطنون (٢) نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال لهم بعض الصحابة : اجتنبوهم واحذروا مباطنتهم ، لا يفتنوكم عن دينكم ، فأَبَوْا إلا ملازمتهم ، فنزلت الآية . أى لا تتخذوا لكم أنصارا وبطانة من الكافرين تاركين إخوانكم المؤمنين .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى ، وكان بدريا نقيبا . وكان له حلف من اليهود ، فلما خرج النبى ﷺ يوم الأحزاب ، قال عبادة : يا نبى الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء . . . ﴾ الآية .

---

(١) النوك : الحُمق ، بعازب : ببعيد .

(٢) كانوا لهم بطانة يطلعون على أسرارهم .

٩٠ ﴿ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ٢٨ ـ آل عمران (٣)

وَقَى الشيءَ يقيه وَقْيًا ووقايةً: صانه عن الأذى وحماه واتقى الشيءَ: حذره وتجنبه .

و « تُقاة » مصدر تقَيْتُه ـ مثل رميتُه ـ بمعنى اتَّقيته ، وعلى هذا تكون تُقاة مفعولا مطلقا ، والتقدير : إلا أن تتقوا منهم اتقاءً ، فوقعت كلمة تقاة موقع اتقاء ، وكلاهما مصدر والعرب تنيب المصادر بعضها عن بعض .

ويمكن أن تكون « تُقاةً » مفعولا به بمعنى الأمر الذى يُتَّقَى ويُتَجنب ويُحذر .

« إلا أن تتقوا منهم تقاة » : إلا أن تقوا أنفسكم وتجنبوها أمرا يجب اتقاؤه وتجنبه كالضرر فى النفس أو المال أو العرض ـ وذلك إذا كان الكفار غالبين ظاهرين . أو كنتم فى قوم كفار ؛ فيُرَخص لكم فى مداراتهم باللسان ، على ألا تنطوى قلوبكم على شىء من مودتهم [1] ، وعلى ألا تعملوا ماهو محرم كشرب الخمر وإطلاعهم على عورات المسلمين ، والانحياز إليهم فى مجافاة بعض المسلمين ، فلا رخصة إلا فى المداراة باللسان .

وجاء فى تفسير القرطبى : إن المؤمن إذا كان قائما بين الكفار فله أنْ يداريهم باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبُه مطمئن بالإيمان .

والتَّقيَّة لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم .

قال مُعاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقية فى جِدّة الإسلام قبل قوة المسلمين ؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم .

وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة .

قرأ جابر بن زيد ومجاهد : « إلا أن تتقوا منهم تَقيَّةً » .

---

(١) بل تدارونهم وأنتم لهم كارهون .

٩١ ﴿ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ٦٤ ـ آل عمران (٣)

السَّواء : العدل والنَّصَفَة . قال زهير :

أرونى خُطةً لا عيبَ فيها يُسَـوِّى بيننـا فيهـا السَّواءُ

والسـواء : المستوى ، سَوَّى بينهـمـا سَوَاءً : ساوى بينهـمـا . وكلمـة سواء : كلمـة يقف الجميع أمامها على مستوى واحد .

والخطاب إلى أهل الكتاب من اليهـود والنصـارى ومن جرى مجـراهم : تعـالوا للعـمل بكلمـة [1] نستوى نحن وأنتم فيها ، وهى كلمة عادلة مستقيمة ، نعمل بها جميعا ولا نختلف فيها . وفسر هذه الكلمة بقوله : « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا » . وهى كلمة لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل ـ إذ دعت هذه الكتب كلها إلى التوحيد ، فالتوحيد مبدأ مشترك بين جميع الأديان : قامت عليه الأدلة العقلية إلى جانب الأدلة النقلية .

معنى التعبير : قل يا محمد لأهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة عدل أو كلمة مستوية بيننا وبينكم لا تختلف فيها كتبكم (التوراة والإنجيل) وكتابنا (القرآن) ، بل هى كلمة لا اختلاف فيها فى كل الشرائع ـ تلكم هى كلمة التوحيد : « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا » لا صنما ولا كوكبا ولا نارا ولا ملائكة ولا غير ذلك ، « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » فلا يتخذ اليهود عزيرا ابنا لله ، ولا يتخذ النصارى المسيح ابنا لله ، ولا يقولوا ثالث ثلاثة ، لتستووا بذلك مع المسلمين الذين لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

---

(١) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة .

٩٢ ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ٩٢ ـ آل عمران (٣)

البر : الجنة : ، قاله ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد والسُّدِّى .

والبر ، فى الأعم ، هو كل خير وإحسان فى الدنيا والآخرة يمنحه الله تعالى لعباده .

والإنفاق البذل والمراد به هنا ما يشمل الزكاة ، وصدقة التطوع ، والأوقاف الخيرية ، وسائر وجوه الإنفاق فى سبيل الله .

« لن تنالوا البر » لن تبلغوا حقيقة البر ولن تكونوا أبرارا . وقيل : لن تنالوا بر الله وهو ثوابه « حتى تنفقوا مما تحبون » حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها وتؤثرونها ، كقوله : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم »[(١)] وكان السلف ، رحمهم الله ، إذا أحبوا شيئا جعلوه لله .

معنى التعبير : لن تدركوا برىَ الوافر وإحسانى الغزير فى الدنيا والآخرة حتى تنفقوا ، فى الوجوه التى شرعتها لكم ، بعَض ما تحبون من ممتلكاتكم ـ فالله لايعظم ثواب من أنفق مما لا يحبه ، لقلة منفعته لآخذه ؛ قال تعالى ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ٢٦٧ ـ البقرة .

فالإنفاق ينبغى أن يكون مما له أثر نافع عند من يأخذه ، فإنه يدل على وفرة الرغبة فى العطاء ، والإحساس بحاجة الْمُنْفَق عليه ، والرغبة فى سد حاجته .

ولشدة عناية المولى ، سبحانه ، باختيار مال النفقة من أحسن ما عند المنفق وأعظمه نفعا ، ختم الآية بقوله : ﴿ وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم ﴾ وفى ذلك تحذير من إنفاق الردئ ، وفيه أيضا حث على إنفاق الجيد ـ فالله مطلع على السرائر ، وأى شىء تنفقونه ـ طاب أم خبث ـ يعلمه ويجازى عليه .

وقد كان أصحاب رسول الله ، ﷺ ، يسارعون إلى ما يدعوهم إليه مولاهم على خير وجه . فما إن نزلت هذه الآية حتى بادر المياسير منهم إلى تنفيذها . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بئرَ حاء[(٢)] ، وكانت (أى البئر) مستقبلة المسجد ، وكان النبى ﷺ ، يدخلها ويشرب من ماء فيها

---

(١) ٢٦٧ ـ البقرة .

(٢) بئر حاء : موضع كان لأبى طلحة فى المدينة .

طيب . فلما نزلت « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يقول « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلىَّ بئرُ حاء وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يارسول الله حيث أراك الله . فقال النبى ﷺ : «بَخ بَخ [1] ذاك مال رابح ذاك مال رابح وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يارسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

وكذلك فعل زيد بن حارثة . فقد عمد إلى فرس يقال له : سَبَل . وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مالٌ أحَبَّ إلىّ من فرسى هذا . فجاء بها إلى النبى ﷺ فقال : هذه فى سبيل الله ، فأجابه الرسول : « إن الله قد قبلها منك » .

ورُوى عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سَبْى جَلُولاء يوم فتح مدائن كسرى ؛ فقال سعد بن أبى وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فأعتقها عمر رضى الله عنه .

ورُوىَ عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشترى أعدالا من سكر ويتصدق بها . فقيل له : هل تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحبُّ إلىّ فأردت أن أنفق مما أحب .

---

(١) بخٍ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء أو المدح أو الفخر .

٩٣ ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٩ - آل عمران (٣)

« تبغونها عوَجًا » تريدونها مُعوجةً « وأنتم شهداء » أى وأنتم تشهدون أنها سبيل مستقيمة.

وقال القرطبى « تبغونها عوجًا » تطلبون لها العوَج ، فحذف اللام ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ ٣ - المطففين أى كالوا لهم والعوج : الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل .

والمعنى على هذا يكون : تطلبون (أنتم يا أهل الكتاب) لسبيل الله - وهى ملة الإسلام - اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة . أو تطلبونها مُعوجة أى مائلة زائغة عن الحق ، والمراد تطلبون ذلك لأهلها ، وذلك بالتحريش والإغراء بينهم ، لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم.
« تبغونها » من الفعل بَغَى الشىءَ بُغْيَةً : طلبه .

والعِوَج والعَوَج : مصدر عَوِجَ ، كتَعِبَ .

٩٤ ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ ١٠٣ ـ آل عمران (٣)

عَصَم الله فلانا من الشر أو الخطأ عِصْمةً : حفظه ووقاه ومنعه . واعتصم به : امتنع به .

والحبْل : أصله فى اللغة السبَب الذى يُوصَل به إلى البُغْيَة (الطلب) والحاجة . والحبل : الرَّسَنُ . والحبل : العهد ، وهو المراد فى الآية .

وقال ابن مسعود : حبُل الله القرآن ، وقاله مجاهد وقتادة ، وروى أبو معاوية عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله » وروى الطبرى عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ : « كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض » . وهناك أيضا حديث الحارث الأعور عن على بن أبى طالب مرفوعا فى صفة القرآن : « هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم » .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : « بحبل الله » أى بدينه ، وهو الإسلام . وسماه حبلا لأنه يربط المسلمين بعضهم ببعض رباطا وثيقا ، كما تُربط الأشياءُ بالحبل .

فالله يأمر عباده بالاعتصام بحبله ، أى التمسك بالإسلام مجتمعين غير متفرقين .

« ولا تفرقوا » : ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود الانصارى ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التى أنتم عليها . وليس فى ذلك دليل على تحريم الاختلاف فى الفروع ، فإن ذلك ليس اختلافا إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع . وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معانى الشرع ؛ ومازالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث . وهم مع ذلك متآلفون .

٩٥ ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ ١١١ ـ آل عمران (٣)

الدُّبُرُ والدُّبْرُ . الظَّهر . وولاّه دُبُرَه : أعطاه ظهره منهزما . ويقال : وَلاّه دُبُرَه : انهزم أمامه .

والحديث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال ، فإنهم (أى اليهود والنصارى) ينهزمون مدبرين متقهقرين .

وقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما وقعت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها النصر للمسلمين وذلك فى حالة محافظتهم على دينهم واستمساكهم بعقيدتهم وإقامة منهج الله فى حياتهم . قال القرطبى : وفى هذه الآية معجزة للنبى عليه السلام ، لأن من قاتله من اليهود والنصارى أعطاه ظهره منهز ما متقهقرا .

« لن يضروكم إلا أذًى » : لن يضروكم إلا ضُرًا يسيرًا ، فوقع الأذى موقع المصدر . أى لن يضروكم ضررا بالغا وإنما أذى يسيرا لا يبالى به كالطعن والشتم والسخرية والتهديد .

٩٦ ﴿ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣٥ ـ آل عمران (٣)

« ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم » أى جنَوْا على أنفسهم بارتكاب أى ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر . والجملة معطوفة على ما قبلها « فعلوا فاحشة » وهو من عطف العام على الخاص . والفاحشة : فَعْلَةٌ بالغة القبح كالزنا ؛ من الفُحْش وهو مجاوزة الحد فى السوء .

قال الزمخشرى فى معنى « ظلموا أنفسهم » : أذنبوا أى ذنب كان مما يؤاخذون به .

وفى فضل الاستغفار جاء فى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، أنه توضأ لهم وضوء النبى ، ﷺ ، ثم قال : سمعت النبى ، ﷺ، يقول : «من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفِر له ما تقدم من ذنبه » .

٩٧ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ ١٤١ ـ آل عمران (٣)

مَحَّصَ الذهبَ بالنار : خَلَّصه مما يشوبُه . ومَحَّصَ اللهُ مَابك : أذهبَه .

ومن الممكن أن يكون التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار .

معنى التعبير : وليطهرَ اللهُ نفوس المؤمنين وينقيها من الشوائب [١] التى تكون قد علقت بها ، فيصيروا مؤمنين خالصين : يصبرون على البأساء ويثبتون عند اللقاء .

وورد فى نفس السورة قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ١٥٤ .

والمعنى : قل لهم يا محمد إن ما حدث من القتل قدرٌ قدره الله عز وجل وحكم حتم لا محيد عنه . فالذين كتب عليهم القتل لابد وأن يخرجوا من بيوتهم إلى مصارعهم . والله يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق ، وهو ـ سبحانه ـ عليم بما يختلج فى الصدرو من السرائر والضمائر .

٩٨ ﴿ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٤٤ ـ آل عمران (٣)

يُقَال لمن عاد إلى ما كان عليه : انقلب على عَقِبَيْه [٢] . والعَقِبُ : مؤخَّر القدم .

« انقلبتم على أعقابكم » : تمثيل ، ومعناه ارتدَدتم كفارا بعد إيمانكم .

ومعنى الآية : وما محمد إلا رسول كسائر مَن مضى من قبله من الرسل . مهمته التبليغ وإلزام الحجة . وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء . أفإن مات ارتددتم عن دينكم كما وقع من بعض المنافقين . ويمكن أن يكون المعنى فى سياق الحديث عن غزوة أحد عندما أشاع الكفار أن محمدا قتل وسرى الوهَن والضعف فى بعض النفوس فأنزل الله عتابا للمنهزمين : أفإن مات محمد ، توليتم مدبرين عن القتال منهزمين أمام الكفار ، فما كان موت الرسل من قبله سببا فى ارتداد أتباعهم عن دينهم ولا فى تخليهم عن جهاد أعدائهم .

وقريب من هذا التعبير ما جاء فى الآية ١٤٩ من ذات السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ . ومعنى «يردوكم على أعقابكم » أى إلى حالتكم الأولى أى إلى الكفر .

---

(١) الشوائب هنا مقصود بها الذنوب ، ولذلك قال ابن كثير فى معنى هذا التعبير : أى يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به ـ فالسياق يتحدث عما أصاب المسلمين فى غزوة أحد من القتل والجراح والآلام .

(٢) ومنه نكَصَ على عقبيه ، وتقال لكل من رجع إلى حاله السيئ الأول .

٩٩ ﴿ ما لم يُنزّلْ به سُلْطانًا ﴾

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ ١٥١ ـ آل عمران (٣)

« سلطاناً » : حجة وبيانا ، وعُذرا وبُرهانا . ويقال إنه مأخوذ من السليط وهو ما يضاء به السراج ، وهو دهن السمسم [١] . وقيل : السليط الحديد، والسلاطة الحدة. والسلاطة من التسليط وهو القهر ؛ والسلطان من ذلك فالنون زائدة . فأصل السلطان القوة .

والمعنى سيلقى اللهُ الرعبَ فى قلوبهم لأنهم أشركوا فى عبادته آلهة ليس على صحة ألوهيتها حُجة . وهل هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك ؟ قال الزمخشرى : لم يَعْنِه أن هناك حجةً ، وإنما المراد نفيُ الحجة ونزولها جميعا [٢] .

« بما أشركوا بالله » تعليل ، أى كان سبب إلقاء الرعب فى قلوبهم اشراكهم ؛ فما للمصدر . ويقال : أشرك به ، أى عدل به غيره ليجعله شريكا .

١٠٠ ﴿ ولا تلوون علىٰ أحد ﴾

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ١٥٣ ـ آل عمران (٣)

لَوَى عليه يَلْوى لَوْيًا : عَطَف أو انتظر . ويقال : مَرَّ لا يلْوى على أحد أى لا يقيم عليه ولا ينتظره .

« ولا تلوون على أحد » : لا تعرجون على أحد منكم ، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هربا [٣] ، فلا يلتفت أحد ليعين أحدا ولا ينجدَ أحَدٌ أحدًا وإنما « تصعدون » أى تبعدون فى الأرض عَدْوًا وهربا . وهو تصوير لما كان عليه حال المسلمين عند انهزامهم فى أُحُد .

وهذه الآية مرتبطة بما قبلها : ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ أى كفكم عن المشركين بعد ما فشلتم وتنازعتم وعصيتم ، وألقى عليكم الهزيمة ليمتحنكم بالمصائب فيُظهر ما علمه منكم من الاضطراب والفرار كى تحذروهما وتحذروا أسبابهما فى المستقبل .

---

(١) قال امرؤ القيس :

أمال السليطَ بالذبال المفتَّل

ومن ذلك قيل للوالى سلطان لأن السلطان يستضاء به فى إظهار الحق وقمع الباطل .

(٢) قال ابن أحمر :

لا تفزع الأرنبَ أهوالُها ولا ترى الضبَّ بها يَنْجَحرُ

أى لا تخيف الأرنت أهوال تلك الصحراء ، أى لا هولَ فيها يفزعه ولا هول فيها يَجعل الضبّ يدخل جحره .

(٣) لأن المعرج على شىء يلوى إليه عنقه أو عنان دابته .

١٠١ ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ٩ ـ النساء (٤)

المعنى : الذين يحذرون ويخافون على أولادهم الضعفاء الْعَيْلَةَ والضَّيْعَة [١] من بعدهم ، ويخشون ألا يحسن إليهم من يَلى أمرهم ـ هؤلاء عليهم أن يتقوا الله ويخافوه وأن يقولوا القول الجميل والصواب . « سديدا » من الفعل سَدَّ يَسِدُّ سَدَاداً : أصاب فى قوله وفعله فهو سديد .

تأمر الآية باتقاء الله فى الأيتام وأولاد الناس ، فعلى المسلمين أن يتعهدوهم بالرعاية وأن يسددوا إليهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يُفعَل بولده من بعده. ومن ذلك ما حكاه الشيبانى عن مجلس جماعة من أهل العلم كان يضم ابن الديلمى ، فتذكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان . قال الشيبانى لابن الديلمى : يا أبا بشر ، وُدِّى ألا يكون لى ولد . فقال لى : ما عليك ! ما من نَسَمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت ، أَحَبَ أوكره ، ولكن إن أردت أن تأمن عليهم فاتق الله فى غيرهم ، ثم تلا الآية .

وقيل : الآية وعظ للأوصياء ، أى افعلوا باليتامى ما تحبون أن يُفعل بأولادكم من بعدكم .

وجاء فى المثل : التقوى تنفع الذرية .

« ولْيخشَ » : اللام لام الأمر .

(١) الضَّيْعَة : الضَّياع والهلاك . والعيلة : الفقر والحاجة .

١٠٢ ﴿ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ ٢١ ـ النساء (٤)

أفضَى إلى فلان بالسر : أعلمه به . وأفضى إلى المرأة : خلا بها .

« أفضى بعضكم إلى بعض » الإفضاء إلى الشيء : الوصول إليه بالملامسة . والمراد به هنا الاتصال الجنسى ، أو ما يكون بين الزوجين فى خَلوة .

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » أى وكيف تأخذون الصداق[1] (وهو المذكور فى الآية السابقة : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ») من المرأة وقد أفضيتَ إليها وأفضَتْ إليك ؟ قال ابن عباس ومجاهد والسدى وغير واحد : يعنى بذلك الجماع . قال ابن عباس : ولكن الله كريمَ يكْنى[2] . « وكيف تأخذونه» : استفهام بلاغى خرج بقصد الإنكار .

وقال بعضهم : الإفضاء إذا كان معها فى لحاف واحد جامَع أو لم يُجامع .

وإذا كان معنى « أفضى » : خلاَ وإن لم يكن جامَع ، هل يتقرر المهر بوجود الخَلوة أم لا ؟ قال أبو حنيفة وأصحابه : إذا خلا بها خَلوَة صحيحة يجب كمال المهر والعدة دخل بها أو لم يدخل بها ؟ لما رواه الدار قطنى عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ : « من كشف خمار امراته ونظر إليها وجب الصداق » . وقال عمر : إذا أغلق بابا وأرخى سِترًا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث .

فى الآية إنكار الأخذ من صداق الزوجة بعد إنكاره فى الآية السابقة . وهو إنكار بعد إنكار ، وتنفير بعد تنفير . فبأى وجه تفعلون هذا ، وتتناسون أنه جرى بينكم ، أيها الأزواج ، وبينهن ما يؤكد حقهن فيما أخذنه صداقا ؟ فقد بذلت المرأة نفسها لزوجها ، وجعلت ذاتها موضع تمتعه ، وحصلت بينهما الألفة التامة والمودة الكاملة ، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئا بذلَه لها بطيب نفس ؟ إن هذا لا يليق بمن كان له طبع سليم .

وقد تثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ ، قال للمتلاعنَيْن بعد فراغهما من تلاعُنهما : « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » قالها ثلاثاَ ، فقال الرجل : يا رسول الله ، مالى . قال : « لا مَالَ لك ، إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها » .

(١) الصَّداق : مهر الزوجة . أصْدَقَ المرأة : سَمَّى لها أو أعطاها صداقًا .

(٢) كَنَى عن كذا يكنِى كِناية : تكلم بما يُستدل به عليه ولم يُصرح .

ولهذا قال الزمخشرى فى « الكشاف » فى تفسير « وأخذن منكم ميثاقا غليظا» : الميثاق الغليظ هو حق الصحبة والمضاجعة ، كأنه قيل : وأخذن به ، أى بإفضاء بعضكم إلى بعض ، ميثاقا غليظا ، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه . فقد قالوا : صحبة عشرين يوما قرابة ، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟

وقيل : الميثاق الغليظ هو قول ولى الزوجة عند العقد : أنكحتك على ما فى كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس : الميثاق الغليظ هو قوله عليه الصلاة والسلام : « فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وإن كلمة الله هى التشهد فى الخطبة . قال : وكان فيما أُعطىَ النبىُّ ﷺ ليلة أُسْرِىَ به : « وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى» .

ونختم الحديث عن هذا التعبير بقول عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لرجل أراد أن يطلق زوجته لأنه لا يحبها : « ويحك ! ألَمْ تُبنَ البيوتُ إلا على الحب ؟ فأين الرعاية وأين التذم ؟ » والتَّذَمُّم : حفظ العهد .

١٠٣ ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً ﴾

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ ٢٥ ـ النساء (٤)

طَالَ عليه يَطولُ طَوْلاً [١] : أَفْضَلَ وأنْعَم . والطَّوْل : الفضلُ والغنى واليُسر .

واختلف العلماء فى معنى الطَّوْل على ثلاثة أقوال :

الأول : السَّعَة والغنى ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسُّدى وابن زيد . يقال : فلان ذو طَوْل أى ذو قدرة فى ماله والمراد هنا القدرة على المهر فى قول أكثر أهل العلم . والمعنى على هذا هو : ومن لم يجد منكم ـ أيها الأحرار المؤمنون ـ سعة من المال تمكنة من القيام بتكاليف الزواج من إحدى الحرائر المؤمنات ، فَلْينكحْ أمَةً من الإمَاء المؤمنات ، لخفة تكاليف الزواج منهن ، ويتخذ منها زوجة من غير غضاضة .

القول الثانى : الطولُ الحُرَّةُ ، قال أبو يوسف : الطول هو وجود الحرة تحته ، فإذا كانت تحته حُرَّة فهو ذو طَوْل ، فلا يجوز له نكاح الأمة ، وهو قول أبى حنيفة والطبرى .

القول الثالث : الطوْل الجَلَدُ والصبرُ لمن أحب أمَةً وهويها حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها ، فإن له أن يتزوج الأمة إذا لم يملك هواها وخاف أن يبغى بها ، وإن كان يجد سعة فى المال لنكاح حرة ، هذا قول قتادة والنخعى وعطاء وسفيان الثورى .

« ينكح المحصنات » : المحصنات هنا الحرائر

« فمما ملكت أيمانكم من الفتيات » : الإماء

« مُحْصنات » : عفيفات .

---

(١) طَالَ يَطُول طَوْلاً : علاَ وارتفع .

١٠٤ ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ ٣٤ - النساء (٤)

قَوَّامون : جمع قَوَّام فَعّال للمبالغة . والفعل قام على أهله : تولى أمرهم وقام بنفقتهم .

« الرجال قوامون على النساء » ابتداء وخبر ، أى يقومون بالنفقة عليهن والذّب عنهن ، آمرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعايا . فالرجل قَيِّمٌ على المرأة أى هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها والمؤدب لها إذا اعوجت .

« بما فضل الله بعضهم على بعض » يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال ، على بعضهم وهم النساء . وقد ذكروا فى فضل الرجال : العقل . والحزم ، والعزم ، والقوة ، والفروسية ، والرّمى ، وأن منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى ، والجهاد ، والأذان ، والخُطبة ، والاعتكاف ، والشهادة فى الحدود ، والقصاص ، والتعصيب فى الميراث ، والحَمَالة (الدِّيَة) ، والقَسَامَة (يمين ولى الدم) ، والولاية فى النكاح والطلاق والرجعة ، وعدد الأزواج ، وإليهم الانتساب . قال ﷺ : « لن يفلح قومٌ ولَّوا أمرَهم امراة » .

« وبما أنفقوا من أموالهم » أى ولما أنفقوا على النساء فى النفقة والمهر ، جعل الله لهم قوامة (ولاية) على زوجاتهم . وهى قوامة رابطة ومحبة : تقوم على التعاون بينهما ، والمعاشرة بالمعروف ، بحيث يقوم كل منهم بواجبه نحو صاحبه ، وهو ما يبدو واضحا فى قوله تعالى : ﴿ ولهن مثلُ الذى عليهن بالمعروف ﴾ ٢٢٨ - البقرة .

ولا شك أن حقوق الزوج وواجباته تختلف عن حقوق الزوجة وواجباتها تبعا لاختلاف التكوين الفطرى لكل منهما - ولا شك أن مصالح الأسرة ودوام استقرارها يتطلب قيام كل منهما بوظيفته التى تلائم طبيعته مع التعاون والاحترام المتبادل بينهما .

والرجل أقدر - بطبيعته - على السعى والكدح فى سبيل تحصيل رزقه ورزق أسرته . ولهذا ناط به الشارعُ رعاية الأسرة ، وحَمَّله مسئوليتها ، وهو قوله تعالى ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ ٢٢٨ - البقرة

﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ : هذا بيان للناس من الله تعالى ، بأن النساء أمام هذه القوامة نوعان :

النوع الأول : يفهم القوامة على وجهها الصحيح ، ويقوم برسالته كما ينبغى وهن اللائى ورد وصفهن فى هذا الجزء من الآية : صالحات يمتثلن أمر الله ، فيطعن أزواجهن ، ويحفظن على الأزواج أموالهم وأعراضهم فى جميع الحالات [1] ، وبهن يقوم المجتمع الإسلامى الأمثل وفق شرع المدبر الأعلى ـ سبحانه .

النوع الثانى فالحديث عنه فى قوله ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ﴾ وبين الله الطريقة المثلى فى إرجاعهن إلى الصواب حتى تؤدى الأسرة الرسالة المنوطة بها . وهذه الطريقة هى : يعظها الزوج أولا ، فإن لم يفد يهجرها فى المضجع ، فإن لم يُجْد ذلك يضربها ضربا غير مبرح متجنبا الوجه .

ومعنى ﴿ نشوزهن ﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم ، من النشز وهو المرتفع من الأرض .

رُوى أن سعد بن الربيع ، وكان نقيبا من نقباء الأنصار ، نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فلطمها . فانطلق بها أبوها إلى النبى ﷺ وقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال النبى « لتقتص منه » ، فنزلت الآية فقال ﷺ : «أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذى أراد الله خير » .

قبل : لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ، ولو شجها . وقيل :

لاقصاص إلا فى فى الجرح والقتل ـ وأما اللطمة ونحوها فلا .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله ﷺ : « إذا صلّت المرأة خمَسها ، وصامت شهرَها ، وحفظت فرجَها ، وأطاعت زوجَها ، قيل لها : ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت » .

وروى الترمذى عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه وذكّر ووعظ فقال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضر باغير مُبرِّح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذنَّ فى بيوتكم من تكرهون . ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن » . وقوله : « بفاحشة مبينة » يريد لا يدخلن من يكرهه أزواجهن ولا يغضبنهم ، وليس المراد بذلك الزنا ، فإن ذلك محرم ويلزم عليه الحد .

---

(١) قال ﷺ : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرَّتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها » . فى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى هريرة .

١٠٥ ﴿ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾

﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾ ٣٤ ـ النساء (٤)

« فلا تبغوا عليهن سبيلاً » أى لا تجنوا عليهن بقول أو فعل إن أطعنكم ، أى لاتظلموهن بأى طريق من طرق الظلم . على أساس أن البغى معناه الظلم والاعتداء ، والسبيل معناه الطريق .

قال ابن كثير : إذا أطاعت المرأة زوجها فى جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليهن بعد ذلك (أى فلا حُجَّة [1] له عليها بعد ذلك) ، وليس له ضربها ولا هجرانها .

﴿ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فإن الله العلى الكبير وليُّهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . وقال الزمخشرى : إن الله كان عليا كبيرا وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ، ثم تتوبوا فيتوب عليكم ، فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع .

---

(١) كلمة سبيل لها عديد من المعانى ومنها : السبيل الطريق ، والسبيل الحرج ، والسبيل الحجة يقال : ليس لك علىَّ سبيل .

١٠٦ ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾

٣٦ ـ النساء (٤)

الصاحب بالجنب : هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك ، إما رفيقًا فى سفر ، وإما جاراً ملاصقًا ، وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة ، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه ، فعليك أن ترعى حقه .

ولاتنساه وعليك أن تحسن إليه .

وقال القرطبى : الصاحب بالجنب هو الرفيق فى السفر . وأسند الطبرى أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين فدخل رسول الله ﷺ غَيْضة[1] ، فقطع قضيبين أحدهما معوج ، فخرج وأعطى لصاحبه القويم (أى العود المستقيم) ؛ فقال : كنتَ يا رسولَ الله أحق بهذا ؟ فقال النبى : « كلا يا فلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعة من نهار» .

وقال ربيعة بن أبى عبد الرحمن : للسفر مروءة وللحضر مروءة فأما المروءة فى السفر فبذل الزاد ، وقلة الخلاف على الأصحاب ، وكثرة المزاح فى غير مساخط الله . وأما المروءة فى الحضر فالإدمان إلى المساجد وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان فى الله عز وجل . وقال على وابن مسعود: الصاحب بالجنب الزوجة، وقال ابن جريج : هو الذى يصحبك ويلزمك رجاء نفعك . وقد تتناول الآية الجميع بالعموم . قال حاتم الطائى :

إذا كان رفيقى لم يكنْ خلفَ ناقتى ... له مركبٌ فضلا فلا حملتْ رجْلى
ولم يك من زادى له شَطر مزْوَدى ... فلا كنتُ ذَازاد ولا كنت ذا فضـلِ
شريكان فيما نحــن فيه وقَد أرى ... علَـىَّ له فضـلا بما نـال م فَضْـلىَ

أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه . أمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه ؛ وبالإحسان إلى الوالدين فهما أحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة والإذعان؛ وإلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار القريب والجار الغريب، وإلى رفيق السفر أو المجلس، وإلى المسافر الذى لا مال له، وإلى مماليك الإنسان .

---

(١) الغَيْضة : الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

١٠٧ ﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [١] ٣٨ ـ النساء (٤)

« رِئَاءَ الناسِ » أى مُرائين لهم التماسا للجاه ، وطلبا لثناء الناس ، لا ابتغاء مرضاة الله .

رئاء مصدر الفعل : رَاءَاهُ مُراءاةً ورِئَاءً ، ورِياءً ومعناه : أراه أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ما هو عليه .

« الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » هم الباذلون المراؤون الذين يقصدون بالعطاء السمعة ، وأن يُمدَحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجهَ الله أو شكره على نعمه ، أو الاعتراف بما أوجبه عليهم من حق فى أموالهم .

وفى حديث « الثلاثة الذين هم أول من تُسْجَر [٢] بهم النار وهم العالم والغازى والمنفق المراؤون بأعمالهم . يقول صاحبُ المال : ما تركتُ من شىء تحب أن يُنفَق فيه إلا أنفقت فى سبيك ، فيقول الله ، كذبت ، وإنما أردت أن يُقَال جَوَادٌ ، فقد قيل » أى فقد أخذت جزاءك فى الدنيا وهو الذى أردت بفعلك .

قال الجمهور : نزلت فى المنافقين ، لقوله تعالى : ﴿ رئاء الناس ﴾ والرئاء من النفاق .

---

(١) راجع نهاية الآية ٣٦ : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ والآية ٣٧ .

(٢) تُسْجَرُ وتُسَجَّرُ : تُملأُ .

١٠٨ ﴿ يُحرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾

٤٦ ـ النساء (٤)

تحريف الكَلِم عن مواضعه : تغييره . والتحريف فى القرآن والكلمة : تغيير الحرف عن معناه والكلمةَ عن معناها ، كما كانت اليهود تغير معانى التوراة بالأشباه ، فوصفهم الله بفعلهم فقال تعالى : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ .

حَرَّف الكلامَ تحريفًا : بدَّله أو صرفه عن معناه .

قال القرطبى : يتأولون الكلام على غير تأويله ويلقون ذلك إلى العوام . وقيل معناه : يبدلون حروفه . وذلك أنهم غيروا صفة محمد ﷺ ، وآية الرجم .

وقرأ السُّلَمى والنخعى « الكلام » بالألف .

وقال ابن كثير : ساء تصرفُهم فى آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه مالم يَقُلْ .

والتعبير موجود أيضا فى ١٣ و ١٤ / المائدة .

١٠٩ ﴿ نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ ٤٧ ـ النساء (٤)

طَمَسَ الشيءَ وعليه يطمسُه طَمْسًا : شوَّهه أو محاه وأزاله . يقال : طمَست الريحُ الأثرَ . ويقال : طمس الغيم الكواكَب : حجب ضَوْءَها . وطمس عينَه وعليها : أعماها .

واختلف العلماء فى المعنى المراد بهذا التعبير ، هل هو حقيقة فيجعل الوجه كالقفا فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين . أو أن ذلك عبارة عن الضلالة فى قلوبهم وسلبهم التوفيق ؟

رُوى عن أبى بن كعب أنه قال : « من قبل أن نطمس » من قبل أن نضلكم إضلالا لا تهتدون بعده . ويرى حسنين مخلوف مثل هذا ، فيقول : أصل الطَّمْس : الصرف والتحويل ، وهو مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل . وقال مجاهد على المجاز أيضا : المراد من قبل أى نطمس ونصرف قلوبا عن صراط الحق فنردها على أدبارها فى الضلال . وذهب « التفسير الوسيط » إلى مثل ذلك فقال : من قبل أن نضلهم إضلالا لا يهتدون بعده ـ فالطمس والوجه والرد على الأدبار لا يراد بها حقيقتها وإنما هو مثل ضربه الله فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل .

وقال قتادة : معناه من قبل أن نجعل الوجوه أقفاء . أى يذهب بالأنف والشفاه والأعين والحواجب . وقيل : نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى .

والله تعالى يقول آمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذى فيه تصديق الأخبار التى بأيديهم من البشارات ومتهددا لهم إن لم يفعلوا بطمس وجوههم .

« مصدقا لما معكم » : نُصب على الحال .

١١٠ ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾[1] ٩٠ ـ النساء (٤)

حَصِرَ صدرُه يَحْصَر حَصرًا : ضاق .

ومعنى التعبير : ضاقت صدورهم وانقبضت عن أن يقاتلوكم ، فهم يكرهون قتالكم أيها المسلمون ويكرهون قتال قومهم الذين يعادونكم ، ووقفوا على الحياد . مثل هؤلاء ليس للمسلمين تسلط عليهم .

قال لبيد فى معنى حَصِرَت :

أسهلتْ وانتصَبتْ كجذعِ مُنيفة　　　جرداءَ يحصَـرُ دونُهـا جُرَّامُهـا[2]

أى تضيق صدورهم من طول هذه النخلة . ومنه الحَصْر فى القول وهو ضيق الكلام على المتكلم ، ويسمى أيضا القَصْر . والحصْر : الكتوم للسر ؛ قال جرير :

ولقد تَسقَّطنى الوشاةُ فصادفوا　　　حَصْرًا بسرِّك يا أُمَيمُ ضنينـًا

قال الفراء : ومعنى « حصرت » قد حصرت ، وهو حال من المضمر المرفوع فى «جاؤوكم» ؛ كما تقول : جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله .

١١١ ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ ٩٠ ـ النساء (٤)

أَلْقَى الشىءَ : طرحه . ويقال : ألقيت إليه المودة وبالمودة وألقى إليه السلامَ حيّاه به .

السَّلَم : الاستسلام أو التسليم ، كما فى « معجم الوسيط » . وفسرها ابن كثير بالمسالمة ، من الفعل سالَمَه مسالمةً : صالحه ، وفسر الآية بأنهم إذا طرحوا عليكم المسالمة ، فليس لكم أن تقاتلوهم . ومثله ما جاء فى « التفسير الوسيط » : فما دام هؤلاء قد اختاروا العزلة وعدم القتال ، وسارعوا إلى السَّلْم ، فليس لكم عليهم أيها المسلمون أى سبيل أو أدنى تسلط . لأن الإسلام يرحب بكل بادرة تدعو إلى السلام ، مادام غير المسلمين لا يعتدون وما شُرع القتال فى الإسلام إلا لضرورة تأمين الحق وصيانة العقيدة .

أما الزمخشرى فى كشّافه فقد فسَّر السَّلَمَ على أنه الانقياد والاستسلام . وفسره حسنين مخلوف بأنه الاستسلام والانقياد للصلح ، والمعنى متقارب .

---

(١) راجع نهاية الآية ٨٩ : ﴿ ولا تتخذوا منهم وليّاً ولا نصيرا ﴾ .　　(٢) جَرم النخلَ : جنى ثمرَه .

١١٢ ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ ٩٠ ـ النساء (٤)

كلمة السبيل لها عدة معان منها ، منها : الطريق ، ومنها : السَّبب والوُصلة . والسبيل أيضا : كل ما أمر الله به من الخير ، واستعماله فى الجهاد أكثر .

والسبيل الحرَج ، والسبيل : الحجة ، ويقال : ليس لك عَلَىَّ سبيل .

وأقرب معانيها إلى النص هنا : الحجة أى الحجة على جوازأخذهم وقتلهم . ولذلك فسر الزمخشرى قوله تعالى ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ : فليس لكم عليهم أبها المسلمون ، أى سبيل أو أدنى تسلط (أى تحكم) .

(انظر التعبير « ﴿ وألقَوْا إليكم السَّلَم ﴾ رقم ١١١) .

١١٣ ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾

﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ ٩١ ـ النساء (٤)

ركَسَه يركُسُه ركْسًا : ردّه وقلبه . ويقال : أركسه فى الشر أى رده وقلبه فيه . ويقال : أركسته فرُكس أى قلبته على رأسه فقُلب .

« ردوا إلى الفتنة » دُعُوا إلى الشرك ، قاله السدى والقرطبى ونقله عنهما حسنين مخلوف . أما الزمخشرى ففسرها بقوله : كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين .

« أركسوا فيها » : انهمكوا فيها أى فى الفتنة بمعنى الشرك ، أو انقلبوا فى فتنة القتال والكيد مع قومهم عليكم ، على أساس أن الفتنة معناها قتال المسلمين .

١١٤ ﴿ جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾

﴿ فَإن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ ٩١ ـ النساء (٤)

كلمة السلطان تعنى : الملك أو الوالى . وتعنى : القوة والقهر . وتعنى : الحجة والبرهان .

« سلطانا مبينا » : حجة بينة ظاهرة .

« جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » أى جعلنا لكم الحجة الواضحة على جواز أخذهم وقتلهم ؛ بسبب ظهور عداوتهم لكم وخيانتهم .

١١٥ ﴿ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ٩٤ ـ النساء (٤)

العَرَض : ما يطرأ ويزول من مرض ونحوه .

وعرض الدنيا : متاع الدنيا قَلَّ أو كثُر ، ويسمى متاع الدنيا عَرَضًا لأنه عارض زائل غير ثابت .

﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ : تطلبون متاعها الزائل ، ونعيمها الفانى ، من مال وغيره وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض إنما الغنى غنى النفس » .

وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى فنظمه :

تَقَنَّع بما يكفيك واستعمل الرضا ... فإنك لا تدرى أتُصبح أم تُمسى

فليس الغنى عن كثرة المال إنما ... يكون الغنى والفقر من قِبَلِ النفسِ

وفى كتاب العين : العَرَض ما نيل من الدنيا ؛ ومنه قوله تعالى :

﴿ تريدون عَرَضَ الدنيا ﴾ وجمعه عروض .

١١٦ ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ ﴾

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ١٠٢ ـ النساء (٤)

الحِذْرُ والحَذَرُ بمعنىً ، كالإثْر والأثَر . يقال : أخذ حِذْرَه ، إذا تيقظ واحترز من المَخُوفِ[1] كأنه جعل الحذَر آلته التى يقى بها نفسَه ويعصم بها رُوحه .

وقيل : الحِذْرُ ما به الحذَر من السلاح ونحوه .

﴿ وليأخذُوا حذرهم ﴾ : وليكونوا متيقظين للعدو ، محترسين منه ومن مخادعاته .

فالتعبير وَصَاةٌ (وصية) بالحذر . وفيه دلالة على وجوب الأخذ بالأسباب ، لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته .

وجمع بين أخذ الأسلحة وبين أخذ الحذر ، ذلك أنه جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازى ؛ فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة[2] .

وأخْذُ السلاحِ : الإمساكُ به ، فمن معانى الفعل أخَذَ : أمْسَكَ به .

١١٧ ﴿ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾

﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ١٠٢ ـ النساء (٤)

« فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدة » فيشدون عليكم شَدَّةً واحدة ، قاله الزمخشرى .

وفى « التفسير الوسيط » فيهجمون عليكم هجمة واحدة يقضون بها عليكم ، فلا يحتاجون بعدها إلى هجمة أخرى .

وقال القرطبى : ومعنى « ميلة واحدة » مبالغة ، أى مستأصِلَة لا يحتاج معها إلى ثانية ، أى ميلة ثانية .

فالكافرون أحبوا وتمنوا دائما غفلة المسلمين . والسنون تتوالى ، والقرون تمر فتؤكد هذه الحقيقة .

---

(١) احترَزَ منه وتَحرَّزَ : تَوَقَّاه . وحرَّز الشىءَ : بالغ فى حفظه . والمُخُوف : الشىء الذى يُخاف منه .

(٢) ومثل ذلك قوله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان » جعل الإيمان مُستقراً لهم ومتبوآ لتمكنهم فيه ، فلذلك جمع بينه وبين الدار فى التبوء .

١١٨ ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

١٠٣ ـ النساء (٤)

كَتَبَ الله الشيءَ يكتُبُه كَتْبًا وكتَابًا وكتابةً : قضاه وأوجبه وفرضَه .

والموقوت اسم المفعول من الفعل : وَقَتَه يَقِتُه وَقْتًا ، أى جعل له وقتًا يُفعَل فيه . ويقال : وَقَتَ الله الصلاة أى حدَّد لها وقتًا .

معنى التعبير : إن الصلاة كانت ومازالت ـ فى حكم الله ـ مكتوبة مفروضة محددة الأوقات : لا يجوز إخراجها عن أوقاتها . وأوجز القرطبى فقال : مؤقتة مفروضة .

قال الزمخشرى فى معنى « موقوتا » : محدودا بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كنتم : خوفٍ أو أمنٍ ، وذلك بدليل الأمر بأدائها أثناء المعركة .

قال ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج . وقال زيد بن أسلم فى معنى «موقوتا» أى منجما ، كلما مضى وقت جاء وقت .

« فأقيموا الصلاة » : أدُّوها فى أوقاتها بأركانها وشروطها وحدودها تامة كاملة .

ومعنى ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ أى فإذا أمنتم وذهب الخوف بعد انتهاء المواجهة مع العدو .

يوجههم ـ سبحانه ـ إلى الصلاة والاتصال به ـ فهو العدة الكبرى وهو السلاح الذى لا يبلى .

١١٩ ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾

﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

١٠٤ ـ النساء (٤)

﴿ ابتغاء القوم ﴾ : التعرض لهم بالقتال . والقوم هنا : الكفار .

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » : لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار لتقاتلوهم ، بل تعرضوا لهم بالقتال . فلا تكفوا عن متابعتهم وتعقب آثارهم حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين الله .

نزلت فى حرب أُحُد عندما أمر النبى ﷺ بخروج طائفة من مقاتلى المسلمين فى آثار المشركين لمحاربتهم ، وكان بالمسلمين جراحات ، فشكوا هذه الجراحات ، فنزلت الآية :

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . . . ﴾ أى ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصا بكم ، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم ، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون . فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم ، مع أنكم أولى منهم بالصبر لأنكم « ترجون من الله مالا يرجون » فأنتم ترجون إظهار دينكم وترجون الثواب العظيم فى الآخرة؛ أما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله ولا يرتقبون عنده شيئا فى الحياة ولا بعد الحياة . وهذا فضل الاعتقاد فى الله والتوكل عليه فى كل كفاح . ففى لحظات تكون مشقة الكفاح فوق الطاقة ويكون الألم أكبر من أن يُحتمل ، ويكون القلب البشرى بحاجة إلى مدد وإلى زاد ـ عند ذاك يأتى المدد من الله ويأتى الزاد من كنفه الرحيم .

وقال ابن كثير فى تفسير هذا التعبير : لا تضعفوا فى طلب عدوكم ، بل جدوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد .

١٢٠ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ١١٢ ـ النساء (٤)

كَسَبَ الإِثْمَ : تحمله .

الخطيئة : الصغيرة من الذنوب . والإثم : الكبيرة منها . وقيل هما بمعنى واحد تكرر باختلاف اللفظ للتأكيد .

رَمى الشيءَ ورمى بالشيءِ : ألقاه وقذفه . ورمى فلانًا بأمر قبيح : قذفه ونسبه إلى الفاحشة .

« بُهتَانًا » : بَهَتَ فلاناً يبهتُه بَهْتًاو بَهْتانًا : قذفه بالباطل . والبَهْت والبُهتان : الكذب المُفترى ، وهو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه برئ . روى مسلم عن أبى هريرةَ أن النبى ﷺ قال : « ذكْرُكَ أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقدَ اغتبته وإن لم يكن فقد بهته » .

فَرمْى البرئ بَهْتٌ له . ويقال : بُهت الرجل إذا دُهش وتحيَّر .

معنى الآية : ومن يقترف صغيرَة أو كبيرة من المَعاصى ، ثم يتهم بها بريئا فقد احتمل البهتان فى رميه البرئ ، واحتمل الإثم فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرئ[1] وقد احتملهما معا . وكأنما هُما حمل يُحمل على طريقة التجسيم التى تبرز المعنى وتؤكده فى التعبير القرآنى المصوِّر . ومثالَ ذلك قوله تعالى ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ وفيه تشبيه ، إذ الذنوب ثقل ووزر فهى كالمحمولات .

ومن المناسب للمقام أن نورد الآيتين السابقتين على هذه الآية مع تعليق يسير عليهما . قال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾ . هذه الآيات ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾ . هذه الآيات الثلاث تقرر المبادئ الكلية التى يعامل الله بها عباده ، والتى يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضا بها ، ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء .

الآية الأولى تفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ، وتُطمع كل مذنب تائب فى العفو والقبول .

والآية الثانية تقرر فردية التبعة . وهى القاعدة التى يقوم عليها التصور الإسلامى فى الجزاء ، والتى تثير فى كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة : الخوف من عمله وكسبه ، والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره .

والآية الثالثة تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمى بها البرئ على النحو الذى بيناه .

---

(١) فهو برَمْى البرئ « باهت » ، وهو بكسب الإثم « آثم » فهو جامع بين الأمرين .

١٢١ ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ ١٢٠ ـ النساء (٤)

وَعَدَهُ الأمرَ يَعِدُه وَعْدًا ومَوْعِدًا ومَوْعِدَةً : منَّاه به .

غرَّ فلانًا يَغُرُّه غَرًّا وغُرورًا : خدعه وأطمعه بالباطل ؛ يقال : غَرَّه الشيطان . الغُرور : الخداع والباطل . وقال ابن عرفة : الغُرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وفيه باطن مكروه أو مجهول ، والشيطان غَرور ـ والغَرور كل ما غَرَّ الإنسان من مال ، أو جاه ، أو شهوة ، أو إنسان ، أو شيطان . المعنى : كل ما يمنيهم الشيطان به إنما هو خداع وأباطيل .

قال القرطبي في معنى « يعدهم » في صدر الآية : يعدهم أباطيله وتُرَّهاته من المال والجاه والرياسة ، وأن لا بعث ولا عقاب ، ويوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير . وتلك الوعود يلقيها الشيطان إما بالخواطر النفسية المخالفة لشرائع الله ، أو بلسان أوليائه .

١٢٢ ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ١٢٨ ـ النساء (٤)

هذا التعبير بالغ الإيجاز ، بالغ العذوبة : ينزل على القلوب بردا وسلاما : ﴿والصلح خير﴾ .

وكلمة خير واسعة الدلالة ، يصعب أن تحد معانيها حدود . ومن معانى الخير : راحة البال، وهدوء النفس ، والسكينة والأمان والرخاء ، والازدهار ، والإبقاء على العشرة ، وحفظ كيان الأسرة وغير ذلك كثير ـ والصلح مجلبة لكل هذا وأكثر .

قال القرطبى : ﴿ والصلح خير ﴾ لفظ عام مطلق يقتضى أن الصلح الحقيقى الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق . ويدخل فى هذا المعنى جميع مايقع عليه الصلح بين الرجل وأمرأته فى مال أو وطء أو غير ذلك .

قال الزمخشرى : والصلح خير من الخصومة فى كل شىء . أو الصلح خير من الخيور ، كما أن الخصومة شر من الشرور .

فالصلح ينسم على القلوب التى دبت فيها الجفوة والجفاف نسمة من الندى والإيناس ، والرغبة فى إبقاء الصلة ، زوجية كانت أو غير زوجية .

ونعرج على السياق بإيجاز . « بعلها » : زوجها ، والنشوز أن بتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته ومودته ، ويؤذيها بسبّ أو ضرب . والإعراض : أن يقلل محادثتها ومؤانستها . وذلك لكبر سنها مثلا أو لدمامة فى خلقها أو خلقها ، أو ملال ، أو طموح عين إلى أخرى . وفى هذه الحالة ليس عليها ولا على زوجها حرج فى أن تتنازل له عن جزء من نفقتها أو عن كل نفقتها أو أن تترك له قسمتها وليلتها إذا كانت له زوجة أخرى يؤثرها عليها ، وذلك فى مقابل ألا يطلقها . وإنما يتصالحان ويبقيان على الحياة الزوجية بينهما فى ظل تلك التنازلات من جانبها .

قال ابن كثير : والظاهر من الآية أن صلحهما (أى الزوجة والزوج) على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ؛ كما أمسك النبى ﷺ ، سودة بل تركها من جملة نسائه . وفعله ذلك لتتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه .

١٢٣ ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾١٢٨ ـ النساء (٤)

أَحْضَرَ الشيءَ فلانًا : أتاه به . وقوله تعالى : ﴿وأحضرت الأنفسُ الشحَّ ﴾ مالت إليه .

وفى « التفسير الوسيط» : ﴿ وأحضرت الأنفس الشُّحَّ ﴾ أى جُعل الشحُّ حاضرا فى الأنفس ملازما لها . والشح : البخل الشديد . فالنفوس جبلت على الإفراط فى الحرص والبخل ، فهو خصيصة من خصائصها .

والتعبير إخبار بأن الشح فى كل أحد ، وأن الإنسان لابد أن يَشِح بحكم خلقته وجبلته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره .

لما رَغّب الله فى الصلح بقوله : ﴿ والصلح خير ﴾ عقبه بقوله ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ لبيان العذر فى المماكسة (المنابذة والتباعد) والمشاقة ، وهى أن النفس من طبعها الشح والحرص . ولذلك فإن الزوجة لا تكاد تفرِّط فى حقوقها عند الزوج ، ولايكاد الزوج يجود بالإنفاق وحسن المعاشرة لمن لايريدها . وإذا كان ذلك هو مافطر عليه الناس ، فينبغى على كل من الزوجين أن يقدر حرص كل واحد منهما على مصلحته فالزوج حريص على مصلحته ، والزوجة حريصة على مصلحتها ، وذلك بحكم الطبيعة البشرية ـ وهذا الحرص على الذات يجب أن يكون محل نظر الإثنين ، فترضى الزوجة حرص الزوج بالبذل والتضحية ، ويرضى الزوج حرص الزوجة فلا يقسو عليها فيما يجبرها على التنازل عنه .

ثم ندب الله الأزواج إلى الإحسان والتقوى فقال : ﴿ وإن تحسنوا﴾ عشرتكم مع النساء «وتتقوا» النشوز والإعراض عن الزوجات « فإن الله كان بما تعملون » من الإحساس والتقويم «خبيرا» فيجازيكم عليه ويحسن ثوابكم .

١٢٤ ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ١٢٩ - النساء (٤)

محال أن تستطيعوا العدل والتسوية بين النساء بحيث لا يقع الميل إلى واحدة دون الأخرى، ولا تقع زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، « ولذلك رفع عنكم تمام العدل وغايته»، كما قال الزمخشرى ، وما كلفتم منه (أى من العدل بين النساء) إلا ما تستطيعون بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم وطاقتكم - إذ التكليف الشرعى إنما يكون بما فى الوسع والطاقة.

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله ، فهو لايتجاهل طبيعتها وفطرتها، ولايحاول أن يقسرها على ماليس فى طاقتها.

نحن هنا فى هذا التعبير أمام المنهج الإسلامى الفريد ، وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية بالواقعية المثالية أو المثالية الواقعية ، ويعترف بما هوكامن فى تركيبها. والله الذى فطر النفس البشرية يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها. فقال مامعناه: ليس فى استطاعتكم إقامة العدل التام بين الضرات ، حتى ولو حرصتم على ذلك وبالغتم فيه. فإن فرض أنكم عدلتم فى القسم والنفقة، فقد لاتعدلون فى النظر والإقبال والمؤانسة والحب وغير ذلك. وتلك مسألة جبلية لا سلطان للأزواج عليها، مهما كان تدينهم.

إن الإسلام لايحاسب الإنسان على أمر لا يملكه ، ولا يجعل هذا إثما يعاقبه عليه ، فيدعه ممزقا بين ميل لا يملكه وعدل لا يطيق أن يقيمه ! وإنما يصارح الإسلامُ الناسَ بأنهم لن يستطيعوا العدل بين النساء لأن الأمر خارج عن إرادتهم. لكن هناك ما هو داخل فى إرادتهم: العدل فى القَسْم وفى النفقة وفى الحقوق الزوجية، وهذا هو الخطام (اللجام) الذى يقود ذلك الميل وينظمه ، ويرتفع بالنفس البشرية إلى أعلى مستوى تهيئه طبيعتها وفطرتها. ولكنه خطام لايقتل الميل الفطرى ، ولا يقتل النفس البشرية. وهذه ميزة الإسلام.

أخرج أحمد والترمذى وأبو داود عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يقسم بين نسائه فيعدلُ، ثم يقول: « اللهم هذا قَسْمى فيما أملك، فلا تَلُمنى فيما تملك ولا أملك» يقصد النبى بما يملكه الله : الحب والميل القلبى ، فإنهما تحت سلطان الله وحده، ولاسلطان للبشر عليهما.

كان نبى الإسلام - ﷺ - هو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ؛ فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات نموا متوازنا متكاملا فى حدود فطرة الإنسان.

١٢٥ ﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ١٢٩ - النساء (٤)

المراد بالميل هنا : عدم العدل فى القسْم والنفقة بسبب تفاوت الحب .

« فتذروها » : فتتركوها . وأصل الفعل : وذرَه . يقال : يَذَره يتركه ، وذَرْه : اتركْه . أماتت العربُ ماضيه ومصدرَه ، فإذا أريد الماضى قَيل : ترك . المعلَّقة : هى التى ليست مطلقة ولاصاحبة زوج (١).

ومعنى التعبير : فلا تجوروا كل الجوْر على من لا تحبون من النساء ، بأن تمنعوها حقها فى القَسْم والنفقة ، وفى السكن والكسوة ، من غير رضاها ـ فقاربوا واجتهدوا ألا تميلوا الميل المحظور إلى واحدة منهن ، بحيث تكون الأخرى كأنها معلقة : لاهى مطلقة ولا هى ذات بعل ، وجاهدوا أنفسكم حتى تصلوا إلى الحد المستطاع من العدل بين الزوجات .

ومن ألوان العدل التى كان السلف الصالح يحرص عليها ما رواه غير واحد عن جابر رضى الله عنه أنه قال : كانوا يستحيون ألا يُسَوُّوا بين الضرائر فى الطِّيب ، يتطيب لهذه كما يتطيب لهذه .

وبالجملة فالعدل واجب فى القسم والنفقة والسكنى والكسوة والعلاج ، وكل ما هو ضرورى ، وهو (أى العدل) سنة فيما هو غير ضرورى .

﴿ وإن تصلحوا ﴾ مامضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة . ﴿ وتتقوا﴾ فيما يستقبل ، غفر الله لكم .

---

(١) قال قتادة رضى الله عنه : المعلقة المسجونة .

١٢٦ ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ ١٣٠ - النساء (٤)

سعته : فضله وغناه ورزقه

فإنه حين تجف القلوب ، ولا تطيق الرابطة الزوجية ، فالتفرق بين الزوجين هو الحل . لأن الإسلام لايمسك الأزواج بالقيود والأغلال ، وإنما يمسكهم بالمودة والرحمة أو بالواجب والتجمل فإذا لم تؤت هذه ثمارها فى علاج القلوب المتنافرة ، فإن الإسلام لا يحكم على أصحاب هذه القلوب أن يعيشوا فى سجن من الكراهية، ظاهره رباط زوجى وباطنه انفصام حقيقى.

ولذلك قال : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ ، فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو ومما عنده هو ، فقد يُقيِّض للرجل امرأةً تقربها عينه ، ويقيض للمرأة من يُوَسِّع عليها ـ والله سبحانه يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء فى حدود حكمته .

وهذه الجملة تعتبر تسلية للزوجين عما أصابهما من الفراق ، وإشعارا لهما بأن الله تعالى سيسلك بكليهما مسلكا يغنيه عن الآخر . فهو الكفيل براحة عباده ، كيلا يشتد حزنهما على فراقهما بعد عشرة .

ولا شك أن تشريع الطلاق تظهر حكمته جلية واضحة فى هذه الحالة ؛ فإذا كانت الحياة بين الزوجين مشحونة بالمتاعب ، فإن العاقبة تكون سيئة بالنسبة إليهما وإلى أولادهما ـ والفراق حينئذ يكون ضروريا ، كاستعمال مبضع الجراح لاتقاء أخطار الفساد فى الجسم .

١٢٧ ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾١٣٥ـ النساء (٤)

أقام العدل : أظهره وعَمل به

والقَوَّام : الحَسَن القيام بالأمور ، والجمع قوامون ، صيغة مبالغة . والقسط : العدل

﴿ كونوا قوامين بالقسط ﴾ : اجتهدوا فى إقامة العدل مع المواظبة عليه فى جميع الأمور ، لا تميلون عنه ولايصرفكم عنه صارف . إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه، القسط الذى يعطى كل ذى حق حقه من المسلمين وغير المسلمين . والنداء للذين آمنوا ، الذين وكلت إليهم الأمانة العظيمة : أمانة القوامة على البشرية والحكم بين الناس بالعدل .

﴿ شهداء لله ﴾ : لذات الله ولوجهه ولمرضاته ولثوابه ، ولاتأخذكم فى الله لومة لائم ، وحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا ، كما قال فى موضع آخر : ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أى أدوها ابتغاء وجه الله . نصب ﴿شهداء﴾ على النعت لقوامين ، ويمكن أن تكون خبرا بعد خبر لكونوا.

﴿ ولو على أنفسكم﴾ أى اشهد الحق ولو عاد ضرر الشهادة عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك.

﴿ أو الوالدين والأقربين﴾ أى وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد. قال العلماء : من بر الوالدين أن يشهد عليهما الإبن أو يخلصهما من الباطل، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ . ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما، ثم ثنى بالأقربيين إذْ هُم مظنة المودة والتعصب.

﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ﴾ : أى لا ترعاه لغناه فتجامله أو تخاف منه، ولا ترعاه لفقره فتشهد له إشفاقا عليه ـ فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما . قال السُّدى : اختصم إلى النبى ، ﷺ غنى وفقير فكان ضَلَعُه (هواه) مع الفقير، ورأى أن الفقير لايظلم الغنى ، فنزلت الآية.

فالمنهج الإلهى القويم يجند النفس فى وجه ذاتها أولا ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيا . وإتيان ذلك أمر شاق، أشق كثيرا من نطقها باللسان، ومزاولتها عمليا شيء آخر غير إدراكها عقليا. المنهج الربانى يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة وهذه القاعدة الشاقة التى لابد وأن تقام فى الأرض ، ولابد وأن يقيمها ناس من البشر. وهو يجندها أيضا فى وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه غنيا أو فقيرا.

(انظر التعبير : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ رقم ١٢٨

١٢٨ ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ١٣٥ - النساء (٤)

﴿ أن تعدلوا﴾ : يحتمل العَدْل والعُدول ، كأنه قيل : فلا تتبعوا الهوى ، كراهة أن تعدلوا بين الناس ، أو إرادة أن تعدلوا عن الحق .

قال ابن كثير : فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم ، على ترك العدل في أموركم وشئونكم ، بل الزموا العدل على أى حال كان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ «٨ المائدة» .

فاتباع الهوى مُرْد أى مهلك ، قال تعالى : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ . فاتباع الهوى يحمل على الشهادة بغير الحق ، ويحمل على الجوْر فى الحكم إلى غير ذلك . وقال الشعبى : أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء : ألا يتبعوا الهوى ، وألا يخشوا الناس ويخشوه ، وألا يشتروا بآياته ثمنا قليلا .

والهوى صنوف شتى ، ذكر بضعها فى صدر الآية : حب الذات ، وحب الأهل ، والعطف على الفقير ، ومجاملة الغنى ومضارته . والتعصب للعشيرة والأمة والوطن - فى موضع الشهادة والحكم - هوى ، وكراهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين - فى موضع الشهادة والحكم - هوى . فكلها أهواء ينهى الله الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها . حدث أن عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - لما بعثه رسول الله ﷺ ، يَخْرُصُ (يُقَدِّر) على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة ، حسب عهد رسول الله بعد فتح خيبر ، حدث أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم ! فقال لهم : «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىَّ ، ولأنتم والله أبغض إلىَّ من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم » . . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : تلووا أى تحرِّفوا الشهادة وتغيروها ، واللَّى هو التحريف وتعمد الكذب . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم

بالْكتَاب ﴾ «آل عمران ٧٨» . والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ « البقرة ٢٨٣» .

﴿ وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيرا﴾ يكفى أن يتذكر المؤمن أن الله خبير بما يعمل ، ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير يرتجف له كيانه .

ولقد مضت القرون تلو القرون ، وحفلت المكتبات بكتب الفقه والقانون ، وحفلت الحياة بالتنظيمات القضائية ، وامتلأت الرؤوس والأفواه بالكلام عن العدالة ـ لكن التذوق الحقيقى لمعنى العدالة ، والتحقق الواقعى لمعنى العدالة فى ضمائر الناس وفى حياتهم العملية ، لم يقع هذا التذوق وهذا التحقق إلا فى ظل ذلك المنهج الربانى ، فليست القيمة للتنظيمات وإنما للروح التى وراءها .

١٢٩ ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ ١٤١ - النساء (٤)

كلمة السبيل من الكلمات المتعددة المعانى . فمن معانيها : الطريق والحرج والحُجة .

وفسر ابن كثير هذا التعبير بقوله : لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، أى فى الدنيا ، بأن يُسَلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية - وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1] ، وعلى هذا يكون ردا على المنافقين فيما أمَّلوه ورجَوْه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين .

وعلى هذا المعنى ، أى غلبة الكافرين للمؤمنين ، جاء تفسير « التفسير الوسيط» للتعبير حيث قال : فلن يُغلب المؤمنون الصادقون فى الدنيا غلبة حقيقية . وإذا وقعت لهم هزيمة - فى بعض الأوقات - فهى للابتلاء والاختبار . وغالبا ما تكون نتيجة انحراف عن سلوك الطريق المستقيم - إذ ليس بين المؤمنين وبين النصر على أعدائهم إلا أن يعودوا إلى الله ، ويستكملوا حقيقة الإيمان : بالانقياد لكتاب الله والتمسك بشريعته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[2] .

وجاء فى تفسير القرطبى : إن الله لا يجعل لهم (أى الكافرين) سبيلا يمحوبه دولة المؤمنين ، ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم[3] كما فى صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبى ﷺ قال : « وإنى سألت ربى ألا يهلكها بسَنَة[4] عامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربى قال يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لايرد وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألاأسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا . إن الله - سبحانه - لايجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا إلا أن يتواصوا بالباطل ولايتناهوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة ، فيكون تسليط العدو من قبلهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ «الشورى ٣ » .

والله يطمئن المؤمنين بوعد منه قاطع : لن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين . وفى تفسير هذه الآية وردت رواية أن المقصود بها يوم القيامة حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين حجة .

---

(١) غافر ٥١ . (٢) الرعد ١٠ .

(٣) بيضة القوم : حوزتهم وحماهم.

(٤) السَّنة : الجدْب والقحط ، باب : سَنِهَ ، انظر : المعجم الوسيط .

والرواية الأخرى هى التى أوردناها فى البداية وغَلَّبناها والتى تتعلق بالدنيا وأن الله لايسلط الكافرين على المسلمين فى الدنيا تسليط استئصال ، وإن غُلِبَ المسلمون فى بعض المعارك أحيانا .

وإطلاق النص فى الدنيا والآخرة أقرب ، لأنه ليس فيه تحديد .

إنه متى استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المؤمنين ، وتمثلت فى واقع حياتهم منهجا للحياة ، ونظاما للحكم ، وتجردا لله فى كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله فى الصغيرة والكبيرة ـ فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وهذه حقيقة لايحفظ التاريخ الإسلامى كله واقعة واحدة تخالفها .

إن الهزيمة لاتلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم فى تاريخهم كله إلا وهناك ثغرة فى حقيقة الإيمان . إما فى الشعور وإما فى العمل ـ ومن الإيمان أخذ العُدة وإعداد القوة فى كل حُين بنيَّة الجهاد فى سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل شائبة . ففى غزوة « أحد » مثَلا كانت الثغرة فى ترك طاعة النبى ﷺ وفى الطمع فى الغنيمة . وفى حنين كانت الثغرة فى الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا ـ نعرفه أو لا نعرفه . أما وعد الله فهو حق فى كل حين ؛ فالإيمان صلة بالقوة الكبرى التى لا تضعف ولا تفنى ، وأما الكفر فانقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ، ولن تملك قوة محدوده مقطوعة أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة فى هذا الكون جميعا .

١٣٠ ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾ (١)

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ ١٤٣ ـ النساء (٤)

ذَبْذَبَ الشىءُ المعلقُ فى الهواء : تحرك وتردَّدَ وذبذب فلانٌ: تردَّد بين أمرين أو رجلين ولاتثبت صحبتُه لواحد منهما (فعل لازم) ، ومثله تَذَبْذَب .

وذبذبَ الشىءَ : حرّكه ، وذبذب فلانًا : تركهُ حَيرانَ يتردد (فعل متعدى) .

وأصل الذبذبة : حكاية صوت الحركة للشىء المعلق ، ثم استعير لكل حركة واضطراب ، أو تردد بين شيئين (٢) .

« مذبذبين بين ذلك » : هؤلاء المنافقون مترددون متحيرون بين الكفر والإيمان ، لا مصرحين بالكفر ولا مخلصين الإيمان . وفى صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ: « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى » ، والعائرة : المترددة بين قطيعين لا تدرى أيهما تتبع .

وأضاف ابن كثير أن من المنافقين من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء يعنى أصحاب محمد ﷺ ، وتارة يميل إلى أولئك يعنى اليهود .

وموقف الذبذبة ، والأرجحة والاضطراب ، وعدم الثبات فى أحد الصفين : المؤمن أو الكافر ـ هذا الموقف يثير الاحتقار والاشمئزاز . كما أنه يوحى بالضعف الذاتى للمنافقين . ومن ثم استحقوا ألا يعينهم الله فى الهداية ، ولن يستطيع أحد أن يجد لهم طريقا مستقيما : « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

« مذبذبين » إما حال ، أو منصوب على الذم .

---

(١) راجع الآية السابقة : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » .

(٢) قال النابغة :

ألم ترَ أن الله أعطاك سَوْرَةً ... ترى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ

١٣١ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ١٤٤ - النساء (٤)

« سُلطانا مبينا» : حُجَّةَ بَيِّنَةً ظاهرة . أى حجة بينة فى تعذيبه إياكم . روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كل سلطان فى القرآن حجة ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدى .

ومعنى « أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا » : أترغبون ، بموالاة الكفار ، أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى تعذيبه إياكم لأنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم . بينما هم يبغون لكم الهزيمة ولدينكم الزوال ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ «الممتحنة ١ » . وكما قال : ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (١) أى يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيه .

﴿ لا تتخذوا الكافرين أولياء ﴾ أى لا تجعلوا خاصتكم وبطانتكم منهم ، لأنه لا يؤمن جانبهم .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطان مبينا ﴾ فيه تلويح وتحذير من التعرض لغضب الله وبطشه ونقمته ، ولايَفْرق قلب المؤمن ويرتجف أكثر من فرقه وارتجافه من التعرض لبطش الله ونقمته .

---

(١) آل عمران ٢٨ .

١٣٢ ﴿ لا يُحبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾١٤٨ ـ النساء (٤)

جَهَرَ بالكلام ونحوه يَجْهَر جَهْرًا وجهارًا : أعلنه .

السُّوءُ : كُلُّ ما يَقْبُحُ

﴿ إلا من ظُلم ﴾ : إلا جَهْرَ من ظُلم، استثنى من الجهر الذى لايحبه الله جهرَ المظلوم، وهو أن يدعو علَى الظالم ويذكره بما فيه من السوء . فالمظلوم رُخص له أن يدعو على من ظلمه .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أبى هريرة أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : إن لى جارا يؤذينى. فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » ، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فكلّ من مرّ به قال : مالك ؟ قال : جارى يؤذينى ، فيقول المار : اللهم العنه ، اللهم أخْزِه . فقال الرجل لجاره : ارجع إلى منزلك والله لا أوذيك أ بدا .

إن الله لا يسخط جهرَ المظلوم بظلمه ، بل يقره ، لأنه من باب الانتصاف من الظالم ومكافحة الظلم ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ «الشورى ٤١ » . ولو لم يُبح للمظلوم الانتصاف من ظالمه ـ مهما كان مكانه الاجتماعى ـ لبغى الناس بعضهم على بعض، ولضاعت القيم الخلقية .

وهذا الحق الذى أعطىَ للمظلوم يشمل أن يشكو ظالمه أمام القضاء ، بأنه يقول : أخذ مالى ، أو اعتدى على أرضى أو نحو ذلك . كما يشمل الدعاءَ عليه ، كما فعل النبى ﷺ مع قريش إذْ دعا عليهم بأن يجعلها الله عليهم سنين كسنىٍّ يوسف (١) . وفى صحيح مسلم : « مَطْل (٢) الغنى ظُلم» ، فالموسر المتمكن إذا طولب بالأداء ومَطل ظَلَم، وذلك يبيح من عرضه أن يقال فيه : فلان يمطل الناسَ ويحبس حقوقهم ويبيح للإمام أدبه وتعزيره حتى يرتدع عن ذلك .

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ أى لا يحب الله إيذاء الناس بالسيء الفاحش من القول، كشتمهم ووصفهم بالأوصاف السيئة ، والقدح فى أعراضهم ، سواءٌ أكان ذلك فى مواجهتهم أم كان فى غيبتهم .

ومن الجهر بالسوء من القول : إذاعة التمثيليات والأفلام المشتملة على القصص الفاجرة التى تبرز فيها الرذيلة ، وتسمع فيها العبارات المخجلة ، والأصوات المنكرة المغرية بالإثم ـ فذلك يبغضه الله ويعاقب عليه أشد العقاب ، لخطورته على الأخلاق .

(١) ورد فى الصحيحين ومسند أحمد والترمذى .

(٢) المَطْل والمماطلة : تأجيل موعد الوفاء بالحق مرة بعد أخرى .

ومن الجهر بالسوء نشر كتب الجنس وصوره التى تحرض الشباب على الفسق والانحلال الخلقى.

ومن الجهر بالسوء: نشر المبادىء الهادمة للعقيدة الإسلامية بطريق الكتب أو المحاضرات، والتحدث عن النزوات وألوان الفسق.

ومَثَل القول السىء فى الحكم مَثَلُ كل ما أدى إلى الإيذاء من الهمز واللمز والكتابة والتصوير ، فكل ذلك حرام.

وقد أباح الله للمظلوم أن يجهر بالسوء عن ظالمه فقال : «إلا مَنْ ظُلم» - فالإسلام يحمى سمعة الناس - مالم يَظْلموا - فإذا ظَلَمُوا لم يستحقوا هذه الحماية، وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء فى ظالمه.

١٣٣ ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ١٥٥ - النساء (٤)

غَلِفَ يَغلَفُ غَلَفًا : كان فى غطاء خلْقى . يقال : غَلِفَ قلبُه : لم يَعِ الرُّشدَ (الهدى)، كأن على قلبه غِلافا حَجَبَ عنه الفهم ، فهو أغْلَف وهى غَلَفاء ، والجمع : غُلْفٌ .

يحكى القرآن فى الآيتين السابقتين على هذه الآية أن اليهود أبْوا الاستسلام لسلطان الله وشريعته التى جاءهم بها موسى فى الألواح ، وهنا جاءهم القهر المادى ، إذ نظروا فرأوا صخرة جبل الطور معلقة فوق رؤوسهم تهددهم بالوقوع عليهم إذا لم يستسلموا ويتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد وما كتب عليهم من التكاليف فى الألواح . عندئذ فقط استسلموا وأخذوا العهد وأعطوا الميثاق غليظا مؤكدا ـ وصفه القرآن بالغلظة ليتناسق مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم ، ومع غلظ القلب الذى فى صدورهم ـ وهكذا يوظف القرآن أدوات التخييل الحسى والتجسيم . « وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظًا » .

وكان فى هذا الميثاق : أن يدخلوا بيت المقدس سجدا ، وأن يعظموا حرمة يوم السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيدا . لكنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم ، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه وكفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه ، وتبجحوا وقالوا : قلوبنا غلف لا تقبل موعظة ولا يصل إليها قول ، قالوا هذا إما تيئيسا للرسول من إيمانهم وإما تبجحا واستهزاء . عندئذ يرد عليهم السياق : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » . فقلوبهم ليست مغلفة بطبعها ، إنما كفرهم هو الذى جر عليهم أن يختم الله على قلوبهم بخاتم يحجبها تماما عن تلقى الإيمان ، فلا تستشعر نداوته ولا تتذوق حلاوته ، ولايؤمن منهم إلا قلة قليلة هداهم الله وزرقهم الإيمان مثل عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن عبيد الله .

١٣٤ ﴿ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ١٦٢ ـ النساء (٤)

رَسَخَ يرْسَخُ رَسُوخًا: ثبت فى موضعه متمكنا ، ورسَخَ العلمُ فى قلبه : تمكن فيه ولم تعرض له فيه شبهة.

ويقال : هو من الراسخين فى العلم ، وله فيه قدم راسخة .

﴿ الراسخون فى العلم﴾ : الثابتون فيه المتقنون المستبصرون .

يقرر السياق أن الذى هدى القلة المؤمنة من اليهود ، إلى التصديق بما أنزل إلى الرسول ﷺ وبما أنزل من قبله ، هو الرسوخ فى العلم وهو الإيمان ـ فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود إلى الإيمان بالدين كله

ذكر القرآن العلم الراسخ على أنه طريق إلى المعرفة الصحيحة مثله كمثل الإيمان الذى يفتح القلب للنور ، وهذه لفتة قرآنية تصور واقع النفس البشرية فى كل حين . فالعلم السطحى كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة . فالذين يتعمقون فى العلم ويأخذون منه بنصيب حقيقى ، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلها واحدا مسيطرا مدبرا متصرفا . أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء ، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ، أو لاتبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحى ـ علامات الاستفهام . فالعلم الراسخ يقود صاحبه إلى هذا الدين.

ويضم السياق القرآنى هؤلاء جميعا إلى موكب المؤمنين الذين تعينهم صفاتهم: ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ .

ونلاحظ أن ﴿ المقيمين الصلاة ﴾ تأخذ إعرابا غير سائر ما عطفت عليه . وقد يكون ذلك لإبراز قيمة إقامة الصلاة بمعنى : وأخص المقيمين الصلاة ، ولها نظائر فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾ وهو سائغ فى كلام العرب كما قال الشاعر :

لايبعدن قومى الذين همو   أسد العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك   والطيبون معاقد الأزر

والغرض إبراز معنى خاص فى السياق له مناسبة خاصة . وهى هكذا منصوبة فى سائر المصاحف، وإن كانت قد وردت مرفوعة ﴿والمقيمون الصلاة﴾ فى مصحف عبد الله بن مسعود.

١٣٥ ﴿ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ١٧١ ـ النساء (٤)

﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ﴾ : غَلَت اليهود فى حَطِّ المسيح عن منزلته، حيث جعلته مولودا لغير رشدة (أى مولودا لزَنْية) ، وغلت النصارى فى رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلها . بل لقد غلواْ فى رفع أتباع سيدنا عيسى وأشياعه ، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه سواء أكان حقا أو باطلا ، أو ضلالا أو رشادا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) . روى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطرونى (٢) كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ورواه البخارى .

﴿ لا تَغْلُوا﴾ : لا تجاوزوا الحدَّ ولا تُفَرِّطوا . والغُلُوُّ : مجاوزة الحد. غلاَ يَغْلُو غُلُوّاً: جاوز الحد ، فهو غال وغَلِىّ. وغَلاَ فلان فى الأمر والدين : تشدد فيه وجاوز الحد وأفرط ، فهو غال والجمع غُلاةٌ.

الغُلُوّ وتجاوز الحد والحق دعا أهل الكتاب إلى أن يقولو على الله غير الحق ، فيزعمون أن له ولدا ، كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة . وقد تطورت عندهم فكرة البنوة وفكرة التثليث . لكنهم اضطروا أمام الاشمئزاز الفطرى من نسبة الولد لله (وهو الاشمئزاز الذى تزيده الثقافة العقلية) أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر ، ولكن عن المحبة بين الآب والإبن . وأن يفسروا الإله الواحد فى ثلاثة ـ بأنها صفات لله سبحانه فى «حالات» مختلفة ، وإن كانوا لايزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشرى . فهم يحيلونها إلى معميات غيبية .

وتعالى الله عن الشركة، وتعالى الله عن المشابهة ؛ وكونه خالقا يستتبع أن يكون غير الخلق . وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخلق والخالق : ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ .

قال القرطبى : فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر ، ولذلك قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين .

---

(١) التوبة (٣١). (٢) أطْرَاه : أحْسَنَ الثناءَ عليه .

وقال الشاعر :

وأَوْفِ ولا تَسْتَوْفِ حقك كلَّه ... وصافحْ فلم يستوف قَطُّ كريمُ

ولا تَغْلُ في شيء منَ الأمر واقتصدْ ... كلا طرَفَيْ قصد الأمور ذميمُ

وقال آخر :

عليك بأوساط الأمور فإنها ... نجاة ولاتركبْ ذَلولاً ولاصَعْبا

١٣٦ ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ ٢ - المائدة (٥)

جَرَمَ يجرم جرْمًا كَسَبَ ، وجَرَمَ : أذنب .

وجَرَمَ الرجلَ : حَمَّلَه جُرما . ويقال : جرَمني كذا على بغضك أى حملنى عليه ؛ قال الشاعر :

ولقد طعنتَ أبا عُيَيْنَةَ طعنة ... جَرَمت فزارةَ بعدها أن يغضبوا

أى حملتهم على الغضب .

﴿ لا يجرمنكم ﴾ أى لا يحملنكم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والكسائى ﴿شَنَآن﴾ : بُغْض . يقال : شَنِئْتُ الرجلَ أَشْنَؤُه شَنْأً وشَنْأَةً وشَنَآنًا إذا أبغضته . والمراد بقوله « شنآن قوم » : بغضكم قومًا ، فأضاف المصدرَ إلى المفعول . وكان المشركون قد صدوا المسلمين عن المسجد الحرام عام الحديبية (سنة ست من الهجرة) . « أن صدوكم » مفعول لأجله أى لأن صدوكم . والآية نزلت عام الفتح ، ومكة فى أيدى المسلمين .

وعليه يكون معنى التعبير : ولا يحملنكم بغضكم للمشركين - بسبب صدهم إياكم عن المسجد الحرام عام الحديبية - على الاعتداء عليهم . وهذا من عدالة الإسلام فإن العدل واجب على كل أحد فى كل أحد فى كل حال . والعدلُ به قامت السموات والأرض .

وفسر أبو عبيدة والفراء التعبير على أساس أن جرَم بمعنى كسب ، فقالا : لايكسبنكم بغضُ قوم أن تعتدوا الحقَّ إلى الباطل والظلمَ إلى العدل .

التعبير موجود أيضا فى الآية ٨ - المائدة .

١٣٧ ﴿ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٣ - المائدة (٥)

جَنِفَ يَجْنَفُ جَنَفًا : مال وجار ، وهو شبيه بالحَيْف.

تجانف لإثم : تمايل إليه فهو متجانف.

« غير متانف لإثم » غير مائل إليه متعمدا.

« مخمصة» : شدة الجوع . والخَمْص ضمورُ البطن. ورجل خَميص وخُمصان ، وامرأة خميصة وخُمصانة. وفى الحديث : « خماص البطون خفاف الظهور » ، الخماص جمع الخميص البطن، وهو الضامر ، أخبر أنهم أعِفَّاء من أموال الناس.

والمعنى : قد يتعرض الإنسان للجوع الشديد ولايجد ما يأكله سوى المحرمات التى وردت فى أول الآية : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير . . ﴾ فيضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات ، إنقاذا لحياته ، لأنه لايجد غيرها أمامه . فكان من رحمة الله بعباده : أن رفع الحرج [١] عن المضطر ، إذا تناول شيئا من هذه المحرمات ، بشرط أن يكون غير مائل إلى الإثم ، فلا يتجاوز فى أكله حَدَّ الضرورة.

واختلف الفقهاء فى حد الضرورة : هل يتناول من المحرمات قدر مايسد به الرمق[٢]، أو له أن يشبع ، أو يشبع ويتزود؟

وقد قررت الآية مبدأين من مبادئ التشريع :

أولهما : أن الضرورات تبيح المحظورات.

ثانيهما : أن الضرورة تقدر بقدرها.

قرأ النخعى ويحيى بن وثاب والسلمى « مُتَجَنِّف» من غير ألف ، وهو أبلغ فى المعنى ، لأن تشديد عين الفعل (وهو النون) يقتضى مبالغة وتوغلا فى المعنى وثبوتا لحكمه.

---

(١) الحرج هنا : الإثم.

(٢) الرَّمَق : بقية الروح.

١٣٨ ﴿ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ ٦ ـ المائدة (٥)

غَاطَ يَغوط أو يَغيط غَوْطًا وغَيْطًا : دخل فى الشىء وغاب والغَوْط والغَيْط : المطمئن [١] الواسع من الأرض ، جمعه غِيطان وغِياط . والتغويط : إبعاد قعر البئر . والغائط : الواسع المنخفض من الأرض .

والغائط : كناية عن العَذرة ؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا ذلك أتوا الغائط وقضوا الحاجة ، أو لأنهم كانوا يلقونها فى الغيطانَ ـ ومنه قيل لِمَنْ قضى حاجته : أتى الغائط .

قال القرطبى : كانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن أعين الناس ، ثم سمى الحدث [٢] الخارج من الإنسان غائطا للمقارنة . فالغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين .

﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ﴾ أى أحدثتم حدثا أصغر أو أكبر .

وعن اللمس قال عبد الله بن مسعود : كل مادون الجماع لَمْس ، والقبلة من اللمس . أما عبد الله بن عباس فقال : اللمس والمس والغشيان الجماع ، ولكنه عز وجل يكنى .

---

(١) المنخفض .

(٢) الحدَث عند الفقهاء : النجاسة الحكمية التى ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم ، وأحْدَث الرجلُ : وقع منه ماينقُض طهارته . وجمع حَدَث : أحداث .

١٣٩ ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٦ ـ المائدة (٥)

معنى التعبير : اقصدوا ترابا طاهرا وامسحوا به وجوهكم وأيديكم.

تَيَمَّمَهُ : قصده وتوخاه . وتيمم الصعيدَ : يراد قصده للتطهر بدلا عن الوضوء أو الغسل فى بعض الأحوال ، وذلك بأن يضرب الأرض ضربتين : ضربة يمسح بها الوجه ، وضربة يمسح بها اليدين إلى المرفقين ، قياسا على الوضوء ـ وهذا مذهب مالك فى المدونة ، ومذهب الأوزاعى والشافعى وأبى حنيفة والثورى والليث وابن أبى سلمة ، رواه جابر وابن عمر عن النبى ﷺ.

والتيمم يكون بالمسح على الوجه واليدين ، ورغم أن كلمة التيمم تعنى القصد، إلا أنه مع كثرة استعمال الكلمة فإنها أصبحت تعنى مسح الوجه واليدين بالتراب ـ قال ابن الإنبارى : تيمم الرجل معناه : قد مسح التراب على وجهه ويديه.

الصعيد : وجه الأرض . والصعيد : التراب

« طيبا » أى طاهرا ، فكلمة الطيب قد يراد بها الحلالُ ، ويفسر الحِل بما يناسبُه كالطهارة فى هذا التعبير ، فمعنى «صعيدا طيبا» : ترابا طاهرا (١).

قال القرطبى : التيمم مما خُصَّت به هذه الأمة توسعة عليها، قال رسول الله ﷺ : «جعلت لى الأرضُ مَسجدا وترابها طهورا ».

والتيمم يلزم كلَّ مكلَّف لزمته الصلاة إذا عَدم الماء (٢) ودخل وقتُ الصلاة.

وفى فضل الوضوء والطهارة قال صلى اللهَ ﷺ : «الطهور شطر (٣) الإيمان » ، أخرجه مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى. والوضوء أصل فى الدين وطهارة المسلمين.

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم » : لايريد الله أن يشدد ويضيق عليكم ، ولكن يريد أن يطهركم من الأدناس والأقذار ومن الذنوب والأوزار ، لأن الوضوء والغسل ـ كما ينظف الجسم من الأقذار ـ يكفر الله به الذنوب والخطايا.

(١) الطيِّب : صفة لما تستلذه الحواس والنفس ، من الفعل طابَ الشيءُ طيبًا : لَذَّ وزكا . ووصفت به ، على سبيل المجاز ، الأخلاق والكلام . وقد يكون ما تستلذه النفس حلالا شرعا ، فيكون حلالا طيبا ، وعلى هذا وُصف الطيب فى القرآن بأنه حلال : « كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ».

(٢) أى فقده.

(٣) الشَّطر : نصفُ الشيء ، هذا جزء من الحديث . أما الحديث بتمامه فهو قوله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصوم جُنَّة، والصبر ضياء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

١٤٠ ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٦ - المائدة (٥)

الحَرَج : الضِّيق أو أضيَق الضيق . حَرِجَ حَرَجًا : ضاق .

« مايريد الله ليجعل عليكم من حرج » : والله لا يريد أن يضيق عليكم فرخص لكم فى التيمم عند عدم وجود الماء . قال ابن كثير : فالله سهل عليكم ، ويسَّر ولم يُعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء ، توسعة عليكم ورحمة بكم .

وقيل فى معنى التعبير : إن الله لايريد - بما فرضه عليكم من الوضوء والغسل والتيمم - أن يضيق عليكم ويكلفكم العنت ، وإنما يريد أن يطهركم من الأدناس والأقذار ، وكذا من الذنوب والأوزار . روى الإمام أحمد عن عمرو بن عبسة قال : قلت يا رسول الله أخبرنى عن الوضوء ، قال : « ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر إلا خَرَّت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خَرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ، ثم يقوم فيحمد الله ويثنى عليه بالذى هو له أهل ، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» .

والتيمم - كالوضوء - فى هذا الثواب الجزيل . (انظر : التفسير الوسيط) .

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : «لايقبل الله صدقة من غُلول ولا صلاة بغير طهور» . وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

« مِنْ » فى قوله « من حرج» : صلة أى ليجعل عليكم حرجًا .

١٤١ ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٧ ـ المائدة (٥)

« ميثاقه الذى واثقكم به » : عهده الذى عاهدكم عليه.

واثقه على كذا وبكذا : عاهده عليه.

والميثاق : العهد ، إذ به يكون الوثوق والطمأنينة من الفعل وَثِق به يَثِق ثِقةً ومَوْثقًا : ائتمنه وسكن إليه.

وأيضا الميثاق ما يُشدبه العهدُ ويُؤكد ، من أوثقه إيثاقا : شده بحبل أو سلسلة أو نحوهما ـ فكأن الميثاق عهدٌ على التزام العهد.

يقول تعالى مذكرا عباده المؤمنين نعمته عليهم فى شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق فى مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته . والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ . وهذه هى البيعة التى كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم ، كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ ، على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله .

والميثاق المقصود فى هذه الآية هو بيعة العقبة الثانية ، سنة ثلاث عشرة من النبوة، حين بايعهم الرسول على السمع والطاعة ، فى حال اليسر والعُسر ، والمنشط والمكره[1] كما أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت .

وإضافة الميثاق إلى الله ـ سبحانه ـ مع صدوره عن النبى ﷺ، لكون المرجع إليه سبحانه .

---

(١) المَنشَطُ : ما يُخَفُّ إليه ويُؤثَرُ فعلُه . والمَكْرَه : ما يكرَهُهُ الإنسانُ ويُشقُّ عليه، والجمع : مكارِه .

١٤٢ ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٧ ـ المائدة (٥)

« ذات » : مؤنث ذو [١] ، فهى بمعنى صاحبة .

« بذات الصدور » أى بالخفايا صاحبة الصدور ، على تقدير موصوف محذوف وهو الخفايا .

وتقال « ذات » أيضا للحالة ، ويكون معنى « بذات الصدور » : بالحالة التى فى الصدور ، وهى سريرة [٢] الإنسان .

جاء فى « التفسير الوسيط » : واتقوا الله فى سركم وعلانيتكم ، وفى كل ما تأتون ، وماتذرون ، فهو سبحانه وتعالى ، عليم بذات الصدور ، لاتخفى عليه خافية . والمراد بذات الصدور : النوايا التى اشتملت عليها الصدور والقلوب . وتخصيص العلم بها للتحذير من المخالفة فى السر ، وللإيذان بعلمه بما عداها بطريق الأولى .

وقال ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » : « واتقوا الله » تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى فى كل حال . ثم أعلمهم أنه يعلم مايتخالج فى الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : « إن الله عليم بذات الصدور » .

وقال القرطبى : ذات الصدور هى الصدور ، لأن ذات الشىء نفْسه . وفى «تفسير الجلالين» : « بذات الصدور » أى بما فى القلوب .

وجاء فى « فى ظلال القرآن» : وذات الصدور هى الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها ، التى لاتبارحها ولا تتكشف فى النور ـ والله عليم بذات الصدور هذه .

والتعبير موجود فى ١١٩ و ١٥٤ / آل عمران ، وفى مواضع أخرى عديدة .

---

(١) ذو بمعنى صاحب ، وهو اسم يُتوَصَّل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، ويضاف إلى الظاهر دون المضمر ، ومثناه ذوان وجمعه ذوون .

(٢) السريرة : ما يكتمه المرء فى نفسه .

(٣) اختلج الشىء : تحرك واضطرب . ويقال : اختلج فى صدرى كذا أى خطَر مع شك .

١٤٣ ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ٨ ـ المائدة (٥)

قَوَّام : صيغة مبالغة فى قائم ، يقال : هو قوّام على أهله أى دائم القيام بشئونهم والسهر على مصالحهم . الجمع : قوامون .

« كونوا قوامين لله » : هذا أمر من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأن يكون دأ بهم ـ دائما ـ القيام لله بحقوقه ؛ فى أنفسهم بالعمل الصالح ، وفى غيرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقال ابن كثير : كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة .

وقال الشوكانى : « لله » أى لأجله تعظيما لأمره وطمعا فى ثوابه .

« شهداء بالقسط » أى يؤدوا الشهادة بالعدل .

« ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » : ولا يحملتكم بغضُ قوم أو عداوتهم على أن تجوروا فى حكمكم أو تغيروا فى شهادتكم .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى أن العدل هو أقرب الطرق الموصلة إلى تقوى الله وخشيته .

١٤٤ ﴿ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ١١ ـ المائدة (٥)

بَسْطُ اليد : مَدُّها طلبًا لشىء ، وتارة يستعمل للصولة والضرب ، وتارة يستعمل للبذل والعطاء .

يقال : بَسَط فلانٌ يده بما يحب ويكره . ﴿ إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾ أى بالسوء . يذكر الله عباده المؤمنين بنعتمه عليهم عندما أنجاهم من أعدائهم عندما أرادوا البطش بهم بالقتل . « فكف أيديهم عنكم » أى منعهم .

وقد ورد فى سبب نزولها ـ كما فى صحيح مسلم وغيره ـ أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان قد قاموا إلى صلاة الظهر . فلما صلوا ندم المشركون ألاَّ كانوا أكبُّوا عليهم ؟ وهَمُّوا أن يوقعوا بهم (أى بالمسلمين) إذا قاموا إلى صلاة العصر بعدها . فرد الله ـ تعالى ـ كيدَهم بأن أنزل صلاة الخوف .

التعبير موجود فى الممتحنة ٢ .

١٤٥ ﴿ ولا تزالُ تطَّلعُ على خائنة منْهُمْ ﴾

﴿ يُحرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٣ ، ١٤ المائدة (٥)

خَانَ يخون خَوْنًا وخيانةً ، فهو خائن وهم خائنون .

والخائنة اسم فاعل من خان ، أى مصدر جاء على وزن فاعلة مثل العاقبة .

ومعنى «خائنة منهم» أى خيانة منهم ، أو نفس خائنة أو فرقة خائنة منهم على أن تكون نعتا لمحذوف هونفس أو فرقة .

ويقال : رجل خائنة إذا بالغت فى وصفه بالخيانة ، كما يقال : رجل نسَّابة وعلامة .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم » أى إن الغدر والخيانة عادة مستمرة لليهود ، منتقلة فيهم من الأصول إلى الفروع . فلا تزال ، أيها الرسول ، تطلع وتقف من هؤلاء اليهود المعاصرين ، على خيانة إثر خيانة . فهم قوم لا عهد لهم ولا وفاء عندهم .

قال ابن كثير : لا تزال تطلع على مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك . وقال مجاهد وغيره : يعنى بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ، ﷺ .

١٤٦ ﴿ فأَغْرَيْنا بينهمُ الْعداوة والْبغْضاء ﴾

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ١٣ ، ١٤ ـ المائدة (٥)

أغْرَى بينهم العداوةَ : ألقاها ، كأنه ألزقها بهم . وأصل الكلمة : الغِراء والغَرَا[1] : ما يُلصَق به .

جاء فى « التفسير الوسيط » : بث الله فيهم العداوة والبغضاء ، حتى صارت صفة ملازمة لهم .

وقال القرطبى فى معنى « أغرينا » : هيجّنا . وحكى الرمانى : الإغراء تسليط بعضهم على بعض .

« بينهم » : ظرف للعداوة . والبغضاء : البغض . قال السدى وقتادة : بعضهم لبعض عدو إشارة إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما . وقال الربيع بن أنس : أشار إلى افتراق النصارى خاصة لأنهم أقرب مذكور ، وذلك أنهم افترقوا إلى اليعاقبة والنسطورية والملكانية ، أى كفّر بعضهم بعضا ، كل طائفة تكفر الأخرى .

(١) غِراء (بكسر الغين) ممدود ، وغَرًا (بفتح الغين) مقصور .

١٤٧ ﴿ سُبُلَ السَّلامِ ﴾

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١] ١٦ـ **المائدة (٥)**

السلام [٢] : النجاة والأمان من الشرور والآفات.

« سبل السلام » : طرق النجاة والسلامة ، ومناهج الاستقامة.

وقال القرطبى : طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة والمؤمَّنة من كل مخافة ، وهى الجنة.

يهدى الله به ـ أى بهذا القرآن ـ من اتبع رضوان الله ، أى كل ما يرضى ربه ، طريق النجاة والفلاح.

١٤٨ ﴿ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ﴾

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ٢١ ـ **المائدة (٥)**

أدباركم : جمع دُبر ، والدُّبر : مؤخر كل شىء وظهره وعَقبه . وهو نقيض القُبُل.

﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أى : إلى ما خلفكم من الأماكن . وفى «التفسير الوسيط» : ولاتنكصوا على أعقابكم.

وقال ابن كثير : ولا تنكلوا عن الجهاد . وقال القرطبى ما هو قريب من ذلك : لا ترجعوا عن طاعتى وما أمرتكم به من قتال الجبارين.

(١) راجع آخر الآية السابقة : ﴿ .. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾.

(٢) ومن السلام بمعنى الأمان جاءت التحية : السلام عليكم ، وأصله أن يُطمئن غيره بالأمان والنجاة منه.

١٤٩ ﴿ تَبُوءَ بِإِثْمِي ﴾

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ ٢٩ ـ المائدة (٥)

بَاءَ يَبُوءُ بَوْأً وبَوَاءً : رَجَعَ .

وباء بذنبه وبإثمه : إحتمله وصار المذنبُ مأوى الذنب . قال الأصمعى : باء بإثمه : إذا أقَرَّ به . وفى الحديث : « أبوء بنعمتك علىَّ ، وأبوءُ بذنبى أى ألتزمُ وأرجعُ وأقر . » وأصل البَوَاء اللزوم ، وفى الحديث : « فقد باء به أحدُهما » أى التزمه ورجَع به . وفى حَديث وائل بن حُجْر : إن عفوتَ عنه ، يبوء بإثمه وإثم صاحبه ، أى كان عليه عُقُوبةُ ذنبه وعقوبةُ قتل صاحبه .

« تبوء بإثمى وإثمك » أى بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك ، قاله ابن جرير ، وهو قول أكثر المفسرين .

وقيل فى معنى « بإثمى » : الذى يختص بى فيما فرطت ؛ أى يؤخذ من سيئاتى فتطرح عليك بسبب ظلمك لى ؛ وهذا يعضده قول النبى ، عليه الصلاة والسلام : «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد فى حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه » . وتبوء بإثمك الذى تحتمله لقتلك إياى .

هذه الآية وردت فى سياق قصة ولدى آدم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك . . » إلى آخر الآية . وفيها تذكير بشناعة جريمة القتل حيث قال تعالى بعد ذلك : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتلُ نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفِل [١] من دمها لأنه كان أول من سَنّ القتل» . وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود .

---

(١) الكفِل : النصيب .

١٥٠ ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

٣٠ ـ المائدة (٥)

من الحسى فى المادة : فرسٌ طَوْعُ العِنان أى سَلِسُ العِنان. ومنه يجىء المعنوى من الانقياد والاستجابة.

أطاعَ فلانًا وطاوعَه : وافقه وانقاد له.

وطوَّعت له نفْسه كذا : طاوعته عليه ، أى زينته وشجعته عليه.

قال القرطبى فى معنى التعبير : أى سولت وسهلت نفْسه عليه الأمر وشجعته ، وصورت له أن قتل أخيه طَوْعٌ سَهْل له.

١٥١ ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ٣٢ - المائدة (٥)

« بغَيْر نفس » : بغير قصاص فى نفس ، أى بغير أن يكون من وقع عليه القتل قاتلا فيستحَق القَتل .

وقد حرم الله القتل فى جميع الشرائع إلا بثلاث خصال : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس ظلما وتعديا .

كتب الله أن من قتل نفسا بغير قصاص ، أو بغير فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، لأن الواحد صورة للجماعة ، فالجرأة على قتله استهانة بالمجتمع كله ، وجرأة عليه كله . ولقد اهتدى علماء القانون إلى ما قرره القرآن الكريم . من أن العدوان على الفرد يعتبر عدوانا على المجتمع ؛ ولذا لو تنازل المجنى عليه - أو ورثته عن حقوقهم - قبل الجانى - فمن حق النائب العام الذى يمثل المجتمع ، عدم التنازل ، حفاظا على حق المجتمع وصونا لحرماته .

« ومن أحياها » : أى من عفا عمن وجب قتله . وروى عن مجاهد أن إحياءها هو إنجاؤها من غرق أو حرْق أو هلكة ، فالإحياء هنا مجاز .

وفائدة هذا التشبيه : تهويل أمر القتل والترهيب والردع من قتل نفس واحدة ، بتصويره بصورة قتل جميع الناس ، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ، الترغيب والتحضيض على إحيائها ، بتصوير هذا الإحياء بصورة إحياء الناس جميعا .

١٥٢ ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٣٥ ـ المائدة (٥)

الوسيلة إلى الله : ما يُوصِّل إلى ثوابه والزُّلفى (المنزلة) لديه ، وذلك بفعل الطاعات وترك المعاصى . وقال القرطبى :

الوسيلة هى القُرْبَة ، والقربة : ما يتقرب به إلى الله تعالى من أعمال البر والطاعة . وقال قتادة : « ابتغوا إليه الوسيلة » أى تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه .

والوسيلة فعيلة من توسلت إليه أى تقربت .

وعطف « وابتغوا إليه الوسيلة » على ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ يفيد أن الوسيلة غير التقوى ؛ وقيل : هى التقوى ، لأنها ملاك الأمر وكل الخير فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى . والظاهر أن الوسيلة التى هى القُربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التى يتقرب العباد بها إلى ربهم .

« ابتغوا إليه الوسيلة [١] » أى اطلبوا القربة إليه لا إلى غيره .

جاء فى « التفسير الوسيط » أن الاستعانة بمخلوق وجعلَه وسيلة ـ بمعنى طلب الدعاء منه ـ لاشك فى جوازه إذا كان هذا المخلوق حيا ، ولايتوقف على أفضليته عن الطالب ، بل قد يطلب الفاضل من المفضول . فقد صح أن النبى ، ﷺ ، قال لعمر لما استأذنه فى العمرة : « لا تَنْسَنَا يا أخى من دعائك » . وأمره أن يطلب من أويس القرنى ـ رحمه الله ـ أن يستغفر له ، وأمر أمته ، ﷺ، بطلب الوسيلة له ، وبأن يصلوا عليه .

أما إذا طلبت الوسيلة من شخص ميت أو غائب ، فلا يستريب [٢] أى عالم فى أنه غير جائز ، وأنه من البدع التى لم يفعلها أحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم . ولم يرد عن أحد من الصحابة ـ وهم أحرص الخلق على كل خير ـ أنه طلب من ميت شيئا . واستدل الشيخ الآلوسى على أن التوسل لا يكون إلا بالأحياء ، بما ورد فى صحيح البخارى عن أنس أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان إذا قَحَطُوا [٣] استسقى [٤] بالعباس ، رضى الله عنه ، فقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك ـ ﷺ ـ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعَمِّ نبينا فاسقنا فيُسْقَوْن » ـ فلو كان التوسل به عليه الصلاة والسلام ، بعد انتقاله من دار الدنيا ، جائزا ، لما عدلوا إلى غيره .

---

(١) والوسيلة أيضا درجة فى الجنة مختصة برسول الله ﷺ . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

(١) يرى ما يدعو إلى الشك والظن (انظر : لسان العرب) .

(٢) قَحَطوا : أصابهم القَحْطُ ، والقحط : احتباس المطر ويُبْس الأرض .

(٣) طلب السُّقيا أى الغيث والرى .

١٥٣ ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾٤١ ـ المائدة (٥)

حَرْفُ الشيء : طَرَفُه وحدُّه . وحَرَّف الشيء : أمَاله

وحرَّف الكلامَ : غَيَّره وصرفَه (أى ردَّه) عن معناه .

« يحرفون الكلم من بعد مواضعه » أى يميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها ويتأولونه على غير معناه ـ فهم يغيرونه بالزيادة والنقصان وإساءة التأويل ومعنى « من بعد مواضعه » : من بعد كونه موضوعا فى مواضعه التى وضعه الله فيها من حيث لفظه أو من حيث معناه .

ومعنى « الْكَلِم » : الكلام .

١٥٤ ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾

﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ٤٤ ـ المائدة (٥)

معنى التعبير : ولا تأخذوا لأنفسكم بدلا من آياتى ، عوضا قليلا ، وهو حظوظ الدنيا الفانية .

وفى دخول الباء على « آياتى » ما يؤذن بأنهم يتخذونها وسائل يجتلبون بها المنافع لأنفسهم .

وفى « التفسير الوسيط » : لا تستبدلوا بآياتى المنزلة ثمنا قليلا ، وذلك بتغييرها وتبديلها ، فى مقابل رشوة تأخذونها أو جاه تحرصون عليه ، أو أى حظ من خطوط الدنيا وزخرفها .

علم الله ـ سبحانه ـ أن بعض الْمُستحفظين على كتابه (أى الذين كُلفُوا المحافظة عليه وحمايته وحماية أحكامه من التغيير والتبديل) قد يضعُفون أمام أصحاب السلطان وأصحاب المال والشهوات الذين لايريدون حكم الله ، فيقوم هؤلاء الْمُستَحفَظُون بتحريف آيات الله وتقديم فتاوى مدخولة [١] مقابل عطاء دنيوى : راتب أو وظيفة أو لقب أو مصلحة . ولذلك ناداهم الله : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » ، وكل عوض أو ثمن دنيوى هو فى حقيقته قليل . كما أن تفريط المستحفظ فى الأمانة التى عهد إليه أن يحافظ عليها أمر شنيع وبشع .

فالآيات هنا : أحكام الله وأوامره ونواهيه . والثمن هو الدنيا ومدتها والعين فيها وهو نَـزْر[٢] لا خطر له ، وسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا ، فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا .

---

(١) الدَّخَلُ : ما داخل الإنسان من فساد فى عقل أو جسم ، والدخَل : العيب والغش والفساد . وقد دُخِلَ دَخْلا ، فهو مَدْخول أى فى عقله دَخَلٌ (فساد) . وفى حديث قتادة بن النعمان : وكنت أرى إسلامَه مَدْخولا ، يعنى أن إيمانه كان فيه نفاق .
(٢) النَّزْر : القليل .

١٥٥ ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ٤٨ ـ المائدة (٥)

استبقا : تباريا فى السير

واستبقا الشىء : تباريا فى السير للوصول إليه .

﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ : فليسبقُ كلٌّ منكم الآخرَ إلى فعل الخيرات ، والخيرات هى طاعة الله واتباع شريعة الإسلام التى جاء بها القرآن الذى هو آخر كتاب نزل من عنده تعالى .

فالتعبير يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى الخيرات وهى جميع الطاعات بالعموم .

والخيرات جمع خَيْرَة ، وهى الصالحة والفاضلة من الناس والأمور .

والتعبير موجود فى سورة البقرة آية ١٤٨ .

١٥٦ ﴿ أَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ ٥٣ ـ المائدة (٥)

﴿ أقسموا بالله جَهْد أيمانهم ﴾ : أى أقسموا وبالغوا فى اليمين جاهدين فيه . والتعبير موجود فى الأنعام١٠٩ ، النحل ٣٨ ، النور ٥٣ ، فاطر ٤٢ وفى « فتح القدير» قال الشوكانى: جَهْدُ الإيمان : أغلظها ، وهو فى التعبير منصوب على المصدر أو على الحال : أى أقسموا بالله جاهدين .

ويقول الذين آمنوا ـ مخاطبين اليهود بعدما هُزموا ودارت الدائرة عليهم (١) ـ أهؤلاء ، إشارة إلى المنافقين ، هم الذين حلفوا لكم بالله مغلظين الإيمان ، مجتهدين فيها ، إنهم ليكونون معكم بالعون والنصر على محمد إذا قاتلتموه ؟ لاحظ أن الاستفهام هنا خرج لقصد بلاغى هو التقريع والتوبيخ .

والرجوع إلى السياق فى الآية السابقة يزيد الأمر وضوحا : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمره من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » . فهذه الآية خطاب للرسول عليه السلام يبين حال الذين يوالون اليهود والنصارى ـ وقد نهانا الله فى الآية السابقة (٥١) عن موالاتهم واتخاذهم أحبابا ـ ويكشف سبب هذه الموالاة ، وهو ما استقر فى قلوبهم من مرض أى نفاق وحقد على محمد والشك فى صدقه (٢) . ولذا تراهم مسارعين إلى تحقيق مودتهم لليهود والنصارى ، ومعاونتهم فى حرص شديد وعناية فائقة ، كما أفاده التعبير بقوله : « يسارعون فيهم » دون التعبير بلفظ « يسارعون إليهم » ، إذ معناه أنهم مستغرقون فى مودتهم . والذين فى قلوبهم مرض يخشون أن ينتصر اليهود على محمد فتدور الدائرة عليهم ولهذا يوالون اليهود، فرد الله عليهم بقوله : « فعسى الله أن يأتى بالفتح» أى النصر ، وهو وعد منه ـ سبحانه ـ لرسوله وللمؤمنين . وقد تحقق الوعد ، وجاء فتح الله ونصره لرسوله ، وندم الذين فى قلوبهم مرض على ما أسروا فى أنفسهم من نفاق وشك . وبعد ذلك جاء التقريع لهم ولليهود فى الآية (٥٣) موضع الحديث .

(١) أى نزلت بهم الهزيمة أو الداهية . (٢) فلا إيمان فى قلوبهم ولا يقين تعمر به نفوسهم .

١٥٧ ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا وأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾٦٠ ـ المائدة (٥)

الشَّرُّ : السوءُ والفساد . ويقال : رجلٌ شَرٌّ أى ذو شَرٍّ .

« شَرٌّ » أفعل تفضيل أى أكثر شرًا ، وكذلك « شرٌّ » المجرورة بالباء فى أول الآية أفعل تفضيل هى الأخرى . وحذفت همزته لكثرة الاستعمال ، فيقال شر بدلا من أشر .

« مكانًا » تمييزا ، ومكانهم الأكثر شرا هو النار التى ستكون مأواهم . وقال الشوكانى : جعلت الشرارة للمكان ، وهى لأهله للمبالغة .

« وأضلُّ » عن سواء السبيل معطوف على « شرٌّ » ، أى أهم أكثر ضلالا من غيرهم عن الطريق المستقيم . « وسواء السبيل » : طريق الحق ، وأصل السواء : الوسط . أما أضل فأصلها : ضَلَّ الشىء : خَفِىَ وغاب ، والمتعدى ضَلَّ الطريق : خفى عليه ، فهم أكثر الناس بعدا عن وسط الطريق واستقَامته .

« أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » : هم فى شر المكانة ، وأحط المقام ، وأكثر انحرافا وبعدا عن الطريق المستقيم .

قال ابن كثير : هذا (أى استعمال صيغة أفعل التفضيل فى قوله : شرٌّ وأضلُّ) من باب استعمال صيغة أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة ، كقوله عز وجل : «أصحاب الجنة يومئذ خيرٌ مستقرا وأحسنُ مقيلا » .

١٥٨ ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ٦٤ ـ المائدة (٥)

الغُلّ : القيد تقيد به الأعضاء . وغَلَّه غَلاً : أدخله فى الغُل أى فى القيد والوصف مغلول . والغل يكون من الجلد أو الحديد ويوضع فى اليد أو العنق .

واليد فى كلام العرب تكون للجارحة ، وللنعمة ، وللقدرة ، وللنصرة .

ومراد اليهود ، لعنهم الله ، بقولهم : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ : أنها مقبوضة بالعطاء فكأنها مربوطة إلى العنق ولاتمتد لتعطى ، كناية عن البخل والإمساك ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، حسبما روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى والضحاك ؛ ولايعنون ـ أى اليهود ـ بتلك العبارة أن يد الله موثقة بالقيد . والعرب تطلق غُلّ اليد على البخل وبَسْطَها على الجود مجازا ، ولايريدون الجارحة . كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل (أصابعه مجتمعة منقبضة)ومقبوض الكف (١) .

وقد يكون المراد أن اليهود يعنون بقولتهم « يد الله مغلولة» أنه فقير لا يجد ما يعطيه كما فى الآية ١٨١ من سورة آل عمران : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ وقد عاقب الله اليهود بعقاب من جنس عملهم حين قال عنهم «غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا » ، وهذا دعاء عليهم بالبخل والعجز ، وهذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم (٢) ، فهم أبخل الناس فى الدنيا وأحرصهم على المال ، وباءُوا فى الآخرة بالخلود فى النار .

ويجوز أن يكون المراد الدعاء عليهم بأن تُقَيَّد أيديهم فى الدنيا حقيقة ، بأخذهم أسارى ، ويوم القيامة يسحبون فى النار على وجوههم بأغلالهم .

﴿ ولعنوا بما قالوا ﴾ : طردوا من رحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة .

---

(١) قال الشاعر :

كانت خُراسان أرضا إذ يزيدُ بها ... وكلُّ باب من الخيرات مفتوحُ
فاستبدلت بعده جَعْدا أناملُهُ ... كأنما وجهُه بالخَلِّ منضوحُ

(٢) كما قال تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لايؤتون الناس نقيرا . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ . « النساء ٥٣» . والنقير : النقطة التى فى وسط ظهر النواة كالثقبة فيها ، ويضرب النقير مثلا فى القلة وفى الشىء التافة لا يؤبه له ـ ويقال للبخيل : لا يبذل نقيرا .

١٥٩ ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ٦٤ ـ المائدة (٥)

بَسْطُ اليد : مدها لطَلب شيء . وتارة يستعمل للصولة والضرب، وتارة يستعمل فى مدها للبذل والإعطاء.

«بل يداه مبسوطتان» : هو الواسعُ الفضل ، الجزيلُ العطاء ، الذى ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وما بخَلْقه من نعمة فمنه وحده لاشريك له . الذى خلَق لنا كل شيء مما نحتاج إليه : في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفى جميع أحوالنا ، كما قال : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ «إبراهيم ٣٤».

وقد أشير بتثنية اليد إلى تقرير غاية جوده وغناه . فإن أقصى ما تصل إليه همة الجواد السخى أن يعطى ما يعطيه بكلتا يديه . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « يمين الله مَلأى لايغيضها سحاء[1] الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغض ما فى يمينه ـ قال ـ وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى القبضُ . . يرفعُ ويخفض».

وفى قوله تعالى ﴿ ينفق كيف يشاء ﴾ تأكيد لكمال جوده وغناه ، وتقرير لهما : إن شاء وسَّع فى العطاء وإن شاء ضيقه ، وذلك لحكمة يعلمها هو . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ «الشورى ٢٧ ».

١٦٠ ﴿ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ ﴾

﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٦٤ ـ المائدة (٥)

أوقد النارَ : أشعلها . والمراد هنا : أثاروا الفتن ودبروا المكائد التى تؤدى إلى وقوع الحرب بين الناس ـ فذكر النار هنا مستعار.

بين سبحانه أن دأبهم ، أى اليهود ، على إشعال نار الحروب والفتن بين الناس، وتدبير المكر السيء لا يعود عليهم إلا بالخيبة والهزيمة ، فقال : ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ أى كلما هموا بحرب الرسول ودبروا لإيذائه وركبوا كل صعب وسهل فى سبيل ذلك ، ردهم الله وقهرهم بإلحاق الهزيمة بهم ؛ أو أوقع الله بينهم نزاعا فرق بينهم ، فكفَّ الله به شرهم عنه . أو كلما حاربوا أحدا أو جماعة غُلبوا وهُزموا.

وقد كان أمرهم كذلك على مدى التاريخ.

---

(١) السَّحُّ : الصبُّ الكثير . لا يَغيضُها : لا يُنْقصها.

١٦١ ﴿ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ ٦٦ - المائدة (٥)

قَصَدَ فى أمره يقصد قَصْدًا : اعتدل وسلك فيه مسلكا وَسَطًا (١).

واقتصد فى أمره يقتصد بمعنى قَصَد، وهو مقتصد ، وهى مقتصدة.

﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ أى من اليهود طائفة معتدلة ، وهم الذين آمنوا إيمانا حقيقيا بمحمد ﷺ وبما جاء به ، وبسائر الكتب التى أنزلها الله على رسله ، فكانوا بذلك على النهج السليم ومما جاء فى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ « آل عمران ١١٣ » . فأهل الكتاب ليسوا متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح فى الآية السابقة ﴿ كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ ، بل منهم طائفة سلمت من هذه القبائح، أمة قائمة أى مستقيمة (٢) ثابتة على طاعة الله ، وهم الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشى وأصحابه.

وكما كان من أهل الكتاب أمة وسط : استقامت على منهج الحق والهدى ، كان كثير منهم ساء عملهم ، إذ أفرطوا فى عنادهم وعداوتهم وظلوا على كفرهم.

١٦٢ ﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٦٨ - المائدة (٥)

« لستم على شىء » : أى ليسوا على شىء من العقيدة والدين والإيمان حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، أى يلتزموا بما جاء فيها والإيمان بما فيها ، ومما ورد فيها البشارة بمحمد ، ﷺ والأمر باتباعه والإيمان بمبعثه والاقتداء بشريعته .

والآية ، وإن كانت واردة فى أهل الكتاب ، فإن فيها تحذيرا عاما لكل من لا يقيم حدود الله.

---

(١) والاقتصاد فى اللغة : الاعتدال من غير غُلُوّ ولا تقصير ومنه قَصْدُ السبيل أى الطريق المستقيم.

(٢) من قولهم : أقمت العودَ فقام أى استقام واعتدل.

١٦٣ ﴿ ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع ﴾

﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ٨٣ ـ المائدة (٥)

﴿ تفيض من الدمع ﴾ أى بالدمع ، قاله القرطبى . وقال الشوكانى فى شرح هذا التعبير : أى تمتلىء فتفيض ، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء ، جعل الأعين تفيض (والفائض إنما هو الدمع) قصدا للمبالغة (١) .

وفى «التفسير الوسيط» : تمتلىء عيونهم بالدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته .

إنهم (أى القسيسين والرهبان الذين يعرفون حقيقة دين النصارى ولا يستكبرون على الحق ، فى الآية السابقة) إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذى سمعوه ، والذى لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ـ وهى حالة معروفة فى النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفى بها القول ، فيفيض الدمع ليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف .

وفى تفسير الخازن ، قال ابن عباس : المراد النجاشى وأصحابه ، لما قرأ عليهم جعفر بن أبى طالب سورة مريم قال : فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

« مما عرفوا من الحق » مِنْ فى «مِمَّا» لابتداء الغاية ، ومِنْ الثانية بيانية أى كان ابتداء الفيض ناشئا من معرفة الحق .

وهذا شأن العلماء المخلصين كما قال تعالى : **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾** « الزمر ٢٣ » وقال : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾** « الأنفال ٢ » .

---

(١) قال امرؤ القيس :

ففاضت دموع العين من صبابة ... على النحر حتى بلَّ دمعى محملى

١٦٤ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ٩٩ - المائدة (٥)

أَبْلغتُه الخبرَ إبلاغًا : أوصلته إليه . ومثله بلَّغته تبليغًا (١) .

« البلاغ » معناه الإيصال ، فهو إسم بمعنى الإبلاغ والتبليغ ومعنى التعبير أن الرسول ليس له الهداية والتوفيق ولا الثواب وإنما عليه تبليغ الرسالة وتوصيلها إلى الناس .

لكن التعبير ـ بصياغته هذه ـ فيه تحذير وإيحاء وإلقاء للتبعة (المسئولية) على المخالف الذى لا يتوب .

فمعنى الآية : ليس على الرسول إلا أن يبلغ ما أُنزل إليه من ربه . وقد أدى رسولنا ، ﷺ رسالة ربه كاملة ، فبشر وأنذر . وأعلن ذلك فى حجة الوداع حيث قال : « ألا لِيُبَلِّغَ الشاهدُ الغائبَ ، فلعل بعضَ من يبلغُه أن يكون أوْعَى له من بَعض مَنْ سَمِعَه . ألا هلَ بَلّغْتُ ؟ ألا هل بلغت ؟ (٢) والله سبحانه يعلم ما تظهرون ومَا تخفوَن من طَاعة ومعصية فيحاسبكم عليه .

---

(١) وكل ما جاء فى القرآن مُعَدّى بالهمز (أبلغَ) أو التضعيف (بَلَّغ) فهو بهذا المعنى . ومنه البلاغة لأنها إيصال المعنى إلى النفس فى أحسن صورة من اللفظ . ومنه قولهم : فى هذا بلاغ أى كفاية لأنه يبلغ مقدار الحاجة .

(٢) صحيح البخارى فى حجة الوداع .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ ١٦٥

١٠١ ـ المائدة (٥)

« إنْ تُبْدَ لكم » أى تظهر . « تسؤكم» لما فيها من المشقة .

هذه الآية تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهىٌ لهم عن أن يسألوا عن أشياء لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها . لأنها إن ظهرت لهم ، فربما ساءتهم ، وشق عليهم سماعها ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «لايُبلغنى أحدٌ عن أحد شيئا إنى أحب أن أخرج لكم وأنا سليم الصدر» .

كان بعضهم يكثر على رسول الله ﷺ، من السؤال عن أشياء لم يتنزل فيها أمر أو نهى ؛ أو يلحف (يلح) فى طلب تفصيل أمور أجملها القرآن ، وجعل الله فى إجمالها سعة للناس ؛ أو يستفسر عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذى السائل عنها أو يؤذى غيره من المسلمين .

روى مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنْعا وهات ، وكره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . والمراد بقوله : « وكثرة السؤال » التكثير من السؤال فى المسائل الفقهية تنطعا وتكلفا فيما لم ينزل ، والأغلوطات وتشقيق المولدات . قال ابن عبد البر : من سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذى لا يحل قليلُ سؤاله ولا كثيرُه، وقيل : المراد بكثرة السؤال هو السؤال عما لا يعنى السائل من أحوال الناس بحيث يَؤدى ذلك إلى كشف عوراتهم ، وهذا مثل قوله تعالى فى سورة الحجرات «ولا تجسسوا» الآية ١٢ . وقيل : المراد بكثرة السؤال كثرة سؤال الناس الأموال والحوائج إلحاحا واستكثارا ـ والآية تحمل على كل هذه الوجوه ، كما قال القرطبى .

أخرج مسلم فى صحيحه عن أنس عن النبى ﷺ : « فو الله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا » فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : «النار » فقام عبد الله بن حذافة [1] فقال : من أبى يا رسول الله ؟ فقال : « أبوك حذافة» . قالت له أمه : ما سمعت بابن أعَقّ (أى أكثر عقوقا) منك . أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به .

وروى أنه لما نزلت آية الحج « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » سأل سائل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فكره الرسول ، ﷺ هذا السؤال لأن النص على الحج جاء مجملا ، والحج مرة يجزى . فأما السؤال عنه : أفى كل عام ، فهو تفسير له بالصعب الذى لم يفرضه الله . والرسول ﷺ سكت ولم يرد على السائل لأول مرة ، لكن السائل عاد وكرر السؤال : أفى كل عام ؟ فقال الرسول : « لا ولو قلت نعم لوجبت ».فأنزل الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ إلى آخر الآية . فكثرة السؤال قد تؤدى إلى كثرة التكاليف التى قد تشق عليهم ويعجزوا عن القيام بها .

---

(١) قال ابن عبد البر : عبد الله بن حذافة أسلم قديما ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدرا ، وكانت فيه دعابة ، وكان رسول الله ﷺ أرسله إلى كسرى بكتابه ﷺ .

١٦٦ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

١٠٥ ـ المائدة (٥)

« عليكم أنفسكم » أى احفظوها من المعاصى وقوموا بصلاحها .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، وأوضح لهم أن من أصلح أمره لايضره بعد ذلك فساد من فسد . «إلى الله مرجعكم جميعا» فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وليس فى الآية دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنا . روى الإمام أحمد أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوْا المنكر ولايغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه » . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان فى صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة . وهكذا صحح الخليفة الأول ، رضوان الله عليه ، ما توهمه بعض الناس فى هذه الآية . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد صار أشق .

ولذلك قال ابن المبارك : قوله تعالى ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ خطاب لجميع المؤمنين ، أى عليكم أهل دينكم . . فكأنه قال : ليأمُرْ بعضكم بعضًا ، ولْينه بعضكم بعضا ؛ فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولايضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ؛ وهذا لأن الأمر بالمعروف يجرى مع المسلمين من أهل العصيان . وروى معنى هذا عن سعيد بن جبير . وقال سعيد بن المسيب : معنى الآية لايضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد يفهم من ظاهر الآية أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس واجبا إذا استقام الإنسان . لكن فهم الآية على هذا الوجه خطأ [١] فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ لا يسقط وجوبهما عن القادر عليهما بأى حال من الأحوال . قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [٢] وقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٣] ، وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده

---

(١) انظر : التفسير الوسيط ص ١١٧٤ . (٢) آل عمران (١٠٤) .

(٣) آل عمران (١١٠) .

لتأمُرُن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليؤشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدْعُنَّه فلا يستجيب لكم » . وقد لعن الله اليهود لأنهم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه»[1] . لهذا كله يجب تأويل الآية كما يلى :

يأيها الذين آمنوا ، عليكم إصلاح أنفسكم ، بفعل ما أمرتم به من التزام الحق والدعوة إليه ، وترك الباطل والنهى عنه . لا يضركم بعد هذا ضلال من ضل ، إذا اهتديتم [2] .

قال القرطبى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر متعين متى رُجِىَ القبول ، أو رُجِىَ رد الظالم ولو بعنف ، مالم يخفْ الآمر ضررا فى خاصته ، أو فتنة يدخلها على المسلمين إما بشق عصا [3] وإما بضرر يلحق طائفة من الناس . روى الترمذى أن أبا ثعلبة الخشنى قال : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهَوْا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شُحًا مُطاعًا ، وهوًى مُتَّبعًا ، ودُنيا مؤْثَرةً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك . . ودَعْ عنك العَوامَّ ، فإن من ورائكم أياما : الصابر فيهن مثلُ القابض على الجمر . للعامل فيهن أجرُ خمسين رجلا يعملون كعملكم » . ولهذا قال القرطبى : ويجوز أن يكون أريد به الزمان الذى يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فينكر بقلبه ويشتغل بإصلاح نفسه .

---

(١) المائدة (٧٩) .

(٢) التفسير الوسيط ص ١١٧٥ .

(٣) شق العصا : التمرد .

١٦٧ ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾١ ـ الأنعام (٦)

العِدْلُ : نصف الحمل . وعَدَلَ الشخصُ الحمل : وازنه بما يساويه ، ومنه كان العِدْل والعَدْلَ والعديل أى : المِثل والنظير .

وفرقوا بين العدل (بكسر العين) وبين العَدل (بفتحها) ، فكان ما يُدرك بالحواس عِدْلاً ، وما يُدرك بالبصيرةَ عَدْلا .

وعَدَل به : سوَّاه بغيره .

فمعنى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » : يُسَوُّون به غيرَه ويجعلون له عِدْلا أى مثيلا وشريكا ـ تعالى الله عزوجل عن ذلك عُلوا كبيرا .

والآية تتعجب من الذين كفروا ، أولئك الذين يسوون من خلق السموات (بمجراتها العظيمة ونجومها المتعددة وكواكبها المنيرة) والأرضَ (بما فيها من يابس وماء بنسب محددة وزرع وضرع وبما حولها من غلاف كفل حياة الإنسان عليها) وجعل الظلمات سكنا وجعل النهار ليكون مجالا لنشاطهم وسر الحياة لزروعهم ـ يسوونه بغيره .

ومعنى « ثُم» : استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته . وقال ابن عطية : «ثم» دالة على قبح فعل الكافرين ، فهذا كما نقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمنى . وقال ابن كثير فى تفسيرها : ومع هذا كله كفر به بعض عباده . فيا للمفارقة الهائلة بين صفحة الوجود الضخمة الناطقة بقدرة الخالق العظيم والدالة على عظمته وألوهيته وبين آثارها الضائعة فى نفوس الكفار .

١٦٨ ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٢ ـ الأنعام (٦)

ورد هذا التعبير مرة ثانية في هذه السورة أيضا ولكن بصياغة مختلفة اختلافا يسيرا: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ « الآية ٥٤ ».

كَتَبَ يكتُب : دوَّن حروف الهجاء مضموما بعضها إلى بعض بنظام خاص.

وكتب الله الأمرَ : قدَّره.

وكتب الله الأمرَ على فلان : فرضه وأوْجَبَه.

« كتب الله على نفسه الرحمة » : أوجبها على نفسه كرمًا منه وفَضْلاً. وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده، وتأكيد وعده، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لايعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وقد شمل برحمته في الدنيا المؤمن والكافر والبرَّ والفاجرَ ـ فرحمته تفيض على عباده جميعا، وتسعهم جميعا.

فالرحمة قاعدة قضاء الله فى خلقة، وقاعدة معاملته لهم فى الدنيا والآخرة. والاعتقاد بهذه القاعدة يدخل فى مقومات التصور الإسلامى، فرحمة الله بعباده هى الأصل. وهو تصور جميل مطمئن، ودود لطيف، فى تصوير العلاقة الرحيمة بين الله وعباده على هذا النحو يترع القلب بحلاوة مذاقه، كما يروعه بجلال إيقاعه.

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى». وفى رواية: « غلبت غضبى ».

وأخرج الشيخان عنه أيضا قال قال رسول الله ﷺ : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل على الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ».

وأخرج البخارى ومسلم كذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قُدم على رسول الله ﷺ بسَبى (١) . فإذا امرأة من السبى تسعى قد تَحلَّب (٢) ثديها، إذ وجدَت صبيا فى السبى فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟» قلنا : لا والله وهى تقدر على ألا تطرحه. قال : « فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها».

---

(١) السَّبى هو مايُسْبى أى يؤخذ فى الأسر، ويطلق على النساء.

(٢) سَال.

وأخرج الشيخان والترمذى عن جرير قال قال رسول الله ﷺ : «لايرحم الله من لا يرحم الناس».

وأخرج الشيخان ومالك عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقَىَ[1] فسقى الكلبَ فشكر الله تعالى له فغفر له». قالوا: يارسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال: فى كل كَبد رَطْبَة أجْر»[2].

وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مَع رسول الله ﷺ فى سفر فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرِّش (أو تفرش) أى ترخى جناحها وتدنو من الأرض، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».

وفى رواية لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة قال قال ﷺ : «لا تنزع الرحمة إلا من شقى».

ويستوقف النظر فى هذا التعبير أن الله الخالق المالك صاحب السلطان القاهر، تفضل بأن يجعل رحمته بعباده فى هذه الصورة: مكتوبة عليه، كتبها هو على نفسه، وجعلها عهدا منه لعباده بمحض إرادته ومطلق مشيئته.

ويستوقف النظر كذلك أن الله تفضل وأبلغ عباده بما كتبه ـ سبحانه ـ على نفسه من رحمته. فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يُبلغوا ماجرت به إرادة الله فى الملأ الأعلى؟

ورحمة الله تتجلى ابتداء فى وجود البشر ذاته وفى إعطائهم هذا الوجود الكريم بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من العالمين. وتتجلى رحمته فى تسخير قوى الكون وطاقاته للإنسان، وهذا هو الرزق فى مضمونه الواسع. وتتجلى كذلك فى تعليم الله للإنسان بإعطائه الاستعداد للمعرفة وتقدير التوافق بين استعدادته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته ـ هذا العلم الذى يتطاول به بعض المناكيد على الله، وهو الذى علمهم إياه.

وتتجلى رحمته ـ سبحانه ـ فى رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه فى الأرض، بموالاة إرسال الرسل إليه بالهدى كلما نسى وضل، وهو على الله هين، ولكن رحمة الله هى التى تمهله وحلَمَه هو الذى يسعه.

وفى هذه الآية (الثانية عشرة) تتجلى رحمته فى قوله: ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة ﴾ اللام لام القسم والنون نون التوكيد: فالله يقسم مؤكدا أنه سيحيى الناس ويبعثهم يوم

---

(1) صَعَد إلى الأرض.

(2) «فى كل كبد رَطبة أجرٌ» أى كل كبد حية، والمراد رطوبة الحياة، أو لأن الرطوبة لازمة للحياة، فهو كناية. والمعنى أن الأجر ثابت فى إرواء كل كبد حية، الكبد يذكر ويؤنث. راجع «فتح البارى فى شرح صحيح البخارى»، كتاب الشرب والمساقاة.

القيامة، وهنا تتجلى أيضا رحمته بعباده ، إذ لولا الخوف من عذاب الله يوم القيامة لعَمَّ الفساد فى الأرض، واختلت نظم الاجتماع ، وأكل القوى الضعيف، فصار من رحمة الله التهديد بهذا الجمع لأجل الحساب والجزاء.

وفى الآية الرابعة والخمسين تتجلى رحمة الله فى تجاوزه ـ سبحانه ـ عن سيئات المخلوق إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب . وتتجلى كذلك فى مجازاته عن السيئة بمثلها، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ الآية ١٥٩ فى أواخر السورة.

وما سبق ذكره ليس إلا لمحات من رحمة الله تعالى بعباده. والطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر ، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة. كما أن شعور المؤمن بحقيقة رحمة الله الفياضة لتستجيش فى حسه الحياء من الله ، فلا يتجرأ على المعصية. وإنما يتخلق بأخلاق الله ـ سبحانه ـ وهو يرى نفسه مغمورا برحمة الله رغم تقصيره وذنبه ، فيعلمه ذلك كله كيف يرحم ، وكيف يعفو ، وكيف يغفر.

١٦٩ ﴿ وَجَعَلْنَا علىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا علىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾٢٥ ـ الأنعام (٦)

أكَنَّ الحبَّ ونحوه فى نفسه يكنه : أخفاه ولم يذكره ، لا تصريحا ولا تعريضا .

كنانُ الشىء : غشاؤه الذى يستره ، أو غطاؤه الذى يُكَن أو يُحفَظ فيه [1] . وجمعه : أكِنَّة ، ومثله سِنان وأسِنَّة ، وعِنان وأعِنَّة .

ومعنى التعبير : وجعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفهموا القرآن ، وهى أغطية من الكفر والعجرفة ونعرة الجاهلية . فلم تعد تبلغ كلماتُ الله مواطنَ القبول من قلوبهم ، لأنهم لا يريدون إلا ذلك .

وفى هذا تشبيه للحَجْب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية . فالقلب الذى لايقبل الحق ولايتدبره ، كالوعاء الذى وُضع عليه الغطاء فلا يدخل فيه شىء .

« أن يفقهوه » أى يفهموه ، وهو فى موضع نصب ؛ ومعناه : كراهة أن يفهموه ، أو لئلا يفهموه .

---

(١) ومنه الكِنانة : جَعْبَة صغيرة من الجلد للنَّبل . ومنه الكَنَّة : امرأة الإبن أو الأخ .

١٧٠ ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ ٢٥ ـ الأنعام(٦)

وَقرت الأذُنُ تَوْقَر وَقْرًا : أصابها ثقل فى السمع أو صُمَّت فلا تسمع .

والوقر : ثقل السمع أو صمم الأذن .

« فى آذانهم وَقرا» أى جعل فى آذانهم ما سَدَّها عن استماع القول ، فاستماعهم إليك أيها الرسول استماع استعلاء وانتقاد ، لا استماع تدبر وانتفاع . والآذان التى لا تنتقع بما يصل إليها من نصائح كالآذان المصابة بالثقل والصمم ، فسمعها وعدمه سواء .

وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن الحق وسماعه كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك. « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » أى لا يؤمنوا بشىء من الآيات والمعجزات التى يرونها لعنادهم وتمردهم .

وقرأ طلحة بن مصرف : « وِقْرا » بكسر الواو على التشبيه بوِقر البعير ، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل .

١٧١ ﴿ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ٣٠ ـ الأنعام (٦)

وقَفَ الماشى أو الجالس يَقِفُه وَقْفًا جعَله يقف ، أى حمله على أن تسكن حركته فى السير ويظل منتصبا ، فيه معنى الإيقاف والحبس .

ومنه : وقَّفَه على الأمر : أطلعه عليه وعرَّفه إياه .

« وُقفوا على ربهم » تعنى حبسوا عند ربهم لسؤالهم سؤال التوبيخ : «قال أليس هذا بالحق» والقائل هو الله تعالى : أى أليس هذا الجزاء ـ وما أنتم فيه ـ هو الحق الذى كنتم به تكذبون؟

أو تعنى وُقفوا على جزاء ربهم فعُرِّفوه وأُعْلموه .

وقيل : « على » بمعنى « عند » أى عند ملائكته وجزائه ، فالملائكة تقفهم وتحبسهم فى موقف الحساب ، امتثالا لأمر الله فيهم كما قال : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ «الصافات ٢٤» .

١٧٢ ﴿ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ٣٥ـ الأنعام(٦)

معنى «فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سُلما فى السماء فتأتيهم بآية» معناه أنك لا تستطيع ذلك ، ولذلك حذف جواب « إن » لعلم السامع أنه محال .

والصعود إلى السماء بسلم يكنى به عن المستحيل كما فى بيت زهير بن أبى سلمى المشهور :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلّم

يقول الله لنبيه إن كان كبر أى شق عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان فاذهب ، إن استطعت ، فى نفق فى الأرض فتأتيهم بآية ، أو اجعل لك ، إن استطعت ، سلما فى السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل ؛ وجواب الشرط المحذوف هو : ولكنك لن تستطيع .

كان النبى ، ﷺ شديد الحزن لكفر قومه ، شديد الحرص على إسلامهم ، فنزل قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[1] ﴾ « الكهف ٦ » وقوله : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ « فاطر ٨» وقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ «القصص ٥٦ » وقوله : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض . . ﴾ أى لكنك لا تستطيع ذلك ، فدع الحزن ، ولا تضق صدرا بتصميمهم على الكفر ؛ فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ جمع إلجاء وقسر (أى قهر وإكراه) لكنه لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها ، ففوّض الأمرَ إلى عالم الغيب ولا تحزن عليهم .

---

(١) المعنى : مُهلك نفسك أو مجهدها حزنا على عدم إيمانهم .

١٧٣ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

٤٥ ـ **الأنعام (٦)**

دَبَرَ يَدْبُرَ دُبُوراً : ذهب وولى.

ودَبَرَ فلانٌ القومَ يدبُرُهم ؛ إذا كان آخرهم فى المجىء [1] . فالمعنى أنه قطع آخرهم ، أى قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قطرب : يعنى أنهم استؤصلوا وأهلكوا.

١٧٤ ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾

﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ ٤٦ ـ **الأنعام (٦)**

خَتَمَ الشىءَ يَخْتِمُه خَتْمًا : بلغ نهايته.

وختم الكتابَ وختم على الكتاب : طَبَعَ عليه الْخَاتَمَ استيثاقًا وصونا له . ويستعار من ذلك : الختمُ على القلب بأن يجعَله لايفهم شيئا . فالمراد من الختم على القلوب حجبها ومنعها عن تعقل المدركات المختلفة ـ فالقلوب تستعمل فى القرآن الكريم مصادر للإدراكات العقلية كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ «الأعراف ١٩٧».

والمعروف طبيبا أن مراكز معينة فى المخ هى موطن العقل ، وبما أن القلب هو سر الحياة ـ وهو الذى يغذى تلك المراكز العصبية العاقلة فى المخ ـ فلذا يسند الفهم والتعقل إليه مجازا . أو لعله المركز الأول للعقل ، ولكن لم يعرف ذلك بعد.

---

(١) وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود « من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دبريا » أى فى آخر الوقت . ومن هذا المعنى جاء معنى التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور.

١٧٥ ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ ﴾

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ ٥٧ ـ الأنعام (٦)

قَصَّ الحقَّ أو الأخبارَ ونحوَها يقصُّها قَصًّا وقصصًا : تتبعها فرواها. وفى «لسان العرب»: القصّ : البيان [١].

« يقُصُّ الحقَّ » : يُبَيِّنُه بيانًا شافيا أو يَتّبعه فيما يحكم به . قال الزمخشرى : «يقص الحق » أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره ، من قَص أثرَه (أى تتبعه) . وقال القرطبى : «يقص الحق» أى يقص القصص الحق. وهى قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد وابن عباس ؛ قال ابن عباس قال الله عز وجل : «نحن نقص عليك أحسن القصص».

وقرأ الباقون «يقض الحق» بالضاد المعجمة ، وكذلك قرأ على ، رضى الله عنه، وسعيد بن المسيب، بمعنى يقضى القضاء الحق فى كل ما يقتضى من التأخير والتعجيل . ودل على ذلك أن بعده « وهو خير الفاصلين » أى القاضين ، ويقوى ذلك قوله قبله : «إن الحكم إلا لله» ويقوى ذلك أيضا قراءة ابن مسعود: « إن الحكم إلا لله يقضى بالحق» ؛ قال النحاس : يجوز أن يكون المعنى : يقضى القضاء الحق إذ يجوز حذف الباء ، ورد بهذا على من قال : لو كان يقضى من القضاء للزمت الباء فى « الحق».

---

(١) والقَاصُّ : الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع مَعَانِيَها وألفاظها ، وقيل : القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا. من القصّ وهوَ اتباع الأثر.

١٧٦ ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾٥٩ ـ الأنعام(٦)

تدور مادة « فتح» على إزالة الأغلاق . وتكون فى المادى الذى يدرك بالبصر ، كفتح الباب وفتح الغلق .

وتكون فى المعنوى الذى يُدرك بالبصيرة [١] ، بإزالة ما يتعلق بالقلب وبالنفس من هم وغم الفقر ونحوه بإعطاء المال وبالنصر فى الحرب .

والفتح : فتح المستغلق من أبواب العلم والمعرفة .

والمفتاح : آلة الفتح ، وجمعه مفاتيح ومفاتح .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » : جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة (وقرىء : مفاتيح) . لأن المفاتيح تفتح بها المخازن المتوثق منها بالأقفال والإغلاق ، ومن كان عنده مفاتيحها فإنه يصل إلى ما فيها . فالتعبير معناه أن الله ، سبحانه ، هو الذى يصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره ، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها ، فهو المتوصل إلى ما فى المخازن .

فالله تعالى عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصلة إليه ، لايملكها إلا هو .

ولايمنع اختصاصه تعالى بمفاتيح الغيب أن يمنح من اختصهم من عباده شيئا من علم الغيب ـ وهم المرسلون : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ « الجن ٢٦ ، ٢٧» .

وجاء فى « التفسير الوسيط» : أما ظن الغيب بأمارات فإنه ممكن لعباده ، فلا يكفر ولايفسق من يدعيه (أى الظن) ، كما يحدث من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر ـ حين يخبرون بهبوب الرياح بشدة أو باعتدالها ، وبكسوف الشمس وبخسوف القمر ، وكما يحدث من علماء الفلك حين يخبرون عن نزول المطر ونزول درجة الحرارة وصعودها ونحو ذلك .

أما العرافون الذين يدعون علم الغيب ، فالمؤمنون منهيون عن الذهاب إليهم . فقد جاء فى صحيح مسلم : « من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » . وروى أحمد عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من أتى عرافا أو كاهنا[٢] فصدَّقه فقد كفر بما أنزل على محمد » .

الرْطب : الندى الناعم اللين . وعكسه اليابس : الجاف . « ظلمات الأرض» : بطونها .

« فى كتاب مبين » : فى اللوح المحفوظ . قيل : كَتَبَهُ وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أى اعلموا أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولاعقاب مكتوب ، فما بالكم بما فيه ثواب وعقاب؟

---

(١) البصيرة : الإدراك والفطنة أو العلم والخبرة.

(٢) الكهانة : ادعاء علم الغيب.

١٧٧ ﴿ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ٦٥ ـ الأنعام (٦)

لَبَس القومَ يَلبِسهم : خلط عليهم أمورَهم ، وعماها عليهم فجعلهم مختلفى الأهواء والمشارب .

شيَع وأشياع : جمع شيعة . والشيعة : الفرقة من الناس يتابع بعضها بعضا . وشيعة الرجلَ : أولياؤه وأنصاره ومَن كان على منهجه ورأيه .

« يلبسكم شيَعا » : يُعَمِّى عليكم أموركم فتختلف أهواؤكم وأنتم شيع فيزيد هذا فى تفرقكم . وقيل : يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ، وذلك بتخليط أمركم وافتراق أمرائكم على طلب الدنيا . وهذا هو معنى « ويذيق بعضكم بأس بعض » أى بالحرب والقتل فى الفتنة .

« عذابا من فوقكم » : الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح .

« أو من تحت أرجلكم » : الخسْف والرجفة ؛ كما فعل بقارون وأصحاب مدين(١) .

---

(١) وقيل : « من فوقكم » يعنى الأمراء الظَّلَمَةَ ، « ومن تحت أرجلكم » يعنى السفلة وعبيد السوء .

١٧٨ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٧ ـ الأنعام (٦)

المستقر : مكان الاستقرار أو زمانه .

« لكل نبأ مستقر » : لكل خبر وقت يقع فيه ويستقر ، ومنه عذابكم ، وسوف تعلمون حال خبركم فى الدنيا والآخرة ، ومبلغه من الصدق .

وجاء فى تفسير ابن كثير : لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما فى قوله : «ولتعلمن نبأه بعد حين » وقوله : « لكل أجل كتاب» ، وهذا تهديد ووعيد أكيد، ولذلك قال بعده : « وسوف تعلمون » .

وجاء فى « لسان العرب » : لكل ما أنبأتكم عند الله عز وجل ، غاية ونهاية ، ترونه فى الدنيا والآخرة .

وقال القرطبى : لكل خبر حقيقة ، أى لكل شىء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر . وقيل : لكل عمل جزاء .

١٧٩ ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ٨٠ ـ الأنعام (٦)

وسع الشىء يَسَعُه سَعَةً وسعَةً : استوعبه ولم يضق به . والله أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية .

أو : وسِعَ علمُه كلَّ شىء ، أى اتسع وشمل كل شىء .

والتعبير موجود كذلك فى «الأعراف ٨٩ ، طه ٩٨» .

١٨٠ ﴿ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

٨٢ ـ الأنعام (٦)

أى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لاشريك له، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم ، أى بشرك ، هم الآمنون يوم القيامة المهتدون فى الدنيا والآخرة .

أَمِنَ أَمْنًا وأَمَنَةً : لم يخف فهو آمِن وهم آمنون .

آمَنَه : جعل له الأمنَ .

١٨١ ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ ٩٥ ـ الأنعام (٦)

فَلَقَ الشىءَ : شَقَّه . الفالق : الذى يفلق ويشق .

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أى يشقه فى الثرى ، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها . ولذا فسر قوله ﴿فالق الحب والنوى﴾ بقوله : ﴿ يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ﴾ أى يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى هو كالجماد الميت ومن الأرض وما بها من غذاء للنبات . قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ « يس ٣٣ » .

١٨٢ ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾٩٦ ـ الأنعام (٦)

فَلَقَ الشيءَ : شقَّه . وفلق الله الصبحَ : أبْداه وأوْضَحه . وقيل : الفَلَق الصبح ، لأن الظلام ينفلق عنه .

أصْبح إصباحًا : دخل فى الصبح . وسُمِّىَ الصبحُ إصباحا ، سُمِّىَ بالمصدر .

« فالق الإصباح» : فالق الصبح كل يوم ، يريد الفجر . وهو نعت لإسم الله تعالى ، أى ذلكم الله ربكم فالق الإصباح ، يشق الظلامَ عنه .

وقرأ الحسن : « فالق الأصباح » بفتح الهمزة ، جمع صُبحْ .

« سكَنًا» : سكَن يسْكُن سكونًا : قرَّ وهدَأ بعد حركة . وسكن إليه : اطمأن ومال إليه . فالسَّكَن : ما تسكن إليه النفس من الأهل والوطن استئناسا واسترواحا .

« وجعل الليلَ سكنا [١] » أى وقت سكون واطمئنان ، فالليل يطمئن إليه المتعب بالنهار لاستراحته فيه وجَمامه .

وأشار ابن كثير فى تفسيره إلى المقابلة بين « فالق الإصباح» وبين «وجعل الليل ساكنا» فقال : خالق الضياء والظلام كما قال فى أول السورة : ﴿ وجعل الظلمات والنور﴾ ، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضىء الوجود ، كقوله : ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا** ﴾ « الأعراف ٥٤» فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله : ﴿وجعل اللَيلَ سكنا﴾[٢] أى ساجيا مظلما لتسكن فيه الأشياء ، كما قال : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ** ﴾« الليل ١ ، ٢ » .

« حُسْبَانًا » الحسبان هنا العَد والإحصاء ، من الفعل : حَسَبَ الشيءَ يحْسُبُه حسابا وحُسْبَانًا : عَدَّه وأحصاه . ومعنى « والشمس والقمر حسبانا أى وسيلة للحساب ومَعرفة الزمن ، وبهما تحسب الأوقات التى تؤدى فيها العبادات والمعاملات ؛ وهما يجريان بحسابه مقنن مقدر لا يتغير ولايضطرب ، كما قال تعالى : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ « يس ٤٠ » .

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أى الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يُمانَع ولا يخالف ، العليم بكل شيء فلا يعزُب (لايبعد ولا يخفى) عن علمِه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

---

(١) قرئ : فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، وقرأ التحعى : فلق الإصباحَ وجعلَ الليلَ سكنا .

(٢) قال صهيب الرومى رضىَ الله عنه لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب ، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه .

١٨٣ ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

١٠٣ ـ الأنعام (٦)

أدْرك البصرُ المرئىَّ : رآه

والبصر : حاسة الرؤية وجمعه أبصار .

لكن كثيرين من المفسرين فرقوا بين الإدراك والرؤية ، فقالوا إن الإدراك هو الوصول إلى الشىء والإحاطة به ، فالإدراك أخص من الرؤية . قال الزجاج : لا تبلغ الأبصار كنه حقيقته ، فالمنفى هو هذا الإدراك وليس مجرد الرؤية . وجاء فى « التفسير الوسيط » : ليس الإدراك مطلق الرؤية ، بل هو رؤية مع شمول وإحاطة ، وذلك هو المنفى فى قوله تعالى : ﴿لا تدركه الأبصار﴾ . وروى ابن جرير عن عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ « القيامة ٢٢ ، ٢٣» قال : هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ .

فلا مانع من رؤية الله ـ دون إحاطة وشمول ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : «إنكم سترون ربكم ، كما ترون القمر ليلة البدر : لاتضامون فى رؤيته » أخرجه البخارى وغيره .

وقيل : لا تدركه الأبصار فى الدنيا ، ويراه المؤمنون فى الآخرة ؛ لإخبار الله بها فى قوله : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ قاله ابن عباس والسدى ، وقال القرطبى : وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنة .

وكانت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، تثبت الرؤية فى الدار الآخرة ، وتنفيها فى الدنيا وتحتج بهذه الآية ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ والذى نفته هو الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشىء .

«وهو يدرك الأبصار » : هو الذى يحيط بالأبصار ، ويعلم دقائقها وخفاياها . وقيل : لا يخفى عليه شىء إلا يراه ويعلمه . وإنما خص «الأبصار» لتجنيس الكلام .

١٨٤ ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ ١٠٤ ـ الأنعام (٦)

« بصائر » جمع بصيرة . والبصيرة : نور القلب الذى به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذى به تبصر . ومن المجاز : البصيرة تستخدم بمعنى البيان والحجة الواضحة ، والعبرة يعتبر بها .

وأطلقت البصائر على آيات القرآن تشبيها لأنها تظهر الحق ، وبها يُبْصَر ويُستدَل .

وقال ابن كثير : هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ .

ووصف الدلالة بالمجىء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس ؛ كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض ، وأقبل السعود وأدبر النحوس .

« فمن أبصر فلنفسه » : فمن استدل وتعرف فنفسه نفع .

« ومن عَمِىَ فعليها » : ومن لم يستدل وصار بمنزلة الأعمى ، فعلى نفسه يعود ضرر عماه .

« وما أنا عليكم بحفيظ » أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : لست رقيبا عليكم أحصى عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى ، وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شىء من أفعالكم .

١٨٥ ﴿ شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ ﴾

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾١١٢ ـ الأنعام (٦)

أوْحَى (١) يُوحى إيحاءً : أشار وأوْمأ .

أوحى إليه كذا : أسره إليه وأخفاه عن غيره . ويجرى هذا فى الوسوسة بالشر تكون من الشيطان .

« يوحى بعضهم إلى بعض » : يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس ؛ وكذلك بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض . وسمى وحيا لأنه إنما يكون خُفية .

« زخرف القول » : ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصى . فالشياطين يلقى بعضهم إلى بعض القول المزينَ ظاهره الفاسدَ باطنه .

« غرورا » : خدعا وأخذ على غرَّة أى على غفلة . فالكلام المزخرف المزوق يغتر به من يسمعه من الجهلة . وغرورا مصدر َغرَّه أى خدعه وأطمعه بالباطل . «غروراً» نصب على الحال .

هل للإنس شياطين ؟ روى عوف بن مالك عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ: « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ » قال قلت : يارسول الله وهل للإنسان من شياطين ؟ قال : «نعم هم شرٌّ من شياطين الجن». وقد أورد ابن كثير طرقا عدة لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته . وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد علىَّ من شيطان الجن ، وذلك أنى إذا تعوذت بالله ذهب عنى شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى المعاصى عيانا (٢) .

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن » : كما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ، جعلنا لكل نبى من قبلك أعداء ، فلا يحزنك ذلك . وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ .

---

(١) أوحى الله إلى بعض خلقه شيئا : ألهمه إياه . وأوحى الله إلى من يصطفيه أمرا : ألقاه إليه وبلّغه إياه ، ويكون هذا الإبلاغ للرسل من البشر بوساطة الملك (جبريل) ، ويمكن أن يكون من غير وسيط (بالإلهام أو بالرؤيا) .

(١) سمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد :

إن النساء ريا حين خُلقن لكم ... وكلكم يشتهى شم الرياحين

فأجابها عمر ، رضى الله عنه :

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

١٨٦ ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ ١٢٥ ـ الأنعام (٦)

شَرَحَ الشيءَ يشْرَحُه شرْحًا : بَسَطه ووسَّعَه .

وشَرَحَ الصَّدرَ : بَسَطَه وفَتَحَه لقبول الشيء. وشَرْحُ الصَّدر للإسلام كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مُهَيَّأة لحلوله فيها ، مُحصَّنة مما يمنعه وينافيه .

قال الزمخشري : « يشرح صدره للإسلام » أي يلطف به حتى يرغب فى الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ؛ قال تعالى فى سورة الحجرات الآية ٧ : ﴿ولكن الله حَبَّبَ إليكمُ الإيمانَ وزَيَّنه فى قلوبكم﴾ وروى عبد الرازق عن أبى جعفر قال : سُئل النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قالوا : كيف يشرح صدَره يا رسول الله ؟ قال : « نور يُقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» .

١٨٧ ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾١٢٥ ـ الأنعام (٦)

حَرِجَ الصدرُ يَحْرَج حَرَجا : ضاقَ

والحَرَج : غَيْضَة الشجر الملتفة لايقدر أحدٌ أن ينفُذَ فيها. والْحَرَج : الشديدُ الضِّيق. فإذا قيل : فلان حَرِج الصدر، فالمعنى ذو حرج أى ضيق فى صدره.

« يجعلْ صدرَه ضيقا حَرَجًا » : وُصف الصدرُ بالحَرج الذى هو المصدر للمبالغة، والمراد أنه شديد الضيق ، فهو لا يتسع لشىء منَ الهدى ولا يخلص إليه شىء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه .

« كأنما يصَّعَّد فى السماء » صَعَّد فى الشىء : مضى فيه على مشقة. شبه الله الكافرَ فى نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف مالا يطيقه ؛ كما أن صعود السماء لايطاق . ويَصَّعَّد : فيه معنى فعل شىء بعد شىء ، وذلك أثقل على فاعله.

وصف الله تبرمَ الضال عن الحق وضيقَه به ، أبلغ وصف ، ذلك أن تكلف الصعود فى السماء يثقلُ على القلب ويجهد الصدر أيما إجهاد ـ ومن المعروف علميا أن الإنسان كلما ارتفع فى طبقات الجو، أحس بضيق شديد. والطيارون يعرفون ذلك، ولا ريب أن هذا كان غير معروف وقت نزول القرآن ، فحديثه عن ذلك آية من آيات إعجازه.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : هذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه. يقول : فَمَثَلُه فى امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مَثَلُ امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس فى وسعه وطاقته.

« كذلك يجعل الله الرجسَ على الذين لا يؤمنون » : كما يجعل الله صدرَ من أراد إضلاله ضيقا حَرَجا ، كذلك يسلط الله الشيطان (الرجس[1]) عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله وخلاصة الآية أن من تقرب إلى الله سبحانه أعانه ، ومن بَعُد عنه خَذَله.

---

(١) قال ابن عباس : الرجس الشيطان . وقال مجاهد : هو كل مالا خير فيه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس العذاب.

١٨٨ ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

﴿ كُلُوا من ثَمَرِه إذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾١٤١ ـ الأنعام (٦)

« حَقَّه » أى ما وجَبَ فيه ، من الفعل حَقَّ الأمرُ يحق ـ بكسر الحاء وضمها فى المضارع ـ حَقّا : ثَبَتَ ووَجَبَ .

« آتُوا» : أعطوا ، من الفعل آتاه يؤتيه : أعطاه وساقه إليه .

« يوم حصاده » يوم جَنْيه .

واختلف العلماء فى المراد من حق الزرع والثمر يوم حصاده . فمنهم من قال إنه الزكاة المفروضة على أساس أن هذه الآية مدنية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة(١) . وعلى هذا الرأى كثيرون منهم ابن عباس وأنس بن مالك والحسن ومالك وأبو حنيفة ، ورجحه «التفسير الوسيط» الذى رجح كذلك أن الآية مدنية لأن أولها : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متَشابها وغير متشابه» ، وليس فى مكة جنات معروشات وغير معروشات ، وليس فيها زرع ، وإنما ذلك فى المدينة ـ والآية فى المصحف مدنية .

ومن العلماء من قال هو حق آخر غير الزكاة (٢) ، أمر الله به ندبا (أى حبب فيه) بمكة ؛ والآية ، فى رأى هذا الفريق ، مكية ، والزكاة فى الثمار والحبوب فرضت فى المدنية ؛ فأريد بالحق هنا ما كان يتَصَدق به (٣) .

« ولا تسرفوا » عائد على الأكل ، وهو الظاهر من سياق الآية ـ أى لا تسرفوا فى الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ ، وفى صحيح البخارى : « كلوا واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة» . والإسراف فى اللغة الخطأ ، والإسراف فى النفقة التبذير .

وقيل « ولا تسرفوا » أى لا تتجاوز والحدَّ فتبسطوا أيديَكم فى الإعطاء ، فإذا جاوز المزكى ما فرضه الله عليه ، فليذكر أولاده . . فلا يدعهم فقراء .

وقيل : الخطاب للولاة ، فلا يأخذوا فوق حقهم ومالا يجب على الناس .

« إنه لا يحب المسرفين » أى أنه ـ سبحانه ـ لا يرضى عمن ينفق ماله كله أو أكثره فى الصدقة أو المتعة ، ولا يرضى عمن يقصر فى الزكاة فيعطى أقل مما يجب عليه ـ فالسَرَف فى كل شىء منهى عنه .

---

(١) انظر : « الكشاف » للزمخشرى .

(٢) وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون أى يجمعون الثمار ولايتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة فى سورة ن .

(٣) من هؤلاء ابن عمر الذى قال : كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة ، ومنهم عطاء الذى قال : يعطى من حضره ماتيسر ، ومجاهد الذى قال : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ١٥٢ - الأنعام (٦)

شَدَّ الشيء يَشِدُّ شدَّةً : قَوِى ومَتُنَ .

الأشُدُّ : الاكتمالُ . يقال : بلغ أشدَّه : اكتمل وبلغ قوتَه .

قال حسنين مخلوف : « يبلغ أشده » أى استحكام قوته ويرشُدَ . وقال الشعبى ومالك وغير واحد من السلف : حتى يحتلم .

قال القرطبى : وقد تكون القوة فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ، ولابد من حصول الوجهين ؛ فإن « الأشُد » وقعت هنا مطلقة . وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة «النساء» مقيدة ، فقال : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » الآية السادسة ، فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد (أى تبين حسن تصرفهم فى أموالهم) ؛ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه فى شهواته . وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه . . وليس بلوغ الأشُد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن ؛ لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة .

ومعنى الآية : ولا تتعرضوا لمال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره [١] ، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه ، وذلك حتى يبلغ أشده . وفى الكلام حذف ، فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد ادفعوا إليه ماله .

---

(١) وهذا معنى : « إلا بالتى هى أحسن » .

١٩٠ ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾١٥٢ - الأنعام (٦)

وَسِع الشيءَ يَسعُه سَعَةً وسعَةً : استوعبه ولم يضق به . ويجرى هذا فى الأمور الحسية وفى المَعانى؛ تقول : هذا الوعاء يَسَع هذا المتاع ، وتقولَ : حِلم فلان يَسَعُنى .

الوُسْعُ والوَسع : جُهد المرء وطاقته وما يستطيعه فى مال أو قدرة .

« لا نكلف نفسا إلا وُسعها » أى طاقتها ، فالله لا يطلب من عباده مالا يستطيعون فعله ، فالمطلوب من المُكَلَّف مراعاة العدل فى الكيل والميزان قدر طاقته . وما وراء ذلك يشمله عفو الله تعالى .

قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء [١] ؛ كما توعد على تركه فى أول سورة المطففين [٢] ، ومن اجتهد فى أداء الحق أخذه ؛ فإن أخطأ ، بعد استفراغ وسعه وبذل جهده ، فلا حرج عليه .

قال الشوكانى : لا نكلف نفسا إلا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف ، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن .

---

(١) عند البيع والشراء .

(٢) « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

١٩١ ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾١٥٢ ـ الأنعام (٦)

المعنى : إذا قلتم بقول فى خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه وتحروا الصواب، ولاتتعصبوا فى ذلك لقريب ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو ، بل سووا بين الناس فإن ذلك من العدل الذى أمره الله به .

والضمير فى « ولو كان » راجع إلى ما يفيده « وإذا قلتم » فإنه لابد للقول من مقول فيه ، أو مقول له : أى ولو كان المقول فيه ، أو المقول له « ذا قربى » أى صاحب قرابة لكم .

ومثل هذه الآية قوله تعالي في سورة النساء ، الآية ١٣٥ : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾** يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد فى كل وقت وفى كل حال .

١٩٢ ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ١٦٤ ـ الأنعام (٦)

كَسَبَ المالَ ونحوه يكسبُه كَسْبًا : جمعه أو حصَّله .

ويمكن أن يكون الكسب فى الخير والشر معا كما فى قوله تعالى : **﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾** « الطور ٢١ » .

ويمكن أن يكون فى الخير وحده كما فى قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾** « البقرة ٢٦٧ » .

ويمكن أن يكون فى الشر كما فى قوله : **﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾** « البقرة ٨١ » .

ويمكن إدارك المعنى المراد بمعونة السياق . و « عليها » فى هذا التعبير تفيد أن الكسب هنا فى الشر ، والمعنى : لا أحد سواها يؤاخذ على ما أتت من ذنب وارتكبت من معصية ، فكل كسبها للشر يكون عليها وحدها ولايتعداها إلى غيرها .

(انظر التعبير : ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى) .

١٩٣ ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ١٦٤ ـ الأنعام (٦)

وَزَرَ[١] الشيءَ يَزِره وِزْراً : حمله . ويأتى ذلك فى الأحمال الثقيلة ، ويقال ذلك على سبيل المجاز فى ارتكاب الذنوب والآثام ، إذ كانت أثقالا على أصحابها . والوصف : وازر و وازرة .

معنى التعبير : لا تؤاخذ نفسٌ بذنب أخرى ، بل كل نفس مأخوذة بجُرمها ومُعَاقَبَة بإثمها . فلا تحمل نفسٌ آثمة إثمَ نفس أخرى ، بل كل نفس بما كسبت رهينة أى مُحَاسَبَةٌ على كسبها مأخوذَة بما قدمت ، رَهْنٌ بعملها إما خلَّصها وإما أوبقها وأهلكها .

والمعنى الظاهرى للتعبير هو : لا تحمل حاملة حِمل أخرى ، فأصل الوزر : الثقل أو الحمل .

وورد من المجازى قوله تعالى : **﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾** «الشرح٢» أى ذنبك . وقوله تعالى : **﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾** «الأنعام ٣١» .

وفى الآية رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه والواحد من القبيلة بذنب الآخر .

ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى : **﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾** «العنكبوت ١٣» ، فالمراد بالأثقال التى مع أثقالهم أثقالُ الذين يضلونهم : **﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾** «النحل ٢٥» .

---

(١) اعتلَّت فاؤه فهو مِثال .

١٩٤ ﴿ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢ ـ الأعراف (٧)

الْحَرَجُ : الضَّيِّقُ . وَقد يُطلقَ على الشك مجازا لأنه يضيق به صدر صاحبه .

حَرِجَ حَرَجًا : ضاق . والحرج : الإثم

المعنى : كتاب أنزل إليك ، يا محمد ، لتخوف به المشركين والكفار من عاقبة شركهم وكفرهم ، حتى يقلعوا عما هم فيه . كتاب يتعرض حامل دعوته للحرج الكثير والمشقة الكبيرة لأنه يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس فى وحل الشهوات وفى ظلال العبودية للهوى ، ولأنه يستهدف التغيير الشامل لقواعد الحياة البشرية وجذورها ومظاهرها .

فالله سبحانه يقول لنبيه : لا تضق صدرا من تكذيب المشركين إياك وتجمعهم عليك ـ وكُن منشرح الصدر ، فالله ناصرك ومعينك . قال الكيا : ظاهره النهى ، ومعناه نفى الحرج عنه ﷺ .

١٩٥ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ ٨ ، ٩ الأعراف (٧)

الموازين : جمع موزون ، أى مُقَدَّر ، أراد بالموازين الأعمال الموزونة .

« فمن ثقلت موازينه » أى كان لها وزن وقيمة لصلاحها ، فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العقاب ، والحصول على جزيل الثواب .

« ومن خفت موازينه » أى كانت لا وزن لها ولا قيمة ـ لكونها فاسدة ـ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، إذ غيروا فطرة الله ، فطرة حب الحق ودفع الضرر ، وكفروا فاستحقوا العذاب .

والآية الثامنة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه ﴾ والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان ، وهو الوزن الحق ، فلا مجال للمغالطة فيه . وقيل : المراد بالوزن تقدير أعمال العباد وهو التقدير الحق العادل ، فلا مجال يومئذ للتلبيس فى الحكم . واستعمال الوزن بمعنى القضاء والحكم والتقدير شائع ـ لغة وعرفا ـ بطريق الكناية . وهذا ما قال به الضحاك والأعمش ، وذكر الوزن ضرب مثل ، كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن . قال الزجاج : هذا سائغ من جهة اللسان . أما القرطبى فقال : والأولى أن يتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان ، وأن الموازين تثقل بالكتب التى فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف . ويضيف «التفسير الوسيط» : والجمهور على أن الوزن حقيقى . ويكون لصحف الأعمال ميزان له لسان وكفتان : ينظر إليه الخلائق ، تأكيدا للحجة ، وإظهارا للنَّصَفَة ، وقطعا للمعذرة . كما يسألهم الله عن أعمالهم ، فتعترف بها ألسنتهم ، وتشهد بها أيديهم وأرجلهم ـ ويشهد عليهم كذلك الأنبياء والملائكة وسائر الأشهاد . فالاحتياط يقتضى التسليم بالوزن . أما حقيقة هذا الوزن وطبيعته ، فيترك علمها إلى الله تعالى ـ وحسبنا أن الحساب يومئذ بالحق وبالعدل ، وأنه لا يظلم أحدٌ مثقال ذرة ، وأن عملا لا يُبخس ولا يضيع .

وقد ورد مثل هذا التعبير فى عدة مواضع من القرآن . قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ « ٤٧ ـ الأنبياء » وقال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ «المؤمنون ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣» وقال : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ «القارعة ٦ ـ ١١ » .

١٩٦ ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾٢٢ ـ الأعراف (٧)

دَلَّى الدَّلْوَ : أدلاها أى أرسلها فى البئر .

ودَلَّى فلانًا بغُرور : أوقعه فيما أراد من تغريره .

وغَرَّ فلانا يغُرُّه غُروراً : خدعه وأطمعه بالباطل . ويقال : غَرَّه الشيطانُ، وغرته الدنيا فهى غَرور (أى خادعة) وهو مغرور (أى مخدوع).

ويقال : ما غَرَّك بكذا : ما جَرَّأك عليه .

والتدلية والإدلاء : إنزال الشىء من أعلى إلى أسفل . وإبليس قد فعل ذلك بآدم وحواء ، إذ أنزلهما ـ بوسوسته ـ من رفعة الطاعة إلى ضَعَة المعصية . فقد أنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرهما وخدعهما به من القسم بالله فى الآية السابقة : ﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾ أى أقسم لهما ـ مبالغا فى حلفه ـ إنى لكما لمن الناصحين ، فكلا من الشجرة واستمعا لكلامى .

وكان آدم يظن أنه لايحلف أحد بالله كاذبا، قال قتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما . وفى الحديث عنه عليه السلام : « المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم »(١) .

وقيل : معنى « دلاهما » جرأهما على العصيان .

---

(١) أنشد نفطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعتَه ... وترى اللئيم مُجربًا لايخْدَع

والغِرّ : من ينخدع . والخَبُّ : المخادع الغشاش

١٩٧ ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ٢٦ ـ الأعراف (٧)

اللِّباس : ما يُلْبَس ويستُر الجسم

ويستعمل اللباس مجازا فيما يشبه الثوب .

« لباس التقوى » : أضيف لباس إلى التقوى، وهذه إضافة بيانية . وقد أطلق لباس على التقوى لأنها تؤثر فى حياة الإنسان الروحية تأثيرا عاما كأنها تحيط بالإنسان من كل ناحية .

وجاء فى «التفسير الوسيط» : التقوى : الخشية من الله ، المستتبعة للأعمال الصالحة . وإضافة اللباس إليها لأنها تقى صاحبها من النار ، كما يقى اللباس صاحبه من الحر والبرد . فإذا اتقى العبد ربه ، ستره من المعايب فى الدنيا ، ومن العقوبة فى الآخرة .

« ولباس التقوى ذلك خيرٌ » : بيَّن أن التقوى خير لباس [١] . «لباسُ» : مرفوع على الابتداء . و «ذلك» : نعته . و«خير» خبر الابتداء . والمعنى : ولباس التقوى الذى علمتموه خير لكم من لبس الثياب التى توارى سوءاتكم ومن الرياش الذى أنزلنا ، فالبسوه .

« أنزلنا عليكم لباسا » أى خلقناه لكم بأسباب أنزلناها من السماء كالمطر وحرارة الشمس التى تنبت القطن ومنه تصنع الثياب . وقيل فى معنى «أنزلنا» : شرعنا لكم فى التنزيل (وهو المُنَزَّلُ من قرآن وكتب سماوية على رسلنا) .

« يوارى سوءاتكم » : يستر عوراتكم .

«ريشا» المراد به هنا اللباس الفاخر .

وستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى ، كما تزعم الأبواق اليهودية المسلطة على حياء الناس وعفتهم تدعوهم إلى العرى والتكشف ، كى تشيع الانحلال النفسى والخلقى وكى تفسد الفطرة البشرية وتجعل الناس ألعوبة فى أيدى مصممى الأزياء ومن يسمون بأخصائيى التجميل . وغرضهم الأساسى تدمير الإنسانية وفق الخطة اليهودية البشعة التى تتضمنها مقررات حكماء صهيون، بالإضافة إلى تحقيق أهدافهم الاقتصادية من وراء الإسراف فى استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة .

إن ستر الجسد فطرة خلقها الله فى الإنسان ـ ثم هى شريعة أنزلها الله للبشر . قال عبد الرحمن بن أسلم : يتقى الله فيوارى عورته ، فذاك لباس التقوى .

---

(١) قال الشاعر :

إذا المرءُ لم يلبسْ ثيابا من التُّقَى ... تَقَلَّبَ عُريانا وإن كان كاسيَا
وخيرُ لبـاس المـرء طـاعةُ ربـه ... ولاخير فيمن كان لله عاصيَا

١٩٨ ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ٣١ ـ الأعراف (٧)

أَسْرَفَ إسرافا : جاوز القصد والاعتدال فهو مُسرِف وهم مسرفون ، وأكثر ما يستعمل الإسراف فى إنفاق المال .

قال بعض السلف : جمع الله الطب كله فى نصف آية : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ . أحل الله فى هذه الآية الأكل والشرب مالم يكن سَرَفا أو مَخيلَة لما رواه البخارى عن النبى ﷺ : « كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سَرَفٌ ومَخيلَه » والمخيلة : الكِبْر .

وأما ما تدعو الحاجة إليه ، وهو ما سَدَّ الجوعة وسكن الظمأ ، فمندوب إليه عقلا وشرعا ، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ؛ ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوِصال (تتابع الصيام) لأنه يضعف الجسد ويضعف عن العبادة .

وفى قلة الأكل منافع كثيرة : منها أن يكون الرجل أصحَّ جسمًا وأجود حفظا وأزكى فهما وأقل نوما وأخف نفسا . وفى كثرة الأكل ما يورث التخمة ونتن الفم والجشاء لتخمر الطعام وفساده ، وذلك يستتبع شتى العلل . وقد بين النبى ﷺ هذا المعنى بيانا شافيا فقال فيما رواه الإمام أحمد والنسائى والترمذى : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » . وقال على بن الحسين : جمع رسول الله ﷺ الطب فى ألفاظ يسيرة ، قال : « المعدةُ بيتُ الداء والحِميةَ (١) رأسُ كل دواء وأعط كل جسد ما عودته» .

وقال عمر بن الخطاب : « إياكم والبِطْنة (٢) من الطعام والشراب فإنها مَفْسَدَة للجسد ، مورثَةٌ للسَّقَم ، مكسلَةٌ عن الصلاة ؛ وعليكم بالقصد فيهما ، فإنه أصْلح للجسد وأبْعدُ عن السَّرف ، وإن الله ليبَغض الحبر السمين . وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه » . وقال حاتم الطائى :

فإنك إن أعْطيتَ بطنك سُؤْلَه ... وفرجَك نالا منتهى الذمِّ أجمعا

---

(١) الحِمْية : الإقلال من الطعام ونحوه مما يضر .

(٢) البِطنة : الامتلاء الشديد من الطعام .

وخرج ابن ماجة فى سننه عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «من السرف أن تأكل كُلَّ ما اشتهيت».

وقد اختلف فى تناول القدر الزائد عن الحاجة على قولين ، فقيل : حرام، وقيل : مكروه.

قيل فى سبب نزول الآية إن العرب فى الجاهلية كانوا لا يأكلون دسما فى أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عراة . فقيل لهم : «خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» أى لا تسرفوا فى تحريم مالم يُحرم عليكم . فالإسراف يكون بتجاوز الحد ، كما قد يكون بتحريم الحلال ـ فتحريم شىء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله .

والله لا يرضى عن إسراف المسرفين ، ويكرههم بسبب إسرافهم .

وقد جمعت هذه الآية وجوه البلاغة وأصول الأحكام ، باشتمالها على الأمر والنهى ، والإبَاحة والخَبَر ، كما جمعت ـ فى نصفها ـ الحكمة (١) .

(١) التفسير الوسيط ، ص ١٤١١ من المجلد الأول.

١٩٩ ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ٣٣ ـ الأعراف (٧)

السلطان : القهر والغلبة ، ويستعمل فى الحجة والبرهان.

وهو فى القرآن الكريم أكثر استعمالا فى الحجة والبرهان.

معنى التعبير : وأن تشركوا بالله ما يستحيل أن يكون له حجة أو برهان.

ومعنى الآية ككل يلقى ضوءا على معنى التعبير : الذى حرمه الله هو الأعمال المتجاوزة لحدود الله ظاهرة للناس أو خافية ، والإثم ، والبغى أى الظلم ، وإشراك ما ليس له قوة ولا سلطان مع الله ـ سبحانه ـ فى خصائصه ، ومن ذلك إشراك غير الله ليشرع للناس.

وقد فسر ابن كثير « وأن تشركوا بالله لم ينزل به سلطانًا » تفسيرا مجملا فقال : أى تجعلوا له شركاء فى عبادته.

أما الزمخشرى فركز على كلمة « سلطانا » ليوضح معناها فقال فى «الكشاف» : « ما لم ينزل به سلطانا» فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل الله برهانا بأن يُشرك به غيرُه ، فالله لا ينزل برهانا بأن يكون غيرُه شريكا له.

٢٠٠ ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

٤٠ ـ الأعراف (٧)

السَّم : الثقب الضيِّق

الخِيَاط والمخيط : ما يخُاط به وهو الإبرة

وسمُّ الخياط أو ثقب الإبرة مثلٌ فى ضيق المسلك . يقال : أضْيَقُ من خَرْت الإبرة . والخَرْت والخُرت : الثَّقبُ ، ويقال : وقعوا فى مضايق مثل أخرات الإبر أى شدائد لا مخرج منها . وقالوا للدليل الماهر خرِّيت للاهتداء به فى المضايق المشبهة بأخْرات الإبر ، ويقال : سلك بهم أخرات المفاوز أى طرقها الخفية ومضايقها .

ومعنى التعبير أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لايدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال : « حتى يلج الجمل فى سَم الخياط » وهو لا يلج أبدا . وخص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل فى كبر الحجم ، وخص سم الخياط بالذكر لكونه غاية فى الضيق ـ ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب ، مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة ، فمتى يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ؟

﴿ لا تُفَتَح لهم أبوابُ السماء ﴾ أى لا يصعَد لهم عمل صالح ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ «فاطر ١٠» .

٢٠١ ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ٤٦ - الأعراف (٧)

سَوَّم الشيءَ تسويما : جعل عليه علامة .

والسِّيمَى : العلامة يعرف بها حال الإنسان فى الخير والشر . أصلها : السُّومَى قلبت الواوُ ياءً .

« وبينهما حجاب» أى سور بين الجنة والنار أو بين الفريقين .

« وعلى الأعراف » أى على أعالى الحجاب المضروب بين الجنة والنار . جمع عُرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك .

أما الرجال الموجودون على الأعراف فقيل هم الذين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ومنعتهم حسناتهم من النار [1] ، فجعلوا هناك إلى أن يأذن الله لهم فى دخول الجنة ؛ وقيل هم الأنبياء أجلسهم الله على أعالى ذلك السور إظهارا لعلو مرتبتهم ؛ وقيل هم عدول الناس من كل أمة جعلهم الله شهداء على أعمال أقوامهم .

« يعرفون كلاً » أى كلا من زُمَر السعداء والأشقياء .

« بسيماهم » : بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها ، يلهمهم الله ذلك أو تعرفهم الملائكة . وقيل سيماهم هى بياض الوجوه وحسنها فى أهل الجنة ، وسوادها وقبحها فى أهل النار ، لكن تحديد العلامة بشىء معين إنما هو تضييق للواسع ؛ فينبغى عدم التحديد ، وتفويض ذلك إلى الله .

وقد ورد هذا التعبير ست مرات فى القرآن الكريم : فى الآية ٢٧٣ من البقرة ، الأعراف ٤٨ ، محمد ٣٠ ، الفتح ٢٩ ، الرحمن ٤١ وهذا الموضع .

---

(١) أى تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تصل بهم الأولى إلى الجنة ، ولم تؤد بهم الثانية إلى النار - فهم ينتظرون فضل الله ويرجون رحمته .

٢٠٢ ﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ٥١ ـ الأعراف (٧)

« اتخذوا دينهم لهوا ولعبا » : استهزءوا بالدين الذى هم عليه ، فلم يعملوا به . فالدين الذى أوجبه الله عليهم مجال عبادة وصلاح وإصلاح ، جعلوه وسيلة لهو ولعب وأهواء ، فجحدوا منه ما جحدوا ، وبدلوا منه ـ وفق هواهم ـ ما أرادوا ؛ شأنهم فى ذلك شأن اللاهين العابثين . فهم الذين تناولوا أمور دينهم فى عبث وعدم اهتمام . ومما وقع من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا ، تحريمُهم السائبة [1] والطوافُ بالبيت عرايا[2] .

« غرتهم الحياة الدنيا » : خدعتهم بزخارفها ، فركنوا إليها وآثروها على الآخرة ، وأنكروا البعث .

اللهو مصدر لَهَا يَلْهو : شغل نفسه بما لا يجدى من الأعمال أو بما فيه اللذة والتسلية .

واللعب : العبث ، أو هو تناول الأمور فى عبث وعدم اهتمام . وورد التعبير مقدمة فيه كلمة « لهوا» على كلمة « لعبا » فى قوله تعالى : **﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾** « الأنعام ٧٠» .

---

(١) الناقة المنذورة يحرمون الانتفاع بها .

(٢) كانوا يعتبرون الطواف عرايا حول البيت نُسكًا حتى نهى عنه النبى فى حَجَّة الوداع بقوله : « ولا يطوفن بالبيت عُريان» .

٢٠٣ ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ ٥٨ ـ الأعراف (٧)

« البلد الطيب » : الأرض العذاة [١] الكريمة التربة ، تجود بخير النبات وكريمه.

« بإذن ربه » : بتيسيره ومشيئه.

« والذى خُبث » : الأرض السبخة التى لا تنبت ما يُنتَفع به.

« لا يخرج إلا نكداً » أى لا يخرج نباته إلا قليلا عسيرا ، عديم النفع. والنكِد هو العَسِر الممتنع من إعطاء الخيَر. النكد : القليل النفع.

ضرب الله البلد الطيب الذى ينتفع بالمطر مثلا لمن تدبر الآيات وانتفع بها. وضرب الله البلد الخبيث الذى لا ينتفع بالمطر مثلا لمن لـم ينتفع بالآيات : فقلب يقبل الوعظ والذكرى ، وقلب فاسق ينبو عن ذلك.

فى سياق الرحلة فى أقطار الكون وأسرار الوجود (الآيات من ٥٤ إلى ٥٦) وفى سياق الحديث عن الريح وما تقل من سحاب وما ينزل من أمطار (الآية ٥٧) يأتى هذا المثل للطيب وللخبيث من القلوب ـ يأتى مراعاة للتناسق فى المرائى والمشاهد ، وفى الطبائع. فالقلب الطيب يُشَبَّه فى القرآن الكريم بالتربة الطيبة ، والقلب الخبيث بالتربة الخبيثة ـ كلاهما ، القلب والتربة ، منبت زرع ومأتى ثمر. القلب ينبت نوايا ومشاعر وانفعالات واستجابات واتجاهات وعزائم ، وأعمالا بعد ذلك وآثارا فى واقع الحياة. والأرض تنبت زرعا وثمرا مختلفا أكله وألوانه. والبلد الطيب يخرج نباته سهلا ميسرا ، طيبا خيرا « والذى خبث » يخرج نباته فى عسر ومشقة.

«والذى خبث» صفة للبلد ومعناه : والبلد الخبيث. أو يُقَدر : ونبات الذى خبث.

« نكداً » : نصب على الحال. وقرأ ابن القعقاع « نكَدا » بفتح الكاف ، فهو مصدر بمعنى ذا نكَد.

« كذلك نُصَرِّفُ الآيات » أى نُبَيِّنُ الآيات ، كما جاء فى « تفسير الجلالين». وقال الزمخشرى : نرددها ونكررها. وقال القرطبى : كما صرفنا من الآيات ، وهى الحجج والدلالات فى إبطال الشرك ، كذلك نصرف الآيات فى كل ما يحتاج إليه الناس « لقوم يشكرون» وخص الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك. وجاء فى « التفسير الوسيط» : نحن نبين جميع الآيات بمثل هذا القدر من الوضوح والتبيين الواردين فى هذه الآية.

---

(١) العَذَاةُ : الأرض الطيبة التربة الكريمة المنبت التى ليست بسبخة.
انظر : لسان العرب ، مادة عذا.

٢٠٤ ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ٦٦ ـ الأعراف (٧)

سَفِهَ يَسْفَهُ سَفَهًا وسَفَاهةً : خَفَّ وطاش

« إنا لنراك فى سفاهة » أى فى حمق وخفة عقل .

قال الملأ ، أى كبار قوم عاد ورؤساؤهم ، لرسولهم هود عليه السلام ـ ردا على دعوته إياهم إلى عبادة الله وترك الطغيان ـ إنا لنراك مستغرقا فى خفة العقل والطيش والحماقة .

والرؤية هنا من رؤية البصر . وقيل : يجوز أن يراد بها الرأى الذى هو أغلب الظن .

(انظر : التعبير « سَفِه نَفْسَه » ١٣٠ ـ البقرة) .

٢٠٥ ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٨٥ ـ الأعراف (٧)

بَخَس الكيلَ والميزان يَبْخَسُه بَخْسًا : نَقَصَه . والفعل نَقَصَ لازم ومتعدى . نَقَصَ الشىءُ ينقُصُ نقْصًا ونُقْصانًا : خَسَّ وقل ؛ ونَقَصَ الشىءَ : صَيَّرَه ناقصا ، وأنقَصَهُ : نَقَصهُ .

ومنه نَقَصَ فلانًا حَقَّه : غَمطَه إياه (تعدى لمفعولين) .

وبَخَسْته حَقَّه إذا نَقَصْتَه إياه .

« ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم » : الناس مفعول به أول ، وأشياءَهم مفعول به ثان . والمعنى : لا تنقصوهم حقوقهم ؛ فسر حسنين مخلوف فى « صفوة البيان لمعانى القرآن» ويوسف على فى ترجمته الإنجليزية لمعانى القرآن ، كلمة «أشياءهم » بمعنى حقوقهم والشىء ما يُعلم ويخبر عنه حسيا كان أو معنويا . وبخسُ الناس أشياءَهم بأخذها على وجه البَخْس ، وهو النقص فيها خُفْيَةً وتَدْليسًا . وقد يكون البخس فى السلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال فى التزيد فى الكيل والنقصان منه . وكل ذلك من أكل المال بالباطل ـ وذلك منهى عنه فى الأمم السالفة على لسان الرسل . قيل إن أهل مدين كانوا ينقصون الناس كل شىء فى مبايعاتهم . كانوا مكّاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه أى نقصوا ثمنه .

ورد التعبير أيضا فى آية تحمل نفس الرقم (٨٥) فى سورة هود، وفى الآية ١٨٣ من سورة الشعراء.

﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾

٨٦ ـ الأعراف (٧)

« ولا تقعدوا بكل صراط » طريق « توعدونَ» تخوفون الناس بأخذ ثيابهم أو المكس[١] منهم « وتصدون » تَصْرِفون « عن سبيل الله » دينه « من آمن به » بتوعدكم إياه بالقتل.

ومن المفسرين من قال : القعود بكل صراط يعنى قطع الطريق وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم ، قاله أبو هريرة . وتابعه فى ذلك ابن كثير فقال فى تفسير كلمة « توعدون » : تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

ومنهم من قال هو القعود على الطرقات المفضية إلى شعيب تخوفون من آمن بشعيب ودينه بالقتل ، وتصدونهم وتقولون عنه إنه كذاب ، كما كانت قريش تفعل مع النبى ﷺ .

ونورد ما قاله الزمخشرى ففيه مزيد توضيح . « ولا تقعدوا بكل صراط » أى ولا تقتدوا بالشيطان فى قوله : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ فتقعدوا بكل صراط أى بكل منهاج من مناهج الدين . والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله : ﴿وتصدون عن سبيل الله ﴾[٢] فإن قلت : صراط الحق واحد «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » فكيف قيل: بكل صراط ؛ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة ، فكانوا إذا رأوا أحدا يشرع فى شىء منها أوعدوه ويقولون لمن مَرَّ بهم إن شعيبا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم.

وقيل : كانوا يقطعون الطرق.

---

(١) المكس : الضريبة يأخذها المكّاس ممن يدخلون البلد من التجار.

(٢) « توعدون وتصدون عن سبيل الله » : فى محل نصب على الحال ، أى ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله.

٢٠٧ ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ٨٩ ـ الأعراف (٧)

فَتَحَ بين الخَصْمين يفتَح فَتْحًا : قضى وحكم .

المعنى : ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين . قال الشوكانى : دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين ، كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وحلول نقمة الله بهم .

وقال الزمخشرى : يارب أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف بأن تنزل عليهم عذابا يتبين معه أنهم على الباطل .

« وأنت خير الفاتحين » أى خير الحاكمين ، فإنك العادل الذى لا يجور أبدا .

صاحب هذا الدعاء هو نبى الله ، شعيب عليه السلام . فى هذا الدعاء يدَعُ طواغيت قومه وتهديدهم « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا » ويتجه إلى وليه الله ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق . إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن النصر فى المعركة المفروضة عليه لن يكون إلا بفتح من ربه وتأييد .

٢٠٨ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

٩٦ ـ الأعراف (٧)

معنى التعبير : ولو أن أهل القرى آمنوا بالله وبما أنزله من الشرائع ، واتقوا بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، لآتيناهم بالخير من كل وجه . وقيل : أراد المطر والنبات . لكن التعبير بعمومه وشموله يلقى ظلال الفيض الغامر : «بركات» جمع بركة وهى النماء والزيادة ، « من السماء والأرض » أى مفتوحة بلا حساب ، من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

إن الإيمان بالله وتقواه ليسا منعزلين عن واقع الحياة ، وإنما هما يؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض ، وهذا وعد من الله ـ ومن أوفى بعهده من الله ؟

إن الإيمان بالله دليل على حيوية فى فطرة المؤمن ، ودليل على سلامة أجهزة الاستقبال الفطرية لدية وعلى صدق فى إدراكه الإنسانى ، وهو دليل كذلك على حيوية فى البنية البشرية وعلى رحابة فى إحساسه بحقائق الوجود ـ وهذه الحيوية وسلامة الأجهزة وصدق الإدراك ورحابة الإحساس ، هذه كلها من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله قوة دافعة تجمع قوى الإنسان المؤمن ، وتطلقها تعمل لتحقيق مشيئة الله فى خلافة الأرض وعمارتها ، وفى دفع الفساد والفتنة عنها ، وفى ترقية الحياة ونمائها .

والإيمان بالله يحرر الإنسان من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد ، وهذا يجعله أقدر على الخلافة فى الأرض خلافة راشدة صاعدة . يضاف إلى الإيمان التقوى ، وتقوى الله تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور ، وتوجه الجهد البشرى فى حذر وتحرج فلا يعتدى ولا يتهور ولا يتجاوز .

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح ، عاملة فى الأرض ، متطلعة إلى السماء ، متحررة من الهوى والطغيان البشرى ، عابدة خاشعة لله ـ حين تسير الحياة على هذا النحو ، تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله ورضاه ، فلا جرم أن تحفها البركة ، ويعمها الخير ويظلها الفلاح (١) .

ومعنى فتح البركات عليهم : تيسيرها لهم .

ويقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها . من قَرَيْت الماءَ إذا جمعته . فالقرية هى المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية .

---

(١) أخبر سبحانه عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ «نوح ١٠ ، ١١ » . وعن هود : ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ « هود ٥٢» .

٢٠٩ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ١٠٠ - **الأعراف (٧)**

طَبَعَ الشيء وطبع على الشيء : خَتَمَ عليه بطابَع ، والطابَع ما يُطبَع به أو يُختَم . وختم على قلبه : جعله لا يفهم شيئا وكأنما أحكم غطاءه فلا ينفذ إليه شيء من الفهم ، ومثله طبع على قلبه .

« ونطبع على قلوبهم » : نختم عليها ونحكم الغطاء عليها فلا ينفذ إليها شيء من الفهم أو التدبر أو التذكر « فهم لا يسمعون » موعظة ولا هديا .

وفى « التفسير الوسيط » : نحكم إغلاق قلوبهم دون الخير بسبب إساءتهم لأنفسهم باختيار الكفر والضلال ، فهم لا يسمعون إنذارا ولا يتدبرون إرشادا ولا يعتبرون بهلاك السابقين .

وقد ورد التعبير فى العديد من المواضع (أحد عشر موضعا) من القرآن الكريم .

٢١٠ ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ١٤٩ ـ الأعراف (٧)

سَقَطَ يسقُط سُقوطًا : وقع من مكان عال إلى مكان منخفض ، ويستعمل السقوط فى الحسيات والمعنويات .

ويقال : سُقِطَ فى يده وأُسْقِطَ فى يده ، ويراد به : زَلَّ وأخطأ ، ونَدم وتحيَّر ، وذلك أن النادمَ إذا اشتد غَمُّه عَضَّ يدَه ، فتصير يده مسقوطا فيها ، أو أن النادم مَن عادته أن يطأطىء رأسه ويضع ذقنه على يده بحيث لو أزالها سقط على وجهه ، فكأن اليد مسقوط فيها .

فالتعبير سُقط فى يده (بالبناء على المجهول) كناية عن الندم .

ومنهم من قال : سَقَطَ فى يده (على بناء الفاعل) بمعنى سَقط الندمُ فى يده . وهو ذَكَر اليدَ مع أن الندمَ يكون فى القلب ، وذلك لأنه يقال لمن تحصل على شيء : قد حصل فى يده أمر كذا لأن مباشرة الأشياء فى الغالب تكون باليد ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ «الحج ١٠». وأيضا : الندم وإن حل فى القلب فأثره يظهر فى البدن ، لأن النادم يعض يده ، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ (١) أى ندم ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾(٢) أى من الندم .

« ولما سُقط فى أيديهم » الضمير يعود على بنى إسرائيل لما ندموا أشد الندم على عبادتهم العجل، ومخالفة موسى وهرون وهموا بقتله، وعلموا أنهم بفعل هذه المنكرات قد جاوزوا طريق الهدى، « قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » .

ورد التعبير مرة واحدة فى القرآن الكريم .

---

(١) الكهف ٤٢ . (٢) الفرقان ٢٧ .

٢١١ ﴿ سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾١٥٤ ـ الأعراف (٧)

التعبير يشخص الغضب ، فكأنما هو حَىٌّ ، ولتمكنه من موسى وتسلطه عليه ، بَدَا وكأنه هو الذى يدفعه ويحركه فى أفعاله ، وكل ما وقع منه حينئذ عن الغضب صادر . ولما « سَكَتَ » عنه الغضب ، وتركه لشأنه ، استرد موسى هدوءه فأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه .

ومعنى التعبير : ولما ذهب عن موسى الغضب وسكن وهدأ روعه بعد اعتذار أخيه وتوبة من تاب [١] . لكن شتان ما بين التعبير القرآنى وبين شرحه هذا الذى لاتجد النفس عنده طرفا من تلك الروعة ولا شيئا من تلك الهزة التى يحدثها التعبير القرآنى ، ففى هذا التعبير من البلاغة ووضوح المعنى ما يبهر العقول ويأخذ بالألباب . وله على القلوب وقع آسر ، وله فى النفوس أثر ساحر .

قال البعض إن التعبير « سكت عن موسى الغضب » من نوع قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل : ولما سكت موسى عن الغضب [٢] والمحقق أن التعبير ليس من قبيل القلب ، فالتعبير أشرف وأفصح ولا مجال للمقارنة بين الإثنين .

« الألواح » هى الألواح التى كتبت فيها التوراة . « وفى نسختها » أى فيما نُسِخَ وكُتب منها . ويقرر السياق أن فى هذه الألواح هدى ورحمة لمن يرهبون [٣] ربهم . والهدىَ رحمة ، فليس أشقى من القلب الضال الذى لايجد النور ، وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذى لا يجد الهدى ولايجد اليقين ـ ورهبة الله وخشيته هى التى تفتح القلوب للهدى ، وتوقظها من الغفلة ، وتهيئها للاستجابة والاستقامة .

---

(١) كان قومه قد عبدوا العجل ، فغضب غضبا شديدا غيرة لله .

(٢) وهو مثل قولك : أدخلت الأصبع فى الخاتم ، وأدخلت الخاتم فى الأصبع .

(٣) « لربهم يرهبون » : لما تقدم المفعول ضعف عمل الفعل وصار بمنزلة مالايتعدى بدخول اللام على المفعول فجاء على هذا النحو « لربهم » والأصل : ربهم .

٢١٢ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾١٥٦ ـ الأعراف (٧)

« ورحمتى وسعت كل شىء » : آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارا عن حملة العرش ومن حولهم أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ «غافر ٧ ».

المعنى : رحمة الله لا نهاية لها ، فالتعبير يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذى خلقه ، والذى لا يدرك البشر مداه ـ فيالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله . فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شىء ، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاصى إلا وهو متقلب فى نعمتى . وقيل : وسعت كل شىء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها . روى الإمام أحمد عن سلمان عن النبى ﷺ قال : « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخَّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة» .

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ أى فسأوجب حصول رحمتى منَّةً منى وإحسانا إليهم ، كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ « الأنعام ٥٤» .

٢١٣ ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ١٥٧ ـ الأعراف (٧)

وَضَعَ عنه الأمرَ يضَعُه وَضْعًا : أسقطه (١)

الإصْـــر (٢) : الأمر الثقيل ، والمراد به هنا التكاليف الشاقة التى فرضها الله على اليهود بسبب ظلمهم. ومن ذلك القصاص فى القتل سواء أكان عمدا أم خطأ وعدم تشريع الدية لهم، وقطع أعضاء الجسم الخاطئة ، وإحراق الغنائم .

« الأغلال التى كانت عليهم » : الأغلال جمع غُل وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد، يستعار للمواثيق الشديدة والتكاليف الشاقة، وهى التى كانت فى شريعة موسى ، عليه السلام، لتناسب ظلم بنى إسرائيل وطغيانهم وغلوهم فى الفساد والضلال . ومن ذلك قرض (قطع) موضع النجاسة من الثوب ، وعدم العمل يوم السبت ، وعدم مجالسة المرأة إذا حاضت وعدم مقاربتها .

قال ابن كثير فى معنى هذا التعبير : جاء نبينا ﷺ بالتيسير والسماحة، قال : «بعثت بالحنيفية السَّمحاء» ؛ وقال ﷺ لمعاذ وأبى موسى الأشعرى لمابعثهما إلى اليمن : « بَشِّرا ولا تنفرا ويَسِّرا ولا تُعسِّرا وتطاوعا ولا تختلفا» ؛ وقال : «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به نفسها مالم تقل أو تعمل» ؛ وقال : «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

«الإصر» مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه ، ومثله قوله تعالى : ﴿لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ ، ﴿ وعلى سمعهم ﴾ ، ﴿من طرف خفى﴾ : كله بمعنى الجمع .

---

(١) وَضَعَ عن مدينه : نقَص له مما عليه شيئا .
(٢) الإصر : الثقلَ الذى يأصِر صاحبه ، أى يحبسه من الحراك لثقله .

٢١٤ ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦]

لَهَثَ الكلبُ يلهَث لَهْثًا ولُهاثًا : أخرج لسانه، وأسرع فى تنفسه من العطش أو التعب ونحوه.

« تحمل عليه » : تشد عليه بالطرد أو الزجر.

قال القتيبى : كل شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال (التعب) وحال الراحة ، وحال المرض وحال الصحة ، وحال الرى وحال العطش . فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال : إن وعظته ضَلَّ وإن تركته ضلَّ.

فالعالم الذى آتاه الله علم آياته ولم يعمل بعلمه ، ولم ينتفع بما علمه سواءٌ أوَعَظْتَه أم تركته ، هذا العالم مثله كمثل الكلب إذا زجرته نبح وولى هاربا ، وإذا تركته شَدَّ عليك ونبح ؛ فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه عند ذلك مايعتريه عند العطش من إخراج اللسان.

وجملتا الشرط « إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث » محلهما النصب على الحال، كأنه قيل : فمثله كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالتين.

فحال هذا العالم الذى يقص علينا القرآن خبره فى هذه الآية والآية السابقة عليها «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين »، إنما هو حال أخَسِّ الحيوانات فى أخس أحواله ، وهى اللهث دائما فى حالى الراحة والتعب . ذلك أن هذا الرجل آتاه الله الدلائل والبراهين الدالة على الهدى والداعية إلى الرشاد، فترك العمل بها كلية ونبذها وراء ظهره، وتبعه الشيطان بالغواية فصار من الراسخين فى الضلال.

والتعبير « فانسلخ منها » جديد على ذخيرة اللغة العربية من التصورات والتصويرات. إنسان يؤتيه الله آياته ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى، لكنه ينسلخ من هذا كله إنسلاخا ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له (أى جلد له) متلبس بلحمه ، وإنما يكون الانسلاخ بعنف ومشقة ـ أو ليست الكينونة البشرية فى فطرتها السلمية ، متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ، وينحرف عن الهوى ليتبع الهوى، « وأخلد إلى الأرض » أى سكن إلى الدنيا ومال إليها «واتبع هواه » بالإعراض عن تلك الدلائل الواضحة ، فانحط وارتد أسفل سافلين ، فإذا هو مسخ فى هيئة الكلب يلهث إن طورد ويلهث إن لم يُطارَد.

وإنما جاء التشبيه فى الوضع والخسَّة بقرينة الفاء فى قوله « فمثله كمثل الكلب»، والفاء تفيد فى ترتيب ما بعدها على ما قبلهاَ ، فمشهده المفزع البائس النكد كالكلب ويلهث إن طورد وإن لم يطارد إنما ترتب على ما قبله من ميل إلى الدنيا واتباع الهوى!

٢١٥ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ١٩٩ - الأعراف (٧)

أخَذَ يأخُذ أخْذًا : تَناوَلَ .

والتناوُل فى قوله : « خُذِ العَفْوَ » مجاز عن القبول والرضا .

والعفو : السهل اليسير من أخلاق الناس .

« خذ العفو » أى أقْبَل يا محمد السهل اليسير من أخلاق الناس، وتساهل معهم فيما اعتادوه من أعمال وعادات شريطة ألا يكون فيها ما يخالف الدين ، فهو مقيد بقوله تعالى : «وأ مُر بالعُرف» أى بالمعروف لك عن طريق الوحى ، فلا عفو فيما هو مطلوب شرعا ، ويبقى العفو عاما فيما يجوز التسامح فيه ، فليكن رائدك العفو والصفح فى تعاملك مع الناس . روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة عن أبيه قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ، ﷺ : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جبريل » ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك . وفى صحيح البخارى عن هشام بن عروة عن أبيه : أُمر رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

فالله يأمر نبيه أن يأخذ الميَسّر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، وأن يعفو عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم فى المعاملات الشخصية ، وليس فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية - فليس فى عقيدة الإسلام ولا فى شريعة الله يكون التغاضى والتسامح ! فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه ، والسماحة فيه ، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء . ورسوله الله ﷺ ، راعٍ وهاد ومُعلمٌ ومُربٍّ ، فهو أولى الناس بالسماحة واليُسر والإغضاء . وكذلك كان ﷺ : لمَ يغضَب لنفسه قط . فإذا تعلق الأمر بدين الله كان غضبه لا يماثله غضب فى شدته . وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ - فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة الصدر وسماحة الطَبع واليسر والتيسير . فلا يطلب الداعية من الناس مايجهدهم ومايشق عليهم حتى لا ينفروا ، كقوله ﷺ: « يَسِّروا ولا تعسروا» متفق عليه من حديث أنس . وقال الشاعر :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ... ولا تنطقى فى سَوْرتى حين أغضَبُ

وفسر البعضُ العفوَ بأنه ما فضل وزاد عن حاجة الناس من أموالهم، كما فى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفوَ ﴾ أى الزائد عن حاجتهم ، ولكن الأظهر حمل الآية على المعنى الأول وهو : العفو بمعنى القبول .

« بالعُرف » : بالمعروف وهو ما شَرَعَه الله لعباده وعُرف حسنُه شرعا وعقلا من عادات الناس . فالعُرف هو الخير المعروف الواضح الذى تلتقَى عليه الفطر السلمية والنفوس المستقيمة . ورياضة النفوس تقتضى أخذها فى أول الطريق بالميسور المعروف من التكاليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هى بذاتها النهوض بما فوق ذلك فى يسر وطواعية .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الطاعة فى المعروف » . والمعروف مأمور به فى العبادات والمعاملات . ولأن المعروف هو شريعة الله للناس ، وعليه يتوقف صلاح حالهم فى الدنيا والآخرة ، جاء القرآن الكريم مقررا له فى آيات كثيرة : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ «آل عمران١٠٤» ، وفى مبايعة النساء قوله تعالى : ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ «الممتحنة ١٢» وفى معاشرتهن بالمعروف : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ «النساء ١٩»، وفى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ «التوبة ٧١» .

قال ابن جرير : أمر الله نبيه ﷺ أن يأمرَ عباده بالمعروف ويدخل فى ذلك جميع الطاعات، ومنها تقوى الله فى الحلال والحرام، وصلة الأرحام، وغض الأبصار .

والعرف والمعروف والعارفة كلها بمعنى واحد. قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جَوَازِيَه [1] لا يذهب العُرف بين الله والناس

قوله تعالى : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ : تَوَلَّ عن الجاهلين . والجهالة ضد الرشد وضد العلم . وإنما يكون الإعراض عنهم بالترك والإهمال ، والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال ، والمرور بها مر الكرام ؛ وعدم الدخول معهم فى جدال لا ينتهى إلى شيء إلا إضاعة الوقت والجهد. وقد ينتهى الإعراض عنهم وعن جهالاتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها ، أو إلى عزلهم عن الآخرين الذين فى قلوبهم خير ، إذ يرى هؤلاء صاحب الدعوة محتملا معرضا عن اللغو ، ويرون الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون فى عيون الناس .

فقد يؤثر الحلم والعفو فى السفيه فيرجع إلى الصواب ويلوم نفسه . ولقد كان لحلم النبى ﷺ ، وإعراضه عن إساءات قومه أثر كبير فى إسلام من كان يُسَفِّه ويعارض .

ويقول القرطبى فى تفسيره: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات . وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم لما قدم عليه وقال له : إنا

(١) هذا البيت للحُطيئة . جوازِيَه : جمع جاز أى لا يعدم جزاءً عليه من الفعل جزاه عليه جزاء . ويمكن أن تكون جوازيه جمع جزاء كمَا جمعت سيل على سوائل. انظر : لسان العرب ، مادة جَزَى . وفى «المعجم الوجيز» : الجازية : الثواب ، والجمع : جَوَازٍ.

معشرَ أهل البادية ، قوم فينا الجفاء، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : « اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تُفرغ من دلوك فى إناء المُستَسْقى(١) وإن امرؤ سبّك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لكَ أجرا وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى » قال جابر بن سليم : فو الذى نفسى بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيرا . أخرجه أبو بكر البزار فى مسنده بمعناه. وروى أبو سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق». وروى عنه ﷺ قوله : « أمرنى ربى بتسع : الإخلاص فى السر والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرة».

وقد أخذ بعض الحكماء ما ورد فى الآية من معنى وسبكه فى هذين البيتين :

خذ العفو وأمر بعرف كما ... أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولِن فى الكلام لكل الأنام ... فمُستَحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء : الناس رجلان ، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ؛ وإما مسىء فمُره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيدَه ، كما قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ « المؤمنون ٩٦ »، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ «فصلت ٣٤».

(١) المستَسقِى : طالب السُّقيا أى الماء للرى أو الشرب. والدَّلو الإناء يُستَقى به من البئر.

٢١٦ ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ ٢٠٢ - الأعراف (٧)

مَدَّ النَّهرُ النهرَ إذا جرى فيه . قال اللحياني : يُقال لكل شيء دخل فيه مثلُه فكثرّه : مَدَّه يمدُّه مدّاً . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ « لقمان ٢٧ »، أي يزيد فيه ماء من خلفه .

ومَدَدنا القومَ : صرنا لهم أنصارا ومددا . والمَدَدُ : ما أمددت به قومك فى حرب أو غير ذلك من طعام أو أعوان أو هو : العَوْن والتقوية .

ومدَّ فلانًا فى أمْره : قوَّاه عليه وزيَّنه له ، وما ورد منه فى القرآن الكريم استعمل فى الشر . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ «البقرة١٥» ، وطغيانهم : غلوهم فى كفرهم .

والغَيّ : الضلال والخيبة ، والغى : فساد العيش وفساد الاعتقاد . غَوَى غَيّا، وغوِيَ غواية : ضَلّ . ورجلٌ غَاوٍ وغَوٍ وغَوى : ضالٌ . وأغواه : أضلَّه . قال المُرَقِّش :

فمن يلقَ خيراً يحمد الناسُ أمرَه ومن يَغْوَ لا يعدم على الغى لائما

وفى الحديث : « من يُطع الله ورسوله فقد رشَد ومن يعصهما فقد غوَى» . وفى حديث الإسراء : « لو أخذتَ الخمرَ غوَتْ أمتك » أى ضلت .

والتغاوى : التعاون فى الشر .

وكلمة « وإخوانهم » التى يبدأ بها التعبير تعود على «الجاهلين» فى الآية ١٩٩ . فالسياق عاد إلى الحديث عن الجاهلين ، وإخوانهم الذين يمدونهم فى الغى هم شياطين الجن ، وقد يكونون شياطين الإنس أيضا : إنهم يزيدون لهم فى الضلال ويزينون لهم الفساد ويقوونهم عليه . وهم « لا يقصرون» أى لا يكلون ولايسأمون ولا يسكنون .

قال ابن كثير : « وإخوانهم يمدونهم » أى أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ، يمدونهم فى الغى ، أى تساعدهم الشياطين على المعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهم . والمد : الزيادة ، يعنى يزيدونهم فى الغى يعنى الجهل والسَّفه .

وقال الزمخشرى فى تفسير « يمدونهم فى الغى » : يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم . وقرئ : يُمدونهم من الإمداد (من الفعل : أمَدّ) ، وقرئ أيضا : يُمادونهم بمعنى يعاونونهم .

٢١٧ ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

١ ـ الأنفال (٨)

« ذات بينكم » : «ذات» مؤنث ذو ، وهى بمعنى صاحبة . وتقال «ذات» أيضا للحالة ، ويكون معنى « ذات بينكم » أى الحالة التى بينكم .

أما بين فهى ظرف . ويصح الإضافة إليه على سبيل التوسع ، ففى قوله تعالى : «وأصلحوا ذات بينكم » أى الأحوال الواقعة بينكم [1] ، يعنى ما بينكم من أحوال أصلحوها حتى تكون أحوال ألفَة ومحبة واتفاق . قال الزمخشرى : لما كانت الأحوال ملابسة للبَيْن (أى أنها توجد بين الأشخاص) قيل لها : ذات البين .

أصلحوا ما بينكم من الأحوال والصلات التى تربط بعضكم ببعض ، وإنما يكون إصلاحها بالوفاق والتعاون ، والمساواة ،وترك الأثرة ، فلا تخاصموا ولاتَظَالموا ولاتشاجروا. ذلك أن إصلاح ذات البين يتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومَنَعتُها، وتُحفَظ به وحدتها .

(١) وفى قوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما » «النساء ٣٥ » ، أى شقاقا واقعا بينهما . وفى قوله : « شهادة بينكم » «المائدة ١٠٦» أى الشهادةَ الواقعة بينكم.

٢١٨ ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ١١ - الأنفال (٨)

الغشاء والغاشية والغشاوة : الغطاء .

غَشِيَ الأمرُ فلانًا يغشاه غَشْيًا : غطّاه وحواه ، يقال : غَشِيَه النعاس وغشيه الموج .

وغَشَّى الشىءَ : جعله عليه غطاءً .

« إذ يُغشيكم النعاسَ » : مفعولان ، المفعول الأول ضمير المخاطب والمفعول الثانى النعاس . والمعنى : يُغَطيكمُ الله ويشملكم بالنعاس ، فالفعل مضاف إلى الله - عز وجل - لتقدم ذكره فى الآية السابقة : « وما النصر إلا من عند الله » ، ولأن بعده « ينزل عليكم » فأضاف الفعل إلى الله - عز وجل - فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله - عز وجل - ليتشاكل الكلام . وهذه قراءة أهل المدينة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « يغشَاكُم النعاسُ » بإضافة الفعل إلى النعاس ، دليلهما قوله تعالى فى الآية ١٥٤ من آل عمران : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نُعاسا يغشى طائفة منكم » . والاختيار قراءة أهل المدينة بضم الياء وفتح الغين وشد الشين « يُغَشِّيكم » ونَصب «النعاسَ » لأن بعده «أمنةً منه » والهاء فى منه لله ، فهو الذى يغشيهم النعاس ، ولأن أكثر القراء اختاروا هذه القراءة .

« أمَنَةً » : مفعول لأجله ، يقال أمِنَ أَمَنَةً وأمْنًا وأمانًا ، فالأَمَنَة : الأمان والطمأنينة ومعنى التعبير : ألقى النعاسَ عليهم أمانًا ، أمّنَهم به من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم . والنعاس حالة الآمن الذى لا يخاف . وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر الخطير ، ولكن الله ربط جأشهم . قال الماوردى : وفى امتنان الله عليهم بالنوم يوم بدر فى هذه الليلة وجهان : الأول قَوَّاهم بالاستراحة على القتال فى اليوم التالى . والثانى : أمّنَهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما يقال : الأمْن مُنيم ، والخوف مُسْهِر .

وعن على رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح . ذكره البيهقى .

« رجز الشيطان » : وسوسته وتخويفه لهم . وقرئ : « رجس الشيطان» . وذلك أن إبليس تمثل لهم أى للمسلمين ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء . بينما نزل المسلمون فى

كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا . فقال لهم الشيطان مُوَسوسا ومخوفا : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء [1]، وقد عطشتم ، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء ، وماينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش ، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وسأقوا بقيتكم إلى مكة . فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا . فأنزل الله ، عز وجل ، المطر حتى جرى الوادى . واتخذ رسول الله ﷺ ، وأصحابه الحياض على عُدوة الوادى (أى جانبه) وسقَوْا الركاب واغتسلوا وتوضأوا ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى تثبت عليه الأقدام ـ وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس .

تتحدث الآية عن جانب من معركة بدر . وبدر واد يقع بين مكة والمدينة على بعد ٢٨ فرسخًا [2] من المدينة . كان النبى ، ﷺ قد علم أن أبا سفيان مُقبل من الشام فى عير وأموال لقريش ، فندب المسلمين للخروج إليهم « لعل الله يُنفلكموها » [3]. فخرج المسلمون إلى بدر وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (عدة أصحاب طالوت [4]) . وبلغ الخبَرُ أبا سفيان ، فأرسل إلى مكة يستنفر قريشا ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض له فى أصحابه ، فخرجت قريش فى ألف رجل ليمنعوا (أى ليحموا) عيرهم . وعلم الرسول بخروج قريش ، فاستشار أصحابه فى ملاقاتهم . فقال المقداد بن عمرو : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك . والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وقال سعد بن معاذ : فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . فمضى رسول الله وسبق قريشا إلى ماء بدر ، وتلاقى الفريقان ، ونصر الله نبيه والمسلمين ، وقَتل من المشركين سبعين وأسَر منهم سبعين . وكان من بين قتلى قريش أربعة من كبار سادتهم : أبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .

وتجدر الإشارة إلى أن سورة « الأنفال » نزلت فى غزوة بدر الكبرى .

ولفظ « يغشيكم » ولفظ « النعاس » ولفظ « أمنة » ـ كلها تشترك فى إلقاء ظل لطيف شفيف . لقد كانت هذه الغَشية وهذه الطمأنينة مَدَدًا من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر .

---

(١) لم يكن قد رُخص لهم بعد فى التيمم عند عدم وجود الماء . وإنما جاءت هذه الرخصة بعد ذلك بأكثر من ثلاث سنوات فى غزة بنى المصطلق .

(٢) الفرسخ مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال (٨ر٤كم) .

(٣) أى يجعلها نَفَلاً لكم أى غنيمة ، وجمع النفَل : أنفال .

(٤) سرَّ النبى ﷺ بذلك العدد وحَمد الله تيمنا بما حدث لطالوت ، أحد ملوك بنى إسرائيل ، الذى خرج فى ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا لملاقاة جالوت وجنوده وكان عددهم أكبر بكثير من جنود طالوت ـ لكن الله كتب النصر لطالوت : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » الآيات ٢٤٦ـ٢٥١ ، سورة البقرة .

٢١٩ ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ ١١ - الأنفال (٨)

رَبَطَه يَربطَه رَبْطًا : شَدَّه بالرِّباط ، وهو ما يُربَط به .

وربَط على قلبه : شَدَّه وقَوَّاه ليَسكن بالصبر والشجاعة ، ويقال لكلٍ من صَبَّر على أمر : رُبِط على قلبه .

« وليربط على قلوبكم » أي يشد عليها ويقويها بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن . وقال الشوكانى : يجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب . جاء فى «لسان العرب» : الرِّباط : الفؤاد ، كأن الجسَم رُبِط به . ورجل رَابط الجأش (١) أى شديد القلب كأنه يربُط نفسَه عن الفرار يكُفها بجرأته وشَجاعته .

وربَط جَأشُه رِباطةً : اشتد قلبُه ووثُق وحَزُم فلم يفِرَّ عند الرَّوْع .

انظر التعبير « إذ يغشيكم النعاسَ أمنةً منه » فى صدر الآية .

٢٢٠ ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ ١١ - الأنفال (٨)

ثَبَّتَهَ تَثبيتًا : فعل ما يوجب ثباته واستقراره ، ويدفع عنه أسباب الوهن والتزعزع .

كان المسلمون قد نزلوا ، يوم بدر فى كثيب (٢) أعْفر تسوخ فيه الأقدام . فأنزل الله ، عز وجل ، المطر ، فسقوا واغتسلوا ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس .

فالضمير فى «به » راجع إلى الماء الذى أنزله الله .

ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الربط على القلوب : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام» ، فالقلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة تثبت القدم فى مواطن القتال .

انظر التعبير « إذ يُغشيكم النعاسَ أمنةً منه » فى صدر الآية ، والتعبير السابق : «وليربط على قلوبكم» .

---

(١) ويقال أيضا : ربِيط الجأش .

(٢) الكثيب : الرملَ المستطيل المحْدُوْدَب .

٢٢١ ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ١٥ ، ١٦ ـ **الأنفال (٨)**

يقال : ولَّى العدوُّ دُبُرَه : انثنى وانصرف عن قتاله ورجع .

والدُّبُرُ : مؤخَّرُ كل شيء وظهره وعَقِبُه ، وهو نقيض القُبُل ، وجمعه أدبار . وولاه دُبُرَه : انهزم أمامه .

« فلا تولوهم الأدبار » : فلا تُديروا ظهوركم لهم ، والمقصود نهيهم عن الفرار من قتال العدو بأية صورة .

« زحفا » أي مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون .

« متحرفا لقتال » أي منعطفا لقتال بأن يريهم الفَرَّة مكيدة وهو يريد الكَرَّة .

« متحيزا إلى فئة » أي منضما إلى جماعة من المسلمين يستنجد بها . « فقد باء» أي رجعٌ بغضب من الله .

هذا خطاب للمؤمنين فى عهد الرسول ﷺ ولجميع المؤمنين بعدهم إلى يوم القيامة ، كلفهم الله فيه بالثبات عند لقاء الكفار فى الحرب . جاء هذا التكليف فى تضاعيف قصة بدر إظهارا للاعتناء به وحثا على المحافظة عليه ، فإن فيه عز المسلمين وسلامتهم وسلامة دينهم .

وما يجوز أن يولى المؤمن خوفا على الحياة ، فالآجال بيد الله . وليس فى هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانا ، فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة ، ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التى لاغالب لها ، فهو أقوى من خصمه الذى يواجهه وهو يشاق الله ورسوله .

ونقف عند ما فى التعبير من إيماءات : « فلا تولوهم الأدبار » «ومن يولهم يومئذ دبره » . فهو تعبير عن الهزيمة فى صورتها الحسية ، وفيه تقبيح وتشنيع ، وتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء .

٢٢٢ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّـهَ رَمَىٰ ﴾١٧ - الأعراف(٨)

التعبير يكشف للمسلمين عن يد الله وهى تدير المعركة من ورائهم ، وتقتل لهم أعداءهم، وترمى لهم وتصيب .

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمى هنا بأنه رمية الحصى التى حثاها رسول الله ﷺ، فى وجوه الكفار ، وهو يقول : « شاهت الوجوه» فأصابت وجوه المشركين ممن كتيب عليهم القتلُ فى علم الله .

ولكن دلالة الآية أعم . فهى تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبى ﷺ ، والعصبة المسلمة معه .

هذا الرمى كان يوم بدر، وهو الأصح لأن السورة بدرية . لما طلعت قريش يوم بدر، قال رسول الله ﷺ ، يناجى ربه : هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى .

فأتاه جبريل عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم به . فلما التقى الجمعان، قال النبى ﷺ لعلى ، رضى الله عنه ، أعطنى قبضة من حصباء الوادى، فرمى بها فى وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » ، فلم يبق مشرك إلا شُغِل بعينيه ، فانهزموا ، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم .

« وما رميت » أنت يا محمد ، « ولكن الله رمى » يعنى أن الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لورميتها لما بلغ أثرها لا ما يبلغه أثر رمى البشر . ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ ، لأن صورتها وُجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى تطيقه البشر فعلُ الله عز وجل .

وقال أبو عبيدة فى كتاب المجاز : المعنى « ومارميت» الفزع والرعب فى قلوبهم « إذ رميت» بالحصباء فانهزموا « ولكن الله رمى » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك أى أعانك وأظفرك وصنع لك .

٢٢٣ ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

٢٤ ـ الأنفال (٨)

حَالَ بين الشيئين يحول حيلولةً : حجز بينهما وفصل .

ومعنى التعبير أن الله يلقى فى قلب المرء ما يحجزه عن مراده ويُغَيِّرُ عليه نيَّته . فالله يفصل بين المرء وقلبه ، ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ، ويُصَرِّفه كيف يشاء ، ويقلبه كما يريد ، وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذى بين جنبيه .

قال الطبرى : الله ـ عز وجل ـ أملك لقلوب العباد منهم ، وهو يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله .

وقيل فى معنى التعبير إن الله يقلب الأمور من حال إلى حال .

وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .

وهذا يستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته ، ويستوجب الحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون إنزلاقا . ويستوجب كذلك التعلق الدائم بالله ـ سبحانه ـ مخافة أن يقلب هذا القلب فى سهوة من سهواته أو غفلة من غفلاته . ولقد كان رسول الله ﷺ، وهو رسول الله المعصوم ، كان يكثر من دعاء ربه : « اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : فقلنا يا رسول الله : آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها » وهكذا رواه الترمذى . وأخرج مسلم قوله ﷺ : « اللهم مُصَرِّفَ القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك» .

٢٢٤ ﴿ واتَّقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ ٢٥ ـ الأنفال (٨)

الْفِتْنَةُ : الضلال والإثم . والفَتَّان : الشيطان الذى يفتن الناس بخداعه وتزيينه المعاصى ، وهو مَن أبنية المبالغة فى الفتنة . وفى الحديث : «المسلم أخو المسلم يَسعُهما الماء والشجر ويتعاونان على الفَتان» . أى ينهى الرجل أخاه عن المعاصى وبهذا يعينه على الشيطان . ويروى الحديث بضم الفاء : الْفُتّان جمع فاتن وهو الْمُضلّ عن الحق ، ويكون المعنى : يعاونُ أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عنَ الحق ويَفْتنونَهم .

وقيل فى معنى « فتنة» : إقرار المنكر بين أظهرهم .

يحذر الله عباده المؤمنين من ذنب أو إثم لا يقتصر وباله على من اقترفوه وحدهم ، وإنما يعم وباله المسىء وغيره . والمقصود من ذلك أن لايُترك العصاة بدون زجر ، بل يؤخذ على أيديهم أى يُمنعون عن فعل ما يريدون فعله من المعاصى . كما قال ﷺ : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » أخرجه مسلم . وأخرج الترمذى وأبو داود عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺقال : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب» . فالإسلام منهج تكافلى إيجابى لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد ، ولا يسمح للمسلمين أن يروا المنكر يشيع وهم ساكتون . فالجماعة التى تسمح لفريق منها بالظلم فى أى صورة من صوره ، ولا تأخذ الطريق على هذا الفريق المفسد، تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين. قال القرطبى : ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة عند ترك الأمر بالمعروف وترك النهى عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عُملت هلك الكل ، وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير ، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها . روى ابن منبه عن مالك أنه قال: تهجر الأرضُ التى يُصنَع فيها المنكرُ جهارا ولا يستقر فيها . . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « ولا تزر وازرة وزرَ أخرى » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب ، فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكتوا عليه فكلهم عاصٍ : هذا بفعله وهذا برضاه .

قال ابن عباس فى تفسير الآية : أمر الله المؤمنين ألا يُقروا المنكرَ بين أظهرهم فيعمهم العذاب .

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتَنْهَوُنّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتَدْعُنّه فلا يستجيب لكم » . وروى الإمام أحمد عن عبيد الله ابن جرير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب » . ثم رواه أيضا عن وكيع ، وأخرجه بن ماجة عن وكيع أيضا . وروى الإمام أحمد أيضا عن حذيفة قوله : كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقا ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات ؛ لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتحاضن على الخير أ و ليسحتكم الله جميعا بعذاب أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم .

قال الزمخشرى فى إعراب « لا تصيبن » إنها جواب للأمر ، ويكون المعنى : إن إصابتكم لاتصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم . وقيل إنها صفة لفتنة ، كأنه قيل : واتقوا فتنة مقولا فيها لا تصيبن . وإن قلت : كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟ قلت لأن فيه معنى النهى ، مثل قولك : انزل عن الدابة لا تطرحك ، وجاز لا تطرحنك ، ومثله لا تصيبن بدلا من لا تصيب .

٢٢٥ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ٢٨ ـ الأنفال (٨)

قال ابن الأعرابى : الفتنةُ الاختبارُ ، والفتنة المحنة ، والفتنة المالُ ، والفتنة الأولاد ، والفتنة الكفر ، والفتنة اختلاف الناس بالآراء ، والفتنة الإحراق بالنار . وقيل : الفتنة فى التأويل الظلم .

وتطلق الفتنة على ما هو سببٌ لها ويُوقعَ فيها .

والأموال والأولاد فتنة لأنهم سبب الوقوع فى الفتنة وهى الإثم أو العذاب ، وذلك إذا خولف أمرُ الله فى الأموال والأولاد . فلا تجمعوا أموالكم من مصادر أثيمة ، ولا تصرفوها فى أغراض محرمة . ولا يحملنكم حبكم لأولادكم على معصية الله تعالى بسرقة مال أو طلب رشوة ، أو سوء تربية أو غير ذلك مما حرمه الله . وعلى هذا يمكن أن تكون « فتنة » هنا بمعنى ابتلاء وامتحان من الله ليبلوكم ويختبركم كيف تحافظون فيهم على حدوده ، وليعلم أتشكرونه عليهم وتطيعونه فيهم أم تشتغلون بهم عنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ «المنافقون٩» .

والفتنة لا تكون بالشدة وبالحرمان وحدهما . إنها تكون كذلك بالرخاء وبالعطاء أيضا : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ «الأنبياء ٣٥» ، ومن الرخاء والعطاء هذه الأموال والأولاد . والله خلق البشر ، وهو ـ سبحانه ـ أعلم بتركيبهم الخفى وبما فى النفس البشرية من منحنيات ودروب ومسالك . وهو أدرى بمواطن الضعف فيها ، والحرص على الأموال والأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها ـ ومن هنا ينبهنا إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد ، فهم فتنة وامتحان .

٢٢٦ ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ٢٩ ـ الأنفال (٨)

فَرَق بين الشيئين يفرُق فَرْقًا وفرقانا : فصل ومَيَّزَ أحدَهما من الآخر .

« يجعل لكم فرقانا» : يجعل لكم هداية تفرقون بها بين الحق والباطل . أو نصرا يفرق بين الكفر (بإذلال حزبه) وبين الإسلام (بإعزاز أهله) . ومن اتقى الله ـ بفعل أوامره وترك زواجره ـ وُفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته في الدنيا وسعادته في الآخرة ، وتكفير ذنوبه أي محوها ؛ وذلك كقوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** «الحديد ٢٨».

قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » قال : مخرجا ، ثم قرأ : **﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾** «الطلاق ٢ ، ٣ ».

إن الأمور تظل متشابكة فى الحس والعقل ، والطرق تظل متشابكة فى النظر والفكر ، والباطل يظل متلبسا بالحق عند مفارق الطريق ـ فإذا جاءت التقوى ، استنار العقل ، ووضح الحق ، وتكشف الطريق . إن تقوى الله تجعل فى القلب فرقانا يكشف له منعرجات الطريق ، فتستقر القدم وتثبت .

٢٢٧ ﴿ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٤٢ - الأنفال (٨)

يقضى الله الأمرَ : ينجزُه.

« أمرا كان مفعولا » : أمرا كان واجبا أن يُفعل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه.

تتحدث الآية عن معركة بدر حيث نزل المسلمون « بالعدوة الدنيا » أى طرف الوادى القريب من المدينة ، ونزلت قريش « بالعدوة القصوى » أى طرف الوادى البعيد من المدينة ، «والراكب أسفل منكم » أى العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة وقد مالوا إلى سيف البحر أسفل من الجيشين . « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد » أى ولو تواعدتم مع المشركين على القتال ، ثم علمتم ضعفكم وقوتهم (حيث كان المشركون أكبر عددا وأكثر عتادا) لاختلفتم أنتم فى الميعاد ، هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم.

لم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع غريمه . وإنما جمعهما الله هكذا على جانبى الوادى لأمر يريده . حتى لو أن بينهما موعدا على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد . إن وراء هذا التلاقى على غير موعد لأمرا مقضيا يريد الله تحقيقه فى عالم الواقع، ويدبر له هذا التدبير الخفى اللطيف، ويهىء له جميع الظروف التى تيسر لكم القيام به.

قال ابن جرير : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ فالتقوا ببدر لا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء حتى التقى السقاة، ونهد الناس بعضهم لبعض (قصدوا وشرعوا فى قتال بعضهم بعضا) . لكن الله قضى ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله . وترتفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينئذ يموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها ، وكذلك يحيا من يحيا عن بينة وحجة رآها . وفسر ابن كثير «ليهلك » بمعنى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، «ويحى من حىَّ عن بينة » أى يؤمن من آمن عن حجة وبصيرة. قال ابن كثير : والإيمان هو حياة القلوب، قال تعالى : « أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس».

٢٢٨ ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ٤٦ ـ الأنفال (٨)

رَاحَ يروح رواحًا : سار فى أى وقت كان.

والرِّيح : الهواء المتحرك فى الطبقات المحيطة بالأرض.

والرِّيح : النصر والدولة . قال الزمخشرى : الريح الدولة ، شبهت فى نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها ، فقيل : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره . وكما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالبا فى الأمر . قال الشاعر :

إذا هبت رياحُك فاغتنمْها ... فإن لكـل خافـقة سكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لـم يكن نصر قط إلا بريح تهب فتضرب فى وجوه الكفار. ومنه قوله عليه السلام : « نصرت بالصَّبا [١] وأُهلكت عادُ بالدَّبُور [٢] ».

« وتذهب رِيُحكم » أى قوتكم ونصرُكم.

« واصبروا إن الله مع الصابرين » : كان الصحابة رضى اه عنهم فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، مالم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ولايكون لأحد من بعدهم . فإنهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فى أقل من ثلاثين سنة.

---

(١) الصَّبا : الريح الشرقية ، تستقبل البيت الحرام، سميت كذلك لأنها تَحِن إلى البيت ، فهى مشتقة من الفعل صبا إليه صَبوة : حَنَّ.

(٢) الدبور : ريح تَهُب فى الجزيرة العربية من المغرب ، وتقابل القبول، التى هى ريح الصَّبا.

٢٢٩ ﴿ تَراءَتِ الْفِئَتَانِ ﴾

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ٤٨ ـ الأنفال (٨)

تراءى القوم : رأى بعضهم بعضًا . وورد الفعل « تراءى » فى قوله تعالى : «فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون » «الشعراء ٦١» .

وجاء فى « تفسير الجلالين » : « فلما تراءت » التقت « الفئتان » المسلمة والكافرة ، ورأى (أى الشيطان) الملائكة وكان (أى الشيطان) يده فى يد الحارث بن هشام (من صناديد كفار قريش) « نكص » رجع « على عقبيه » هاربا ، «وقال» لما قالوا له أتَخذُلنا على هذا الحال « إنى برىء منكم » من جواركم «إنى أرى مالا ترون » من الملائكة .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : فلما أبصر كل من الفريقين الآخر ، وقد رجحت كفة المؤمنين ، بإمداد الملائكة لهم ، بطل كيد الشيطان وتزيينه ، بظهور عجزه عن نصرتهم وتبرئه منهم . . إنى برئ من نصرتكم لأننى أرى من أسباب نصرة المؤمنين ما لا ترون .

وجاء فى « تفسير القرآن العظيم » : قال ابن عباس فى هذه الآية : لما كان يوم بدر ، سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى فى قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم ، « وإنى جار لكم » ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة «نكص على عقبيه» قال رجع مدبرا وقال إنى أرى ما لا ترون . ففسر «تراءت الفئتان » بمعنى التقيتا .

والسياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بالخروج لملاقاة المسلمين فى بدر ، ولما تراءت الفئتان أى رأت إحداهما الأخرى ، خذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم . وفى موطأ مالك عن إبراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أ ن رسول الله ﷺ قال : « ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر » قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : « أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة» .

٢٣٠ ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ٤٨ ـ الأنفال (٨)

نكَص ينكُصَ وينكِصَ نَكْصًا ونُكوصا : أحْجم . ويقال : نكص على عقبيه إذا رجع إلى خلفه وعاد إلى الوراء.

والعَقِب : مؤخر القدم ؛ وتنطق أيضا بتسكين القاف : العَقْب ، وهى مؤنثة ، وتجمع على : أعقاب .

« نكص على عقبيه » : رجع القَهْقَرَى ، أى تولى إلى الوراء جهة العقبين ، والمراد: كف الشيطان عن وسوسته وذهب ماخَيَّله من المعونة لهم ، فتوقف عن تزيين عملهم لهم وعن تغريره إياهم . فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بحال المقبل على الشىء ، وبتشبيه تركه هذه الوسوسة بحال من ينكص ويتراجع إلى الوراء .

(انظر التعبير : تراءت الفئتان)

٢٣١ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٥٣ ـ الأنفال (٨)

« ذلك » الإشارة إلى الأخذ والعذاب الذى حَلَّ بآل فرعون فى الآية السابقة ، لأنهم غيروا نعمة الله عليهم كفرا ، إذ قابلوا الأمن والعافية والسعة بالكفر والصد عن سبيل الله .

والتعبير يخبر عن تمام عدل الله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ « الرعد ١١ » . فالتعبير يصور ذلك التلازم بين العمل والجزاء فى حياة الإنسان . ومن عدل الله المطلق أن جعل هذا التلازم سنة من سننه يجرى بها قدره ؛ فلا يسلب العبادَ نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم من النعمة التى لم يقدروها ولم يشكروها .

ومن جانب آخر يكرم هذا التعبير المخلوق الإنسانى فى أكبر تكريم حين يجعل قدَر الله به ينفُذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله .

وجانب ثالث هو أنه يلقى تبعة عظيمة على هذا الإنسان : فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه ـ بل وأن يُزاد عليها ـ إذا هو عرف فشكر . كما يملك أن يزيل عن نفسه هذه النعمة إذا هو أنكر وبطر .

فالإنسان عنصر إيجابى فى صياغة مصيره ـ بإذن الله وقدره الذى يجرى من خلال حركة هذا الإنسان وعمله ونيته وسلوكه . وبهذا تنتفى عنه تلك السلبية الذليلة التى تفرضها عليه المذاهب المادية ، التى تصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة : حتمية الاقتصاد وحتمية التاريخ ، وحتمية التطور إلى آخر الحتميات التى ليس للكائن الإنسانى إزاءها حول ولا قوة .

٢٣٢ ﴿ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ ٧٣ ـ الأنفال (٨)

« إلا » حرف جزاء أصلها إنْ لا . وهى تلى الأفعال المستقبلة فتجزمها ، كما فى هذه الآية، فَجَزْم « تفعلوه » و « تكن » بإلا ، كما تفعل إنْ الشرطية [1] .

« والذين كفروا » مبتدأ « بعضهم أولياء بعض » جملة اسمية فى محل رفع خبر المبتدأ . ومعناه أن الكفار ينصر بعضهم بضعا، ويتولاه فى أموره ، ويرثه إذا مات. وفى ذلك تعريض للمسلمين بأنهم لايناصرون الكفار ولايتولونهم ، كما قال الشوكانى .

« إلا تفعلوه » : ضمير المفعول وهو الهاء يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا فى الآية ٧٢: « إن الذين آمنوا وهاجروا جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آوْوا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . . » حيث الأمر بموالاة المؤمنين بعضهم بعضا ونصرة بعضهم بعضا ، ويرجع ضمير المفعول كذلك إلى ترك موالاة الكافرين فى صدر الآية كما جاء فى الفقرة السابقة .

فمعنى « إلا تفعلوه » هو : إن لم توالوا المؤمنين وتتركوا موالاة الكافرين «تكن فتنة فى الأرض» أى تقع فتنة فى الأرض وفساد وإفساد .

وقال الزمخشرى فى معنى « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » : ظاهره إثبات الموالاة بينهم ، ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم (أى مقاطعتهم) وإن كانوا أقارب . . «إلا تفعلوه» أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا . . ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار . . تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهرة والفساد زائد .

فالمجتمع الكافر لا يتحرك كأفراد ، وإنما يتحرك ككائن عضوى للدفاع عن وجوده وكيانه، فهم بعضهم أولياء بعض . ولابد للإسلام أن يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض ، مجتمع أساسه التجمع العضوى الحركى ذى الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، وإلا وقعت الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى ، ووقع الفساد فى الأرض بطغيان الكفر على الإسلام .

---

(١) تفعلوه : فعل الشرط مجزوم بحذف النون . «تكُنْ» : جزاء الشرط مجزوم بحذف حرف العلة .

٢٣٣ ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[١]

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ١٤ ـ التوبة (٩)

شَفَاه يَشفيه شِفاءً : أبرأه من الأرض . ويقال : شفاه من الغم ونحوه : أزاحه عنه .

والصدر : مقدم كل شيء وأوله . ومنه صدر الإنسان للجارحة ، وبه نبض القلب ، وحركة التنفس ، وفيها تظهر آثار الانفعال ارتياحا وانقباضا ، وقلقا وانشراحا .

« ويشف صدور قوم مؤمنين » : يُذهب غيظ قلوبهم .

---

(١) قريب من هذا التعبير قوله تعالى : « قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور » «يونس ٥٧» .

٢٣٤ ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٥ ، ٢٦ ـ التوبة (٩)

رَحُبَ الشيءُ يرحُب رُحْبًا ورحابةً : اتسع فهو رَحْبٌ ورَحيب .

ويقال : بلد رحْب وأرض رحبة . والرُّحب (بضم الراء) : السَّعة « بما رحبت » : ما مصدرية ، والباء بمعنى مع ، أى مع رُحبها . وقيل بمعنى على ، أى على رحبها . والجار والمجرور فى موضع الحال . كقولك : دخلت عليه بثياب السفر ، أى متلبسا بها لم أحلها . ومعنى « بما رحبت » : ضاقت عليكم الأرض مع رُحبها واتساعها ، وذلك من شدة الرُّعب والفزع ، فقد خيل إليكم أن رحابها أغلقت فى وجوهكم ، فلا تجدون فيها موضعًا تطمئنون فيه وتثبتون .

وقال الزمخشرى فى معنى التعبير : لا تجدون موضعا تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط رعبكم ، فكأنها (أى الأرض) ضاقت عليكم .

«ثم وليتم مدبرين» أى انهزمتم . « سكينته » رحمته التى سكنوا بها وآمنوا . «وأنزل جنودا» يعنى الملائكة . « وعذب الذين كفروا » بالقتل والأسر وسبى النساء والذرارى .

« حُنين » : واد بين مكة والطائف ، حدثت فيه المعركة التى نسبت إليه وكانت عقب فتح مكة . « ويومَ حنينٍ » نصب يومَ بفعل مضمر على معنى : ونصركم يومَ حنين أو : واذكر يومَ حنين . ومواطن الحرب : مواقفها ومواقعها ، والمواطن الكثيرة هنا : وقعات بدر ، وقريظة ، والنضير ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة .

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة مع رسوله ، وأن ذلك من عنده وبتأييده ، لا بعَدَدهم ولا بعُدَدهم . فالنصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر . ففى يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا لم تُجدِ عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ.

لما فرغ النبى من فتح مكة وتمهدت أمورها ، اجتمع أشراف هوازن وثقيف وقالوا إن محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا ، فلنبدأه بالغزو قبل أن يغزونا . وانضمت إليهم

عدة قبائل منهم بنو جَشم وبنو سعد بن بكر وغيرهم . فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وألفين من الطلقاء (١) .

وكان عدد أعداء المسلمين أربعة آلاف (كما جاء فى الكشاف) . فلما التقى الفريقان عند وادى حنين ، قال رجل من المسلمين : لن نُغلبَ اليوم من قلة ، فساءت هذه الكلمةُ رسول الله ﷺ . وكانت هوازن قد كمنت فى جنبتى الوادى وذلك فى غبش الصبح ، فحملت على المسلمين حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو أحد على أحد . وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسامة بن زيد وغيرهم من أصحابه الذين قاربت عدتهم مائة . وساق ﷺ بغلته الشهباء إلى نحر العدو ، وهو يدعو المسلمين إلى الرجعة لمحاربة أعدائهم ويقول : « إلىّ يا عباد الله ، إلىّ أنا رسول الله . أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب (٢) . وأمر النبى عمه العباس ، وكان جهير الصوت ، أن ينادى بأعلى صرته : يا أصحاب الشجرة (يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألا يفروا عنه) . فجعل ينادى بهم ، وجعلوا يقولون : يالبيك ، يالبيك . وانعطف الناس فتراجعوا إلى الرسول فأمرهم أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب وقال : « اللهم انجز لى ما وعدتنى » ، ثم رمى القوم بها ، فما بقى منهم إنسان إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال . ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلونهم ويأسرونهم (٣) .

---

(١) أهل مكة الذين أسلم الكثير منهم وعفا عنهم النبى ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(٢) ناهيك بهذا شهادة صدق على منتهى شجاعته ورباطة جأشه ﷺ .

(٣) هذه خلاصة ما جاء فى تفاسير : القرطبى وابن كثير والزمخشرى والتفسير الوسيط .

٢٣٥ ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ٢٩ ـ التوبة(٩)

اليد : الجارحة المعروفة من جسم الإنسان والحيوان . وهى فى الإنسان من أطراف الأصابع إلى الكتف .

ويقال : أعطى ما يُطلب منه عن يد أى عن انقياد واستسلام وذلة .

« يعطوا الجزية عن يد » : يدفعوها بانقياد وطاعة ويسلمونها بأيديهم مباشرة بغير توكيل . أى يعطوا الجزية عن يد مؤاتية (موافقة) غير ممتنعة ، لأن من أبى وامتنع لم يعطِ يده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده إذا انقاد[1] .

أو يكون المعنى : عن غِنى ، فتكون اليد بمعنى الغِنى ، ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز .

أو تكون اليد بمعنى الإنعام ، ويكون معنى التعبير : عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة من المسلمين على أهل الكتاب .

والجزية مأخوذة من جزى دَيْنَه إذا قضاه ، والمقصود أنها جزاء مقابل للعفو عن القتل ، وحمايتهم من الأذى وتوفير الحرية لهم فى دينهم ودنياهم . ويقابلها فى الإسلام الزكاة على المسلمين .

فالشرط الذى يشترطه النص للكف عن قتال الكفار ليس أن يسلموا ـ فلا إكراه فى الدين ـ ولكن أن يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون أى ذليلون .

---

(١) من التعبيرات البليغة قولهم : نزع يده عن الطاعة . ويقال : خلع ربقة الطاعة من عنقه .

٢٣٦ ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾٣٨ ـ التوبة (٩)

اثَّاقَلَ فلانٌ عن الأمر : تباطأ عنه ، وأصله : تثاقل ، أى تكلف الثقل وتظاهر به .

«اثاقلتم » : تباطأتم ولم تسرعوا ، وتضمن الفعل معنى الميل والإخلاد فعُدّىَ بإلى .

« اثا قلتم إلى الأرض » : قيل إلى نعيم الأرض ، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن الخروج إلى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام . وكان رسول الله ﷺ قد دعا الناس إليها حين طابت الثمار والظلال ، وكان الجو شديد الحرارة؛ فاستولى على الناس الكسل ، فتقاعدوا وتثاقلوا . ومعنى « إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله » أى إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله .

« اثقالتم » أصلها تثاقلتم ، أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ، ومثله : ادّاركوا ، واطَّيرنا ، وازَّينت .

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ؟ أى مالكم فعلتم هكذا ، أهو رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟

«مالكم » ما حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ ، والتقدير : أى شىء يمنعكم عن كذا . مثل قولك : مالك عن فلان معرضا .

وتعبير «اثاقلتم إلى الأرض» يلقى بجرس ألفاظه العديد من الظلال : ثقلة الأرض ومطامعها ، وثقلة الخوف على الحياة وعلى المال وعلى المتاع ، وثقلة الذات الفانية والأجل المحدود ، وثقلة اللحم والدم والتراب ، وجاذبية الأرض التى تشد إلى أسفل ـ بينما النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان وتطلع إلى الخلود الممتد .

٢٣٧ ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾

﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ٣٨ ـ التوبة (٩)

ما فى قوله « فما » نافية

المتاع : ما تستطيبه النفوس فى هذه الحياة ويأتى عليه الفناء ، كالمال والنساء والولد . وأكثر ما يستعمل فى المشتهيات الباطلة .

زَهّد تبارك وتعالى فى الدنيا ، ورغب فى الآخرة . فما متاع الحياة الدنيا فى جنب نعيم الآخرة إلا قليل لا ينبغى الحرص عليه ، فلا نسبة لمتاع الدنيا المتناهى الزائل إلى متاع الآخرة غير المتناهى الباقى .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع أن رسول الله ﷺ قال : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليَمِّ فلينظر بم ترجع ؟ » وأشار بالسبابة ، أخرجه مسلم . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يجزى بالحسنة ألفىْ ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » فالدنيا ما مضى منها ومابقى منها عند الله قليل . لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة ، قال ائتونى بكَفَنى الذى أكفن فيه انظر إليه . فلما وضع بين يديه ، نظر إليه فقال : أما لى من كبير ، ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول : أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور .

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » أى بدلا ، التقدير : أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة ، «من» تتضمن معنى البدل ، كقوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة يخلفُون﴾ أى بدلا منكم ، وقال الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربةً مُـــبرَّدةً باتـــت على طَهَيان

أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبردة ، والَّطهيان : عود يُنصب فى ناحية الدار للهواء ، يُعَلق عليه الماء حتى يبُرد . عاتبهم الله على إيثار الراحة فى الدنيا على الراحة فى الآخرة ، إذ لا تُنال الراحة فى الآخرة إلا بنَصَب الدنيا .

٢٣٨ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٥١ ـ التوبة (٩)

أصَاب : لم يخطىء . وأصاب الشىء : أدركه . وأصاب الخطبُ فلانًا : نزل به .

« إلا ما كتب الله لنا » أى فى اللوح المحفوظ .

وفائدة هذا التعبير أن الإنسان إذا علم أن ما قدَّره الله كائن أى حادث ، وأن كل مانناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه ، هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفِّى الحَسَدَة .

« هو مولانا » أى ناصرنا ، وجاعل العاقبة لنا ، ومظهر دينه على جميع الأديان . والتوكل على الله : تفويض الأمور إليه .

والمسلم الصادق يبذل جهده ويُقْدِم لا يخشى ، اعتقادا منه بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وأن الله ناصر له ومَعين .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لاينفيان اتخاذ العُدة بما فى الطوق (الإمكان) وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحدا ، ولا تراعى خاطر إنسان .

٢٣٩ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾٥٨ ـ التوبة (٩)

لَمَزَهُ يَلْمِزُه : عابه . واللّمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها . ورجل لمّاز ولُمَزَة أى عيّاب .

وقال قتادة : يلمزك أى يطعن عليك .

ومعنى الآية : ومنهم أى من المنافقين من يعيبك أو يطعن عليك فى الصدقات ، أى فى تفريقها وقسمتها . « فإن أعطوا منها » أى بقدر مايريدون ««رضوا» بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيبوه ، وذلك لأنهم لا مقصد لهم إلا حُطام الدنيا ، وليسوا من الدين فى شىء ، « وإن لم يعطوا منها » أى ما يريدونه منها « إذا هم يسخطون » أى يغضبون (ومنه تَسَخَّط العطاءَ : استقلّه) . و « إذا » هنا حرف المفاجأة الذى يختص بالدخول على الجملة الإسمية .

وعن سبب نزول الآية ما أخرجه البخارى والنسائى وابن جرير وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قَسْمًا إذ جاءه ابن الخويصرة التيمى فقال : اعدْل يا رسول الله ، فقال : « ويحك ، ومنَ يعدل إذا لم أعدل؟ » فقال عمر بن الخطاب : ائذن لى فأضرب عنقه [1] . فقال النبى ﷺ : « معاذ الله أن يتحدث الناسُ أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم يمرُقون منه كما يمرُق السهمُ من الرَّمِيَّة [2] » .

يقرر النص أن هذه القولة قولةُ فريق من المنافقين ، وهى آية نفاقهم الصريحة ، فما يشك فى خلق الرسول ﷺ مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف ـ حتى قبل الرسالة ـ بأنه الصادق الأمين . والعدل فرع من أمانات الله التى ناطها بالمؤمنين فضلا على نبى المؤمنين .

(١) وفى رواية : دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق .
(٢) الرَّمِيَّة هى الطريدة التى يرميها الصائد .

٢٤٠ ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ٦٧ ـ التوبة (٩)

قبض يده : ألصق أصابعها براحتها وطواها خشية أن تعطى شيئا . يقال : قبض يده عن النفقة وعن المعروف ، أى امتنع عنهما . فقبض اليد كناية عن الشحّ والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود والسخاء ، لأن من يعطى يمد يدَه بالعطاء ، بخلاف من يمنع .

« يقبضون أيديهم » : يشحون فيما ينبغى إخراجه من المال فى الصدقة والصلة والجهاد .

« نَسُوا الله » تركوا ما أمرهم به ، « فَنَسِيهم » أى تركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقى لا يصح إطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة [1] المعروفة فى علم البيان .

---

(١) المُشَاكلة : أن يُذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته مثل قوله تعالى : ﴿ومكروا ومكرَ الله ﴾ .

٢٤١ ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (١)

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ ٨٧ - التوبة (٩)

طَبَعَ على الشيء : خَتَم عليه بطابَع (والطابَع : ما يختُم به) . وطبعَ على الشيء : أغلقه .

« طبع الله على قلوبهم » : ختمها وأغلقها فلا تعى خيراً ، فالختم عليها يحول دون وصول الخير إليها . وهم ، بسبب ذلك ، لا يدركون مافى الإيمان بالله واتباع رسوله من خير وسعادة ، وما فى الجهاد من رفعة وشرف ، وما فى التخلف عنه من هوان وهلاك .

« الخوالف » : هم النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال ، جمع : خالفة . وقد يقال للرجل : خالفة وخالف إذا كان غير نجيب ، ويقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم .

« فهم لا يفقهون » بعد أن طُبع على قلوبهم ، أصبحوا لا يفهمون ما فيه صلاحهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

---

(١) التعبير موجود أيضا فى عشرة مواضع أخرى : « النساء ١٥٥ » ، «التوبة ٩٣ »، «النحل ١٠٨» ، « محمد ١٦ » ، « الأعراف ١٠٠ ، ١٠١ » ، « يونس ٧٤»، « الروم ٥٩ » ، « غافر ٣٥ » ، « المنافقون ٣ ».

٢٤٢ ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٩١ ـ التوبة (٩)

السبيل : الحرج ، يقال : ليس عَلّى فى كذا سبيل . والسبيل : الحجة ، يقال : ليس لك علىّ سبيل .

قال الشوكانى فى تفسير كلمة « سبيل » هنا : طريق عقاب ومؤاخذة .

قال القرطبى : الآية أصل فى سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شىء سقط عنه . ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ، ونظير هذه الآية قوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج» .

فالله أعفا أصحاب الأعذار من وجوب الجهاد ، وهم الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ماينفقونه فى شراء أهبة السفروعُدة الجهاد ـ وذلك إذا أخلصوا لله ورسوله . فمعنى « نصحوا لله ورسوله » : أخلصوا لهما بصدق الإيمان واتباع شريعة الإسلام(١) ، وقاموا بما يستطيعون من قول وفعل يعود بصلاح الحال على المجاهدين ، وبهذا يكونون قد أحسنوا فى جميع أعمالهم وأقوالهم حسب طاقتهم ، فهم فى حالهم هذا محسنون كما قال ابن كثير فى تفسيره، وكما جاء فى « الكشاف » حيث فسر الزمخشرى «المحسنين » هنا بـ : المعذورين الناصحين . وفسر التعبير «ما على المحسنين من سبيل » بقوله : لا جناح عليهم ، ولا طريق للعاتب عليهم.

وجاء فى « التفسير الوسيط » فى تفسير التعبير : فليس عليهم (أى ذوى الأعذار الناصحين لله ورسوله) سبيل إلى عقاب أو عتاب لدخولهم فى عداد المحسنين .

« سبيل » فى موضع رفع اسم « ما » .

« حرج » : المراد به الإثم والذنب ، ومعناه فى الأصل : الضيق ويطلق على الذنب لأنه تضيق به صدور المؤمنين .

---

(١) النُّصح : إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النَّصُوح . وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة » ثلاثا ، قلنا : لمن ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . قال العلماء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى وحدانيته ، والرغبة فى مَحابه والبعد عن مساخطه . والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وتعظيم سنته والتفقه فيها ونشرها والدفاع عنها. والنصح لكتاب الله : قراءته والتفقه فيه والذب عنه وتعليمه والتخلق به . والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم إلى ما اغفلوه من أمور المسلمين.

٢٤٣ ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٩٨ ـ التوبة (٩)

تَرَبَّصَ بفلان وربَّصَ به : انتظر به خيرا أو شرا يَحل به .

الدوائر : جمع دائرة ، والدائرة : النائبة من حوادث الدهر ، التى تحيط بالناس إحاطة الدائرة بما فيها . وأصلها ما أحاط بالشىء ، ثم استعير لما ذكر ، وتطلق على الهزيمة .

« يتربص بكم الدوائر » : ينتظر بكم صروف الدهر ومصائبة التى يتبدل بها حالكم إلى سوء . ويتمنى ألا تعودوا من الغزو سالمين .

« عليهم دائرة السَّوْء » : دعاء عليهم بمثل ما يتربصون به . والسَّوء : مصدر ساءه يسوءه سَوْءا : إذا فعل به ما يكره ، وقال الفراء : دائرة العذاب والبلاء . وقرأ أبو عمرو وابن كثير : السُّوء بالضم .

« ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا » : المغرم الغرامة والخسران ، فهو يعطى ما يعطى من الصدقات كُرها ، يعطيه للرياء والتقية ، ولا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة . فهو يعتبر ما ينفقه غرامة وخسارة يؤديه كارها ، لا مساعدة للغزاة المجاهدين ولا حبا فى انتصار الإسلام ، وإنما يؤديه تظاهرا ومدارة للمسلمين أصحاب السلطان فى ذلك الوقت .

وقال القرطبى فى تفسير الدوائر : جمع دائرة ، وهى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية .

وربط الزمخشرى بين «ما ينفق مغرما» وبين «يتربص بكم الدوائر» فقال : يتربص بكم دوائر الزمان أى دوله وعُقَبه (١) لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة . ولذلك قال القرطبى : إنهم يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة (٢) وخبث القلب .

---

(١) عُقَب جمع عُقبة أى نوبة أو دولة ، فالأيام تتعاقب فى نوبات ، لك وعليك .
(٢) الدِّخْلَة من الإنسان نيته ، يقال : هو حَسَن الدخلة وهو سىء الدخلة .

٢٤٤ ﴿ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ١٠٣ ـ التوبة (٩)

« سكَنٌ لهم » : طمأنينة أو رحمة لهم . فالسَّكَنُ ما تسكُن إليه النفوس وتطمئن به القلوب ومن معانى السكن أيضا : الرحمة والبركة .

والفعل هو سَكَنَ المتحركُ يسكُن سكونًا : وقفت حركته . وسكنت النفس بعد الاضطراب : هدأت . وسكن إليه : استأنس به واستراح إليه .

« صَلِّ عليهم » : ادع لهم واستغفر لهم . والصلاة فى كلام العرب : الدعاء .

« تزكيهم بها » : تنمى بها حسناتهم وأموالهم زكا يزكو : نَمَا .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال : « اللهم صلِّ على آل فلان » ، فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أَبى أوفى » .

٢٤٥ ﴿ وَيَأخُذُ الصَّدَقَات ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ١٠٤ ـ التوبة (٩)

معنى « يأخذ الصدقات » يتقبلها منكم ، وفى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها .

قال القرطبى : هذا نص صريح فى أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثيب عليها ، وأن الحق له جل وعز ، والنبى ﷺ واسطة ، فإن توفى النبى فعامله هو الواسطة بعده ، والله عز وجل حَىٌ لا يموت . وهذا يبين أن قوله سبحانه وتعالى : « خذ من أموالهم صدقة » ليس مقصورا على النبى ﷺ .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها فَيُرْبيها [١] لأحدكم كما يُربى أحدكم مُهْرَه حتى أن اللقمة لتصير مثل أُحُد وتصديق ذلك فى كتاب الله وهو الذى « يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » و«يمحق الله الربا ويُربى الصدقات » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فتربو فى كف الرحمن حى تكون أعظم من الجبل» . وروى « إن الصدقة لتقع فى كف الرحمن قبل أن تقع فى كف السائل فيربيها كما يُربى أحدكم فلُوَّه أو فصيله [٢] والله يضاعف لمن يشاء » .

قال علماؤنا رحمة الله عليهم فى تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول (أى قبول الصدقة والجزاء عليها ، كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفا عليها بقوله : « يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنى » الحديث . وخصَّ اليمين والكَفَّ بالذكر ، إذ أن كُلَّ قابل لشىء إنما يأخذه بكفه وبيمينه أو يوضع له فيه ، فخرج التعبير وجاء على ما يعرفونه ـ والله جل وعز مُنزه عن الجارحة .

وقد جاءت اليمين فى كلام العرب بغير معنى الجارحة ، كما قال الشاعر :

إذا ما رَايةٌ رُفعت لمجْد ... تلقاها عَرابةُ باليمــين

أى مؤهل للمجد والشرف ، ولم يُرد بها يمين الجارحة ، لأ ن المجد معنى فاليمين التى تتلقى به رايته معنى . وكذلك اليمين فى حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى «تربو فى كف الرحمن» عبارة عن كفة الميزان التى توزن فيها الأعمال ، فيكون من باب حذف المضاف ، كأنه قال : فتربو فى كفة ميزان الرحمن .

قال ابن كثير إن الآية تهييج (أى إثارة » إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها . وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل جبل أُحُد كما جاء فى الحديث النبوى .

وجاء فى « التفسير الوسيط » فى معنى « ويأخذ الصدقات » : يقبل صدقاتهم التى يؤدونها ابتغاء مرضاته ويثيبهم عليها .

---

(١) أربى الشىءَ يُربيه : نَمَّاه وزاده .

(٢) الفلو : الجحش أو المهر يُفطَم . الفصيل : ولد الناقة أو البقرة ، بعد فطامه وفصله عن أمه .

﴿ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢٤٦

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ١٠٧ ـ التوبة (٩)

أَضرَّه مُضَارةً وضراراً : ألحق به مكروها أو أذى .

﴿ اتخذوا مسجدا ضراراً ﴾ : بنوا المسجد يحاولون من وراء بنائه إلحاق الضرر والأذى بالمؤمنين . وهؤلاء الذينَ اتخذوه اثنا عشر رجلا من كبار المنافقين ، كانوا يصلون بمسجد قُباء فقال لهم أبو عامر الراهب . : ابْنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتى بجند من الروم فأخْرِجَ محمدا وأصحابه ، فلما بَنَوْه رغبوا إليه ﷺ أن يُصلىَ فيه ، فوعدهم أن يصلى فيه إذا عاد من غزوة تبوك إن شاء الله تعالى . فأوحى الله إليه خبرَهم وأعلمه بتآمرهم ، فلما عاد أمر بحرقه فحرِقَ .

والضرار : طلبُ المُضَارَّة ومحاولته .

« وكفرا » أى وتقوية للكفر الذى يضمرونه .

﴿ وتفريقا بين المؤمنين ﴾ وهم أهل قباء ، حسداً لهم على اجتماعهم وطمعا فى اختلاف كلمتهم . يريد المنافقون ببناء مسجد الضرار أن يجتذبوا بعض أهل قباء إلى مسجد الضرار وإلى صفوف المنافقين ، وبهذا يفرقون بين المؤمنين .

قال القرطبى : يفرقون به جماعة المؤمنين ليتخلف أقوام عن النبى ﷺ . وهذا يدلك على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة ، حتى يقع الأنس بالمخالطة ، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد .

« وإرصادا » أى انتظارا وإعدادا لمن حارب الله ورسوله « من قبلُ » أى من قبل بناء هذا المسجد ـ وهو أبو عامر الراهب الذى سماه الرسول ﷺ : أبا عامر الفاسق . يقال : أرصدته له أعددته .

« ضراراً » مفعول لأجله وكذا كفراً وتفريقًا وإرصاداً .

سبب النزول : كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب . وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان له شرف كبير فى قبيلة الخزرج . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ،

وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ؛ شَرِقَ اللعينُ أبو عامر بريقه (أى أصابته غُصّة) ، وبارز بالعداوة وظاهر بها . وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قُرَيش ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ؛ وقدموا عام أُحُد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ؛ وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ ، وأصيب ذلك اليوم : فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسُه .

وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ؛ فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ، يا عدو الله . ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر . وكان الرسول قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم فدعا عليه الرسول عليه السلام أن يموت بعيدا طريدا [1] .

ولما فرغ الناس من أُحُد ورأى هذا الفاسق أمر الرسول عليه السلام فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ . فوعده ومناه وأقام عنده . وكتب الفاسق إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب ، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده ، لأداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك .

فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قُباء . فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تبوك . وجاءوا فسألوا الرسول أن يأتى إليهم ، فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ؛ وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الثانية . فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » . فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من غزوة تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هَدَمَه قبل مقدمه المدينة .

هنا ما رواه ابن كثير فى تفسيره . وفى أيامنا هذه يتخذ مسجد الضرار صورا شتى ظاهرها للإسلام وباطنها للكيد له وللنيل منه ولتمويهه ولتمييعه : تشكيلات وتنظيمات ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها وهى ترمى هذا الدين ؛ وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح . ويتحتم كشف مساجد الضرار هذه ، وإنزال اللافتات الخادعات عنها ، وبيان حقيقتها للناس .

---

(١) نالته هذه الدعوة .

٢٤٧ ﴿ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٠٩ ـ التوبة (٩)

الشَّفَا : الحرف والحد ، وتثنيته شفوان ، وجمعه أشفاء . وأشْفى على كذا : دَنَامنه .

الجُرُف : ما تحيَّف (١) الماءُ أصلَه وحفَرَ ما تحته فتهيأ للانهيار . والفعل جَرَف الطين ونحوه يجْرُفه جَرفًا : كسحَه . وقرأ أبو بكر وحمزة : جُرْف بإسكان الراء مثل الرُّسل والرُّسْل ، والشُّغُل والشُّغْل . وأصله من الجَرف والاجتراف ، وهو اقتلاع الشيء من أصله .

« هَارَ » من الفعل هَارَ الجرف والبناء يَهُور هَوْرًا : تصدّع وأوفى على السقوط ولم يسقط فهو مشرف على السقوط . والوصف : هائر ، ويقال : هارٍ على القلب . ويقال : هذا جرف هار وبناءُ هار (٢) ويُعرب إعرابَ غاز ورام .

ضربَ الله مثلاً للذين بنوا مسجدهم عَلى تقْوى الله ورضوانه بمن بنى بنيانه على قاعدة محكمة وأساس ثابت متين . وضرب مثلا آخر للذين بنوا مسجدهم للإضرار بالإسلام وأقاموه على الباطل والنفاق بمن أسس بنيانه على أساس واه وقاعدة منهارة ، فانهار الجرف بالبنيان فى النار ، أو فانهار مؤسس البنيان على غير تقوى فى النار .

والغرض من المثلين أنهما لا يستويان ، فالأول معمر والثانى مدمر وفى الآية دليل على أن كل شيء ابتدىء بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويسعَد به صاحبه ويصعد إلى الله ويُرفَع إليه : ﴿والباقياتُ الصالحاتُ﴾ ٤٦ ـ الكهف .

واختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿ فانهار به فى نار جهنم ﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز . قيل إن ذلك حقيقة ففى رواية سعيد بن جبير أن النبى ﷺ إذ أرْسَل إلى مسجد الضرار فهُدم رُئىَ الدخانُ يخرج منه . وقال بعضهم : كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخَل فيَخرجها سوداء محترقة . قال القرطبى : وهذا هو الظاهر . ونقل عن أهل التفسير قولهم : كان يُحفر ذلك الموضعُ الذى انهار فيخرج منه دخان . وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ .

وقيل : إن ذلك مجاز ، والمعنى صار البناء فى نار جهنم ، فكأنه انهار إليه وهوى فيه ، كقوله تعالى ﴿ فأمه هاوية ﴾ ٩ ـ القارعة .

« بنيانه على شفا جرف هار » : بضع كلمات ترسم مشهدا حافلا بالحركة المثيرة ، وكأننا نبصر البناء القائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار ، والبناء يتأرجح وينزلق .

(انظر التعبير : ﴿ اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ﴾ .

---

(١) تحيَّف الشيءَ : أخذ من حافَاته وتنقّصه .

(٢) وردت كلمة « هار » مرة واحدة فى القرآن الكريم .

٢٤٨ ﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾

﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾١١٠ ـ التوبة (٩)

« ريبَة » : الريبة الشك . رابَه الأمرُ يَريبه رَيْبًا : شك فيه . والرَّيْبُ : الشك . والمقصود بريبة فى هذا التعبير : سبب شك ونفاق .

« بنيانهم الذى بنوا » يعنى مسجد الضرار .

يرسم التعبير القرآنى الفريد مشهدا لآثار مسجد الضرار فى نفوس بناته الأشرار وبناء كل مساجد الضرار (١) . انهار الجرفُ المنهار ، ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بُناته : بقى فيها « ريبة » وشكا وقلقًا وحيرة ، وسيبقى كذلك لايدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور ، أى إلى أن يموتوا .

قال صاحب الظلال : وإن صورة البناء المنهار لهى صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار ـ تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية ، وهما تتقابلان فى اللوحة الفنية العجيبة التى يرسمها التعبير القرآنى الفريد ، وتتقابلان فى الواقع البشرى المتكرر فى كل زمان ؛ فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة ، حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره فى قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار ـ وهذا هو الإعجاز الذى يرسم الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى ، فى مثل هذا التناسق ، وبمثل هذا اليسر فى التعبير والتصوير على السواء .

---

(١) راجع التعبير « أسس بنيانه على شفا حرف هارٍ » والآيتين ١٠٧ ، ١٠٨ .

٢٤٩ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾١١١ ـ التوبة (٩)

ذكْر الشراء هنا تمثيل . مَثَّل سبحانه إثابةَ المجاهدين بالجنة على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيلَ الله بالشَراء . وأصل الشراء بين العباد هو إخراج الشىء عن المِلك بشىء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه . فهؤلاء المجاهدون جادوا بأنفسهم ، وهى أنفس الأعلاق (١) والجود بها غاية الجود ، وجاد الله عليهم بالجنة ، وهى أعظم ما يطلبه العباد ويتوسلون إليه بالأعمال .

إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين : الله سبحانه ـ فيها هو المشترى ، والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لا يبقى للمؤمن بعدها شىء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله ـ سبحانه ـ ودون الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله الله .

قال أهل المعانى : لا يجوز أن يشترى الله شيئا هو له فى الحقيقة ، لأن المشترى إنما يشترى ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله تعالى . ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خَلَقَها وأموالنا هو رزقنا إياها ، لكن جرى ذلك مَجرى التلطف فى الدعوة إلى الطاعة والجهاد .

جاء فى الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادٌ فى سبيلى وتصديقٌ برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » وقوله « ﴿ وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله فى كتبه الكبار وهى التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ أى ليس هناك من هو أكثر وفاء بالعهد من الله . وهذا كقوله : ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ وقوله : ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ ؛ ولهذا قال : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ أى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد ، بالفوز العظيم .

نزلت الآية فى البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى . قال القرطبى : ثم هى بعد ذلك عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

---

١) العِلْق : النفيس من كل شىء يتعلق به القلب ، والجمع : أعلاقٌ وعُلُوق .
وَيقال : هو عِلق عِلْمٍ ، وهو علق شَرٍّ : يحبه ويميل إليه .

٢٥٠ ﴿ سَاعَةَ الْعُسْرَةِ ﴾

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ١١٧ ـ التوبة (٩)

الْعُسْرَة : الشِّدَّة والضيق ، ضِدُّ اليُسْرَة . عَسِرَ الأمرُ يعسر عَسَرًا : صعُب واشتد .

﴿ ساعة العسرة ﴾ : ساعة الشدة [1] ، وهى غزوة تبوك . ومنها : جيش العسرة : جيش المسلمين فى غزوة تبوك . وسميت غزوة تبوك بهذا الاسم لأن المسلمين كانوا فى عسرة شديدة . والمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزوة ، ولم يرد ساعة بعينها .

ونورد بعض الأقوال فى شدتها . قال مجاهد : خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعُسر من الزاد والماء . وقال عمر وقد سُئل عن ساعة العسرة : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش . وقال الحسن : كانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه (أى يتبادلونه لقلة ما عندهم من الرواحل [2] بينهم ، وكان زادهم التمر المدود والشعير المسوس . وقال قتادة : خرجوا فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يقتسمان التمرة بينهما .

ولذلك قال ابن كثير فى تفسير « من بعد ما كاد [3] يزيغ قلوب فريق منهم » أى عن الحق ويشك فى دين الرسول ﷺ ويرتاب بسبب ما نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم ، « ثم تاب عليهم » أى رزقهم الإنابة إليه والرجوع إلى الثبات على دينه .

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة» أى غفر الله للمؤمنين بسبب صبرهم على شدائد هذه الغزوة ما عساه قد فرط منهم من الزلاَّت . وقبل : معنى توبته على المهاجرين والأنصار أنه تجاوز عما وقع فى قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك والتخلف عنها ، ثم أعانهم على التغلب على ما حدثتهم به نفوسهم من القعود .

---

(١) والعسرة أيضا : ضيق ذات اليد ، وأيضا : العجز عن الوفاء بالدين ، قال تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظره إلى ميسرة ﴾ ٢٨٠ ـ البقرة .

(٢) الرواحل جمع راحلة وهى الصالح من الإبل للأسفار والأحمال ، وكان العشرة يعتقبون على بعير واحد ، وكانت المسافة بعيدة .

(٣) كاد فعل ماض ناقص ، ومعناها : مقاربة الشيء .

ومعنى توبته ـ سبحانه على النبى ـ ﷺ عدم مؤاخذته على أنه أذن للمنافقين بالتخلف فى غزوة تبوك . فإذنه لهم من باب ترك الأولى وليس من باب فعل الذنب ، لأنه لم يكن هناك أمر خالفه الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال الزمخشرى « تاب الله على النبى » كقوله «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وقوله ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ إنما هو حث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبى ، وهو إبانة لفضل التوبة عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء .

« فى ساعة العسرة » فى وقتها والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشى واليوم[1] .

قال القرطبى : وغزوة تبوك هى آخر مغازيه ﷺ ، وقد خرج إليها فى رجب وأقام فى تبوك شعبانَ وأياما من رمضان .

---

(١) قال الشاعر :

غداةَ طَفَت عَلْمَاء بكرُ بن وائل ... وعاجت صدورُ الخيل شطرَ تميم

طفت : علت وارتفعت . عَلْمَاء : على الماء . والمراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح . والمعنى ارتفع قدرهم دائما فى العز والمجد وانخفض غيرهم ، كما يرتفع الشىء على وجه الماء ويرسب الآخر .
وعاجت : مالت ، وشطر تميم : جهة قبيلة تميم .

٢٥١ ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ١١٨ ـ التوبة (٩)

« ضاقت عليهم أنفُسهم » : ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، ذلك أن النبى ﷺ كان قد نهى الناس أن يكالموهم كما سيأتى .

وفى « تفسير الجلالين» : ضاقت قلوبهم للغم والوحشة بتأخير توبتهم ، فلا يسعها سرور ولا أنس . فمعنى «خلفوا» أن التوبة عليهم أرجئت، كما سيأتى فى قصة الثلاثة الذين خُلفوا.

وقال صاحب الظلال : كأنما نفوسهم وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم، وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم.

ونبدأ قصة الثلاثة الذين خلفوا بشرح معنى كلمة « خُلِّفوا» . هى من الفعل خلَّفَه تخليفا : أخَّرَه. والثلاثة الذين خُلفوا هم الذين أخِّر أمرهم فلم تُقبَل معذرتُهم ولم تُرَدَّ أى لم ترفض حتى نزل فيهم الوحى. والواو العاطفة فى أول الآية تعطفهم على من تاب الله عليهم فى الآية السابقة : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » وعلى الثلاثة الذين خلفوا .

والثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك، ومُرارة بن ربيعة العامرى، وهلال بن أمية الواقفى، وكلهم من الأنصار. وقد خرج البخارى ومسلم وأحمد حديثهم. ونعرض باختصار ما رواه أحدهم وهو كعب بن مالك عن تخلفهم عن غزوة تبوك، كما جاءت فى صحيح مسلم.

قال كعب بن مالك : « لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك . . ولم أكن قط أقوى ولا أيْسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة. وقد اعترف كعب بذلك وقرره عندما سأله الرسول، بعد العودة من غزوة تبوك، عما خلفه عن الخروج إليها؛ فقال له النبى ﷺ : « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك» . وأخبر رجال من بنى سلمة كعبا أن النبى ﷺ قال مثل هذا القول لرجلين آخرين تخلفا عن تبوك هما مرارة بن ربيعة وهلال بن أمية.

قال كعب : « ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة . . فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرضُ، فما هى بالأرض التى أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين

ليلة، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلَدَهم[1]، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد.. فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذ جاءنى نَبطىٌّ من نَبَط أهل الشام فدفع إلى كتابا من ملك غسان فيه: بلغنا أن صاحبك قد جفاك.. فَالحق بنا نُواسك. فقلت حين قرأتها: وهذا أيضا من البلاء[2]، فتيامت بها التنور فسَجَرته بها، حتى إذا مَضت أربعون من الخمسين واستَلْبَثَ الوحىُ إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فلا تقربنها.

قال كعب: فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهىَ عن كلامنا. ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا قد ضاقت علىَّ نفسى وضاقت على الأرض بما رحُبت سمعت صوت صارخ أو فى على سَلْع[3] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبْشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج.. فانطلقت أتأم رسول الله ﷺ حتى دخلت المسجد. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهُه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمنْ عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» قال كعب: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجههَ حتى كأنه قطعة قمر حتى يُعرف ذلك منه ثم تلا قول الله تعالى: «لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم».

سئل أبو بكر الوراق عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

ولا بأس من الإشارة إلى بلاغة تعبير «ضاقت عليهم الأرض بما رحبت»: ليست الأرض أرضا إلا بأهلها، وبالقيم السائدة فيها، وبالوشائج والعلاقات بين أصحابها. فالتعبير صادق فى مدلوله الواقعى فوق صدقه فى جماله الفنى. فالتعبير يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين وتتقاصر أطرافها، وتنكمش رقعتها، فهم منها فى حرج وضيق: فرغم سعتها ورُحبها لايجدون فيها مكانا يقرون فيه بسبب ماهم فيه من قلق وجزع. فالتعبير مثل للحيرة فى أمرهم.

---

(١) أشَبَّ: أكثرهم شبابا. أجْلَدَهم: أكثرهم صبرا واحتمالا.

(٢) أى الامتحان: هل يصمد أمام إغراء ملك غسان؟ وسجربها التنور: أحماه أى ألقاها فى التنور وأحرقها.

(٣) سَلْع: جبل بالمدينة.

٢٥٢ ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾

﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ ١٢٧ ـ التوبة (٩)

صَرَفَ الشيءَ يَصْرِفُه صَرْفًا : ردّه عن وجهه .

وصَرْف القلوب : تحويلها عن الهداية .

« صَرَفَ اللهُ قلوبَهم » أى ردها عن الخير ومافيه الرشدُ لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها ، وهو دعاء عليهم . وقيل : المعنى هو أنه خذلهم عن قبول الهداية .

ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية (أو الذى لأجله استحقوا الدعاء عليهم) فقال : « بأنهم قوم لايفقهون » مايسمعونه لعدم تدبرهم وإنصاتهم .

تتحدث الآية عما كان يفعله المنافقون عند نزول سورة من سورة القرآن ، « نظر بعضهم إلى بعض » قائلين « هل يراكم من أحد » من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى ، فإنه لاصبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك (١) « ثم انصرفوا » أى عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن مايقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق .

وقوله « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » كقوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » (٢) قال ابن كثير : لايفهمون عن الله خطابه ، ولايقصدون لفهمه ، ولايريدونه ؛ بل هم فى شغل عنه ونفور منه . فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

---

(١) حكى ابن جرير : « نظر » فى هذه الآية موضوع موضع قال ، أى قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد .
(٢) الآية الخامسة من سورة الصف .

٢٥٣ ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾

٢ - يونس (١٠)

الْقَدَمُ : مايطأ الأرضَ من رجل الإنسان .

والقدم : التقدم والسبق فىَ الخير أو الشر (١) . يقال : لفلان قدمٌ فى العلم أو الكرم أو نحوهما . ويقال : قدمُ صدق وقدمُ كرم .

« لهم قدم صدق عند ربهِّم » أى أن لهم سابقة وفضلا ، وما قدموه هو الإيمان أو الأعمال الصالحة المستتبعة للثّواب : « وبشر الذين آمنوا » ؛ فالذين آمنوا لهم منزلة رفيعة عند ربهم أو الأجر الحسن بما أسلفوا وقدموا .

وقال مقاتل : القدم أعمال قدموها ، واختاره ابن جرير ، ومنه قول الوضاح :

صل لذى العرش واتخذ قَدَمًا ... ينجيـك يـوم العثـار والزلـل

وهو قول زيد بن أسلم ومجاهد إذ قال فى تفسير « قدم صدق » : الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ومحمد ﷺ يشفع لهم .

وأضيفت القدم ، وهى السابقة فى الفضل وحسن الجزاء عند ربهم ، إلى الصدق للإيذان بأنها ينالونها بصدق القول والعمل والنية .

تبدأ الآية بسؤال استنكارى يستنكر استغراب الناس لأن يبعث الله بشرا رسولا . واستغرابهم راجع إلى أنهم لايدركون قيمة أنفسهم - فقد كرم الله الإنسان ، ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته . وحكمة الله واضحة فى الإيحاء إلى رجل منهم ، رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويطيعون . وحكمته فى إرسال الرسل أوضح ، فالإنسان مهيأ بطبعة للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز . ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبته التيارات والشهوات ، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض - هذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته .

فكل الناس فى حاجة إلى الانذار والتبليغ والبيان ، والبشرى للذين آمنوا - يبشرهم بالطمأنينة والثبات والاستقرار ، تلك المعانى التى توحى بها كلمة «صدق» مضافة إلى القدم فى جو الإنذار والتخويف .

---

(١) والعرب تسمى كلَّ سابق فى خير أو شرّ : قَدَمًا ، لأن الخير أو الشر لايتحقق إلا بالسعى ، والسعى لايحصل إلا بالقدم ، فسُمّى المسبَّب باسم السبب ؛ كما سميت النعمة يدًا لأنها تعطى باليد ، وباعا لأن صاحبها يبوع بها .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ٢٢ - يونس (١٠)

أُحِيطَ بفلان : دنا هلاكُه . وأُحيط بالشيء : هلك .

« أُحيط بهم » : أحْدَق بهم الهلاك . وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد ، فجعل هذه الإحاطة مثلا فى الهلاك وإن كان بغير العدو ، كما فى هذا التعبير .

« مُخلصين له الدينَ » : مخلصين له العبادة والطاعةَ .

سبب النزول كما أخرجه أبو داود والنسائى وغيرهما . عن سعد بن وقاص قال : لَمَّا كُنَّا يوم الفتح أهدر النبى ﷺ دم جماعة منهم عكرمة بن أبى جهل فهرب من مكة وركب البحر فأصابه عاصف فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا ؛ فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ماينجنى فى البر غيره [1] ، اللهم إنَّ لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه ، أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فَلأجدنه عفُوًا كريما . قال : فجاء فأسلم .

ونتعرض لشرح الآية لنقف على أسرار بلاغة التعبير . تصور الآية مشهدا حيا ، يعرض كأنه يقع وتشهده العيون وتتابعه المشاعر وتخفق معه القلوب . وتبدأ بتقرير القدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » أى ينشركم ويحفظكم ويكلؤكم وييسر لكم سبل السير فى البر والبحر . وسورة يونس كلها معرض لتقرير هذه القدرة التى تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك .

ثم هانحن أمام المشهد القريب : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » أى بريح لا عاصفة ولا بطيئة فالفلك تتحرك رُخاءً لينة ، وهذه مشاعر أهل الفلك يصورها قوله « وفرحوا بها » أى بسرعة سيرهم رافقين وادعين .

فبينما هم كذلك فى هذا الرخاء الآمن ، تقع المفاجأة فتأخذ الغارين الآمنين : « جاءتها ريح عاصف » شديدة « وجاءهم الموج من كل مكان » أى اغتلم البحر عليهم وتناوحت الفلك

(١) إذا كان الإخلاص هو وسيلة النجاة فى البحر فهو أيضا وسيلة النجاة فى البر ، فل وسيلة غير الإخلاص للنجاة .

واضطربت بمن فيها، ولاطمها الموج وشالها وحطها ودار بها كالريشة. وهؤلاء أهلها فى فزع يظنون أنهم أحيط بهم وأن الهلاك واقع بهم، ولا مجال للنجاة.

عندئذ فقط، وفى وسط هذا الهول المتلاطم، تتعرى فطرتهم مما ألم بها من أو شاب وأدران، وتنفض قلوبهم ماران عليها من تصورات، وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة التى فطر الله الناس عليها بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه: « دعوا الله مخلصين له الدين » لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفردونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ ٦٧ - الإسراء.

قال القرطبى: « دعوا الله مخلصين له الدين » أى دَعَوْه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون - أخلصوا له الطاعة والعبادة - وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله فى الشدائد.

وقد خرج من الخطاب إلى الغيبة فى قوله: ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾ كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار. والخروج من الخطاب إلى الغيبة كثير فى القرآن وفى أشعار العرب. قال ابن الأنبارى: وجائز فى اللغة أن يرجع من الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب، قال تعالى ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ فأبدل الكاف من الهاء.

٢٥٥ ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٢٦ ـ يونس (١١)

رَهِقَ الشيءُ فلانًا يرهَقُه رهقًا : غشيَه ولحقه بقهْر . «يرهَق» يَغْشى ويُغطى ويَعلو . القَتَرُ والقَتَرَة : شبه دخان يغشى الوجه من كرَب أو هول ، وهو الغَبَرَة [١] فيها سواد . وقيل القَتر : الكآبة والكسوف وكدرة اللون .

الذلة : أثر الهوان وكسوف البال والانكسار .

والقتر حالة حسية ، والذلة حالة نفسية .

معنى التعبير : لا يغطى وجوههم قتام أو سواد ، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ، فالذين أحسنوا لا تحصل لهم إهانة حسية فى الظاهر . ولا يعتريهم هوان أو صغار أى لا تحصل لهم إهانة نفسية . بل هم كما قال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ١١ ـ الإنسان ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته .

وقوله : « أصحاب الجنة » يشعر بأنها كالملك لهم . « هم فيها خالدون» أى لا يخرجون منها أبدا ، كما فى قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ ٤٨ ـ الحجر .

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » الحسنى : المثوبة الحسنى . وأما الزيادة فقال عنها الحسن إنها مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فأكثر إلى سبعمائة ضعف أو تزيد . وقال مجاهد هى مغفرة الله تعالى ورضوانه ، روى الشيخان عن النبى ﷺ أنه قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون : لَبَّيْكَ ربنا وسَعْدَيْك والخير فى يديك فيقول : هل رضيتُم بى؟ فيقولون : وما لنا لانرضى ياربنا وقد أعطيتنا مالم تُعط أحدا من خلقك فيقولَ : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟ فيقولون : وأى شىء أفضلُ من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا» . ويرى جمهرة أهل السنة أن الزيادة هى النظر إلَى وجه الله سبحانه بعد حصولهم على ثوابه فى الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ٢٢ ، ٢٣ ـ القيامة .

---

(١) الغَبَرَة والغُبار : مادَقَّ من التراب أو الرماد . ويقال : فلان لا يُشَقُّ له غُبار : لا يُدرك .

٢٥٦ ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٢٧ ـ يونس (١٠)

« كأنما أغْشيَت وجوههم قطَعا من الليل» أى أن وجوههم، فى شدة سوادها، كأنما أُلبسَت « قطعا» أى أجزاء من الليل المَظلم الَحالك السواد. « مظلما » حال من الليل.

قرأ الجمهور « قطعا» بالجمع. وقرأ الكسائى وابن كثير « قطْعا » بإسكان الطاء، والقطْعُ من الليل: طائفة منه، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ(١) ﴾، وفى هذه الحالة يكون مظلما صفة لقطع.

« مالهم من الله من عاصم» أى مانع يمنع سُخطَه وعذابَه، نفاذا لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق ويخالف الناموس والآية إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ١٠٦ ـ آل عمران.

لكن التعبير « كأنما غشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما » يرسم صورة حسية للظلام النفسى والكدرة التى تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب، كأنما أخذ من الليل المظلم رقعٌ فغطيت بها هذه الوجوه. وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل البهيم ورهبة من رهبته.

يذكر صدرُ الآية عدلَ الله فى الأشقياء، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لايزيدهم على ذلك. على عكس السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك حسبما جاء فى الآية السابقة (٢).

---

(١) الآية ٨١ ـ هود و٦٥ ـ الحجر.

(٢) انظر التعبير « ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة ».

٢٥٧ ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٥٧ - يونس (١٠)

« موعظة من ربكم » يعنى القرآن ، فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه. والوعظ فى الأصل هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو الترهيب. والواعظ كالطبيب ينهى المريض عما يضره.

« وشفاء لما فى الصدور» من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين قال القرطبى : شفاء من الشك والنفاق والخلاف والشقاق. وقال ابن كثير: دواء لما فى الصدور ، أى من الشُّبَه (١) والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس. فالموعظة التى جاءتنا من ربنا ، والمراد بها القرآن الكريم، بينت الحق وأقامت عليه الدلائل والبراهين المطمئنة للنفوس الحائرة، وبينت الباطل وأقامت البراهين على بطلانه ووجوب تركه، فلم تترك مجالا لأمراض الصدور، وإنما هى شافية للصدور.

والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه.

والرحمة : هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأمور التى يرحم الله بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور.

وعطف موعظةٌ ، وشفاءٌ، وهدىً، ورحمةٌ لتأكيد المدح؛ قال الشاعر:

إلى الملكِ القرم (٢) وابن الهُمام   ولَيْــثِ الكتيبة فى الْمُــزْدحَم

---

(١) جمع شُبْهَة وهى : ماالْتَبسَ أمرُه فلا يُدْرَى أحلالٌ هو أم حرام، وحَقٌّ هُو أم باطل.
(٢) القَرْمُ من الرجال : السَّيدُ المعظَّم.

٢٥٨ ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

٦٨ - يونس (١٠)

« إن عندكم من سلطان بهذا » أى ما عندكم من حجة وبرهان على مازعمتم من اتخاذه - تعالى - ولدا، حيث قلتم : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : عُزَيْرٌ ابنُ الله . وقالت النصارى : المسيحُ ابنُ الله . والعاقل لا يعتقد إلا ما قامت عليه حجة . وهم لا يملكون برهانا على ما يدعون ، ويسمى البرهان سلطانا ، لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان .

« سبحانه » : نزه نفسه عن الصاحبة والأولاد والشركاء والأنداد .

« هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض » : كيف يتخذ ولدا وهو له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا .

« أتقولون على الله مالا تعلمون » : إنكار ، ووعيد أكيد ، وتهديد شديد .

٢٥٩ ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ٨٨ ـ يونس (١٠)

طَمَسَ على الشيء يَطمِسُه طَمْسًا : محاه وأزاله . ويقال : طمست الريحُ الأثرَ .

« اطمس على أموالهم » : أهْلِكْها . أو : امْحُ أثرَها . دعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها .

قال الزجاج : طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته ، قال ابن عباس ومحمد بن كعب : لم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد . وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة .

دعا موسى أن يهلك ربنا هذه الأموال التى استعبدوا الناس بها ، وأكثروا فى الأرض الفساد بسببها ، وذلك ليزول سلطانهم ويَذلوا . ووجود النعمة فى أيدى المفسدين لا شك يزعزع كثيرا من القلوب التى لا يبلغ يقينها بالله بحيث تدرك أن هذه النعمة والأموال ابتلاء واختبار ، وأنها لا شيء إذا قيست بفضل الله فى الدنيا والآخرة ـ ولذلك دعا موسى ربه أن يدمر أموال فرعون وملئه ، فهم الفئة الباغية المضلة ، ويجردهم من وسائل البغى والإغراء .

٢٦٠ ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ ٨٨ ـ يونس (١٠)

شَدَّ العُقدةَ : أوثقها أى أحكم عقدَها .

« واشدد على قلوبهم » : اربط عليها وأغلقها واحكم إغلاقها حتى لا يدخلها الإيمان . وكأن القلب حجرة وله باب يغلق عليه . وفى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » جاء شرح هذا التعبير كما يلى : قَوِّ الغطاء عليها ، وكأنما القلب وعاء وله غطاء يُحكم فوقه ـ وكله من قبيل المجاز . والمعنى : اجعل قلوبهم مطبوعة مغلقة لا تعى خيرا ولا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان ـ دعاء عليهم ـ فليست قلوبهم أهلا للإيمان .

ودعاؤه عليهم كان غضبا لله ولدينه بعدما تبين له أن لا خير فيهم ، وليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ، كما دعا نوح عليه السلام على قومه : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ٢٦ ، ٢٧ ـ نوح . ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام هذه الدعوة التى أمَّن عليها أخوه هارون ، فقال تعالى فى الآية التالية : « قال قد أجيبت دعوتكما . . . » .

ولذلك قال الفراء والكسائى وأبو عيينة فى تفسير « فلا يؤمنوا » : هو دعاء عليهم بلفظ النفى ، والتقدير : اللهم فلا يؤمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقنى إلا وأنفك راغمُ

« حتى يروا العذاب الأليم » أى لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم ولا يقبل لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يُقْبَل ، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان .

٢٦١ ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ ٩٣ ـ يونس (١٠)

معنى « بوّأنا» أسْكنَّا وأنزلنا ، يقال : بوأتُ زيداً منزلاً : أسكنته فيه . والْمُبَوَّأ : اسم مكان أو مصدر ، وأضافه إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق . والمراد به هنا : المنزل المحمود المختار . قيل : هى أرض مصر ، وقيل : الأردن وفلسطين ، وقيل : الشام .

والآية تعدد ما أنعم به سبحانه على بنى إسرائيل من النعم . وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ أنزل بنى إسرائيل ، بعد أن أنجاهم من طغيان فرعون وجنوده (فى الآيات السابقة) ، مكانا صالحا ، وأرضا يجدون فيها الأمن والطمأنينة . ولما أهلك الله فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر [1] ، كما قال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ : ١٣٧ ـ الأعراف .

---

(١) قال ابن كثير : استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بيت المقدس ، وهى بلاد الخليل عليه السلام . . وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم ، فشردهم الله تعالى فى التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام . وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها ، إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان .

٢٦٢ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ٩٩ ـ يونس (١٠)

هذه هى القاعدة الكلية فى الكفر والإيمان. لو شاء الله لخلق هذا الجنس البشرى خلقة غير خلقته الحالية، ولجعله لايعرف إلا طريقا واحدا هو طريق الإيمان كالملائكة. أو لجعل له استعدادا واحدا يقوده إلى الإيمان ـ لكن حكمة الله [١] اقتضت خلق هذا الكائن البشرى باستعدادين : استعداد للخير والهدى، واستعداد للشر والضلال، ومنحه الله القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك.

فالذين يحسنون استخدام حواسهم ومشاعرهم وإدراكهم ويوجهونها إلى إدراك دلائل الهدى فى الكون والنفس ومايجيء به الرسل من آيات وبينات، فأولئك هم أصحاب الفطر السليمة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٢] ويؤمنون ويهتدون إلى طريق الخلاص.

أما الذين يلغون حواسهم ويغلقون مداركهم عن دلائل الإيمان، ويتبعون أهواءهم ويستقبلون الرسالات السماوية بالعناد واللجاج، فإن قلوبهم تقسو وعقولهم تستغلق وينتهى بهم الأمر إلى التكذيب والجحود. وهذا الصنف هو الذى يشير إليه قوله تعالى فى آخر الآية التالية : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » أى عطلوا عقولهم عن التدبر ولم ينتفعوا بالآيات، فحق عليهم الرجس أى العذاب.

فالإيمان، إذن، متروك للاختيار. لا يكره الرسول عليه أحدا لأنه لا مجال للإكراه فى مشاعر القلب وتوجهات الضمير : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فالسؤال هنا للإنكار.

ولقد كان النبى ﷺ ـ لفرط شفقته على أمته ـ حريصا أشد الحرص على إيمان الناس جميعا. وللوصول إلى تلك الغاية حمل نفسه أعباء ثقيلة ومتاعب جسيمة، فخفف الله عنه وبين له أنه ليس مكلفا بإكراه الناس على الإيمان وحملهم جميعا عليه. فليس عليه إلا البلاغ ـ وقد فعل. وهناك العديد من الآيات تخفف عن النبى ﷺ الأعباء النفسية لهذا الحرص : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ ٨ ـ فاطر، وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ٦ ـ الكهف، وقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ٢٧٢ ـ البقرة، وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ٥٦ ـ القصص، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ٢١ ، ٢٢ الغاشية.

« جميعا » : نصب على الحال، قاله سيبويه. وقال الأخفش : جاء بقوله « جمعيا » بعد «كلهم» تأكيدا، كقوله : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ٥١ ـ النحل.

---

(١) وقد ندرك بعض مرامى هذه الحكمة وقد لا ندركه، لكن عدم إدراكنا لها لا ينفى وجودها.

(٢) ١٨ ـ الزمر.

٢٦٣ ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

١٠٥ - يونس (١٠)

أقام وجهه للشيء : اهتم به وأقبل عليه بنشاط .

والمراد من إقامة وجهه - ﷺ - للدين : استقامته فى الاتجاه إليه ، لايلتفت يمينا ولا شمالا بل يخلص فى الاتجاه إليه بقلبه وجوارحه ، وأقواله وأفعاله ، بحيث لا يصرفه عنه صارف . وقد أكد ذلك بقوله : « حنيفا » أى مائلا عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال ابن كثير فى تفسير هذا التعبير : أخلص العبادة لله وحده ، حنيفا أى منحرفا عن الشرك ، ولهذا قال : « ولا تكونن من المشركين » .

فالتعبير يدعو إلى الإخلاص فى الإيمان ، والحرص على نقائه وثباته ، والحذر من أن يتطرق إليه أى شك أو لبس .

والخطاب ، وإن كان موجها إلى الرسول ﷺ ، فالمؤمنون داخلون فى حكمه ، فهم مطالبون بالإخلاص فى دينهم ، وقد جاء ذلك صراحة فى قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ ٨٢ - الأنعام وقال - ﷺ - محذرا من الشرك : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » . أخرجه الإمام أحمد والطبرانى .

٢٦٤ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ [١] ﴾ ١٠٧ ـ يونس (١٠)

مَسَّهُ يَمَسُّهُ مَسًّا : أجرى يده عليه من غير حائل.

وقد توسع فى معنى المسّ كثيرا، فيقال : مَسَّه الشىءُ : عَرَض له وأصابه . ويقال : مسه بالشىء : أصابه به وألحقه به، وأكثر ما يستعمل فى الشر [٢].

«كاشف» من الفعل كَشَفَ الشىءَ : أظهره أو رفع عنه مايواريه . ويقال كشف عنه الهم أو العذاب أو الضر : أزاله.

● الضُّرُّ : ما كان من سوء حال أو فقر أو شدة فى بدن، والفعل هو: ضَرَّه، ومثله أضَرَّه وضَارَّه : ألحق به مكروهًا أو أذىً.

المعنى : وإن يصبك الله بما يضرك ، من قحط أو فقر أو مرض ، أو خوف أو إيذاء أو غيرها، فإن أحدا لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ ٢٨ ـ الشورى.

والناس يتعرضون للضر، ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ليظهر مدى إيمانهم وصبرهم : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ ١٥٥ ـ البقرة. وقد يتعرضون للضر عقابا لهم على ما اجترحوا من آثام كى يعودوا إلى الله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ٤٢ ـ الأنعام. وقد يتعرضون للضر تكفيرا للذنوب: قال ﷺ: « ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب [٣]، ولاهم ولاحَزَن، ولا أذى ولاغَمٍّ حتى الشوكةَ يُشَاكُها إلا كَفَّر الله بها خطاياه. » أخرجه البخارى عن أبىّ سعيد الخدرى.

والخير كذلك يكون ابتلاء للناس لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ٣٥ـ الأنبياء. وقد يكون الخير تكريما من الله لعباده الصالحين: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ ٣٠ ـ النحل وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ ٤ ـ الطلاق. روى الحافظ ابن عساكر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم ».

---

(١) ورد الجزء الأول من التعبير فى ١٧ ـ الأنعام.

(٢) ويقال : مَسَّ المرأة : وَطِئها. وهذا من الكنايات المستحسنة.

(٣) النَّصَب: الإعياء والتعبَ. والوَصَب : الوجع والمرض.

فهذه الآية تؤكد أن النفع والضر من الله وحده، فهى امتداد للآية السابقة عليها: «ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن [1] فعلت فإنك إذا من الظالمين» حيث نهى الله رسوله -عليه الصلاة والسلام- عن الاتجاه فى دعائه وعبادته، إلا إليه وحده لأنه سبحانه هو الذى يملك جلب المنافع ودفع المضار. وإن دعوت من دون الله مالاينفعك ولا يضرك، فإنك تكون من الظالمين لأنفسهم بالشرك. والخطاب، وإن بدا موجها لشخص النبى عليه السلام، إلا أنه عام لجميع المسلمين فى جميع العصور. والآية تنهى نهيا حاسما عن الاتجاه بالدعاء إلى غير الله، كائنا ما كان كما جاء فى الحديث الشريف: «وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لواجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف». أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(١) واستعمال أداة الشرط «إن» تفيد استبعاد أن يدعو الرسول والمؤمنون غير الله تعالى.

٢٦٥ ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٥ ـ هود (١١)

ثَنَى الشيءَ يَثْنيه ثَنْيًا : طواه ورد بعضه على بعض .

« يثنون صدورهم » أى يطوونها على عداوة المسلمين ، ففيه حذف ، قاله القرطبى . أو المعنى : يطوون ما فى صدورهم من كفر وعداوة ويسترونه فى محاولة منهم للاستخفاء أى إخفاء حقيقتهم عن النبى ﷺ ؛ وهو معنى « ليستخفوا منه » ، فالضمير فى «منه » عائد على النبى ﷺ .

فالتعبير يخبر عن معاداة المشركين للنبى ﷺ وللمؤمنين وعن محاولاتهم لإخفاء ذلك ، ظانين أنه تخفى على الله أحوالهم ـ لكن جاء الرد عليهم فى باقى الآية : « يعلم ما يسرون ومايعلنون إنه عليم بذات الصدور» أى يعلم ما تكنه صدورهم من النيات والضمائر والأسرار .

روى عن ابن عباس أنها (أى الآية) نزلت فى الأخنس بن شَرِيق ، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوى له بقلبه علىَ ما يسوء .

« انظر التعبير : يستغشون ثيابهم » .

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٥ ـ هود (١١)

الغشاء، والغَاشية، والغشَاوة : الغطاء . والفعل : غَشِيَ وغَشَّيَ وأغْشَى (١) .
واستَغشَى ثوبَه : تغطَّى به .

وقد جاء فى « الظلال » أن المراد من قوله « يستغشون ثيابهم » المعنى الحقيقى . فحين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر، وأغطيتهم لهم ساتر، فإن الله يكون معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر، يعلم فى هذه الخلوة مايسرون ومايعلنون . فليست أغطيتهم بساتر دون علمه ، ولكن الإنسان يحس عادة فى مثل هذه الخلوة أنه وحيد لايراه أحد .

فالتعبير ـ هكذا ـ يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التى قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه : « يعلم ما يسرون ومايعلنون » .

« إنه عليم بذات الصدور » : عليم بالأسرار المصاحبة للصدور التى لا تفارقها ، والتى تلزمها كما يلزم الصاحبُ صاحبه ، أو المالكُ ملكه . فهى لشدة خفائها سميت ذات الصدور ـ ومع ذلك فالله بها عليم ، فما من شىء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكنة تذهب أو تضيع .

فالتعبير يصور هذا المعنى ـ على الطريقة القرآنية ـ فى صورة مرهوبة ، وهم فى وضع خفى دقيق . ويالها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشرى حضور الله ـ سبحانه ـ وإحاطة علمه وقهره؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه .

وما أحسن قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة :

فلا تكتمن الله ما فى قلوبكم ليخفى ومهما يُكتم اللهُ يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة .

قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره ، واستغشى ثوبَه ، وأضمر فى نفسه هَمَّه .

(١) وقد يُلحظُ فى الغَشْى معنى الاتصال القوى الذى تُفهِمه التغطيةُ فى قولهم : غَشِيَ الرجلُ زوجتَه وتَغَشَّاها أى أتاها .

٢٦٧ ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ٦ ـ هود (١١)

دَبَّ يدبُّ دبًا ودَبِيبًا : مشى مَشْيًا رُوَيدًا .

والدابة : كل ما يدب على الأرض . وهو اسم لكل حيوان ذكرا كان أو أنثى عاقلا أو غير عاقل، وغلب على غير العاقل .

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة، هذه التى تملأ وجه البسيطة وتكمن فى باطنها ، وتَتَخَفَّى فى دروبها ومساربها، لا يحيط بها حصر ولايلم بها إحصاء، ويعجز الخيال البشرى عن تصور عددها .

أوجب الله ـ سبحانه ـ على نفسه مختارا أن يرزق هذا الحشد الهائل ، فأودع هذه الأرض ما يكفى احتياجات هذه المخلوقات جميعا ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على استخلاص واستخراج رزقها من هذه الأرض .

ولكن كيف قال : « على الله رزقُها» بلفظ الوجوب؟ وكل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف فى الدنيا أو ثواب فى الآخرة، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى ؟ وتفسير ذلك أن الله، عز وجل ، لما وعدهم فضله ـ ووعدُه خبر، وخبرُه صدق ـ وجَبَ وقوعُ الموعود : أى يستحيل فى العقل ألا يقع، فمعنى « على الله » : وعدا منه حَقا. وقيل : على بمعنى مِنْ ، أى مِنَ الله رزقها، يدل عليه قول مجاهد : كل ما جاءها من رزق فمن الله .

« رزقها» : رُفع بالابتداء، والرزق حقيقته ما يتغذى به الحيُّ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده .

وصياغة التعبير على هذا النحو تفيد الحصر والقصر . قال الشاعر :

وكيف أخاف الفقرَ والله رازقى ... ورازقُ هذا الخلق فى العُسر واليُسر
تكَفَّل بالأرزاق للخلق كلهم ... وللضبِّ فى البيداء والحوتِ فى البحر

وذكر الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر فى نفر منهم، لما هاجروا وقدموا على رسول الله ﷺ فى ذلك وقد أرمَلوا [1] من الزاد، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله، فلما انتهى إلى باب النبى سمعه يقرأ هذه الآية : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» الآية، فقال الرجل : ما

(١) أرْمَل فلانٌ : نَفِد زادُه وافتقر .

الأشعريون بأهون الدواب على الله، فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ. وقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغوث، ولايظنون إلا أنه قد كلم رسول الله ﷺ فوعده. فبينماهم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا.

إن لكل مخلوق رزقا - هذا حق. وهذا الرزق مذخور فى هذا الكون، ومقدر من الله فى سننه التى ترتب النتاج على الجهد، فالرزق يأتى بالسعى، وبالأخذ بالأسباب التى أمرنا الله بالأخذ بها، وجعلها جزءا من نواميسه. فلا يقعدن أحد عن السعى، وقد علم أن السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة. فالسماء والأرض ذاخرتان بالأرزاق التى تكفى جميع المخلوقات، وعلى هذه المخلوقات أن تطلبها حسب سنة الله التى لا تحابى أحدا، ولا تتخلف ولا تحيد.

« ويعلم مستقرها » أى حيث تأوى. « ومستودعها» حيث تموت. وقال سعيد بن جبير: «مستقرها» فى الرحم، « ومستودعها» فى الصُلب.

« فى كتاب مبين » : هو كناية عن علم الله تعالى، أو هو اللوح المحفوظ. فالله - سبحانه - لايبتدىء العلم بأحوال الدواب ابتداء، بل علمه بها أزلى قديم، وواضح لديه أمرُها قبل خلقها ورزقها وإيوائها فى مستقرها ومستودعها.

٢٦٨ ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

١٢ ـ هود (١١)

يستعمل الفعل : ضاق فى المادى والمعنوى. ضاق الموضعُ والثوبُ والقلبُ.

والضِّيق (بكسر الضاد المشددة) فى الحسى الذى يتسع كالدار والثوب.

والضَّيْق (بفتح الضاد المشددة) فى غير ما يتسع كالصدر (١).

والصفة : ضَيِّق. وقد يُخفف إلى ضَيْق. واسم الفاعل: ضائق، وجمعه : ضاقة مثل قائد وقادة.

والذى ورد فى القرآن نقيض السعة، وأكثره فى المعنويات.

ضَاقَ صدرُه به : تَألَّم أو ضَجِر منه، أو شقّ عليه وعَجَز عنه.

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتًا، ومن اقتراحاتهم : « لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك» إذ كانوا لايعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه، وهذا معنى «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك » أى لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به «وضائق به صدرك» بأن تتلوه عليهم « أن يقولوا» أى مخافة أن يقولوا « لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك » أى هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة.

فالآية تسلية من الله لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول (٢)، فأمره الله تعالى وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدرُه، ولا يصدنه ذلك ولايثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل. ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ٩٧ ـ البقرة.

« وضائق به صدرك » ضائق معطوف على تارك، وصدرك مرفوع به. والهاء فى «به» ضمير عائد على «بعض» أو على «ما» فى قوله « بعض ما يوحى إليك» ، أو عائد على التبليغ أو التكذيب. وقال « ضائق» ولم يقل « ضَيِّق» ليشاكل « تارك» الذى قبله ، ولأن الضائق عارض، والضيق ألزم منه.

---

(١) ومن ذلك الضَّيق : الفقر والشِّدَّةُ.

(٢) كما فى قوله : « وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » ٧، ٨ ـ الفرقان.

٢٦٩ ﴿الَّذينَ يَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ١٩ ـ هود (١١)

صَدَّه عن الأمر : منعه وصرفه عنه . ومُطاوعه : صَدَّ أيضا بمعنى : امتنع وانصرف .

وبالمثل فإن الصدَّ يكون منعا وصرفًا ، أو امتناعا وانصرافا .

« يصدون عن سبيل الله » : لها معنيان ، أحدهما : منع الناس عن دين الله ؛ والثانى : الامتناع والانصراف عنه . وكلاهما يحصل من الكافرين ، فكما يكفرون فى أنفسهم وينصرفون عن سبيل الله (أى الطريق إلى معرفة الله ومرضاته) ، فإنهم يحملون غيرهم على الكفر ويصرفونهم عن سبيل الله (١) . هم يردون الناس عن اتباع وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل .

والعِوج : الانحراف . عَوِجَ الشىءُ عوجًا : انحرف . ويقال : قَوْلٌ به عِوَج : منحرف عن القصدَ . وقول غيرُ ذى عوج : مستقيم سَليم .

« يبغونها عوَجًا » : يعدلون بالناس عنها إلى المعاصى والشرك ، قاله القرطبى . وقال الزمخشرى : يَبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد . هم لا يريدون الاستقامة ، وإنما يريدون الحياة كلها عوجا حين يعدلون عن استقامة الإسلام . ومايتنتج الصد عن سبيل الله إلا العوج : العوج فى كل جانب من جوانب النفس ، والعوج فى كل جانب من جوانب الحياة . فالصد عن سبيل الله ومايتبعه من العبودية لغيره سبحانه تنشىء فى النفوس الذلة والله أراد لها الكرامة ، وتنشىء فى الحياة الظلم والبغى والله أراد أن تقوم حياتنا على القسط والعدل . والعبودية لغير الله تحول جهود الناس عن الإنتاج المثمر إلى عبث فى تأليه الأرباب الأرضية والنفخ فيها ليل نهار ، وتسليط الأضواء عليها والأنظار . وعبادها المساكين يظلون فى نصب دائم وهم مقيم ـ فهل هناك عوج أكثر من هذا؟

(١) سبيل الله : كل ما أمر الله به من الخير ، واستعماله فى الجهاد أكثر .

٢٧٠ ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ ٣٧ ـ هود (١١)

الْفُلْك [١] : السفينة، والفُلْك : السُّفُن (للمفرد والجمع) .

« واصنع الفلك بأعيننا » أى برعايتنا وتعليمنا.

قال الزمخشرى : « بأعيننا » أى متلبسا بأعيننا ، كأن الله معه أعيُنًا تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب ، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه.

وقال القرطبى : « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يراك. وقال ابن عباس : بحراستنا ، والمعنى واحد ، فعبر عن الرؤية بالأعين لأن الرؤية تكون بها ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير. وهو سبحانه منزه عن الحواس والتشبيه والتكييف ، لا رب غيره. وقيل : معنى « بأعيننا» أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك وعلى معونتك ، فيكون الجمع على هذا على بابه.

« ووحْينا» : على ما أوحينا إليك من صنعتها. قال ابن عباس : لم يكن يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله أن يصنعها مثل جُؤْجُؤ الطائر (الجؤجُؤ مجتمع رؤوس عظام الصدور ، والجؤجؤ : صدر السفينة ، والجمع : جآجىء). وقال الزمخشرى فى تفسير « ووحينا» : وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع.

---

(١) ذكر محمد بن اسحاق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج ، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا. وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤا أزورًا يشق الماء. وعن الحسن وابن عباس : كان طولها ألفا ومئتى ذراع فى عرض ستمائة. وقالوا كلهم : كان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا : ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للإنس والعليا للطيور.

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ٤٦ ـ هود (١١)

« إنه عَمَلٌ غيرُ صالح » (١) : معناه المبالغة فى ذمه كأنه جُعلَ نفسُ العمل فهو الفساد بعينه ، وأصله : ذو عمل غيرُ صالح ، ثم حذف المضاف وجُعل نفَس العمل ، كذا قال الزجاج وغيره . وهذه هى قراءة الجمهور .

وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائى ويعقوب : عَمِلَ على لفظ الفعل ، ومعناه : عَمِل عملاً غيرَ صالح ، وهو كفرُه وتركُه لمتابعة أبيه .

ومعنى قوله : ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك ﴾ أى الذين آمنوا بك وتابعوك ، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة ؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال : « إنه عمل غير صالح » . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب أى أن الأولى تعلو الثانية ؛ وأن نسيبك فى دينك ، وإن كان أبعد الناس عنك فى النسب ، هو لصيقك وخصيصك . ومن لم يكن على دينك ، وإن كان أمس أقاربك رَحمًا ، فهو أبعد بعيد عنك ـ لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر . فالأهل ، عند الله وفى دينه وميَزانه ، ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة . إنها الحقيقة الكبرى فى هذا الدين : فعروة العقيدة تربط بين الفرد والفرد مالا يربطه النسب والقرابة . فابن نوح لم يكن مؤمنا ، فليس إذن من أهله ـ هكذا جاءه الرد فى قوة وتقرير وتوكيد ، وفيما يشبه التقريع والتهديد : « إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » .

---

(١) قالت الخنساء فى وصف ناقة فقدت وَلَدَها :

ترتع ماغفلت حتى إذا ذكرت ... فإنما هــى إقْبــالٌ وإدْبــارُ

أى ترعى مدة غفلتها عن ولدها ، فإذا تذكرته فإنها تلتفت تارة أمامها وتارة خلفها وتتلهى عن الرعى ، فهى تروح وتجىء من غير أن ترعى حزنا على ولدها . فهى تقبل وتدبر ولا ترعى ـ أو هى نفس الإقبال والإدبار مبالغة . جاء ذلك الوصف فى معرض رثاء الخنساء لأخيها صخر .

٢٧٢ ﴿ مَّا من دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا من دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٥٦ ـ هود (١١)

« آخذ بناصيتها » : مالكها وقاهر لها ، يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء .

والأخذ : التناول بالقهر . والناصية : منبت الشعر فى مقدَّم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه . والكلام كناية أو مجاز عن القَهْر والغَلَبة ، وإن لم يكن هناك أخذٌ بالناصية . والعرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع لغيره قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أى أنه فى قبضته يصرفه كيف شاء . وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه ، جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره ، فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم .

لما بين لهم توكله على الله ورعايته وكلاءته ، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل مخلوق يدب على الأرض بيده ، وفى قبضته وتحت قهره ـ وهو تمثيل لغاية التسخير .

والدابة : كل مايدب على الأرض ، وكل ما فيه روح يقال له داب ودابة ، والهاء للمبالغة .

والتعبير صورة حسية للقهر والقدرة تناسب غلظة قوم هود وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، تلك الصلابة التى عرفوا بها .

« إن ربى على صراط مستقيم » الصراط فى اللغة المنهاج الواضح ، والمعنى أن الله جل ثناؤه ، وإن كان يقدر على كل شيء ، فإنه لا يأخذهم إلا بالحق ـ وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه . وقيل إن المعنى هو : لا خلل فى تدبيره ، ولا تفاوت فى خلقه سبحانه ، وسنته لا تحيد ـ لا يفوته ظالم ولا يضيع من اعتصم به .

٢٧٣ ﴿ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ٦٠ ـ هود (١١)

« ألا بُعدًا لعاد قوم هود » أى لا زالوا مبعدين من رحمة الله وهو دعاء عليهم بالهلاك، والبعد : الهلاك ، البعد : التباعد من الخير . يقال : بَعُدَ بُعْدًا بمعنى هلك . وبعض العرب يقول فى المكان : بعُد بالضم ، وفى الهلاك بَعِد بالكسر . قال الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن إن المنية منهل ... وكل امرىء يوما به الحال زائل

« ألآ » : حرف تنبيه ، وتكراره مع تكرار لفظ «عاد» للمبالغة فى تفظيع حالهم، والحث على الاعتبار بقصتهم.

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ٧٠ - هود (١١)

أَوْجَسَ فلانٌ : وقع فى نفسه الخوفُ. وأصله : الوَجْس وهو الصوت الخفى ، يقال : أوجست الأذنُ أى سمعت حِسًا ، وأوجس القلبُ شيئا : أحَسَّ به أوْ خافه (١) . وقيل : أوْجَسَ أضْمر .

« أوجس منهم خيفة » : أحس فى نفسه منهم خوفا وفزعا . و «خيفة» مصدر خاف يخاف خوْفًا ومخافةً وخِيفةً .

« فلما رأى أيديَهم لا تصل إليه » أى لا يمدونها إليه (أى إلى العجل الحنيذ (٢) الذى قدمه إبراهيم عليه السلام لأضيافه فى الآية السابقة) كما يمد يده من يريد الأكل . «نكرهم» أى استنكرهم ونفر منهم إذ وجدهم على غير ما يعهد ؛ وكانت عادتهم أن الضيفَ إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ، ظنوا أنه قد جاء بشرٍّ، ذلك أنهم كانوا يتحرجون من خيانة من أكلوا معه طعاما ، فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعَنى هذا أنهم ينوون به شرا .

---

(١) ومنه تَوَجَّس فلانٌ الأمرَ : أوْجَسَه أى أحس به وخافه .

(٢) المشوى مطلقا، وقيل : المشوى بحَرّ الحجارة من غير أن تمسه النار .

٢٧٥ ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ٧٧ - هود (١١)

الذَّرْع فى الأصل : مصدر ذَرَعَ البعيرُ بيديه يذرَع ، إذا سار مادًا خطوَه على قدر سعة خطوه ، مأخوذ من الذّراع ، وهو العضو المعروف (١) . فإذا حُمِّل عليه أكثرُ من طاقته قلت قدرته على مد ذراعه أثناء المشى ، ومن ثم تضيق مسافة خطوته أى ذَرْع الخطوة ، والذرع هو المقدار أو الطول . فجُعل ضيق الذرع كناية عن نفاد الوُسع والطاقة ؛ فيقال : ضاق به ذرعا إذا لم يُطقه ولم يقدر عليه .

وجاء فى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » : ضاق بالأمر ذرعا أى لم يُطقْه ولم يَقْو عليه ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع .

وقيل : أصل الذرع إنما هو بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدى إليه فلم تنله .

خرجت الملائكة من عند سيدنا إبراهيم ، فأتوا لوطا عليه السلام وكانت المسافة بينهما أربعة فراسخ . أما رسل ربنا من الملائكة فكانوا على هيئة شبان حسان الوجوه ، ومن ثم كانت مساءة لوط وضيق ذرعه بهم لأنه حسب أنهم إنس ، فخاف عليهم خبث قومه وفسقهم ، خاصة وأنه يعجز عن مقاومة هؤلاء الفسقة ودفع أذاهم عن أضيافه .

« يوم عصيب » أى شديد فى الشر . عَصَبَه : شَدَّه .

---

(١) الذِّراع من الحيوان : اليد . ومن الإنسان : من المرفق إلى أطراف الأصابع . ولفظة الذراع مؤنثة .

٢٧٦ ﴿ ولا تبْخسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ٨٥ ـ هود (١١)

بَخَسَه حقَّه يبخَسُه بَخْسًا : نَقَصَه . والبخس : الهضم والنقص .

قال زهير :

أفـي كـل أسـواق الـعـراق إتـاوة ... وفـي كـلِّ مـا بـاعَ امْـرُؤٌ بَـخـسُ دِرْهَـمِ

كان أهل العراق يأخذون من كل شيء يباع فى أسواقهم شيئا ، كما يفعل السماسرة . وبخس درهم أى نقص درهم ، فقال زهير : لاينبغى ذلك . الاستفهام للتعجب أو للتوبيخ . والإتاوة : الرشوة .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا . كانوا ينقصون من أثمان مايشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك . لكن التعبير عام ، فهو ينهاهم عن أن ينقصوا الناس حقوقهم فى جميع أمورهم حسية كانت أو معنوية . فالتعبير يعنى حُسن تقويم أشياء الناس من كل نوع : تقويمها كيلا أو وزنا أو سعرا أو تقديرا ، وتقويمها ماديا ومعنويا ؛ وقد تدخل فى ذلك الأعمال والصفات لأن «شىء» تطلق أحيانا ويراد بها غير المحسوسات .

وبَخْسُ الناس أشياءهم إنما هو ظلم يُشيع فى نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم والحقد أو اليأس من العدل . وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر . وفى الحديث عن النبى ﷺ : « ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء» .

٢٧٧ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ١٠٢ ـ هود (١١)

أَخَذَ يأخُذ أخْذًا : تناول ، وقد يراد بها معان أخرى غير ذلك . ومن تلك المعانى الأخر : أخذ بمعنى أهلك وبمعنى عاقبَ ، وهو المراد فى هذا التعبير .

أخْذُ القرى : إهلاكها وعقابها .

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » أى كما أخذ وعاقب هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود (والتى ورد الحديث عنها فى الآيات السابقة) فإنه يأخذ جميع القرى الظالمة ويعاقبها .

« وهى ظالمة » : حال من القرى ، أى وأهلها ظالمون ، فحذف المضاف مثل : «واسأل القرية» . فربك حين يأخذ القرى الظالمة يأخذها بمثل هذا الدمار والنكال . «كذلك » تشبيه و « وإذا» للمستقبل . وإنما يكون ظلم القرى بشركها حين تدين لغير الله بالربوبية ، وحين تكون ظالمة لنفسها بالشرك والفساد فى الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والإخلاص .

« إن أخذه أليم شديد» أى عقوبته موجعة صعيبة على أهل الشرك وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم ، وفى صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى يُملى للظالم [1] حتى إذا أخذه لم يُفْلته» ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية .

---

(١) أمْلَى اللهُ له ، وأمْلى له فى غَيِّه : أطال له وأمْهله .

٢٧٨ ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ ١١٣ ـ هود (١١)

ركَنَ إليه يركَنُ ركْنًا وركُونًا: مال إليه وسكن . وركن إليه: اعتمد عليه.

فسَّر الأئمة من رواة اللغة الركون بأنه مطلق الميل والسكون من غير تقييد. أما الزمخشرى فقال إن الركون هو الميل اليسير. وقال القرطبى: الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوى، فروى عن قتادة وعكرمة فى تفسير الآية أن معناها: لا تودوهم ولا تطيعوهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الركون هنا الإدهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم.

والآية عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو ظاهر الآية؛ قال الشوكانى: ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب.

وصحبة الظالم على التَّقيَّة [1] مستثناة من النهى فى حال الاضطرار، مع حرمة الميل القلبى له، قاله حسنين مخلوف.

« فتمسكم النار» بسبب الركون إليهم، فيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار.

قال القرطبى: الآية دالة على هجران أهل الكفروالمعاصى من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذا الصحبة لا تكون إلا عن مودة، وقد قال حكيم:

عن المرء لا تسألْ وسَلْ عن قرينه ... فكُلُّ قرين بالمقارن يقتدى

وقال الزمخشرى: والنهى متناول للانحطاط فى هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيى بزيّهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم.

وجاء فى « التفسير الوسيط»: والمراد بالظالمين الكافرون، أو كل ظالم ولو كان مسلما. والمراد بالركون إليهم: محبتهم والاعتماد عليهم، والأخذ بمشورتهم. وقد نهى الله فى الآية عن الركون إليهم وتوعد عليه بالنار ـ فما ظنك بمن يشاركهم فى عاداتهم ويديم معاشرتهم، ويتزيا بزيِّهم تقليدا لهم، ويعاونهم على ظلمهم، لا شك أن عذابه يكون أشد وأعظم. ولهذا تعتبر الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والوعيد عليه.

---

(١) التَّقيَّة: عند بعض الفرق الإسلامية إخفاء الحق ومصانعة الناس فى غير دولتهم تحرزا من التلف. (مادة وَقَى).

٢٧٩ ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ١١٤ ـ هود (١١)

« إن الحسنات يذهبن السيئات» : إن الأعمال الحسنة ـ كالصلاة والصدقة والاستغفار ونحوها من أعمال البر ، وكالعزم على اجتناب الكبيرة ـ يكفرن السيئات ويُذهبن المؤاخذة عليها. والمراد بالسيئات : الذنوب الصغائر ، لأن الكبائر تكفرها التوبة.

« وأقم الصلاة » أى أدِّ الصلاة المكتوبة مستوفية أركانها وفى أوقاتها فى طرفى النهار (أوله وآخره). وطرفا النهار هما الغداة (وهى ما بين الفجر وطلوع الشمس وصلاتها : الصبح) والعشى (وهو من الزوال أى منتصف النهار إلى الغروب وصلاتها : الظهر والعصر).

« وزُلَفا من الليل» أى فى زلف من الليل ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار. فزُلَف جمع زُلفة من أزلفه إذا قربه ، وازدلف إليه تقرب إليه . وصلاة الزلف المغرب والعشاء. وقرىء زُلْفَى بوزن قُربى والقربى هى القربة أى ما يقرب من آخر النهار من الليل.

ولهذا قال : « إن الحسنات يذهبن السيئات» ، ففى الحديث : « إن الصلاة إلى الصلاةكفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر » أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة . وهذا معناه تكفير الصغائر بالطاعات . وقيل فى معنى التعبير إن الحسنات تساعد على ترك السيئات ، كما فى قوله تعالى : **﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾** ٤٥ ـ العنكبوت .

وجاء فى « التفسير الوسيط» : إن ما جاء فى هذا التعبير إنما هو تعليل للأمر السابق بأداء الصلاة ، يشير إلى أن الحسنات وعلى رأسها الصلاة تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا حدث من المؤمن انحراف عن الاستقامة ، أو ميل إلى الطغيان أو جنوح إلى الظالمين ، وذكر المؤمن ربه وتاب وأناب ، وفزع إلى الصلاة ، غفر الله له ما ارتكبه من آثام فإن الصلاة كما تنهى عن الفحشاء والمنكر تطهر النفوس من الأدران والأوشاب . أخرج البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «أرأيتم لوأن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ، ما تقول : يُبقى ذلك من دَرَنه؟ قالوا لايبقى من درنه شيئا ، قال فذلك مثل الصلوات الخَمْس يمحو الله بها الخطايا» .

وجاء فى سبب نزولها مارواه الترمذى عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسَّها وأنا هذا فاقْضِ فىّ ما

شئت. فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلا فدعاه، فتلا عليه: « أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » ، فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « لا بل للناس كافة». وخرج الترمذى أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبى ﷺ عن كفارتها فنزلت : « أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات» فقال الرجل : أَلِيَ هذه يارسول الله ؟ فقال : « لك ولمن عَمِل بها من أمتى».

كلمة عن قوله ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » الذى ورد فى صحيح البخارى. ذكر الله سبحانه فى القرآن الكريم الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها ، وهذا كله مجمل فى القرآن ، وأحال ـ سبحانه ـ على نبيه ليبينه للناس، فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » من الآية ٤٤ من سورة النحل. فبين النبى ﷺ مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسجدات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسنتها، ومالا تصح الصلاة إلا به من الفرائض، وما يستحب فيها من السنن والفضائل . ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة، على ما هو معلوم. ولم يمت النبى ﷺ حتى بَيَّنَ جميع مابالناس الحاجة إليه، فكمل الدين ، وأوضح السبيل، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . من الآية الثالثة من سورة المائدة.

وكلمة عن الصلاة كزاد للاستقامة على الطريق. إن الاستقامة أمر شاق يحتاج إلى زاد يعين ، والله يرشد رسوله ومن معه من المؤمنين إلى زاد الطريق: « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل» . ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذى يبقى، والذى يقيم البنية الروحية، والذى يمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف ـ ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود، القريب المجيب ، وينسم عليها نسمة الأنس فى وحشتها وعزلتها فى تلك الجاهلية.

٢٨٠ ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ (١)

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾

١٢١ـ هود (١١)

قال الزمخشرى فى شرح « اعملوا على مكانتكم » أى : على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها. وقال حسنين مخلوف موضحا : اعملوا على حالتكم التى أنتم عليها وهى الكفر. والأمر للتهديد.

وجاء فى « لسان العرب » : « اعملوا على مكانتكم» أى على حالكم وناحيتكم؛ وقيل : معناه أى على ما أنتم عليه مستمكنون.

وقال ابن كثير : يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد « اعملوا على مكانتكم» أى على طريقتكم ومنهجكم « إنا عاملون» على طريقتنا ومنهجنا « وانتظروا إنا منتظرون» أى « فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون».

فالذين لا يؤمنون بعد ما ساقته السورة من قصص الرسل، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشرى والوعيد، هؤلاء لاموعظة لهم ولاذكرى؛ وإنما قل لهم يا محمد، كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم فى هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصير هم يلاقونه، وهو النبى شعيب عليه السلام حيث قال لقومه فى الآية ٩٣ : ﴿ وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب﴾.

(١) التعبير موجود كذلك فى الآية ٩٣ من هذه السورة وفى ١٣٥ ـ الأنعام.

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ ٢٨١

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ ٩ ـ يوسف (١٢)

« يخل لكم وجه أبيكم»: يفرغُ لكم من الشغل بيوسف (من ؛ خَلاَ المكانُ يخلو خُلُوّاً وخلاءً : فرَغ) فيقبل عليكم لا يلتفت عنكم إلى غيركم. فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. ويجوز أن يُراد بالوجه الذات، كما قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الآية ٢٧ ـ الرحمن.

والمراد: أن تخلص محبة أبيهم لهم فلا يشاركهم فيها أحد.

« اطرحوه أرضًا » : ألقوه فى أرض بعيدة عن العمران، مجهولة ولهذا جاءت نكرة خالية من الوصف، ولإبهامها نصبت نصب الظروف المبهمة.

« من بعده» : الضمير يرجع إلى مصدر : اقتلوا أو اطرحوا.

« قوما صالحين » : تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بِخُلوّ وجه أبيكم.

٢٨٢ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ١٨ ـ يوسف (١٢)

سَوَّلَ له الشَرَّ : حببه إليه وسهله له وأغراه به . يقال : سولَت له نفسُه كذا ، وسوّل له الشيطانُ كذا ، وهذا من تسويلات الشيطان .

« أمرا » أى أمرا عظيما فى يوسف فعلتموه ، وهونته أنفسكم فى أعينكم . قال الزمخشرى : استدل على فعلهم بيوسف بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص . روى أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف ، صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضّبَ وجهه بدم القميص وقال : تالله مارأيت كاليوم ذئبا أحلمَ من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه [١] ! .

« بدم كذب » أى ذى كذب ؛ أو وُصف الدمُ بالمصدر مبالغةً ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكَذب : هو الكذب بعينه [٢] . رُوى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وفاتهم أن يمزقوه . وقرئ : كذبًا ، نصبا على الحال ، بمعنى جاءوا به كاذبين .

« فصبر جميل » : خبر أى فصبرى صبر جميل ، أو هو مبتدأ أى فصبر جميل أمثل ـ جاء فى الحديث المرفوع أن الصبر الجميل هو الذى « لا شكوى فيه إلى الخلق » .

« والله المستعان على ما تصفون » أى استعينه على احتمال ماتصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه .

---

(١) قيل : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات : كان دليلا ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، ودليلا على براءة يوسف حين قُدّ من دُبُر .

(٢) ونحوه : فَهُنَّ به جُودٌ وأنتم به بُخْلُ .

٢٨٣ ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ٢١ - يوسف (١٢)

ثَوَى المكانَ وبالمكن يَثوى ثَواءً : أقام به على استقرار وطول لبث فهو ثاو .

والْمَثوَى مصدر « ثوى » أى الإقامة والاستقرار ، أو اسم مكان ، ويكوَن المعنى : اجعلى مكان إقامته كريما مرضيا .

« أكرامى مثواه » أى : منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن . فالمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته ، وهى مبالغة فى الإكرام .

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » : يكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه فى الغلام من خير ، ومايتطلع إليه فيه من أمل .

٢٨٤ ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ٢١ - يوسف (١٢)

غَلَبَه يَغْلِبُه غَلَباً وغَلَبَةً : قَهرَه . ويقال : غَلَبَ عليه .

« والله غالب على أمره » أى غالب على أى أمر يريده ، فيحققه . لايدفعه عنه أحد ، فإنه إذا أراد أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ، ويدخل فى أمره شئون يوسف عليه السلام .

وقال ابن كثير : إذا أراد شيئا فلا يُرَد ولايُمانع ولايُخَالف ، بل هو الغالب لما سواه . وقال سعيد بن جبير : فعال لما يشاء .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر .

وقالت الحكماء : « والله غالب على أمره » حيث أمر يعقوبُ يوسفَ ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمرُ الله حتى قص ؛ ثم أراد إخوتُه قتلَه فغلب أمرُ الله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ؛ ثم أراد الإخوةُ أن يخلو لهم وجهُ أبيهم وينفردوا بحب الأب بعد التخلص من يوسف فغلب أمرُ الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم .

٢٨٥ ﴿ بلغ أشُدَّهُ ﴾ (١)

﴿ ولَمَّا بلَغ أشُدَّه آتيْنَاه حُكْماً وَعِلْماً وكَذلك نجزِي الْمُحْسنين ﴾

٢٢ ـ يوسف (١٢)

شَدَّ الشىءُ يَشدُّ شدّةً : قَوِىَ ومَتُن . وشَدَّد الشىءَ : قوَّاه وأحكمه .

الأَشُدّ : الاكتمال . يقال : بَلَغَ أشُدَّه : اكتمل وبلغ قُوتَه .

أشده : عند سيبويه جمع شدَّه أى قوة . وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب ، ومعناه استكمال القوة .

وقال مجاهد وقتادة : الأشُد ثلاث وثلاثون سنة .

« بلغ أشده » : استكمل قوته الجسدية والعقلية .

معنى الآية : ولما بلغ يوسف منتهى قواه الجسدية والعقلية ، وأصبح أهلا لتحل أعباء الحياة والحكم بين الناس فى قضاياهم المختلفة ، وتوجيههم إلى الخير والهدى ، آتيناه حكمة فى القول وإصابة فى الحكم ، وعلما غزيرا وبَصَرًا بالأمور .

٢٨٦ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾

٢٣ ـ يوسف (١٢)

رَادَ يرُود رَوْدًا : تردد برفق (٢) .

راوده عن الشىء : جهد فى طلبه منه ، وعُدِىَ بعن لما فيه من المخادعة . ومن هذا يقال : راود المرأة عن نفسها وراودته المرأة عن نفسه فى طلب الجماع من المتأبى ، كأنما يخدعه عن نفسه التى تأبى الاستسلام لما يراد .

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » : هى امرأة العزيز دعته إلى نفسها وطلبت منه أن يواقعها . وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه ، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها .

---

(١) ورد التعبير فى مواضع عديدة : ١٥٢ ـ الأنعام ، ٣٤ الإسراء ، ١٤ ـ القصص ، ١٥ ـ الأحقاف ، ٨٢ ـ الكهف .

(٢) ويُصَغَّر الرَّوْد على رُوَيْد ، ويقال : رُوَيدًا يا هذا ، أى : رفقا ومهلا ولا تعجل .

٢٨٧ ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

٢٣ ـ **يوسف** (١٢)

هَيَّتَ به : صوَّت به وصاح ودعاه .

هَيْتَ : كلمة تعجب .

هَيْتَ لك (بفتح الهاء وكسرها) : اسم فعل بمعنى : هَلُمَّ ، أى تعال وأقبلْ ، يدل على الحث علىَ الشىء . يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث والمذكر ، إلا أن العَدد والتذكير والتأنيث يظهر فى لك ، فتقول : هيتَ لكما ، وهيت لكم ، وهيت لكُنَّ .

وقرئ : هئتُ بمعنى تهيأت . يقال : هاء يهيء ، مثل جاء يجيء إذا تهيأ .

وقيل : هيت لفظة معربة ، أو من الألفاظ التى اتفقت فيها اللغات .

« قال معاذ الله » : معاذَ منصوب على المصدر بفعل محذوف ، تقديره أعوذ بالله معاذا مما تريدين منى ! أى أعتصم بالله وأستجير به ، وألتجئ إليه فى دفع ذلك عنى .

« إنه ربى أحْسَن مثواى » : الضمير يعود على الذى اشتراه وربى أى سيدى ومالكى الذى قال لامرأته : أكرمى مثوى يوسف ، ولهذا يقول يوسف : ما يكون جزاؤه ـ بعد أن أحسن مثواى ـ أن أخلفه فى أهله سوء الخلافة وأن أخونه .

٢٨٨ ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣٠ ـ يوسف (١٢)

« شغفها حبا » : أصاب حبُّها له (أحرق أو خرق حبها) شَغَافَ قلبها والشَّغَاف : حجاب القلب وغلافه الذى هو فيه (١) .

« حُبا » : تمييز مُحَوَّل عن الفاعل ، والأصلُ : شغفها حبّها إياه .

وقرئ : شعفها ، بالعين ، من شعف البعيرَ إذا هنأه أى أحرقه بالقطران المغلى على النار(٢) .

---

(١) قال النابغة يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون : وقد حالَ همٌّ دون ذلك والجٌ مكانَ الشغاف تبتغيه الأصابعُ . فالهَمّ ، الذى هو وعيد النعمان وتهديده له بسبب وشاية الواشين ، حالَ دون التغزل فىَ المحبوبة وغير ذلك من اللذات ، وولج أى دخل إلى شغاف القلب . وشبه الهم بمحسوس وبالغ فى ذلك حتى أدعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه فى القلب .

(٢) قال امرؤ القيس :

أتقتلنى وقد شعفتُ فؤادها ... كما شعفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالى

الاستفهام للاستنكار أو للتعجب . والمهنوءة : الناقة التى أحرقت بالقطران الذى يغلى . فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الإحراق ، ثم أريد منه الاحراق بالعشق مجازا .

٢٨٩ ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ٣١ - يوسف (١٢)

حاشا من القوم فلاناً : استثناه .

حاش لله : براءةً لله ومعاذاً ، ويقال : حاشى لله . و « حاش » فعل ماض ، واللام فى « لله » للتعليل . ويكون معنى « حاش لله ما هذا بشرا » . معاذ الله أن يكون هذا بشرا .

وقيل : حاش اسم فعل بمعنى برئ اللهُ من كل سوء ؛ أو تنزيها لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز عن خلق مثله ، وفيه معنى التعجب من قدرته تعالى على خلق مثل هذا الصنيع البديع .

وقال الزمخشرى فى تفسير هذا التعبير : المعنى تنزيه الله تعالى من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله إذ نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه ، فقلن « ما هذا بشرا » .

ونقل القرطبى عن الزجاج قوله : وأصل الكلمة من الحاشية ، والحشا بمعنى الناحية ، تقول : كنت فى حشا فلان أى فى ناحيته ، فقولك : حاشا لزيد أى تنحى زيد من هذا وتباعد عنه ، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين .

٢٩٠ ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ٤٠ ـ يوسف (١٢)

السلطان : القهر والغلبة ، ويستعمل فى الحجة والبرهان . وهو فى القرآن أكثر استعمالا فى الحجة والبرهان .

« ما أنزل الله بها من سلطان » أى ما أنزل الله بألوهيتها من حجة تصحح ألوهيتها وتسوغ عبادتها .

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه . ثم قال تعالى : « ذلك الدين القيم » أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد الجهة التى يدين لها الناس الدينونة الشاملة ـ هذا التوحيد هو الذى استحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل من آدم إلى محمد عليهما السلام . ولم يكن ذلك لأن الله ـ سبحانه ـ فى حاجة إليه ، فالله ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين ، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع إلا بهذا التوحيد الذى لا حد لتأثيره فى الحياة البشرية فى كل جوانبها .

إنه لابد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله ـ والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم ، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية فى النهاية .

٢٩١ ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾

٤٤ ـ **يوسف** (١٢)

أضغاث : جمع ضغث . والضِّغث : كل ما جُمع . ويقال : أتانا بأضغاث من الأخبار أى بضروب مختلطة منَها .

والضَّغْث : التباس الشىء بالشىء .

وأضغاث الأحلام : ما كان منها ملتبسا مضطربا يصعب تأويله لأنها يدخل بعضها فى بعض .

والعرف الغالب هو إطلاق الأحلام على الكاذب منها ، والرؤى على الصادق منها ، ولهذا قالوا أخلاط أحلام ، يريدون أنها ليست من الأحلام الواضحة التى يمكن تأويلها ويصدق مدلولها .

٢٩٢ ﴿ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٥٣ ـ **يوسف** (١٢)

حَصْحَصَ الحقُّ : وضَح وتَبيَّن بعد خفائه .

قال مجاهد وقتادة : أصله مأخوذ من قولهم : حَصَّ شعرَه إذا استأصل قَطعَه ، ومنه الحصة من الأرض إذا قطعت منها . ولذا قيل فى معنى « حصحص الحق » : انقطع عن الباطل بظهوره وثباته .

٢٩٣ ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٥٣ - يوسف (١٢)

الأمَّارة : صيغة مبالغة من أمر ، ومعناها : كثيرة الأمر .

« إن النفس لأمارة بالسوء » تأمر به وتحمل عليه بما فيه من الشهوات . وفى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : « ما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكَسَوْتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجَعْتموه أفضى بكم إلى خير غاية » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب فى الأرض . قال : « فوالذى نفسى بيده إنها لنفوسكم التى بين جنوبكم » .

« إلا ما رحم ربى » ما بمعنى من ، أى إلا من رحم ربى فعصمه . وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء .

٢٩٤ ﴿ جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾

٥٩ - يوسف (١٢)

جَهَازُ المسافر والعروس والجيش ونحوهم : هو ما يحتاجون إليه فى قصدهم .

يقال : جَهَّزْتُه بِجَهَازِه أى أعددت له ما يحتاج إليه .

والجهاز فى هذه الآية الطعامُ الذى امتاروه من عنده أى ابتاعوه . وهو من الحبّ الذى كان يوسف قد استبقاه فى سنابله لزمن المجاعة .

ويبدو أنه جرى من الحديث بينه وبينهم ما جعلهم يصرحون بأن لهم أخا من أبيهم لم يحضروه معهم ، حتى يكون مجرى الحديث هو الذى حمل يوسف ظاهرا على أن يطلبه بالذات .

٢٩٥ ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ٦١ - **يوسف (١٢)**

رَاوَدَه على الشىء يراودُه مُراودةً ورِوادًا : طلبه منه وحاول أن يفعله . ويقال : راوده عن الشىء أى جهد فى طلبه منه ، وعُدى بعَن لما فيه من معنى المخادعة .

« سنراود عنه أباه » : سنحاول مع أبيه يعقوب ونحتال فى أخذه منه ونجتهد فى ذلك - يشيرون بذلك إلى عزّة المطلب وصعوبة مناله . وقال ابن كثير : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مَجهودا ، فلفظ « نراود » يصور الجهد الذى يعلمون أنهم باذلوه .

« وإنا لفاعلون » ذلك لا محالة ، لا نفرط فيه ولا نتوانى عنه .

٢٩٦ ﴿ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ٦٦ - **يوسف (١٢)**

الإحَاطةُ بالشىء : الإحداق به من جميع جوانبه .

أحيط به : حُصِرَ ومنِعَ سبيل النجاة .

وأُحيط به : أُهلك .

« إلا أن يحاط بكم » : إلا أن تُحصَروا وتُمنعوا سبيل النجاة ، أو : إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به . وقال ابن كثير : إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه . وكلمة « يحاط بكم » كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم .

٢٩٧ ﴿ إلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٨ ـ يوسف (١٢)

« حاجة فى نفس يعقوب قضاها » : قيل هى دفع إصابة العين . وما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم ، أى من أبواب متفرقة ، يدفع عنهم من أمر الله شيئا مما قضاه عليهم ، ولكن قضى حاجة فى نفس يعقوب بدخول أبنائه من أبواب متفرقة حسب إرادته ، لعله يدفع عنهم إصابة العين ، وذلك من باب ربطه المسببات بأسبابها العادية كما جربه الناس .

« وإنه لذو علم لما علمناه » : هو على علم بأن إرادة الله نافذة ، فقد علمه الله هذا فهو لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، ولهذا قال لهم : « وما أغنى عنكم من الله من شىء » أى وما أدفع عنكم بهذا التدبير من شىء قضاه الله . وإنما يحذر الناس ويدبرون لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره ـ فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا .

وقال صاحب الظلال : لو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط « إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها » . . . فالجو يوحى بأنه كان يخشى شيئا عليهم ، ويرى فى دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشىء مع تسليمه بأنه لا يغنى عنهم من الله من شىء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه ـ إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة فى نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فَتَعَلَّمَ .

٢٩٨ ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾

٧٩ ـ **يوسف (١٢)**

« مَعَاذَ الله » : المَعَاذ والعياذ والعَوْذ بمعنى الالتجاء ، ولقد يقصد منها التبرؤ كما فى هذه الآية ، فمعاذَ الله هنا بمعنىَ : نبرأ إلى الله . قال يوسف لإخوته الذين لم يكشفوا شخصيته : نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نأخذ أحدا غير الذى وجدنا صُواعنا (١) عنده .

والفعل عَاذَ به يعُوذ عَوْذًا وعياذًا : التجأ إليه واعتصم به .

وقد ورد التعبير قبل ذلك فى هذه السورة فى الآية ٢٣ : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله . . . » أى أستجير بالله وأعتصم به مما تدعيننى إليه .

٢٩٩ ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ٨٠ ـ **يوسف (١٢)**

نَجَا فلانًا نَجْوًا ونجوى : أَسَرَّ إليه الحديث .

والنَّجِىُّ : المُناجى ، كالعشير والسمير بمعنى : المعاشر والمسامر . والنجى أيضا يكون بمعنى المصدر الذى هو التناجى .

ولهذا قال القرطبى : « نجيًّا » نصب على الحال من المضمر فى « خلصوا » . فنجيا هنا بمعنى مُتَسَارِّين . وخلصوا : انفردوا .

« خلصوا نجيا » : انفردوا بأنفسهم يتناجون ويتشاورون سرا .

والفعل خَلَصَ من القوم يخلُص خُلوصًا وخَلاصًا : اعتزلهم وانفصل عنهم .

---

(١) الصُّواع : السِّقاية ، والسقاية : الإناء يُسْقَى به . وسِقاية الحاج : سقيهم الماءَ يُنبَذ فيه الزبيب ، وكانت من مآثر قريش .

٣٠٠ ﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ٨٧ - يوسف (١٢)

تَحَسَّسَ الخبرَ : تَطَلَّب معرفتَه . ويقال : تحسس من القوم : تتبع أخبارَهم (١) . والتحسس : طلب معرفة الشيء بالحواس والتحسس يكون فى الخير ، والتجسس فى الشر .

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام إنه نَدَبَ بنيه أى دعاهم وحثهم على الذهاب فى الأرض يتلمسون يوسف (٢) وأخاه بنيامين ويستعلمون أخبارهما ـ كل ذلك فى لطف وبصر وصبر على البحث ، ودون يأس من الله وفرجه ورحمته . وكلمة « روح » أدق دلالة وأكثر شفافية ، ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى .

٣٠١ ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٩٠ - يوسف (١٢)

اتَّقاه : تَحَفَّظَ منه وتصوَّن وعمل على ألا يصيبه ضرر منه (٣) . ومن ذلك اتقاء الله ، فهو تجنُّب عذابه ، وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه . وقد اشتهر هذا المعنى فى القرآن الكريم وفى لسان الشرع حتى صار هو المراد عند الإطلاق .

« يصبر » أى على المصائب وعن المعاصى .

« فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » أى فإن الله لا يضيع أجرهم وعبر عنهم بالمحسنين ، ليشير بذلك إلى أن أهل التقوى والصبر هم أهل الإحسان ، وهم الأحقاء بجزاء الله العظيم وإحسانه ورحمته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ ٦٠ ـ الرحمن ، وقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٥٦ ـ الأعراف .

قرأ ابن كثير « إنه من يتقى » بإثبات الياء ، والقراءة به جائزة على أن تجعل « من » بمعنى الذى ، وتدخل « يتقى » فى الصلة ، فتثبت الياء فى « يتقى » وترفع « ويصبرُ » . ويجوز الجزم ، كما فى المصحف على أساس أن « من » للشرط تجزم فعل الشرط « يتق » والمعطوف عليه « يصبر » .

---

(١) تحسس للقوم : سعى فى جمع الأخبار والأحاديث لهم .

(٢) قال القرطبى : هذا يدل على أن يعقوب كان موقنا أن يوسف مازال حيا ، إما بالرؤيا وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه .

(٣) اتقى الشيءَ : استقبله وجعل بينه وبينه حاجزا . تقول : اتقى الفارسُ السيفَ بالتُرس . انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مادة : وقى .

٣٠٢ ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

٩٢ - **يوسف** (١٢)

ثَرَّبَ فلاناً وثَرَّب عليه تثريباً : لامه وعيَّره بذنبه . وقال الأْصمعى : ثرَّبتُ عليه وعرَّبت عليه بمعنىً إذا قبحت عليه فعله . والتثريب : التعيير والتوبيخ .

« لا تثريب عليكم اليوم » أى لاتعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم قاله سفيان الثورى . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بينى وبينكم من الحرمة وحق الأخوة ، ولكم عندى العفو والصفح .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أخذ بعُضادتَى الباب [1] يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناسُ بالبيت فقال : « الحمد لله الذى صدق وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه » ثم قال :

« ماذا تظنون يا معشر قريش » قالوا : « خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قَدَرت ، قال : « وأنا أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم » ، فقال عمر رضى الله عنه : ففضت عرقا من الحياء من قول رسول الله ﷺ ، ذلك أنى كنت قد قلت لهم حين دخلت مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله ﷺ ما قال استحييت من قولى .

---

(١) عضادتا الباب : خشبتان منصوبتان مثبتتان على جانبى الحائط .

٣٠٣ ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ ٢ ـ الرعد (١٣)

« يُدَبِّرُ الأمرَ » : يُصَرِّف العوالمَ كلها بقدرته وحكمته .

دبَّرَ الأمرَ تدبيرا : نظر فى عواقبه وأدباره (جمع دُبُر وهو العاقبة) ليقع على الوجه المحمود منه فيتصرف التصرف الحكيم .

والأمر : الحال والشأن .

فالله يقدر الأمور بمقتضى حكمته ، ويجريها طبقا لسنته الكونية فى أرضه وسمائه ، فهو سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وغير ذلك من شئونه وأموره فى سماواته وأرضه ـ تلك الشئون التى تحير العقول والألباب ولا تدخل تحت حصر . وصدق الله تعالى إذ يقول فى الآية ٢٩ من سورة الرحمن : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » ، فجميع الخلائق من أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه ، محتاجون إليه : يسألونه من فضله ، فهو مناط السؤال ومظنة الجواب . « كل يوم هو فى شأن » : فى كل وقت وحين يُحدث أمورا ويجدد أحوالا ؛ روى ابن جرير عن عبد الله بن منيب الأزدى عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « كل يوم هو فى شأن » فقلنا يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ فقال : « أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين » أخرج هذا الحديث أيضا ابن ماجة وابن حبان والطبرانى والبزار من حديث أبى الدرداء . وقال الأعمش عن مجاهد : من شأنه أن يجيب داعيا أو يعطى سائلا أو يفك عانيا أو يشفى سقيما . وقال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض ، يحيى حيا ويميت ميتا ، ويربى صغيرا ويفك أسيرا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم .

هذا الوجودُ الذى لا تُعرف له حدود قائمٌ بتدبيره ـ سبحانه . وتدبيرُه يتناول الوجودَ كله جملة ، ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويعطى كل شىء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته . وهذا التدبير يتبع ما ينبت وما يسقط من ورقة ، وما يكمن من حبة فى ظلمات الأرض وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك فى بحارها ، والديدان فى مساربها ، والحشرات فى مخابئها والوحوش فى أوكارها والطيور فى أعشاشها ، وكل بيضة وكل فرخ ـ وكل خلية فى جسم حى .

وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهرٌ ولا خافٍ .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾١١ ـ الرعد (١٣)

معنى التعبير : إن الله لا يغير نعمة أو بؤسا (شقاء وفقرا) ولا يغير عزا أو ذلة ، ولايغير مكانة أو مهانة ـ إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم ، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون . ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجىء لاحقا له فى الزمان بالقياس إليهم .

فقد جرت السنة الإلهية بأنه تعالى لا يبدل ما بقوم من نعمة وعافية وأمن ودعة حتى يتركوا ما تعودوه واتصفوا به من عمل صالح وخلق قويم متجهين إلى أضدادها لأنهم بذلك قد أهملوا الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وحينئذ يستحقون الحرمان من النعمة (١) . وأيضا لا يغير الله ما بقوم من العقاب والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصى ليكونوا أهلا لعفوه ورحمته .

وإنها لحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة ، فقد مضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئته بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ، وأن تنفذ فيهم سنته بناء على سلوكهم ـ والنص صريح فى هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك ـ إلى جانب التبعة ـ دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

« له معقبات » أى للمذكور فى الآية السابقة (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) معقبات أى ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار لحفظه وكلاءته من ناحية ، ولكتابة أقواله وأعماله من ناحية أخرى . «معقبات» : جمع مُعَقِّبة بمعنى معقِّب أى ملك معقب، والتاء للمبالغة ، كما فى علاَّمة : وقيل : معقبة بمعنى جماعة معقبة .

« من أمر الله » : من بمعنى باء السببية أى بسبب أمره تعالى .

« وما لهم من دون الله من وال » أى ولى ناصر ، يلى أمورهم ويدفع السوء عنهم ، من الولاية وهى النصرة وتولى الأمر .

---

(١) وقد ينزل بهم العذاب إن عظمت ذنوبهم ، وقد يصاب به الصالحون الذين يعيشون بينهم ، وذلك على سبيل الابتلاء لا على سبيل العقاب . كما قال الرسول ﷺ ردا على من سأله : أنَهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » أى الفسق والفجور . وقد يشترك هؤلاء الصالحون فى استحقاق العقوبة ، لتراخيهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال ﷺ : « إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب » أى أن المصائب قد تنزل بشؤم ذنوب الآخرين .

٣٠٥ ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾١٣ ـ الرعد (١٣)

قال الزمخشرى فى تفسير « يسبح الرعد بحمده » : يسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له . أى يضجون بسبحان الله والحمد لله . وعن النبى ﷺ أنه كان يقول : سبحان من يسبح الرعد بحمده » أخرجه الطبرى ورواه البخارى فى الأدب المفرد . فالتسبيح متلبس بالحمد : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ٤٤ الإسراء .

وقد يكون المدلول المباشر لَلفْظ « يسبح » هو المقصود فعلا ، ويكون الرعد « يسبح » فعلا بحمد الله [(١)] . فهذا الغيب الذى زواه (طواه) الله عن البشر لابد أن نتلقاه بالتصديق والتسليم ، فنحن لا نعلم من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسنا إلا القليل .

نص التعبير على تسبيح الرعد بالحمد لله اتباعا لمنهج التصوير القرآنى ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك فى المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله . والمشهد هنا مشهد أحياء فى جو طبيعى . وفيه الملائكة تسبح من خيفة الله .

والعجيب أنه فى هول البرق والرعد والصواعق ، وفى زحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه ـ فى هذا الهول ترتفع أصوات بشرية هى أصوات الذين كفروا وكذبوا رسول الله ، ترتفع لتجادل فى الله وتنكر قدرته على البعث وإعادة الخلائق . « وهو شديد المحال » أى المماحلة وهى شدة المماكرة والمكايدة، فالله شديد المكر والمكايدة لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون .

وعن خوف الملائكة قال ابن عباس : إن الملائكة خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم ، لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره ، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب .

« خيفة » : مصدر خَاف يخاف خوْفاً ومخافةً وخيفةً .

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » . ورواه أيضا الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب ، والنسائى فى اليوم والليلة ، والحاكم فى مستدركه .

---

(١) والرعد والبرق والمطر من آثار الناموس الكونى الذى صنعه الله . والبرق ، هذا الصوت المفرقع المدوى ، هو حمد وتسبيح بالقدرة التى صاغت هذا النظام الكونى . وكل مصنوع متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه .

٣٠٦ ﴿ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ١٤ - الرعد (١٣)

المشهد ناطق متحرك لا هف مكروب . والصورة حية تنبض ، يكاد القارئ يرى الشخص الظمآن منبطحا على شفير البئر (حافته) مادا يديه إلى الماء يدعوه أن يرتفع من البئر ليصل إلى فمه ، فلا يستجيب له الماء ولا يبلغ فاه ، وكيف وهو لم ينله أبدا بيده ؟ ثم إن الماء جماد لا يشعر بشيء ، فكيف يشعر بظمأ الظامئ حتى ولو بسط إليه يديه ؟ إنه تعبير رائع عن اليأس(١) .

فالذين يدعون آلهة غير الله ، لا تستجيب لهم هذه الآلهة لأنها لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولذلك كان دعاء الكافرين إلى ضياع وخسار .

قال مجاهد : إن الذى يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا ؛ لأن الماء لا يستجيب وما الماء ببالغ إليه .

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه . قال الفراء إن المراد بالماء هاهنا البئر ، لأنها معدن للماء ، وأن المثل كمن مَدَّ يده إلى البئر بغير رشاء (حبل الدلو) .

« له دعوة الحق » أى أن هناك دعوة واحدة هى الحق وهى الصدق ، وهى التى تستجاب : إنها دعوة الله والتوجيه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع ـ ألا ترون حال الداعين لغيره ؟ « والذين يدعون من دونه » أى الشركاء من أصنام وأوثان حجراً كانت أو بشراً « لا يستجيبون لهم بشىء » أى لا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء .

« ليبلغ فاه » : فاه مفعول به منصوب بالألف ، من الأسماء الخمسة (أبوك ، حموك ، أخوك ، فوك ، ذو مال) وفوك : فمك .

---

(١) العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مَثَلاً بالقابض الماءَ باليد ، قال الشاعر :

فأصبحت فيما كان بينى وبينها ... من الود مثل القابض الماءَ باليد

٣٠٧ ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ ١٧ ـ الرعد (١٣)

زَبَدُ الماء : ما يعلوه من غُثاء [1] عند جيشانه واضطراب أمواجه من الرغوة وحطام الأشياء .

وزَبَد المعادن : خبثها ووَضَرُها ونفايتها . وردت هذه الكلمة ثلاث مرات فى القرآن الكريم جاءت كلها فى هذه الآية .

والجُفاء : ما جَفَأته القدرُ(أى مارمت به من زبد عند الغليان) أو جَفَأه الوادى (أى ما رمى به من زَبَد وقَذَى) . والكلمة وردت مرة واحدة فى القرآن الكريم .

وذَهَبَ الزبدُ جفاءً أى مدفوعاً مرمياً به لابقاء له . إذ لا يُنتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ؛ وكذلك خبث المعادن (من ذهب وفضة وحديد ونحاس) فإنه يذهب ولا يرجع منه شىء .

أما ما ينفع الناس من ماء ومعادن فهو الذى يبقى ويُنتفع به : « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » كقوله تعالى : **﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾** ٤٣ ـ العنكبوت[2] .

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه والمثل الأول قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أى مطرا ﴿فسألت أودية بقدرها ﴾ أى أخذ كل واحد بحسبه ؛ فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير فوسع بقدره ، كل على قدر طاقته وبمقدار حاجته مما يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شىء . قال أبو على : ﴿ سالت أودية ﴾ أى سال ماؤها .

---

(١) الغُثاء : ما يحمله السيلُ من رَغْوة ومن فُتات الأشياء التى على وجه الأرض . ورغوة القدر تسمى غُثَاءً .
وغُثاء الناس : أراذلهم .

(٢) قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله تعالى يقول ﴿وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

« فاحتمل السيلُ زبدا رابيا » فالماء بعد أن ينزل من السماء ويسيل على الأرض ، يلم فى طريقه غُثاء يطفو على وجهه فى صورة الزبد حتى ليحجب الزبدُ الماءَ فى بعض الأحيان . هذا الزبد نافشٌ راب منتفخ ـ ولكنه بعد غثاء ، والماء من تحته سارب ساكن هادئ ـ ولكنه الماء الذى يحمل الخير والحياة .

والمثل الثانى هو « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » وهى المعادن التى تذاب ابتغاء حلية أى لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة ، أو تذاب ابتغاء متاع أى لتصنع منها آنية أو آلة نافعة للحياة كالنحاس والحديد . يعلو هذه المعادن عندما يوقد عليها فى النار زَبد هو ما اختلط بها من خبث عندما كانت مطمورة فى الأرض . هذا الخبث يذهب ويبقى المعدن .

ذلك مثل الحق والباطل فى هذه الحياة . فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ رابيا لكنه بعدُ زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جُفاء مطروحا لا حقيقة له . أما الحق فيظل هادئا ساكنا ، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أوضاع ـ لكنه هو الباقى فى الأرض كالماء الذى به الحياة وكالمعدن النقى الذى به النفع .

حكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ « جُفالا » قال أبو عبيدة : يقال أجْفَلت القدرُ إذا قذفت بزَبَدها . (راجع تفسير القرطبى) .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

٢٢ ـ الرعد (١٣)

دَرَأَ الشيءَ يَدرَؤُه دَرْءًا ودرْأَةً : دفعه [١] . وفي الحديث : ادْرَءُوا الحدودَ بالشبهات .

« ويدرؤون بالحسنة السيئة » يدفعون السيءَ من الأعمال بالعمل الصالح ، فيجازون الإساءة بالإحسان . أو يُتبعون السيئة الحسنة فتمحوها .

وعن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سَيىء غيرهم . وعن الحسن : إذا حُرموا أعْطَوْا ، وإذا ظُلموا عَفَوْا ، وإذا قُطعوا وَصَلوا . وعنَ ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا . وقيل : إذا رأوْا منكراً أمروا بتغييره . وقال القتبى : يدفعون سَفَه الجاهل بالحلم، فالسفه هو السيئة ، والحلم هو الحسنة . فمقابلة السيئة بالحسنة تطفئ جذوة الشر فى النفوس ، وترد نزع الشيطان . وهذا يكون إذا كان فيه درأ السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها . أما إذا احتاجت السيئة إلى القمع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة لئلا ينتفش الشر ويتجرأ . ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ : العُقْبى والعُقْب : الجزاء . ومنه أعقبه أى جازاه . والمراد بعقبى الدار : الجنة . ولذلك بدأت الآية التالية بقولة تعالى : ﴿ جناتُ عدن يدخلونها﴾ وهى بدل من ﴿ عقبى الدار ﴾ .

---

(١) ويمكن أن يكون لازماً : دَرَأَ السيلُ بمعنى اندَرأ أى اندفع .

٣٠٩ ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

٢٨ ـ الرعد (١٣)

« تطمئن قلوبهم بذكر الله » : بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(١) . أو تطمئن قلوبهم بذكر دلائله الدالة على وحدانيته . أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها .

أطمَأنَّ القلبُ ونحوُه : سكن بعد انزعاج ولم يقلق . واطمأن : سكن وثبت واستقر . والاسم : الطمأنينة والاطمئنان أى الثقة وعدم القلق .

قلوب المؤمنين تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه وفى حماه . تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق ـ بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ، ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما شاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمة الله فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة .

وليس أشقى ممن يُحرم طمأنينة الأنس إلى الله وينطلق فى هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله فى الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التى تربطه بما حوله فى الله خالق الكون . ليس هناك أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء ؟ ولمَ يذهب ؟ ولمَ يعانى ما يعانى فى الحياة ؟ ليس أشقى ممن يوجس من كل شيء خَيفَة لأنه لاَ يستشعر الصلَة بينه وبين رب هذا الكون ، هو يشق طريقة فى الحياة فريدا شاردا فى فلاة لا ناصر له ولا هاد ولا معين .

وفى الحياة لحظات لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله ، مطمئنا إلى حماه . ومهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد إلا أن فى الحياة لحظات تعصف قسوتها بكل هذا ـ فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله .

والاطمئنان بذكر الله حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله . هم يعرفونها وإن كانوا لا يستطيعون التعبير عنها بالكلمات ، فهى تسرى فى القلب فيستروحها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام . ويحس أنه فى هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس ، وإنما كل ما حوله صديق لأن كل ما حوله من صنع الله الذى هو فى حماه .

---

(١) ٢٣ ـ الزمر .

٣١٠ ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

٢٩ ـ الرعد (١٣)

« طوبى لهم » : لهم كل مُستطاب في الجنة من بقاء بِلا فناء ، وعِز بلا زوال ، وغنى بلا فقر . فالطوبى : الحسنى ، أو العيش الطيِّب .

قيل إن طُوبى مؤنث الأطْيَب ، وهذه اسم تفضيل من طابَ الشيء يَطيب طيباً إذا جاد وحَسُنَ . وأصلها : طُيْبَىَ ، قُلبت الياءُ واوا لوقوعها ساكنة بعد ضَمَّة ؛ كما قُلبتَ فى مُوقن (أصلها مُيْقن) وموسر (أصلها مُيْسر) . ويقال : طُوبى لك أى أصبت خيرا وطيباً . ومحلها : النَصب أو الرَفع كقولك : سلَاماً لك وسلامٌ لك ، واللام فى «لهم» للبيان .

« الذين آمنوا » : مبتدأ ، و « طوبى لهم » : خبره .

وقيل : طوبى اسم لشجرة فى الجنة .

« وحسنُ مآب » : مَرجِع ومُنقلَب ، من الأوْب وهو الرجوع آبَ يئُوب أوْباً وإياباً ومآباً إذا رجع .

٣١١ ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ٥ ـ إبراهيم (١٤)

يَاوَمَه مُيَاوَمةً ويواماً : عامله أو استأجره باليوم .

واليَوْم : زمَن مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها ، وفى مصطلح علم الفلك : مقدار دوران الأرض حول محورها ومدته أربع وعشرون ساعة . والجمع : أيام (١) .

وأيام العرب : وقائعُهم (معاركهم) .

وأيام الله : نقَمه فى الأمم الماضية . وأيام الله : نعَمه أيضا ، وبهما فُسرت أيام الله فى هذه الآية . « وذكرهَم بأيام الله » أى بنعمائه وبلائه .

ونقل ابن كثير عن مجاهد وقتادة أن أيام الله أياديه ونعَمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهَم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم .

وكل الأيام أيام الله . ومنها ما يكون فيه بؤس فهو آية للصبر ، ومنها ما يكون فيه نعمة فهو آية للشكر . والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات ، ويدرك ما وراءها ، ويجد فيها عبرة له وعظة ، كما يجد فيها تسرية وتذكيرا .

---

(١) يقال : يَوْمٌ أيْوَمُ ، ويومٌ يَوِمٌ ، ويومٌ ذو أيام أى طويل شديد .

٣١٢ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ٧ ـ إبراهيم (١٤)

أَذَّنَ فلانٌ تَأْذيناً وأَذَاناً : أكثر الإعلام بالشىء وأَذّن بالصلاة : نادى بالأذان . وأذن بالحج : أعلم .

« تَأَذّن ربكم » : أعلم إعلاماً لا تبقى معه شبهة ، لدلالة صيغة تَفعّل من زيادة معنى ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم أذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشُّبَه .

« لئن شكرتم لأزيدنكم » : لئن شكرتم إنعامى عليكم لأزيدنكم من فضلى ونعمتى والتوفيق لطاعتى . والآية نص على أن الشكر سبب المزيد من النعمة ، فإن من شكر الله على رزقه وسَّع عليه ، ومن شكره على ما أنعم عليه به من صحة زاده اللهُ صحةً .

فحقيقة الشكر الاعتراف بالنعمة للمنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس فى النفس البشرية ؛ فالشكر ، فى الفطرة السوية ، هو الجزاء الطبيعى لما يقدم للإنسان من خير .

كما أن النفس التى تشكر الله على نعمته هى نفس تراقب الله فى تصرفاتها : فلا بطر ولا استعلاء على الخلق ، ولا استخدام للنعمة فى الأذى والفساد .

وشكر النعمة ومراقبة الله أمران من شأنهما تزكية النفس ودفعها للعمل الصالح مما ينمى النعمة ويرضى الناس عن صاحبها ، فيكونون له عونا . وتنصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات ـ وإن كان وعد الله ، فى حد ذاته ، يكفى لاطمئنان المؤمن لأن وعد الله حق واقع .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصى والسعى ! وكأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد ـ وكل هذا كفر بنعمة الله .

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة فتذهب وتزول . وقد يكون سحق آثارها فى الشعور فلا يحس صاحبها بسعادة بل تكون نقمة عليه إلى حد أنه يحسد من لا نعمة عنده . وقد يكون هذا العذاب مؤجلا إلى أجله فى الدنيا أو فى الآخرة كما يشاء الله ـ لكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضى بدون جزاء .

لاحظ أن جواب الشرط « لأزيدنكم » مؤكد بحر فى التوكيد : اللام والنون .

٣١٣ ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

٩ - إبراهيم (١٤)

« فردوا أيديَهم فى أفواههم » أى عضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ .

أو ردوا أيديهم فى أفواههم ضحكا واستهزاء بما جاءت به الرسل كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه .

أو ردوا أيديهم فى أفواههم أى وضعوا أيديهم على أفواههم ، إشارة منهم إلى الرسل أن اسكتوا ، وجوابنا لكم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ وليس عندنا غير هذا الجواب وذلك إقناطا وتيئيسا للرسل من التصديق .

وقيل : الأيدى جمع يَد وهى النعمة . ويكون المعنى : ردوا نعمَ الأنبياء وهى ما جاءوا به من شرائع وآيات ومواعظ (وهى أجل النعم) فى أفواههم ؛ لأنهَم إذا كذبوها ولم يقبلوها ، فكأنما ردوها فى أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل .

---

(١) ١١٩ ـ آل عمران .

٣١٤ ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ١٢ - إبراهيم (١٤)

هذا هو قول الرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، بعد أن قابلوا دعوتهم إلى الإيمان بوحدانية الله بالإنكار.

قالت لهم الرسل « وما لنا ألا نتوكل على الله » أى وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها. « ولنصبرن على ما آذيتمونا » أى من الكلام السيء والأفعال السخيفة « وعلى الله فليتوكل المتوكلون ».

هذا هو كلام المطمئن إلى موقفه وطريقه، المالىء يديه من وليه وناصره، المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لابد أن ينصر ويُعين، وماذا يُهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

والقلب الذى يحس أن يد الله - سبحانه - تقود خطاه، وتهديه السبيل، هو قلب موصول بالله لا يخطىء الشعور بوجوده - سبحانه - وألوهيته القاهرة المسيطرة ؛ وهو شعور لا مجال معه للتردد فى المضى فى الطريق، أيا كانت العقبات وأيا كانت قوى الطاغوت التى تتربص فى هذا الطريق. ومن ثم كان هذا الربط فى رد الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه فى مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط.

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله ﴾ (ما) استفهام فى موضع رفع بالابتداء، و (لنا) الخبر، وما بعدها فى موضع الحال. والتقدير : أى شيء لنا فى ترك التوكل على الله. « وقد هدانا سبلنا » أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته، وينجى سخطه ونقمته.

« ولنصبرن » لام قسم، مجازه : والله لنصبرن. ﴿ على ما آذيتمونا ﴾ به، أى من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا.

٣١٥ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ ١٨ - إبراهيم (١٤)

هذا التعبير شبّه ما يعمله الكافرون فى الدنيا من أعمال البر والخير بأنه فى الآخرة يكون مثل رماد فرقته الرياح العاصفة فلم يبقَ له أثرٌ ولا يرون لها أثراً من ثواب - إذ أنها لم تُبن على أساس من العلم والإيمان بالله فحبطت وذهبت هباء منثورا .

فالمثل مستعار للصفة التى فيها غرابة .

﴿ أعمالهم كرماد ﴾ : جملة مستأنفة على تقدير سؤال يقول : كيف مَثَلهم ؟ فأجيب : أعمالهم كرماد .

ويجوز أن تكون ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ خبر للمبتدأ ﴿ مثل الذين كفروا بربهم ﴾ أى : مثل الذين كفروا أعمالهم كرماد ، كقولك : صفة زيد عِرضُه مصون ومالُه مبذول .

وأعمال الكفرة هنا المكارم التى كانت لهم فى الدنيا من صلة الأرحام وعقر الإبل للضيوف وإغاثة الملهوفين وغيرها ، شبهها فى حبوطها وضياعها - لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به - برماد طيرته الريح العاصف . ﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شىء ﴾ أى لا يرون له أثرا من ثواب .

« فى يوم عاصف » : جعل العصف لليوم ، وهو (أى العصف) لما فيه من رياح ، والمعنى : فى يوم شديد الرياح ، مثل قولهم يوم ماطر وليلة ساكرة .

ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف يجسم معنى ضياع الأعمال سُدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشىء منها ، ولا الانتفاع بها أصلا .

وينطوى المشهد على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار . فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة الإيمان ، ولا يتصل الباعث عليها بالله ، أعمال مفككة كالهباء والرماد . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

بعد ذلك يأتى التعقيب الموحى : « ذلك هو الضلال البعيد » تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف . . إلى بعيد !

٣١٦ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٤، ٢٥ - إبراهيم (١٤)

﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ بَيَّنَه واعتمده ووضعه فى المكان اللائق به .

﴿كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ : تفسير لقوله ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ ، كقولك : شرف الأمير زيدا : كساه حُلةً ، وحمله على فرس . ويجوز أن يكون ﴿ مثلاً ﴾ و ﴿ كلمة ﴾ منصوبين بـ ﴿ ﴿ ضرب ﴾ أى : ضرب الله كلمةً طيبة مثلاً ، بمعنى جعلها مثلا ، قاله الزمخشرى .

ثم قال ﴿ كشجرة طيبة ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى : هى كشجرة طيبة . قال مجاهد وعكرمة : الشجرة هى النخلة .

﴿ أصلها ثابت ﴾ : أصل النخلة ثابت فى الأرض ، أى عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهى زاكية نامية .

خَرَّج الترمذى من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله ﷺ بقناع فيه رُطَب ، فقال : ﴿ مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ـ قال هى النخلة . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ـ قال هى الحنظل .

« تؤتى أكلها كل حين » : تعطى ثمرها فى كل وقت . فالنخلة تؤكل ثمرتها وهى البلح ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً . فيؤكل منها الجمار والبلح والبُسر والرطب والتمر . وكل نتاجها خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتيبس ، وكم من أناس يقيمون فى بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده .

وقيل فى تفسير ﴿ كلمة طيبة ﴾ هى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله . وقيل : هى الإيمان . وعليه يكون المعنى : أصل الكلمة فى قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبهه بالنخلة فى المنبت ، وشبه ارتفاع عمله فى السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالثمر .

ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة فى الأرض ، وأن ما يتفرع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء ، ويصعد إلى الله تعالى ، كما قال جل شأنه : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ١٠ ـ فاطر . وأن ما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها والانتفاع بها فى كل وقت .

والخير الأصيل لا يموت ، ولا يذوى مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق .

٣١٧ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ ٢٦ - إبراهيم (١٤)

﴿ كلمة خبيثة ﴾ : كلمة الكفر والضلال . وقيل : كلمة الشرك . وقيل : كل كلمة قبيحة .

وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوت [١] ونحو ذلك .

والفعل خَبُث الشيءُ يَخبُث خُبْثاً وخَبَاثةً : صار فاسدا رديئا مكروها .

﴿ اجتثت ﴾ : اقتلعت جُثتها ، أي شخصها وذاتها . يقال : اجتثثتُ الشيءَ اجتثاثاً إذا اقتلعته واستأصلته . وهو افتعالٌ من لفظ الجثة ، وهي شخص الشيء .

﴿ من فوق الأرض ﴾ لقرب عروقها من سطح الأرض .

﴿ ما لها من قرار ﴾ أي استقرار . يقال : قَرَّ الشيءُ قرارا ، كقولك : ثبت ثباتاً . شبه بها القول الذي لم يُعضد بحجة ، فهو داحض غير ثابت . والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه [٢] .

إن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، قد تهيج وتتعالى ، ويخيل إلى البعض أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ؛ ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض - وما هى إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا بقاء لها .

أما الخير الأصيل فلا يموت ولا يذوى ، مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق .

---

(١) الكَشُوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الأرض . قال الشاعر :

هو الكشوت فلا أصلٌ ولا ورقٌ ... ولا نسيمٌ ولا ظلٌ ولا ثمر

(٢) وفى الصحاح : الحق أبْلج والباطل لجلج ، أى يردد من غير أن ينفذ .

٣١٨ ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

٢٧ - إبراهيم (١٤)

﴿ القول الثابت ﴾ الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه ، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه ، وهو قول ﴿ لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴾ وهى كلمة التوحيد ، وهى الكلمة الطيبة التى ضربها الله مثلا فى الآية ٢٤ : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ﴾ .

وتثبيتهم فى الدنيا : أنهم إذا فُتنوا فى دينهم (عذبوا ليتحولوا عنه) لم يَزلواّ ، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود فى سورة « البروج » ، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد .

وتثبيتهم فى الآخرة : أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم ، لم يتلعثموا ولم يُبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر . وعن البراء بن عازب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، ذكر قبض روح المؤمن فقال : « ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه فى قبره ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ومن نبيك؟ فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ؛ فينادى مناد من السماء صدق عبدى ، فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ بإبقائهم على كلمة الشرك ، وهى الكلمة الخبيثة : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ١٣ ـ لقمان . وإضلالهم فى الآخرة أضل وأذل .

﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ أى ما توجبه الحكمة (لأن مشيئة الله هى الحكمة) من تثبيت المؤمنين وعصمتهم ، ومن خذلان الظالمين والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زَلَلِهم .

روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ . ورواه مسلم أيضا وبقية الجماعة .

٣١٩ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴾ ٣١ - إبراهيم (١٤)

﴿ خلال ﴾ : جمع خُلَّة . والخُلَّة هنا تعنى أحد أمرين : الصداقة والمحبة التى تخللت القلب فَصارت فى باطنه ؛ أو الصديق (ويستوى فيه الذكر والمؤنث والمفرد والجمع) .

ويمكن أن تكون ﴿ خلال ﴾ المصدر من الفعل خَالَّه مُخَالَّةً وخلالاً : صادقه . ويقال أيضا : خَالَلَهُ (بفك الإدغام)(١) .

« يوم لا بيع فيه ولا خلال » : هو يوم القيامة وهو يوم لا تنفع فيه مُخالّة ولا صداقة ولا أصدقاء ، ولا تنفع فيه مبايعات ولا مبادلات لأنه لا بيع فى هذا اليوم ولا شراء . كما فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ ٢٥٤ ـ البقرة . وإنما ينفع العبدَ إيمانُه وعملُه الصالح الخالص لوجه الله تعالى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى (٢) ١٩ ـ ٢١ ، الليل .

﴿ سرًا وعلانية ﴾ : نصبتا على الحال بمعنى : مُسرين ومعلنين ؛ أو على الظرف أى وقتى سر وعلانية ؛ أو على المصدر أى إنفاق سر وإنفاق علانية . والمعنى : إخفاء المتطوَّع به من الصدقات والإعلان بالواجب . وقيل فى معنى ﴿ سرًا ﴾ إن السر تصان فيه كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخرا وتظاهرا ومَباهاة . وأما العلانية ففيها تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع ـ وهذا وذاك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقدير صاحبه . وقيل إن السر والعلن هنا معناه أن الله ، سبحانه وتعالى ، أباح لعباده أن ينفقوا فى السر إذا شاؤوا ، وفى العلن إذا أحبوا ـ ولكن بغير مَنٍّ ولا رياء . وجاء فى « التفسير الوسيط » : واعلم أن الأفضل فى إنفاق التطوع الإخفاءُ ، وفى إنفاق الواجب (أى ما هو مفروض كالزكاة) الإعلانُ .

﴿ يقيموا الصلاة ﴾ : المراد بإقامتها هو المحافظة على أوقاتها وخشوعها وشروطها وأركانها . والصلاة أخص مظاهر الشكر لله . وأداء الصلاة مجلبة للرزق ، قال القرطبى :

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ، مادة : خَلَّ .

(٢) هذا الأتقى الذى ينفق ماله ليتزكى به ويتطهر من الذنوب (فى الآية السابقة من سورة الليل) لا ينفقه جزاء على نعمة سلفت إليه من أحد « فليس لأحد يَدٌ (إحسان) سابقة يريد أن يجازيه بها ، وإنما هو ينفق المال ابتغاء مرضات ربه ، وجزاؤه الرضى ينسكب فى قلبه ويشيع فى كيانه ويندى حياته .

كان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق (أى فى الرزق) أمَرَهم بالصلاة ؛ جاء ذلك فى سياق تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأمُرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ ١٣٢ ـ طه . وعن بكر بن عبد الله المزنى كان إذا أصابت أهلَه خَصَاصةٌ (فقر وحاجة) قال : قوموا فصلوا ، بهذا أمر اللهُ رسولَه ، ثم يتلو هذه الآية من سورة طه[1] . والخطاب فيها ، وإن كان للنبى ﷺ ، إلا أنه يدخل فيه جميع أمته . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول : ﴿الصلاة ﴾ . وكان عمر بن الخطاب يوقظ أهله لصلاة الليل ويصلى وهو يتمثل بالآية . إن وقوف العبد أمام ربه خمس مرات كل يوم من شأنه ، إذا كانت الصلاة بحضور القلب والعقل مع الله واستشعار الخوف من حسابه ، أن يرتدع العبد عن فعل الآثام ؛ فيتطهر المجتمع من الشرور والمظالم وتستقيم العلاقات بين الناس وتصبح حياتهم أقل عناء وأسعد حالا .

---

(١) راجع : « الكشاف » للزمخشرى ، حـ ٣ ، ص ٩٩ .

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ٣٤ - إبراهيم (١٤)

« لا تُحصوها » : لا تحصروها ولا تطيقوا عدَّها وبلوغَ آخرها لأنها نِعَم لا نهاية لها - فهلا استعنتم بهاَ على الطاعة !

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ : « ما » فى « ما سألتموه » موصولة ، والمعنى : آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به ؛ فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال . وقيل : مِنْ للتبعيض ، أى أتاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مصالحكم .

وقرئ : من كُلٍّ بالتنوين ، وما سألتموه نفى (أى أن ما هنا نافية) ومحله النصب على الحال : أى آتاكم من جميع ذلك غيرَ سائليه - فهلا شكرتموه ، وشكر النعمة من العبادة .

« لظلوم » : يظلم النعمة بإغفال شكرها . « كفار » : شديد الكفران لها . وقيل : ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع ، وكفار فى النعمة يجمع ويمنع .

جاء فى « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير : يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعَم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وفى صحيح البخَارى أن رسول ﷺ كان يقول :

« اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه » .

٣٢١ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ ٤٢ - إبراهيم (١٤)

شَخَصَ فلانٌ بَصَرَه وببصره : فَتَح عينيه ولم يَطرفْ بهما [1] متأملا أو منزعجا . فأهل الموقف (المحشر) لا تطرف أجفانهم من هول ما يرونه يوم القيامة . وتظل أبصارهم مفتوحة مذهولة من الفزع والهلع .

والرسول - ﷺ - لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم فى هذه الحياة الدنيا . لكن الله إذا أنظرهم وأمهلهم فإن هذا لا يعنى أنه غافل عنهم مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم - بل هو يحصى ذلك عليهم ، وسوف يأخذهم الأخذة الأخيرة التى لافكاك منها وذلك فى اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار .

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ قال الزمخشرى المراد بالنهى عن حسبانه غافلا الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون ، لا يخفى عليه منهم شىء ، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ يريد الوعيد . ويجوز أن يراد : ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، المحاسب على النَّقير والقطمير [2] . قال ابن عينية : هو تسلية للمظلوم وتهديد للظالم .

وإذا قيل إن الله - سبحانه وتعالى - مُنَزه عن السهو والغفلة ، فكيف يحسبه الرسول ﷺ - وهو أعلم الناس به - غافلا ؟ قال الزمخشرى : إن الخطاب إن كان للرسول ﷺ ، فالوجه فى ذلك (أى القصد فى ذلك) هو التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا كقوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ١٤ - الأنعام وقوله : ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر ﴾ ٨٨ - القصص .

إن أثر هذا التعبير القرآنى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ فى النفس وفى القلب وفى المشاعر أكبر من أن تعبر عنه الكلمات - إنه يهز الكيان البشرى هزّاً .

---

(١) طَرَفَ بعينيه : حرَّك جفْنَيْه . وطَرَفَ البصرُ يطرفُ طَرْفاً : تحرك جفناه .

(٢) النقيرَ : نُقْرة صغيرة فى ظهر النواة ، والقطمِير : القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها . وتستخدم الكلمتان للتعبير عن الشىء الهَين الحقير .

٣٢٢ ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

٤٣ - إبراهيم (١٤)

الهواء : كلٌّ منخرق الأسفل لا يعى شيئا . والهواء : كل فارغ . والهواء : الجبان لا قلب له . وقَلْبٌ هواءٌ وقلوبٌ هواءٌ (للمفرد والجمع) : فارغ وفارغة .

يقول الزمخشرى فى « الكشاف » : الهواء هو الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جرأة . قال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان قبل إسلامه :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى   فأنت مجوف نخب هواء

والمجوف والنخب والهواء : فارغ القلب من العقل والشجاعة .

﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، لا تعى شيئا ، ولا تعقل من شدة الخوف والدهشة .

﴿ مهطعين ﴾ : مسرعين إلى الداعى بذلة واستكانة ؛ كإسراع الأسير والخائف . يقال : أَهْطَعَ فى عدوه يُهْطِعُ إِهْطَاعاً إذا أسرع .

﴿ مقنعى رؤوسهم ﴾ رافعيها إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء . يقال : أقنع رأسَه إذا نصبَه ورفعه ، أو لم لم يلتفت يمينا وشمالا .

﴿ لا يرتد إليهم طَرْفُهم ﴾ : الطرْف : تحريك الجفن ، وتحريك الجفن لازم للنظر ، والمعنى : لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كان يرجع كل لحظة ؛ أى لا يرجع إليهم نظرهم ، بل يبقون مبهوتين حائرين .

٣٢٣ ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ٤٦ - إبراهيم (١٤)

﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ : أورد المصدر بعد الفعل لتوكيد الفعل . أى مكروا مكرهم البالغ الذى استنفدوا فيه طاقتهم ، وبذلوا فى تدبيره كل مجهود لهم ، سعيا فى إبطال الحق وتقرير الباطل .

﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى وعند الله علم مكرهم الذى يهلكهم به . أو عنده عقاب مكرهم الذى فعلوه . وتسمية عقابهم مكرا لأنه يقابل مكرهم وجودا وذكرا ، ويسمى هذا مُشاكلة فى اصطلاح علماء البلاغة ، أو لكونه فى صورة المكر لوقوعه من حيث لايشعرون .

﴿ وإن كان مكرهم لتزولَ منه الجبال ﴾ : قيل « إن » نافية بمعنى ما (١) واللام فى «لتزول » مؤكدة لها ، كقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليُضيع إيمانكم ﴾ ١٤٣ ـ البقرة . والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم لضعفه ووهنه . قال الزَمخشرى فى «الكشاف » : على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا ، ويؤيد هذا قراءة ابن مسعود : وما كان مكرهم لِتزول منه الجبال . فلا يمكن لمكرهم أن يزيل آيات الله وشرائعه .

وقيل معنى « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » : وإن عظُم مكرُهم وتبالغ فى الشدة ، فضرب زوال الجبال منه مثلا لتفاقمه وشدته . وقرأ ابن محيصن والكسائى «لَتزولُ » بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء التى تفيد التوكيد ورفع اللام الثانية ؛ ويكون المعنى وفق هذه القراءة : استعظام مكرهم ، أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه . وقرأ على وعمر رضى الله عنهما : وإن كاد مكرهم بالدال .

---

(١) قال القرطبى : وردتْ « إن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع خمسة أحدها هذا والثانى : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك » ؛ الثالث : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا » أى : ما كنا ؛ الرابع : « قل إن كان للرحمن ولد » ؛ الخامس : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه » .

الذِّكْر (١) : القرآن .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ : ﴿ إنا نحن ﴾ مؤكدتان ، فأكد عليهم أنه هو المنزل للذكر على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به جبريلَ إلى محمد ، ﷺ ، وبين يديه من خلفه رَصَدٌ(٢) حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين .

والله حافظ القرآن فى كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها ، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار (٣) فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف والتغيير (٤) وفى قوله : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ دليل على أنه منزل من عنده ـ سبحانه ـ لأنه لو كان من قول البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان كما يتطرق إلى كل كلام سواه .

وقيل فى تفسير ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ : حافظون له بجعل طائفة من الأمة تقوم بحفظه والذَّب عنه (الدفاع عنه) إلى آخر الدهر .

وقيل : حافظون له بالإعجاز ، فهو مُعجز ، ولن يقدر أحد على معارضته أى مباراته والإتيان بمثله .

لقد أورث اللهُ قلبَ كل مؤمن غيرةً على القرآن ، فلا نرى أحدا يتسامح فى لحنة لاحن فيه ولو كان شيخا عظيما ، بل يسارع إلى رده إلى الصواب ، ولا يخشى فى الله لومة لائم .

فالقرآن الكريم نسخة واحدة فى جميع الأمصار والأعصار ، فى عهد رسول الله ، وحين جمعه أبو بكر فى نسخة واحدة ، ثم نسخه عثمان فى أربع نسخ وزعها على الأمصار ، لم يتغير فيه حرف ولا كلمة ، لأنه تعالى تولى حفظه بنفسه ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ ١٧ ـ القيامة ولم يستحفظ عليه أحدا ، فَطَبَعَ كلَّ مسلم على الغيرة عليه والمبالغة فى صيانته بدافع وجدانى ليظل دستور أمة الإسلام .

---

(١) والذكر : الصلاة لله والدعاء إليه . والذكر : الصِّيت .

(٢) رَصَد : رقباء وحراس ، تستخدم رصد للواحد والجمع والمؤنث .

(٣) ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . . . ﴾ ٤٤ ـ المائدة .

(٤) وما لم يبدلوه منها أساءوا تأويله ، وتعمدوا تحويله . وقد زال أصل التوراة ولم يعد لها وجود ، وضاع أصل الإنجيل وانتهى أمره ؛ ولهذا لا نجد نسخ التوراة أو الإنجيل متماثلة ، فنرى بعضها أطول من بعض مع الاختلاف فى العبارات والمعانى .

ولا شك أن حفظه من التغيير والتبديل على امتداد أربعة عشر قرنا ونيف آية على أنه من عند الله جل وعلا . فالأحوال والظروف والعوامل التى تقلبت على هذا الكتاب فى هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا لا تتبدل فيه كلمة ولا تحرف فيه جملة ، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر أكبر من الأحوال والظروف تحفظ هذ الكتاب .

فى أيام الفتن الأولى كثرت الفرق والفتن ، وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند فى هذا القرآن وفى حديث رسول الله ﷺ . وأدخلت على حديث الرسول ما احتاج إلى جهد كثيرين من العلماء الأتقياء الأذكياء على امتداد عشرات السنين كى يحرروا الأحاديث النبوية وينقوها من كل دخيل - لكنها عجزت جميعا ، حتى فى أشد أوقات الفتن ظلاما واضطرابا ، عن أن تحدث حدثا واحدا فى نصوص القرآن التى بقيت كما أنزلها الله .

واليوم نرى المسلمين عاجزين عن حماية أنفسهم وعقيدتهم وعن حماية أرضهم وأخلاقهم فى وجه الهجمة الشرسة التى يشنها أعداؤهم ، وخصوصا اليهود . غَيَّر هؤلاء الأعداء كل معروف عند المسلمين وأحلوا مكانه كل منكر من العقائد والتصورات ومن الأخلاق والعادات ومن القيم والقوانين ، وزين الأعداء الانحلال والفساد والتوقح والتعرى ، ووضعوا كل ذلك تحت شعارات وعناوين مزيفة مثل التقدم والتطور والعلمية والانطلاق والتحرر .

وقَدَر أعداء الدين الإسلامى على أشياء كثيرة : قدروا على الدس فى سنة رسول الله ﷺ وعلى تاريخ الأمة المسلمة ؛ وقدروا على دس الأشخاص فى جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التى يعجزون عن أدائها وهم سافرون ؛ وقدروا على تقديم عملائهم الخونة فى صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير فى جسد المجتمع الإسلامى على مدار القرون .

لكن شيئا واحدا لم يقدروا عليه . لم يقدروا على إحداث شىء فى هذا الكتاب المحفوظ ، الذى لا يقدر أهله المتنسبون إليه على حمايته بعد أن نبذوه وراء ظهورهم وباتوا كغثاء السيل لا يملكون دفعا ولا يستطيعون منعا .

لقد كان هذا القول الجليل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ مجرد وعد على عهد رسول الله ﷺ . أما اليوم ، وبعد مرور كل تلك القرون الطوال وبعد كل تلك الأحداث الجسام ، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب وبأنه حقا تنزيل من لدن عزيز حكيم .

٣٢٥ ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ١٤، ١٥ ـ الحجر (١٥)

سَكَرْتُ النهرَ أَسْكُرُه سكْرًا : سددته . والتشديد (سكَّرْتُه) للمبالغة .

﴿ سُكرت أبصارنا ﴾ : سُدَّت ومُنعت من الإبصار .

ومعنى الآيتين أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد أن لوفُتح لهم باب من أبواب السماء وصعدوا إلى ملكوت السموات ورأوا ما فيها من الملائكة والعجائب ، لقالوا ـ لفرط عنادهم وجحودهم ـ إنما سكرت أبصارنا وحبست من الإبصار ، وما نرى إلا تخييلا لا حقيقة له ، وقد سحرنا محمد .

٣٢٦ ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

١٩ ـ الحجر (١٥)

﴿ موزون ﴾ : وزن بميزان الحكمة ، وقدر بمقدار ما تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو : له وزن وقدر فى أبواب النعمة والمنفعة . كما فى قوله تعالى : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقَدَر ﴾ ٤٩ ـ القمر .

قال صاحب الظلال : كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقةٌ وإحكام وتقدير ، وكلمة ﴿موزون ﴾ كلمة ذات ثقل تشترك مع كلمة الرواسى، وهى كلمة ذات ثقل أيضا، فى إضفاء ظل الضخامة على السياق .

قال القرطبى : موزون أى مقدر معلوم ، وإنما قال ﴿ موزون ﴾ لأن الوزن يعرف به مقدار الشىء .

وجاء فى « التفسير الوسيط » أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنبت فى الأرض التى بسطها لنا من كل نبات ما هو مقدر عنده بحكمة ، ومعلوم له أنه لمصلحة عباده قوتا أو دواء أو وقاية من داء .

٣٢٧ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

٢١ ـ الحجر (١٥)

الخزائن : جمع خزَانة ، وهى ما يُحرز فيه الشيءُ ويُحفظ ؛ وخُصت بما يخزن فيه نفائس الأموال . خَزَنَ الشيءَ يخزُنه : حفظه وأحرزه فى الخزانة .

والمعنى أن خزائن كل شيء ـ أى مصادره وموارده ـ عند الله فى علاه ، ينزله على الخلق فى عوالمهم « بقدر معلوم » فليس من شيء يتم اعتباطا .

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ؛ وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف . وأنه ينزله كما يشاء وكما يريد ، ولما له فى ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب ، بل هو كتب على نفسه الرحمة .

وكلما تقدم الإنسان فى المعرفة ، تجلى له بوضوح أكبر مدلول كلمة « خزائنه » فمثلا عرف الإنسان أن خزائن الماء الأساسية هى ذرات الأيدروجين والأوكسجين . وعرف مثلا أن خزائن النبات الأخضر هى : الآزوت الذى فى الهواء ، والكربون والأوكسيجين الموجودان فى ثانى أوكسيد الكربون ، والأشعة التى ترسلها الشمس . وهناك أمثلة أخرى كثيرة توضح دلالة ومعنى كلمة خزائن الله التى توصل الإنسان إلى معرفة شيء منها .

قال القرطبى : الإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد ، كقوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ٦ ـ الزمر ، وقوله : ﴿ وأنزل الحديد فيه بأس شديد ﴾ ٢٥ ـ الحديد . وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء ، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

٣٢٨ ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ ٢٣ ـ **الحجر** (١٥)

﴿ ونحن الوارثون ﴾ أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقى ﴿ وارث ﴾ استعارة من وارث الميت ، لأنه يبقى بعد فنائه . وفى الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة قال كان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما الوارث منى » وأورده الطبرانى عن على رضى الله عنه .

وقال حسنين مخلوف فى « صفوة البيان » : ونحن الوارثون لزوال ملك كل مَالك عما مَلك ، وبقاء جميع ذلك لنا . أخبر تعالى أنه يرث الأرض ومن عَليها ، نَظيره : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : ونحن الوارثون لكم ولأموالكم ولكل شىء فى هذا الوجود ، وكل ما أعطيناه للخلق فهو عارية [1] مستردة .

٣٢٩ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ٧٢ـ **الحجر** (١٥)

العَمْر (بفتح العين) والعُمْر (بضمها) واحد ، ومعناهما : مدة حياة الإنسان وبقائه . والتزم الفتح فى القَسَم إيثارا للأخف وذلك لأن الحلف كثير الدوران على ألسنتهم .

وعَمْر مبتدأ ، وخبره محذوف وجوبا وتقديره : قَسَمى أو يمينى .

﴿ لَعَمرُكَ ﴾ : قسم من الله تعالى بحياة محمد ﷺ (وما أقسم بحياة أحد قط) تكريما لنبينا عليه الصلاة والسلام . وقيل : الخطاب من الملائكة للوط عليه السلام ، وهم يقسمون بحياته عندما جاؤوا إليه والتف حولهم أهل مدينته اللواطيون (الآيات السابقة) .

﴿ إنهم لفى سكرتهم) أى غوايتهم أو شدة غلمتهم التى أذهبت عقولهم وأفقدتهم القدرة على التمييز بين الخطأ وبين الصواب الذى تشير به عليهم يا لوط من ترك البنين إلى البنات .

﴿ يعمهون ﴾ : يترددون حيارى .

---

(١) العارية : ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك . يقال : كل عارية مستردة .

٣٣٠ ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ٨٥ ـ **الحجر** (١٥)

فَأعرض عنهم ، واحتمل ما تلقى منهم ، إعراضا جميلا فيه حلم وإغضاء . فيراد به المخالقة أى المعاملة بحسن الخلق . وفى الصحاح : خالص المؤمن ، وخالق الفاجر . صَفَحَ عن ذنبه : أعرض عن مؤاخذته ، وعفا عنه . وإذا وصف الصفح بالجمال فى القرآن ـ الصفح الجميل ـ صار أبلغ عفواً .

وإنه لتعبير بالغ الجمال والتأثير عندما يقتبس فى مواقف الشحناء والنزاع . روى عن على وابن عباس رضى الله عنهم فى تفسير الصفح الجميل ، وفى أمره ﷺ بالصفح الجميل ، إشارة كريمة إلى تركهم لله تعالى ، وأن يتذرع بالصبر الجميل ، حتى يأتى وعد الله وما قضاه فى شأنهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يصفح عنهم فلا يحمل نفسه ما لا تطيق من الضيق بكفرهم . (راجع « التفسير الوسيط ») .

٣٣١ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾

٩٤ ـ **الحجر** (١٥)

صَدَعَ النباتُ الأرضَ يصدَعها صَدْعًا : شقها وظهر منها . انصدعَ الصبحُ : أسْفر (وضُح وانكشف) ؛ والصديع : الفجر . « فاصدع بما تؤمر » : فاجْهَر به وأظهِرْه . يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا ، كقولك : صرح بها .

وقيل : فاصدع أى فافْرق بين الحق والباطل بما تؤمر أى بما تؤمر به من الشرائع . فالصدع هو الشق والفرق . وقد كانَ رسول الله ﷺ مستخفيا بالدعوة ، حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه معلنين بها لا يبالون بالمشركين ، كما قال تعالى : ﴿وأعرض عن المشركين ﴾ .

فالخطاب للرسول أن يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمى هذا الجهر صدعا ـ أى شقا ـ دلالة على القوة والنفاذ . لا يقعده عن الجهر بالدعوة والمضى فيها شرك مشرك .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

٨ ـ النحل (١٦)

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ : ويخلق لكم غيرَ ذلك أشياء ترتفقون بها (تنتفعون وتستعينون بها) ، لا تعلمونها الآن ولا تخطر لكم ببال . وستعلمونها حين يجيء الوقت المقدر لخلقها . وكما خلق لكم الأنعام والدواب ، يهديكم إلى اختراع وسائل أخرى للتنقل والحمل لم تكن موجودة فى عصر نزول القرآن وما تلاه إلى زمن قريب ، مثل السيارات والقطارات والطائرات والسفن التى تسير بالبخار وغيره ، وغير ذلك من الوسائل التى لم تعرف حتى الآن . وفى هذا الإعجاز القرآنى ما لا يخفى على الباحثين الدارسين ، ولا تزال الكشوف متوالية إلى ما شاء الله مما لم يكن يخطر على بال .

والتعبير : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ يترك المجال مفتوحا أمام التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يقف تصورهم عند حدود بيئتهم أو عند حدود زمانهم . فوراء الموجود فى كل زمان ومكان صور أخرى يريد الله للناس أن يتوقعوها ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو تكتشف أو تخترع ، فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها . إن الإسلام قابل لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ؛ ومن ثم يهيء القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم وما يتمخض عنه المستقبل ، استقباله بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة ـ بل والإسهام فى الكشف عن ذلك ، فلا جمود ولا تحجر فى الإسلام .

٣٣٣ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٩ ـ النحل (١٦)

السبيل : الطريق . والقَصْدُ منه هو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه وهو الإسلام . يقال سبيلٌ قَصْدٌ وقاصد أى مستقيم [١] . والفعل هو قَصَدَ الطريقَ يَقصدُ قصْدًا : استقام . والقَصْدُ : استقامةَ الطريق [٢] .

« وعلى الله قصد السبيل » أى بيانُ طريق الاستقامة والهدى ، بإرسال الرسل ونَصْب الدلائل ، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه فالله كتب على نفسه كشف بيان الطريق إليه سبحانه بآياته فى الكون وبرسله إلى الناس .

« ومنها جائر » أى ومن جنس السبيل سبيل جائر أى معوج منحرف عن الحق ، وهو مِلَل الكفر ونحل أهل الأهواء الضالة . « جائر » من الجور وهو ضدّ العدل وضدّ القصد .

« ولو شاء لهداكم أجمعين » أى لو أراد سبحانه وتعالى هداية البشر جميعا بطريق الجبر لفعل ، ولكن حكمته السامية اقتضت أن يختبرنا ويتركنا لعقولنا واختيارنا ، بعد أن أرشدنا إلى آياته ودعانا إلى الحق على ألسنة رسله : ﴿ لِيَهلك من هلك عن بينة ويحىَ من حَىَّ عن بينة ﴾ ٤٢ ـ الأنفال .

٣٣٤ ﴿ لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ٢٣ ـ النحل (١٦)

﴿ لاَجَرَم ﴾ : قال الفراء : هى كلمة كانت فى الأصل بمنزلة : لا محالة ، ولابُد ؛ فَجَرَت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة « حقا » .

ومعنى التعبير : حقا إن الله تعالى يعلم ما يخفونه فى أنفسهم من الشرك وسر الطوية ، كما يعلم ما يعلنون من المعاصى .

« إنه لا يحب المستكبرين » : أخرج مسلم عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر » .

---

(١) الذى لا يلتوى كأنه يقصد قصدا إلى غايته فلا يحيد عنها .

(٢) ويقال : هو على القَصْد ، وعلى قَصْد السبيل : إذا كان راشدا ويقال : طريقٌ قَصْدٌ أى سهل مستقيم .

٣٣٥ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٧٦ ـ النحل (١٦)

﴿ ضرب الله مثلا ﴾ أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل .

أبْكم : من الفعل بَكِمَ الرجلُ يَبكم بَكَماً : عجَز عن الكلام خِلْقَةً ، فهو أبكم وهى بكماء . والجمع بُكم .

والكَلُّ : من يعتمد على غيره فى معيشته . والكَلُّ : من يكون عبئا على غيره .

﴿ كلٌّ على مولاه ﴾ : عالة وعبءٌ ثقيل على سيده الذى يتولى أمره .

﴿ يُوجهه ﴾ : يبعثه فى مهمة . « لايأت بخَيْر » لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يُقال له ولا يُفهم عنه . قرأ يحيى بن وثاب ﴿ أينما يُوَجَّه ﴾ على الفعل المجهول . ورُوى عن ابن مسعود ﴿أينما تَوَجَّه ﴾ .

« يأمر بالعدل » : يدعو إلى الخير والبر .

« على صراط مستقيم » : على منهج قويم .

أخبر السياق القرآنى قبل ذلك وفى الآية ٧٣ أن المشركين ﴿ يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا ﴾ وهى الأصنام والأنداد والأوثان . وقال فى الآية ٧٤ ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أى لا تجعلوا لله أنداد وأشباها وأمثالا . وفى الآية ٧٥ ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه ﴾ ، قال قتادة : هذا المثل للمؤمن والكافر ، فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر لأنه لا ينتفع فى الآخرةبشىء من عبادته ، وإلى أن معنى ﴿ من رزقناه منا رزقا حسنا ﴾ هو المؤمن . ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة ، فإن النكرة فى الإثبات لا تقتضى الشمول .

وفى هذه الآية قال ابن عباس : الأبكم الكافر ، والذى يأمر بالعدل المؤمن ، ففيها مثل آخر مؤكد للمثل الأول ؛ إذ يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذى لا يدرى شيئا ولا يعود بخير ، والرجل القوى المتكلم الآمر بالعدل ، العامل على طريق الخير . وقال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن أى الصنم الذى كانوا يعبدونه ، وللحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى جعلوا له أندادا .

٣٣٦ ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

٩٢ ـ النحل (١٦)

نَقَضَ الشيءَ ينقُضه نَقْضًا : أفسده بعد إحكامه . يقال : نَقَضَ البناءَ : هَدَمه . ونقض الحبْلَ أو الغَزْلَ : حَلَّ طاقاته ، والطاقات جمع طاقة وهىَ شعبة أو حزمة من شَعر أو خيوط أو حبال .

الغَزْل : المغزول أى الخيوط المفتولة بالمغزل .

قوة : إبرام وإحكام .

أنكاثا : جمع نِكْث وهو ما نُقِضَ من الأكْسِية (جمع كساء) والأخبِية (جمع خِباء) ليُغزَل ثانية .

والتَعبير مَثل ضُرب لناقضى العهود بعد توثيقها والمعنى : لا تكونوا فى نقضكم للعهود والأيمان (والمنهى عنه فى الآية السابقة : وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) كالمرأة التى راحت تحل طاقات غَزْلها بعد أن أحكمته وأبرمته . قيل إن هذه المرأة هى ربطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء ، اتخذت مغز لا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة (الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس) إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزَلن (الكشاف للزمخشرى) .

﴿ تتخذون ﴾ : حال . ﴿ أيمانكم دَخَلاً بينكم ﴾ : أيمانكم مفعول أول لتتخذون ، ودخلاً مفعول ثان . والدخل : المفسدة والغدر .

والمعنى : لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للغدر والخيانة فتنقضونها مع من تعاهدتم معهم إذا وجدتُم قوما غيرهم أزيد عددا وأقوى وهو معنى ﴿ أربى ﴾ . ﴿ يبلوكم الله به ﴾ أى يختبركم به : هل توفون بعهدكم ؟

٣٣٧ ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾ ٩٤ - النحل (١٦)

﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ : هذا مثل يُضرب لكل من وقع فى بلية ومحنة بعد عافية ونعمة، ولكل من كان على الطريق المستقيم فَجَانَبَهُ .

زَلّت قدمُه تزلُّ زَلاً وزُلولاً : زلقت . ويقال : زَلّ فى منطقه ورأيه : أخطأ . والثبوت مصدر الفعل ثبتَ يثبُت ثباتا وثبوتا : استقر .

فى الآية تكرار النهى عن اتخاذ الأيمان وسيلة للغدر والخيانة والإفساد بعد أن نهى عنه نهيا ضمنيا فى الآية السابقة . وفى هذا التكرار تأكيد عليهم وإظهار لعظم ما يركب منه ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ أى فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها (أى الأقدام) عليها . والمحجة : الطريق المستقيم .

الدَّخَلُ: الخديعة والغدر والمكر . من الفعل دَخَلَ الشىءُ يَدْخَلُ دَخَلاً : أصابه فساد .

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم ﴾ أى لا تتخذوها ذريعة للغش والخديعة .

يؤكد السياق على الوفاء بالعهود ، وينهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة . ويحذر من عاقبة ذلك فى زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية ، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات ، وينذر بالعذاب العظيم فى الآخرة .

ذلك أن اتخاذ الأيمان وسيلة للخديعة والغدر إنما يزعزع العقيدة فى الضمير ، ويشوه صورتها فى ضمائر الآخرين . فالذى يقسم وهو يعلم أنه كاذب فى قسمه لايمكن أن تثبت له قدم ، ولا أن تثبت له قدم على صراط العقيدة . وهو فى الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يُقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش - ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السىء الذى يضربه .

ولقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهودهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ، ومن إخلاصهم فى أيمانهم ، ومن نظافتهم فى معاملاتهم - فكان الكسب ضخما .

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول - ﷺ - فى نفوس المسلمين أثرا قويا وطابعا عاما فى هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامى الفردى والدولى المتميز .

٣٣٨ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

٩٧ ـ النحل (١٦)

﴿حياة طيبة﴾ : يعنى فى الدنيا ، وهو الظاهر . فالمؤمن الذى يعمل الصالحات يعيش عيشا طيبا فى الدنيا حتى ولو كان معسرا ، إذ معه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بما قسم الله . وعن ابن عباس : الحياة الطيبة هى الرزق الحلال ؛ وعن الحسن هى القناعة ؛ وقيل : هى حلاوة الطاعة والتوفيق فى قلبه .

هذه الحياة الطيبة متوقفة على شرطين : العمل الصالح والإيمان . إن الجنسين : الذكر والأنثى ، متساويان فى قاعدة العمل والجزاء ، وفى صلتهما بالله ، وفى جزائهما عند الله . ومع أن لفظ « مَن » حين يُطلق يشمل الذكر والأنثى ، إلا أن النص يُفصل : « من ذكر أو أنثى » لزيادة تقرير هذه الحقيقة وذلك فى السورة التى عرضت سوء رأى الجاهلية فى الأنثى وضيق المجتمع بها ، واستياء من يُبَشَّر بمولدها ، وتواريه من القوم حزنا وعارا ، وذلك فى الآيتين ٥٨ و ٥٩ : ﴿ وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيُمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ .

وإن العمل الصالح لابد له من القاعدة الأصلية يرتكز عليها ، قاعدة الإيمان بالله ﴿وهو مؤمن﴾ فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء ، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته ـ إنما هو كهباء ورماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، والعقيدة هى المحور الذى تُشَد إليه الخيوط جميعا ، وإلا فهى أنكاث . فالعقيدة هى التى تجعل للعمل الصالح باعثا وغاية . فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير ، لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل .

وإن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى هذه الأرض لا يهم أن تكون رغدة ثرية بالمال . ففى الحياة أشياء أخرى كثيرة تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ؛ وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة وسكن البيوت ومودات القلوب .

وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة ـ وليس المال إلاعنصرا واحدا يكفى منه القليل حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وإن الحياة الطيبة فى الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ ٩٨ - ١٠٠ النحل (١٦)

﴿ ليس له سلطان ﴾ أى تسلط وولاية ، فالمؤمنون المتوكلون على ربهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريده منهم من اتباع خطواته . والتسلط : التحكم والسيطرة .

والسلطان : القهر والغلبة ، ويستعمل فى الحجة والبرهان . والكلمة هنا . بمعنى : القهر والغلبة ، ولها نفس المعنى فى المواضع الآتية : ٢٢ ـ إبراهيم ؛ ٤٢ ـ الحجر ؛ ٦٥ ـ الإسراء ؛ ٢١ ـ سبأ ؛ ٣٠ ـ الصافات ؛ ٣٣ ـ الرحمن .

جاء فى « تفسير القرطبى » : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ أى بالإغواء والكفر ، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر ، قاله سفيان . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال ، لأن الله تعالى صرف سلطانه عليهم حين قال عدو الله إبليس لعنه الله : ﴿ ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ٣٩ ، ٤٠ ـ الحجر ، قال الله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ ٤٢ ـ الحجر .

﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ أى يطيعونه . يقال : توليته أى أطعته ، وتوليت عنه ، أى أعرضت عنه .

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذى يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشيطان .

والأمر بالاستعاذة مندوب إليه (أى مستحب) عند جمهور العلماء ؛ وروى عن الثورى وعطاء أنه واجب نظرا لظاهر النص .

وقيل إنه خطاب للرسول ﷺ . وتوجيه الخطاب إليه للتنبيه على أنها مؤكدة بالنسبة لغيره ﷺ ، فإنه ﷺ مُحَصَّن من الشيطان ، ومع هذا فقد أمر بالاستعاذة منه ، فما بالك بغيره .

وصيغة الاستعاذة المأثورة هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لتضافر الروايات على أنه ﷺ كان يستعيذ كذلك .

فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم . فمهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم من أن ينساقوا معه . وقد يخطئون ، لكنهم لا يستسلمون ، إذ يطردون الشيطان ويثوبون إلى ربهم من قريب .

٣٤٠ ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

١٠٦ ـ النحل (١٦)

﴿ إلا من أُكره ﴾ : نزلت فى عمار بن ياسر ، فى قول أهل التفسير ، لأنه قارب بعض ما دعاه الكفار إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصُهيباً وبلالاً وخَبَّاباً وسالما فعذبوهم وقتلوا سمية وزوجها ياسر ، وهما أول قتيلين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : ﴿ كيف تجد قلبك ﴾ ؟ قال : مطمئن بالإيمان . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ فإن عادوا فعُد ﴾ .

لما سمح الله عز وجل بالكفر به عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم ؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبى ﷺ : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، وهذا الأثر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء . (راجع تفسير القرطبى) .

أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل ، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر ؛ قال القرطبى : هذا قول مالك والكوفيين والشافعى . قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ ٢٨ ـ آل عمران ، وقال : ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ ٩٨ ـ النساء . فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به ، والمُكْرَه لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به ؛ قاله البخارى .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : من جَحَد وجود الله أو أنكر دينه الحق من بعد الإيمان ، فإن الله يغضب عليه ويعذبه عذابا عظيما . هذا الجواب الذى قدرناه هنا مستفاد من قوله تعالى فى باقى الآية : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

ثم استثنى الله من هذا العقاب من أكره على الكفر : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ أى إلا من أرغم على الكفر بشىء يخشى منه على نفسه أو على عضو من أعضائه ، فكفر ، وحاله لم تتغير من ناحية اطمئنان قلبه بالإيمان وسلامة عقيدته ، ولم يخالط يقينه أى شك أو تردد ، فلا يضره هذا الكفر ـ بل هو فى كنف الله ورعايته .

﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا ﴾ أى لم يكن مُكرها على الكفر . بل آثره واطمأنت إليه نفسه ، وتفتح له قلبه ، وانشرح به صدره « فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان ـ كذلك صنعت سمية أم ياسر وأبوه . وقد كان بلال ـ رضوان الله عليه ـ يفعل المشركون به الأفاعيل ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أَحَدٌ ، أحد وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول الله . فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك .

٣٤١ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ ١١١ ـ النحل (١٦)

جَادَلَه مُجَادلةً وجدالاً : ناقشه وخاصمه . قال الزمخشرى : ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها .

يقال لعين الشىء وذاته نفسه ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فإنه يسأل فى أمته .

وشرح « التفسير الوسيط » تجادل بقوله : تدافع بالاعتذار .

« عن نفسها » : لا أحد يحاجّ أو يجادل عنها ، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة وكل نفس منشغلة بشأنها من شدة الكرب الذى يحيط بها ، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها : « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » الآيات من ٣٤ إلى ٣٧ من سورة عبس .

ومما قاله كعب الأحبار لسيدنا عمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تارات لا يهمك إلا نفسك ، وإن لجَهنم زفرةً لا يبقى مَلك مقرب ولا نبى منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل ليدلى بالخُلّة فيقول : يارب ، أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى!

قال له عمر : يا كعب ، أين تجد ذلك فى كتاب الله ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ (١) .

« توفى كل نفس ما عملت » : تعطى كل نفس جزاء الذى عملته وافيا غير منقوص، «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (٢) ، وهم لا يظلمون نقيرا .

والتعبير يُلقى ظل الهول الذى يُشغل كلَّ امرىءٍ بنفسه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى . (٢) ٧ ، ٨ ـ الزلزلة .

٣٤٢ ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

١١٢ ـ **النحل** (١٦)

يُجسم التعبيرُ الجوعَ والخوف فيجعله لباسا ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ، لأن الذوق أعمق أثرا فى الحس من مساس اللباس للجلد . وتتداخل فى التعبير استجابات الحواس ، فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتغلغله فى النفوس .

اللِّباس : مايستر الجسم ، والجمع : أَلْبِسَة ولُبُس[1] . ولباسُ كل شىء : غشاؤه .

الإذاقة واللباس استعارتان . والإذاقةالمستعارة مُوَقعة على اللباس المستعار . أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يصيب الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب ـ شبّه ما يُدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرُ البشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، ومعناه : ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث .

ويكون معنى التعبير ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ : فأذاقها الله ما غشيها من صنوف البلاء كالجوع والخوف وذلك بسبب كفرها بالنعم التى تفضل بها الله عليها .

أَنْعُم : جمع نعمة ، على ترك الاعتداد بالتاء .

رَغَدا : واسعا .

وقرئ : « والخوفَ » عطفا على لباس . قال القرطبى :

سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس .

---

(١) واللباس : الزوج والزوجة . ولِباس التقوى : الإيمان ، أو الحياء ، أو العمل الصالح .

٣٤٣ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

١٢٠ ـ النحل (١٦)

الأمة : الرجل الجامع لخصال الخير .

« إن إبراهيم كان أمة » ، قال الزمخشرى : فيه وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله فى جميع صفات الخير ، ووضح حسنين مخلوف هذا الوجه بقوله : كان عنده من الخير ما كان عند أمة بأسرها (١) . وقال مجاهد : كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار ، وذلك لمدة ما فى وقته . وفى صحيح البخارى ومسلم أنه قال لامرأته : يا سارَّة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك . كان إمام الموحدين : رفع أعلام التوحيد ، وخفض رايات الشرك وحطم أصنامه ، وبذل نفسه وأسلم وجهه لله رب العالمين .

والوجه الثانى : أن يكون أمة بمعنى المأموم أى يؤمه الناس ويقصدون إليه ليأخذوا منه الخير ، من الفعل أمَّ إليه أى قصده . أو بمعنى مؤتم به أى مُقتدى به من الفعل ائتَمَّ بالرجل : اقتدى . وعن ابن مسعود : الأمة الذى يُعلم الخيرَ . ويقوى هذا الوجه قول الله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا (٢) أى كان أمة يؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أنت ، على جلالة قدرك ، قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته .

والإمام الذى يهدى إلى الخير هو قائد أمة ، وله أجره وأجر من عمل بهدايته ، فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه .

﴿ قانتا لله ﴾ : مطيعا له ، أو القائم بأمره . سبحانه .

﴿ حنيفـا ﴾ : مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق وهو الإسلام .

---

(١) قال أبو نواس :

وليس على الله بِمُسْتَنكَرٍ ... أن يجمع العالَم فى واحد

(٢) ١٢٣ ـ النحل .

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

٦ ـ **الإسراء** (١٧)

كَرَّ على العدو : حَمَل . وكر الفارس يكُر فهو كرَّار ومِكَر أى رجع .

والكرَّة : الرجعة ، والكرة : الحملة فى الحرب .

والكرَّة فى هذا التعبير : الدَّوْلة [1] والغلبة . واستعمال الكَرّة فى الدولة والغلبة مجاز شائع ؛ كما يقال : تراجع الأمر .

ومعنى التعبير : حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو أعدنا لكم النصر والغلبة عليهم أى على أصحاب البأس والبطش الذين تجولوا خلال الديار لقتلكم وكنا قد سلطناهم أى بعثناهم عليكم ، فى الآية السابقة : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » .

جاء فى « التفسير الوسيط » وأصل الكرة الرجعة ، وإطلاقها على الغلبة هنا لما فيه من رجوع هؤلاء المهزومين إلى من هزموهم فى السَابق ، وانتصارهم عليهم فى هذا الرجوع .

قضى الله لبنى إسرائيل فى الكتاب (الذى آتاه لموسى) أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ، وأنهم سيعلون فى الأرض المقدسة ويسيطرون وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد ، سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لناأولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » . فهذه هى الأولى : يعلون فى الأرض المقدسة ، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان ، فيفسدون فيها ، فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس شديد ، وأولى بطش وقوة ، يستبيحون الديار ويروحون فيها ويغدون باستهتار ، ويطأون من فيها وما فيها بلا تهيب «وكان وعدا مفعولا » لا يخلف ولا يكذب .

حتى إذا ذاق بنو اسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل ؛ فرجعوا إلى ربهم ، وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم ؛ وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم ، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا فى الأرض ، أدال الله للمغلوبين من الغالبين ، ومكن للمستضعفين من المستكبرين : ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ . والنفير جمع نفر ، مثل عبيد جمع عبد . والنفير أيضا : من ينفر مع الرجل من عشيرته للذهاب إلى العدو .

---

(١) المعنى الأول لكلمة الدولة فى القاموس هو : الاستيلاء والغَلَبَة .

٣٤٥ ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

٧ - الإسراء (١٧)

هذه هى القاعدة التى لا تتغير فى الدنيا وفى الآخرة ؛ والتى تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل أثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسئولا عن نفسه : إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلومن إلا نفسه حين يقع عليه الجزاء .

﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ أى فعليها . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى أى وإن أسأتم فإليها ترجع الإساءة . وقيل : فلها أى فلها الجزاء والعقاب .

٣٤٦ ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ١٣ - الإسراء (١٧)

طائره : عمله . يعنى ألزمنا كل إنسان ما طار (أى خرج) من عمله ، فعمله لازم له لزوم القلادة أو الغُل [١] لا يُفك عنه . وعن الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بُعثتَ قُلدتها فى عنقك .

قال ابن عباس : طائره عمله وما قُدر عليه من خير وشر . وقال مقاتل والكلبى : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب عليه والتعبير يصور لزوم عمل الإنسان له وعدم مفارقته إياه ، وذلك على طريقة القرآن فى تجسيم المعانى وإبرازها فى صورة حسية ، فعمله لا يتخلف عنه ، وهو لا يملك التملص منه .

وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا (أى مبسوطا) يوم القيامة ، فهو يصور عمله مكشوفا لا يملك إخفاءه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى فى صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثرا فى النفس وأشد تأثيرا فى الحس .

---

(١) القلادة : ما يُجعَل فى العنق من حُلى أو وسام . والغُلُّ : طوْق من حديد أو جلد يُجعل فى عنق الأسير أو المجرم .

٣٤٧ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ١٥ـ الإسراء (١٧)

وَزَرَ يَزِرُ وِزْرًا ، ووَزْرًا : حَمَلَ ما يُثقل ظهرَه من الأشياء المثقله : ووَزر : أثِمَ ، فهو وازِر.

والوِزْر : الحمل الثقيل ، والوزر : الذنب [١] .

ومعنى التعبير : لا تحمل نفسٌ آثمَة إثم نفس أخرى بحيث تتمكن الثانية من التخلص من وزرها ، وإنما تحمل كل منهما إثم ما باشرته أو تسببت فيه وتُعاقَب عليه .

إنها التبعة الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه ، فكُلٌّ يُسأل عن عمله ، وكل يُجزى بعمله .

وقد ورد التعبير خمس مرات فى القرآن الكريم : ١٦٤ ـ الأنعام ؛ ١٥ ـ الإسراء ؛ ١٨ ـ فاطر ؛ ٧ ـ الزمر ؛ ٣٨ ـ النجم .

---

(١) ويقال : أعدوا أوزارَ الحرب : آلاتها . ووضعت الحربُ أوزارَها : انقضى أمرها وخفَّت أثقالها ، فلم يبق قتال .

٣٤٨ ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ ٢٤ - الإسراء (١٧)

معنى التعبير : أَلِنْ جانبَك مُتَذللاً لهما من مبالغتك فى الرحمة بهما .

والجناح : الجانبَ . يقال : خَفَضَ فُلان جناحه للناس : ألأن جانبَه وتواضع لهم .

وفى هذا التعبير أضاف الجناح إلى الذل كما أضيف حاتم إلى الجود بمعنى : اخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول .

أو اجعل لذلكَ لهما جناحا خفيضا ، كما جعل لَبِيدُ للشمال يدا (١) وللقوة زماما ، مبالغة فى التذلل والتَواضع لهما .

﴿ من الرحمة ﴾ : من فرط رحمتك بهما وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس .

﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ : لا تكتف برحمتك عليهما التى لابقاء لها ، وإنما ادع الله أن يرحمهما رحمته الباقية ، جزاء تربيتهما ورحمتهما بك وأنت صغير .

وعن النبى ﷺ : « رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما » أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمر ورواه البخارى فى الأدب المفرد موقوفا .

وعنه ﷺ قال ﴿ إياكم وعقوق الوالدين ، فإن الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاقٌ ولا قاطعُ رحم ولا شيخ زان ولا جارٌ إزارَه خُيلاءً ، إن الكبرياء لله رب العالمين ﴾ رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر بنِ عبد الله .

وعن ابن عمر أنه رأى رجلا فى الطواف يحمل أمه ويقول :

إنى لها مَطيَّةٌ لا تَذْعَرُ إذا الرِّكَابُ نَفَرت لا تَنْفرُ
ما حملت وأَرضَعَتنى أكثرُ الله ربى ذو الجلال الأكبرُ

وقال لابن عمر : تظننى جازيتها يا ابنَ عمر ؟ قال : لا ولو زفرة واحدة .

وسئل الفضيل بن عياض عن برِّ الوالدين فقال : أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل . وسئل بعضهم فقال : أن لا ترفع صَوتك عليهما ، ولا تنظر شزرا إليهما (وهو نظر الغضبان بمؤخر العين) ، ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن ، وأن تترحم عليهما ما عاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا وتقوم بخدمة أودَّائهما (٢) من بعدهما . فعن النبى ﷺ : « إن من أبَر البر أن يَصل الرجلُ أهلَ ودِّ أبيه » أخرجَه مسلم من حديث ابن عمر .

إنَ التعبير ﴿واخفَض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ يشف ويلطف حتى يبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان . فالرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ولا يرفض أمرا . وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام .

---

(١) قال لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

(٢) أوِدَّاء : جمع وديد وهو المُحِبُّ ، أودَّائهما : محبيهما .

٣٤٩ ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ ٢٧ - الإسراء (١٧)

بَذَرَ الشيءَ : نثره وفرّقه . وبَذَر مالَه : أسرف فى إنفاقه .

وبَذَّرَ المالَ : فرَّقه إسرافاً .

قال الزمخشرى : التبذير هو تفريق المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه الإسراف . وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر (١) عليها وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله بالنفقة فى وجوهها بما يُقرب منه ويزلف .

قال عبد الله : التبذير هو إنفاق المال فى غير حقه .

وقال مجاهد : لو أنفق مُدّاً (٢) فى باطل كان تبذيرا .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر ، فقال له صاحبه : لا خير فى السَّرَف ، فقال : لا سَرَف فى الخير .

« إخوان الشياطين » : أمثالهم فى الشرارة وهى غاية المذمَّة ، لأنه لا شرَّ (٣) من الشيطان . أوهم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف . أو هم قرناؤهم فى النار على سبيل الوعيد . والمبذرون إخوان الشياطين لأنهم ينفقون فى الباطل ، وينفقون فى الشر ، وينفقون فى المعصية .

---

(١) يتقامرون ، من المَيْسر وهو كل شىء فيه قمار .

(٢) المُد : مكيال قديم وَهو رُبع صاع . والمدَ مقدر بأن يَمُد الرجلُ يديه فيملأ كفيه طعاما . وهو أقل ما كانوا يتصدقون به فى العادة .

راجع : لسان العرب .

(٣) لا شرَّ : لا أكثر شراً .

٣٥٠ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ٢٩ ـ الإسراء (١٧)

عندما يستمع الإنسان إلى هذا التعبير أو يقرؤه ، تبرز أمامه صورة لشخص عضده وذراعه ملتصقان بصدره ، ويده مربوطة إلى عنقه بقيد ، فلا تنفك من رباطها ولا تمتد لتعطى . صورة تعبر بطريقة التجسيم عن الشح والتقتير فى أكثر درجاته حدة .

الغُلُّ : طوق من حديد أو جلد ، يُجعَل فى عنق الأسير أو المجرم ، أو فى أيديهما ؛ والجمع : أغلال .

وغَلَّ فلانا : وضع فى يده أو عنقه الغُل .

غُلَّت يدُه إلى عنقه : أمسك عن الإنفاق .

والتعبير تمثيل لشحِّ الشحيح وسرَف المسْرف ، وأمْرٌ بالاقتصاد الذى هو بين الإسراف والتقتير . والتوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن . والتعبير يرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئا ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قَعْدةً كقعدة الملوم المحسور . فالمسرف غير مرضى عنه من الله ؛ وغير مرضى عنه من الناس ، فالمحتاج يقول عن المسرف : أعطى فلانا وحرمنى ، ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير أمر المعيشة . وإذا احتاج المسرف فإنه لا يجد ويقعد محسورا أى لا شىء عنده ؛ والمحسور فى الأصل : المنقطع عن السير ، من حسره السفر إذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذى ذهبت قوته فلا انبعاث به .

فالتعبير صور المسرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض الأيدى عليه ، وفى هذا التصوير مبالغة بليغة .

فالتعبير نهى عن جانبى الإفراط والتفريط ، ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط ، وهو العدل الذى ندب الله إليه :

ولا تك فيها مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً   كلا طر فَىْ قصْدِ الأمور ذميمُ

٣٢ - الإسراء (١٧)

قَربَ الشيءَ يَقرَبُه قُربًا وقُرباناً : دنامنه أو باشره أو فعله .

﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ : ولا تدخلوا فى شيء من مقدمات الزنى ، فالتعبير يحذر من مباشرة دواعيه وأسبابه . ومنها النظرة الآثمة فهى سهم من سهام إبليس ، وهى بداية كل شر . ومنها خَلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، لأن الشيطان يجيد السفارة فيها ، فيوسوس لكل منهما ويزين الشر ويأمر بالفحشاء وفى الأثر (١) : « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » ومن دواعى الزنى أيضا أن تبدى المرأة زينتها لرجل لا يحل له ذلك منها ، فإن فعل ذلك يحرك الرغبة الآثمة بينهما ويدعو إلى الفجور . ومما يؤدى إلى الفاحشة أن تلين المرأة وتخضع (٢) فى كلامها ، فيطمع فيها من فى قلبه داء الرغبة الآثمة .

وفى النهى عن قربان الزنا بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى ، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراما كان المتوسل إليه حراما بفحوى الخطاب .

ثم علل النهى عن الزنا بقوله : ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ أى قبيحا متبالغا فى القبح مجاوزا للحد ، ﴿ وساء سبيلا ﴾ أى طريقا ، فبئس الطريق طريقه . إن فى الزنا قتلا من نواحى شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لماء الحياة فى غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين ، وإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء . وهو قتل للجماعة التى يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة فى العرض والولد ـ وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهى إلى ما يشبه الموت .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريق الزنا يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى لها ـ والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فى هذا المحضن ، محضن الأسرة .

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث . وقد يغر بعضهم أن أوروبا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما . لكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لاشك فيها . ولم

---

(١) الأثر : الخبر المرْوىّ والسُّنة الباقية .

(٢) خضعت بالقول : ألانت كلامها .

تظهر آثاره بعد فى الولايات المتحدة لأنها دولة فتية ذات موارد واسعة ، فهى كالشاب الذى يسرف فى شهواته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ، ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة .

ولهذا فإن الإسلام يقطع الطريق على الأسباب الدافعة إلى الزنا :

يكره الاختلاط بين الجنسين فى غير ضرورة ، ويجرم الخلوة ؛

وينهى عن التبرج بالزينة ؛

ويحض على الزواج لمن استطاع ؛

ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع ؛

ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور ؛

وينفى الخوف من العيلة والإملاق (الفقر) بسبب الأولاد ؛

ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم ؛

ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين وقوعها ، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان .

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ ٣٤ - الإسراء (١٧)

قال القرطبى : « إن العهد كان مسئولا أى مسئولا عنه ، فحذف « عنه » كقوله : «ويفعلون ما يؤمرون » أى ما يؤمرون به وحذف « به » . ويكون معنى التعبير أن المعاهد يُطلب منه أن يفى بالعهد ولا ينكثه .

وقيل إن العهد يُسأل تبكيتا لناقضه ، فيقال له : لم نُكثت ؟ وهلا وفى بك ؟ كما يقال للموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ تبكيتا لوائدها . ويعضد التأويل القائل بأن العهدَ نفسه سيسأل وقوفُ الرحم بين يدى الله وسؤالها فيمن وصلها وقطعها ، وقد ورد ذلك فى الحديث الصحيح .

وفسر صاحب الظلال التعبير بقوله : يسأل الله جل جلاله عن الوفاء بالعهد ، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن وفى الحديث النبوى : سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس ، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة ، عهد الحاكم وعهد المحكوم .

وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيدا فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام .

٣٥٣ ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ ٣٦ - الإسراء (١٧)

قَفا الشيءَ أو الأثرَ يقفُوه قَفْواً : تبِعَه [١] .

وقفا فلاناً : رماه بأمر قبيح .

وعلى أساس المعنى الأول يكون التفسير : ولا تتبع مالا تعلم ولا يعنيك . وقال القتبى : لا تتبع الحدْس والظنون .

ويقول حسنين مخلوف : ويندرج في ذلك شهادة الزور والكذب ، وأن تقول للناس وفى الناس مالا علم لك به ، وترميهم بالباطل .

وعن الحسن : لا تقف أخاك المسلم إذا مربك ، فتقول : هذا يفعل كذا ، ورأيته يفعل ، وسمعته ، وأنت لم تر ولم تسمع . روى الإمَام أحمد والطبرانى من رواية معاذ بن أنس : «من قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » .

« ولا تقف ما ليس لك به علم » : ولا تَتَّبِع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته : من قول يُقال ورواية تروى ، من ظَاهرة تُفسر أو واقعة تعلل . وفى الحديث : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفى سنن أبى داود : « بئس مطية الرجل زعموا » وفى الحديث الآخر : « إن أفرى الفِرَى أن يُرِىَ الرجلُ عينيه ما لم تريا [٢] .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج ، لم يبق مجال للوهم والخرافة فى عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة فى عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية فى عالم البحوث والتجارب والعلوم [٣] .

فالأمانة العلمية التى يشيد بها الناس فى العصر الحديث ، والمنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثا جدا ، ليسا سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التى يعلن القرآن تبعتها

---

(١) ومنه القائف وهو الذى يتبع الأثر . وقافية كل شيء آخره ، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو البيت . ومنه اسم النبى ﷺ المُقَفِّى لأنه جاء آخر الأنبياء .

(٢) الفِرَىّ من الأمور : المُختَلَقَ ، وافترى القولَ : اختلقه .

(٣) فاللِّسان لا يقول كلمة ولا يروى حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يصدر العقل حكما ولا يبرم الإنسان أمرا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هناك شك ولا شبهة فى صحتها .

الكبرى ، إذ يجعل الإنسان مسئولا عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر والفؤاد : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » ٦٥ ـ يس . وقال أيضا : « حتى إذا ما جاؤها شهدعليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » ٢٠ ـ فصلت .

فالتعبير القرآنى يقرر منهجا كاملا متكاملا يأخذ العقل والحواس بالتحرج فى الحكم والتثبت فى الاستقراء ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ـ وهذه هى ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة .

٣٥٤ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ٣٧ - الإسراء (١٧)

« مَرَحًا » : حال أى ذا مرح .

والتعبير نهىٌ عن الخيلاء وأمر بالتواضع .

قال قتادة : المرح هو الخيلاء فى المشى . وقيل هو التكبر فى المشى . وقيل هو البطر والأشر (الاستكبار) . وقيل : تجاوز الإنسان قدره ، وكلها مذمومة (١) . قال الشاعر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا
فكم تحتها قومٌ هُمو منك أرفعُ
وإن كنت فى عزّ وحرز ومنْعة
فكم مات من قوم هُمو منك أمنعُ

﴿ لن تخرق الأرض ﴾ : لن تجعل فيها خرقا بدوسك لها وشدة وطأتك ، ولن تتولج باطنها . ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك أو تطاولك ، فدع عنك الخيلاء والتعالى على الناس ، فأنت مخلوق ضعيف .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده ، تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان ، أو قوة أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ، لطامَن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هونا لا تيها ولا مرحا . وفى الحديثَ : « من تواضع لله رفعه فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير . ومن استكبر وضعه الله فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » رواه ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » .

---

(١) ومن معانى المرح : شدة الفرح ، والنشاط ، وهذان المعنيان محمودان على العكس من المعانى الأخرى فهى مذمومة .

٣٥٥ ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ ٥٣ ـ الإسراء (١٧)

هذا تعبير لا أثر فيه للكنايات أو الإستعارات ، وإنما هى كلمات عادية وُضع بعضها إلى جانب بعض بطريقة فريدة جعلت منها تعبيرا بالغ الأثر والتأثير .

الجناس والجوار بين « قل » و « يقولوا » لا يثيران ضجرا ، وإنما ترتاح إليهما النفس وتستعذ بهما . وإضافة ضمير المتكلم (الياء) إلى (عباد) تنزل على القلب بردا وسلاما . ويتبع ضمير الغيبة (هى) اسم الصلة (التى) وتأتى فى أثرهما صيغة أفعل التفضيل « أحسن » ليتألق الثلاثة بهاء ورواء تصفو بهما الأرواح من كدر الإحن والثارات ـ ترى أى سلام يُظلل حياة العباد لو توخى كل منهم قول « التى هى أحسن »؟

فالكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندى جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .

« ينزَع » : يُفسد ويُغوى بالعداوة والبغضاء ويثير الضغائن والأحقاد .

٣٥٦ ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾

٦٤ - الإسراء (١٧)

﴿ أَجْلِبْ عليهم ﴾ صِحْ عليهم صياحا شديدا واستحثهم على الشر وادفعهم إليه دَفعا. من الجَلَبَة وهىَ الصياح والصَخب ، جَلَبَ يجلُبُ جَلَبًا وجَلْباً : أحدث جَلَبَةً .

وأجْلَب على العدو إجلابا : جَمَعَ المقاتلين لقتاله .

الخَيْل : الخيالة ، راكبو الخيل ، جماعة الفرسان .

رَجلك : اسم جمع للراجل وهو جندى المشاة .

« أجلب عليه بخيلك ورجلك » : اجمع عليهم جندكَ ، الفرسان منهم والمشاة . يريد التعبير بذلك : كل راكب وماش فى معصية الله تعالى كما قال أكثر المفسرين ؛ فما كان من راكب وماش يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ورجالته . روى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت فى معصية الله ، وكل رجل مَشَت فى معصية الله ، وكل مال أصيب من حرام، وكل ولد بغيّة (ابن زنىً) فهو للشيطان .

وهذا الكلام ورد مورد التمثيل ، فهو يمثل حال الشيطان فى التسلط على من يغويه ويضله بقائد مغوار أغار على قوم بجنده من خيالة ومشاة حتى استأصلهم . واستئصال الشيطان لهم هنا معناه أنه يوردهم مورد الهلاك بإفسادهم وإيقاعهم فى الموبقات المهلكات . والتعبير تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول . فهى المعركة الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات . يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، ويستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة .

وقوله تعالى : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ أى استخف وادفع إلى الشر والمعاصى من استطعت دفعه منهم بصياحك عليهم ، والصياح والصوت هنا وسوسة الشيطان، وقيل : هو صوت كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى ، وقال مجاهد : هو الغناء والمزامير واللهو . وقال الزمخشرى فى تفسير « بصوتك » : بدعائك إلى الشر ، أى أن إبليس يدعوهم إلى الفسوق والعصيان .

« وشاركهم فى الأموال والأولاد » أى اجعل لنفسك شركة فى ذلك ، وشركته فى الأموال إنفاقها فى معصية الله ، قاله الحسن . وقال مجاهد : هى التى أصابوها من غير حلها (كالربا والرشوة) . أما الأولاد الذين يشارك فيهم إبليس فهم أولاد الزنى - فالتعبير يصور شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة .

وقال الزمخشرى عن المشاركة فى الأموال والأولاد إنها كل معصية يحملهم عليها ، كالربا والمكاسب المحرمة ، والبحيرة والسائبة [1] ، والإنفاق فى الفسوق ، والإسراف ، ومنع الزكاة . والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام (أى بالزنى) ، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث ، والتهويد والتنصير ، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة .

« عدْهم » أى مَنِّهم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولاحساب . «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » أى باطلا ، ومن هذه الوعود الباطلة : الوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالفوز بالوسائل القذرة والأسباب الخسيسة .

---

(١) البَحيرة : الناقة كانت فى الجاهلية إذا ولدت خمسة أَبْطُن شَقُّوا أذنها وأعْفَوها أن يُنتفع بها ، ولم يمنعوها من مرعى ولا ماء ؛ وقد أبطلها الإسلامُ .
والسائبة : الناقة المهملة التى كانت تترك فى الجاهلية وتُخلى لتذهب حيث تشاء وفاء لنذر أو نحوه .

٣٥٧ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ ٨٠ - الإسراء (١٧)

مُدخَل ومُخرج (بضم الميم) معناهما الإدخال والإخراج ، مصدر الرباعى : أدخل وأخرج [1].

الصِّدق - فى الحسِّى : الصلب من الرماح وغيرها .

وفى المعنوى : الصدق : الكامل من كل شىء .

والصدق فى الأصل هو الصحة والاستقامة فى القول . وقد يستعمل الصدق فى كل ما يحق ويحصل قولا أو فعلا ، وفى كل ما يحسُن من شىء أو شخص .

ويجرى الوصف بالمصدر منه مضافا ، فيقال : رجُلُ صِدْقٍ ، وقدمُ صِدقٍ ، ومقعدُ صدْق ، ولسانُ صدق .

ومَنه : مدْخَل صدِّقٍ أى إدخالاً حسناً مرضيا . وكذلك مُخرج صدق أى إخراجا حسنا مرضيا .

« رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » : ربِّ أَصْلح لى وِرْدى [2] فى كل الأمــور وصــدَرى [3] . فالآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاوَل من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة ، فهى دعاء .

وقيل : المعنى أدخلنى القبر مُدخل صدق أى إدخالا مرضيا على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجنى منه عند البعث إخراجا مرضيا ، ملقى بالكرامة ، آمنا من السخط ، يدل عليه ذكره بعد ذكر البعث فى الآية السابقة : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

وقيل : نزلت حين أمر ، ﷺ ، بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة .

وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالما .

وقيل : إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر - وهو النبوة - وإخراجه منه مؤديا لما كُلِّفَه من غير تفريط .

﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ أى حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكا وعزا قويا ناصرا للإسلام على الكفر مظهرا له عليه ، فأجيبت دعوته .

---

(١) قرأ الحسن ونَصر بن عاصم مَدْخَل ومَخرج (بفتح الميم) بمعنى الدخول والخروج ، مصدر الثلاثى : دَخل وخَرج .

(٢) ورد المكانَ أو الشىءَ : أتاه ودخله .

(٣) صَدَر عن المكان صَدْرًا وصَدَرًا : رجع وانصرف .

٨١ - الإسراء (١٧)

﴿ وقل جاء الحق ﴾ الذى لامِرْيَة فيه ولا قِبَل لهم برده ، وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم .

﴿ وزهــق الباطـــل ﴾ أى ذهب الباطل وهلك ، والباطل هو الشرك والكفر وما زينه الشيطان من شرور وآثام .

زَهَقَ الباطلُ يزهَق زَهقًا وزُهوقًا : زال واضمحل ، فهو زاهِق وزَهوق ، أى لا بقاء له .

قال القرطبى تعليقا على أقوال من سبقوه فى تفسير هذا التعبير : والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التفسير : جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه ، ﴿ وزهق الباطل ﴾ : بطل الباطل .

روى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبى ، ﷺ ، مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُبًا ، فجعل النبى ، ﷺ ، يطعنها بمخصرة [(١)] فى يده - وربما قال بعود - ويقول : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » . يقال : إنها كانت مثبتة بالرصاص وأنه كلما طعن منها صنما فى وجهه خرَّ لقفاه ، أو فى قفاه خرَّ لوجهه .

إنها حقيقة لدنية يقررها القرآن بصيغة التوكيد : ﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ ، وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ وينفش ، لأنه باطل لايطمئن إلى حقيقة ، ومن ثم يحاول أن يموه على العين وأن يبدو كبيراً ضخما ، ولكنه هش سريع العطب لأنه يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية إذا تخلخلت ووهت تهاوى وانهار - أما الحق فإنه يستمد من ذاته عناصر وجوده .

---

(١) المِخْصَرَة : قضيب يُشاربه فى أثناء الخَطابة والكلام . كان يتخذه الملوك والخطباء .

٣٥٩ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ ٨٢ ـ الإسراء (١٧)

كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، فهو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرِّيَب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل فيفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى .

فى القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة : فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة . أما القلق فمرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء .

وفى القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان ـ وهى من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار .

وفى القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة فى الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ومن إنفاق طاقته فيما لا يجدى ، وإنما يطلق له الحرية فى مجالاته المثمرة . وكذلك هو فى عالم الجسد ينفق طاقاته فى اعتدال بلاكبت ولا شطط فيحفظه سليما معا فى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر .

وفى القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التى تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها ، فتعيش الجماعة فى ظل نظامه الاجتماعى وعدالته الشاملة فى سلامة وأمن وطمأنينة .

ويرى بعض العلماء أن فيه شفاء من الأمراض الظاهرة وذلك بالرُّقى والتعوذ . وأورد القرطبى ما رواه الأئمة عن أبى سعيد الخدرى قال إنه قرأ على الملك الذى لدغه العقرب «الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ، ولما أخبر الرسولَ ، عليه الصلاة والسلام ، بذلك قاله له « وما يدريك أنها رقية » قلت : يا رسول الله شيء ألقى فى روعى .

« ورحمة للمؤمنين » : تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب على تلاوته ، كما روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لاأقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ إلا هلاكا وضلالا وذلك لتكذيبهم ، نظيره قوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقر وهو عليهم عَمَى ﴾ ٤٤ ـ فصلت .

٣٦٠ ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ ٨٣ - الإسراء (١٧)

نَأَى يَنْأَى نَأْيًا : بَعُدَ . ونَأَى عنه : أعرض، لأن شأن المعرض أن يبعد ولا يقترب[1] .

ويقال : نأى بجانبه عنه أى أعرض عنه كأنه أبعد جانبه وأنْآه .

ويقال أيضا : نأى بجانبه أى تكبر ، لأن شأن المستكبر أن يبعد ولا يقارب .

« وإذا أنعمنا على الإنسان » بالصحة والسعة « أعرض » عن ذكر الله كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه « ونأى بجانبه » تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشىء أن يوليه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عِطفه ويوليه ظهره ، وأراد الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين .

« وإذا مسه الشر » من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل « كان يئوسا » شديد اليأس من روح الله : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ٨٧ـ يوسف .

تذكر الآية منهجا عاما سلكه جنس الإنسان عند ممارسته لشئون الحياة . فإذا بسط الله له أسباب النعمة والقوة ، لم يذكر فضل الله عليه ، وتبرز الآية مبالغته فى الإعراض والبعد عن ربه غرورا واستكبارا . فالنعمة تُطغى وتُبْطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر ؛ أما حين يُترك لنزعاته واندفاعاته وبدونَ ما نزلَ من القرآن الكريم من شفاء ورحمة ، فهو مُتَبِّطر مُعرض .

وإذا نزل به شر ، تظلم فى وجهه فجاج الحياة وييئس من فرج الله الذى وعده عباده المؤمنين، وذلك لأنه لم يقبل عليه فى الرخاء حتى يرجوه فى الشدة . ولو أنه اتصل بالله لا طمأن إلى رحمته وفضله . وهنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة فى السراء وفى الضراء سواء .

---

(١) نأى عن الحق : أعرض عنه ومضى فى ضلاله ولم يقبله .

٣٦١ ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً ﴾

٨٤ - الإسراء (١٧)

الشَّاكلة : الشكْل ، والشاكلة : السّجية والطريقة والمذهب .

« قل كل يعمل على شاكلته » أى على سجيته ، أو على مذهبه وطريقته التى تشابه حاله وما هو عليه من الحسن والقبح .

وقيل : كل يعمل على ما هو أشْكَلُ[١] عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده ، مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لستَ على شكْلى ولا شاكلتى[٢] .

« فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » أى بمن هو أسدُّ طريقا وبالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وفى هذا التقرير تهديد خفى بعاقبة العمل والاتجاه ، ليأخذ كلٌّ حِذره ويحاول أن يسلك سبيل الهدى .

---

(١) شَاكَلَهُ : شَايَعَه ومَاثَله ، والمشاكلة : المماثلة . أشْكل : أكثر شَبَهًا ومماثلة .

(٢) قال الشاعر :

كل امرئ يشبهه فعلُه ... ما يفعلُ المرءُ فهو أهلُه

(٣٦٢) ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

٨٨ - الإسراء (١٧)

قل لهم لو اتفقت كلمة الإنس منهم والجن ، وتضافرت هممهم وأقبلوا بكل عقولهم وأفكارهم على تحقيق رغبتهم فى الإتيان بمثله فى سمو الأسلوب ، ودقة التنسيق ، وكمال المعنى وقوة التشريع ، والإخبار بالغيبيات وغير ذلك ، لو اجتمعت على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله .

وقد عجز فصحاء العرب - وهم أئمة البيان وفرسان البلاغة وذوو اللسَن [1] فى الخطابة - عن معارضته [2] بعد التحدى ، فكان غيرهم أعجز ! وتتابعت القرون وتضافر الأعداء فلم يستطع أحد أن يأتى بمثله ؛ فكان ذلك آية من آيات الله ، ودليلا على أنه من وحى الله ، وليس من كلام البشر .

هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل ، ملحوظ فيه نواميس الفطرة التى تصرف النفس البشرية فى كل أطوارها وأحوالها ، والتى تصرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة بالقوانين الملائمة للفطرة والمتغلغلة (أى القوانين) فى وشائجها (أى وشائج الفطرة) ودروبها ومنحنياتها الكثيرة .

والعلاج الذى يضعه القرآن لمشاكل الإنسانية علاج متناسق ، لا يغيب عن حسابه احتمال واحد من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة واحدة من الملابسات المتعارضة فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته . ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات فى الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

إن إعجاز القرآن لا يتمثل فى إعجاز نظمه وبلاغته وحسب وإنما يتمثل أيضا فى إعجاز منهجه .

« ظهيرا » : معينا ونصيرا ، ظَاهَر فلاناً : عاونه .

« لا يأتون » جواب قسم محذوف ، واللام الموطئة فى « لئن » دخلت على إن الشرطية فجعلتها قسما ، ولولا هذه اللام الموطئة لجاز أن تكون « لا يأتون » جوابا للشرط .

---

(١) لَسِنَ فلانٌ يلْسَنُ لَسنًا : فَصُح وبَلُغ ، فهو لَسِنٌ وألْسَن .

(٢) معَارضته : الإتيان بمثله ؛ عَارض فلانا معارَضة : باراه وأتى بمثل ما أتى به ، يقال : عارضه فى الشعر وعارضه فى السَّيْر .

٣٦٣ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ ١٠٠ ـ الإسراء (١٧)

﴿ خزائن رحمة ربى ﴾ : المراد خزائن رزق ربى ونعمه التى يفيضها ـ برحمته وكرمه ـ على عباده ومخلوقاته كافة .

﴿ أمسكتم ﴾ : بَخلتم ، من قولك للبخيل : مُمسك .

﴿ قتورا ﴾ : مُبالغًا فى التقتير والبخل ، يقال : قَتَر وأَقْتَر وقَتَّر إذا ضَيَّق النفقة وقللها . وأصله من القُتار وهوَ الدخان من الشِّواء والعود ونحوه .

قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن رزق الله لبخلتم بها ولم تعطوا أحدا شيئا مخافة نفادها ، مع أنها خزائن لا تنفد ولا تفرغ أبدا ؛ ولكن الإمساك والشح مركوزان فى طبع الإنسان : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين » ١٩ ـ ٢٢ ، المعارج .

وقد بلغت هذه الآية الكريمة « وكان الإنسان قتورا » من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى ، حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التى لا تنفد ، لأمسكها لشدة حرصه وبخله على عباد الله .

« لو » حرف شرط . « أنتم » فاعل لمحذوف يفسره المذكور بعده « تملكون » ، أى لو تملكون أنتم . ويمكن أن يكون التقدير : لو أنَّ أنتم تملكون ، وفيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ [١] .

مُدخَل ومُخرج (بضم الميم) معناهما الإدخال والإخراج ، مصدر الرباعى : أدخل وأخرج [٢] .

الصِّدق ـ فى الحِسِّى : الصلب من الرماح وغيرها .

وفى المعنوى : الصدق : الكامل من كل شىء .

والصدق فى الأصل هو الصحة والاستقامة فى القول . وقد يستعمل الصدق فى كل ما يحق ويحصل قولا أو فعلا ، وفى كل ما يحسُن من شىء أو شخص .

---

(١) قال المتلمس ، خال طرفه بن العبد :

ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما

يريد : لو أراد غير إخوانى نقيصتى أى ظلمى ، لو سمتهم بالذل وسما ظاهرا كأنه فوق العرانين أى الأنوف ، وخصها لأنها لا تخفى . والميسم آلة الوسم بالنار ، والمراد : أثره وهو السمة . « غير إخوانى » : فاعل لمحذوف يفسره المذكور بعده وهو : أرادوا .

ويجرى الوصف بالمصدر منه مضافا ، فيقال : رجُلُ صِدْقٍ ، وقدمُ صِدقٍ ، ومعقدُ صِدْقٍ ، ولسانُ صدق .

ومنه : مُدخَل صدقٍ أى إدخالاً حسناً مرضيا . وكذلك مُخرج صدق أى إخراجا حسنا مرضيا .

« رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » : ربّ أصْلِح لى ورْدى[1] فى كل الأمور وصدَرى[2] فالآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاول مَن الأسَفار والأعمال ، وينتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة ، فهى دعاء .

وقيل : المعنى أدخلنى القبر مُدخل صدق أى إدخالا مرضيا على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجنى منه عند البعث إخراجا مرضيا ، ملقى بالكرامة ، آمنا من السخط ، يدل عليه ذكره بعد ذكر البعث فى الآية السابقة : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

٣٦٤ ﴿ كُبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ ٤ ، ٥ ـ الكهف (١٨)

الذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود الذين قالوا عزير ا بن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، وقريش الذين قالوا الملائكة بنات الله (١) .

﴿ما لهم به من علم ﴾ : « من » صلة ، ، أى ما لهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . « ولا لآبائهم » أى أسلافهم .

« كبرت كلمة » : قرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبى اسحق :

« كلمةٌ » بالرفع ؛ أى عظمت كلمةٌ يعنى قولهم اتخذ الله ولدا . وقرأ الباقون بالنصب «كلمةً» على التمييز ، وهو أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

« تخرج من أفواههم » : صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم . فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتفوهون به ولا يطلقون به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه ولا يظهرونه ، فكيف بمثل هذا المنكر ؟ وهو قولهم ﴿ اتخذ الله ولدا ﴾ !

فى هذا التعبير « كبرت كلمةً تخرج من أفواههم » تشترك الألفاظ بنظمها وجرسها فى تفظيع هذه الكلمة التى يقولونها . فهو يبدأ بكلمة « كبرت » لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملأ الجو بهما .

ويجعل الكلمة الكبيرة تمييزا لضميرها فى الجملة « كبرت كلمة » زيادة فى توجيه الانتباه إليها . ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجا كأنما تنطلق منها جزافا وتندفع منها اندفاعا « تخرج من أفواههم » .

وتشارك لفظة أفواههم بجرسها الخاص فى تكبير هذه الكلمة وتفظيعها ، فالناطق بها يفتح فاه فى مقطعها الأول بما فيه من مد « أفوا . . » ثم نتوالى الهاءان فيمتلئ الفم بهما قبل أن يطبق على الميم فى نهاية اللفظة « أفواههم » . وبذلك يشترك نظم الألفاظ فى التعبير وجرسها فى النطق ، فى تصوير المعنى ورسم الظل .

ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفى والاستثناء : « إن يقولون إلا كذبا » ؛ ويختار للنفى كلمة : « إنْ » وليس كلمة « ما » لأن فى الأولى صرامة بالسكون الواضح ، وفى لفظ « ما » شىء من الليونة بالمد ـ وذلك لزيادة التشديد فى الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لهذه الكلمة الكبيرة .

---

(١) الولد : للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

٣٦٥ ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

١١ ـ الكهف (١٨)

الضرب : إيقاع شىء على شىء ، ولاختلاف ما يوقع يختلف تفسير الضرب ، ثم يتوسع فيه بتشبيه بعضه ببعض ، فضرب الكف ، وضرب الأرض ، وضرب العرْق ، الخ .

وضربُ المثَل من ضرب الدراهم بآلة السك ، لأنه شىء يظهر أثرَه فى غيره . وضَربُ الخيمة يستعار منه الإحاطة والتغطية واللف مثلا للجسم كله أو بعضه .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ : الضرب هنا بمعنى التغطية على الآذان فلا يسمعون . قال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ، أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . قال الزجاج : منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . قال القرطبى : تخصيص الآذان بالذكر لأنها الجارحة التى منها عظم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع .

فالتعبير يصور إلقاء الله تعالى النوم عليهم ـ وهذه من فصيحات القرآن التى أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله .

ومن ذكر الأذن فى النوم قول النبى ﷺ : ﴿ ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه ﴾ . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم لا يقوم الليل .

أما الزمخشرى فقال فى شرح هذا التعبير : ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع ، يعنى : أَنَمْنَاهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات ، كما ترى المستثقل فى نومه يُصاح به فلا يسمع ولا يستنبه . فحذف المفعول الذى هو الحجاب ، كما يقال : بنى على امرأته ، يريدون بنى عليها القبة .

« عددا » : نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به التكثير قال قوم : بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعد فى الآية الخامسة والعشرين حيث قال : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ .

ورد هذا التعبير فى سياق ملخص قصة أصحاب الكهف : الفتية الذين آمنوا بربهم فى وسط ظلام كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم له . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل أمامهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الكهف .

(انظر التعبير : وربطنا على قلوبهم رقم ٣٦٦)

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ ١٤ ـ الكهف (١٨)

رَبَطَه يَرْبِطُه رَبْطًا : شَدَّه بالرِّباط ، وهو ما يُربَط به .

وربَط على قلبه : شَدَّه وقَوَّاه ليسكن بالصبر والشجاعة .

﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ : عبارة عن شدة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدى الكفار : ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذن شططا ﴾ . ولما كان الفزع وخور (١) النفس يشبه بالتناسب الانحلال ، حَسُنَ فى شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه بالربط . ومنه يقال : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا تَفْرَق (٢) نفسُه عند الفزع والحرب وغيرهما . ومنه الربط على قلب أم موسى ؛ وقوله تعالى: ﴿وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ ١١ ـ الأنفال .

قال الزمخشرى : قوينا قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان والنعيم ، والفرار بالدين إلى الكهف ، وجسَّرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿ إذ قاموا ﴾ بين يدى الجبار وهو دقيانوس ، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم .

هذا التعبير متصل بقصة أصحاب الكهف . فقد ذكر غير واحد من السلف والخلف : أنهم كانوا من أبناء سادة الروم ، وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه ، وكان لهم ملك جبار عنيد يأمر الناس بعبادة الأصنام والذبح لها، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ـ عَرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض، فجعل كل منهم يتخلص من قومه وينتحى ناحية ، حتى جمعهم الذى جمع قلوبهم على الإيمان به ، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : ﴿ الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ﴾ ثم توافقوا كلهم على عبادة الله وحده . . . فلما انتهى أمرهم إلى ملكهم استحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوا بالحق ودَعَوْه إلى الله عز وجل ، وقد أجمل الله ذلك بقوله : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا . . . » الآية .

---

(١) الخَوَر : الضعف والانكسار . (٢) فَرِق يَفْرق فَرَقًا : جَزِع واشتد خوفُه .

ويقال إنهم لما دَعَوا الملك إلى الإيمان بالله ، أبى عليهم وتهددهم وتوعَّدهم ، ثم أجَّل النظر فى أمرهم لعلهم يرَجعون عن دينهم . قال الحافظ بن كثير : وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم فى تلك النَّظرة (أى الإرجاء والإمهال) توصلوا إلى الهرِب منه والفرار بدينهم من الفتنة (أى الارتداد عن دينهم) [1] .

« لقد قلنا إذن شططا » أى قولا هو عين الشطط والبعد المفرط عن الحق . والشطط : مصدر بمعنى مجاوزة القدر فى كل شىء ، وُصف به القول مبالغة .

(انظر التعبير : فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، رقم ٣٦٥)

---

(١) راجع : « التفسير الوسيط » المجلد الثانى ، ص ٨٤٣ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾٢١ ـ **الكهف** (١٨)

﴿ الذين غلبوا على أمرهم ﴾ : هم أصحاب الغلبة والسلطان . و « أمرهم » المقصود أمر فتية الكهف .

نحن الآن بصدد قصة أصحاب الكهف المؤمنين ، وكانوا من أبناء السادة الروم . وكان ملكهم جبارا عنيدا يأمر الناس بعبادة الأصنام من دون الله ، ويقال إن اسمه كان دقيانوس . وقد اعتزل هؤلاء الفتية المؤمنون أهل الشرك وفروا بدينهم إلى الكهف حيث مكثوا سنين عددا . ومضت قرون وتولى مُلك تلك البلاد رجل صالح مؤمن ، واختلف أهل مملكته فى أمر البعث ، أيكون أو لا يكون ؟ فشق ذلك على الملك ، ودعا الله أن يبعث لأمته آية تبين لهم الحق فيما هم فيه مختلفون . فبعث ـ سبحانه ـ أصحاب الكهف من رقودهم الطويل . وأرسلوا أحدهم بورَقهم (دراهم الفضة وكانت عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم) إلى المدينة ليأتيهم بطعامَ منها . وهناك استُنكر شخصُه واستُنكرت دراهمُه لبعد عهدها . فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك الذى قالَ (عندما نظر إلى الفتى) : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا من البلد على عهد دقيانوس ، الملك الكافر ؛ فقد كنت أدعو الله أن يُرينيهم ، وسأل الفتى عن شأنه ، فقص عليه القصة .

وكان الملك قد سمع أن فتية خرجوا ولم يعودوا على عهد دقيانوس ، فدعا مشيخة بلده ، وكان عند رجل منهم أسماؤهم وأنسابهم ، فلما سألهم الملك عن هؤلاء الفتية ، تقدم هذا الرجل وذكر له ما عنده من أمرهم ، فقال الفتى : صدق .

ثم قال الملك : أيها الناس هذه آية بعثها الله لكم ، لتؤمنوا بالبعث وأنه على نحو ما رأيتم ، ثم خرج هو وطائفة من أهل المدينة ومعهم الفتى . فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم : رآهم جلوسا مشرقة وجوههم ، لم تَبْلَ ثيابُهم . فأخبروه بما لقوا من دقيانوس ، فبينما هم بين يديه إذ قالوا له : نستودعك الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله ، ودعوا له بالخير ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى .

فهذا معنى « أعثرنا عليهم » أى أطلعنا عليهم أهل مدينتهم ، « ليعلموا أن وعد الله حق »

أى ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق . وعندئذ قال البعض : « ابنوا عليهم بنيانا» لهم (كما جاء فى تفسير القرطبى) أولئلا يتطرق الناس إليهم ضنا بتربتهم ومحافظة عليها (كما جاء فى الكشاف) .

﴿قال الذين غَلبوا على أمرهم لنتخذن عليه مسجدا ﴾ : ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غَلبوا على أمرهم هم المسلمون ، وقيل : هم أهل السَلطان والملك ، فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم . قال الشوكانى : والأول أولى . وقال الزجاج : هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون ، لأن المساجد للمؤمنين .

وعن حكم اتخاذ المساجد فوق القبور جاء فى « التفسير الوسيط » ، مجمع البحوث الإسلامية ، ما يلى : استدل بعض الفقهاء بهذه الآية على جواز اتخاذ المساجد فوق قبور الصلحاء والصلاة فيها . . . لكن شرع من قبلنا إنما يكون شرعا لنا إذا لم يرد فى شرعنا ما يرده ، وقد جاء فى شرعنا ما يحرمه ويرده . فقد قال النبى ﷺ : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجدَ والسُرج » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن ابن عباس . وأخرج الشيخان والنسائى عن عائشة قالت قال النبى ﷺ : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الناهية عن اتخاذ المساجد فوق القبور .

(انظر التعبير : فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا رقم ٣٦٥ ؛ والتعبير : وربطنا على قلوبهم رقم ٣٦٦) .

٣٦٨ ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ ٢٣ ، ٢٤ - الكهف (١٨)

المعنى : لا تقولن أفعلُ غدا إلا متلبسا بقول : إن شاء الله . نزلت إرشاداً للنبى ، ﷺ ، حين سألته قريش عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال : «أئتونى غدا أخبرْكم» ، ولم يقل إن شاء الله . فأبطأ عليه الوحى بضعة عشر يوما حتى شق عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مُفَرِّجة .

« واذكر ربك إذا نسيت » أى إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، ثم ذكرت أنك لم تعلقه بها ، فائت بها .

وقوله «إلا أن يشاء الله » فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله .

نَبه الله نبيه ﷺ بهذه الآية أن لا يقول فى أى شأن من الشئون سواء كان فى أمر الشريعة أو سواها ـ أن لا يقول ـ إنى فاعل ذلك غدا إلا مرتبطا بقوله إن شاء الله فإن أمكنه أن يفعله غدا فَعَلَه ، وإلا فقد وقع التخلف وفقا لمشيئة الله الذى لا يقع فى ملكه إلا ما شاءه سبحانه . ونحن مكلفون بهذا التوجيه الإلهى لرسوله ﷺ ، فإنه أسوتنا وإمامنا .

فلا نحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، فالإنسان لا يدرى ما يكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه .

إن كل حركة وكل نأمة [١] ، بل كل نَفَس من أنفاس الحى ، مرهون بإرادة الله . وسُجُف[٢] الغيب مُسبَل مُسدَل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ماوراء الستر المسدل ؛ وعقله مهما عَلِم قاصر وكليل . فلا يقل إنسان : إنى فاعل ذلك غدا ـ والغد فى غيب الله .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبر له ، وأن يعيش يوما بيوم . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التى تدبره ؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره . فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فَبِها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولا وأخيرا .

---

(١) النَّأمَة : الصوت الضعيف الخفىُّ أيًّا كان .

(٢) السِّجاف : السِّتر والستر هو السِّتار والستارة .

فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير .

هذا هو المنهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المسلم . فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح . ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق - بل يبقى فى كل أحواله متصلا بالله ، قويا بالاعتماد عليه .

٣٦٩ ﴿ رَجمًا بِالْغَيْبِ ﴾

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾

٢٢ ـ **الكهف** (١٨)

قاله رَجْمًا بالغيب : ظَنًّا من غير دليل [1] . والرجْم فى الأصل : الرَّمْىُ بالرجَم ، وهو الحجارة الصغيرة ، استعير للتكلم بما لا علمَ به والاطلاع عليه لخفائه ، تشبيها له بالرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى . وهم كذلك يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم الذى لا مُطَّلع لهم عليه .

قال الزمخشرى : وُضع الرجمُ موضع الظن ، فكأنه قيل : ظَنًّا بالغيب ، إذ أنهم أكثروا القول : رَجَم بالظن مكان قولهم : ظَنَّ ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير فى معلقته ينهى عبسا وذبيان عن القتال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم .˙. وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم

المرجم : المظنون

نصب « رجمًا » على المفعول له أى لظنهم ذلك .

٣٧٠ ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ ٢٦ ـ **الكهف** (١٨)

« أَبْصِرْ به وأَسْمِع » : صيغتا تعجب ، أى ما أَبْصَرَه وما أَسْمعَه تعالى . والمراد : الإخبارُ بأنه تعالىَ لا يغيب عن بصره وسمعه شىء ، فهما على جهة المجاز .

وذكر بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرينِ والسامعين ؛ إذا لا يحجبه شىء ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف وصغير وكبير ، وخفىٍّ وجَلِىٍّ .

---

(١) وصَارَ فلانٌ رَجْمًا أى لا يوقف على حقيقته .

٣٧١ ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

٤٢ ـ **الكهف** (١٨)

تقليب الكفين : كناية عن الندم والتحسر ، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبَطن ، كما كَنَى عن ذلك بعَضِّ الكف والسقوط فى اليد ، ولأنه فى معنى الندم عَدَّى تعديته بَعلى ، كأنه قيل : فأصبح يندَم « على ما أنفق فيها » أى أنفق فى عمارتها .

تصور كلمات الآية الكريمة مشهدا شاخصا كاملا : الثمر أُحيط به أى دمر تماما كأنما أُخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة . وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب .

وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته .

ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن ويندم عليه .

﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا (١) ﴾

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ٤٢ ـ الكهف (١٨)

خوَت الدارُ تخوى خَواءً : خلَت من أهلها ، أو : سقطت وتهدمت فهى خاوية .

عُروشها : جمع عَرش وهو ما يُدعم به الكَرْمُ من أعمدة خشب يقوم عليها الكرم وتسترسل عليها قُضبانُه (٢) .

« خاوية على عروشها » : سقطت الجنة على دعائم الكروم ، أو سقط بعض تلك الجنة على بعض . فأشجار الكروم سقطت على أعمدتها وذلك لسقوط الأعمدة بعد أن أصاب الجنة عذاب السماء الذى جعلها صعيدا زلقا (أرضا بلقاء لانبات فيها ملساء لا تثبت عليها قدم أى لا منفعة منها) . فجمع على صاحب الثمر والجنة بعد أن أحيط بهما (أى بعد أن تم إهلاكهما بالكامل) هلاك الثمر والأصل (الأصل هو الجنة أى حديقة العنب) ، وهذا من أعظم الجوائح (٣) عقابا له على بغيه (عندما قال فى الآيتين ٣٥ و ٣٦ : ما أظن أن تبيد وتفنى هذه الحديقة ولا أحسب أن هناك بعثا وقيامه) .

هو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شىء ، والجنة خاوية على عروشها فهى مهشمة محطمة ، وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب . (انظر التعبير رقم ٣٧١) .

---

(١) ورد هذا التعبير ثلاث مرات فى القرآن الكريم : هنا وفى ٢٥٩ ـ البقرة وفى ٤٥ ـ الحج .
(٢) القُضبان جمع قضيب وهو الغُصن .
(٣) جمع جائحة وهى المصيبة تحل بالإنسان فى ماله فتجتاحه كله أى تهلكه .

٣٧٣ ﴿ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

٧٠ - **الكهف** (١٨)

« حتى أحدث لك منه ذكرا » أى حتى أفسره لك دون سؤال منك .

أحدثه : أوجده . والذكر الحديث والقصة .

« أحدث لك منه ذكرا » : حتى أوجد لك منه قصة وبيانا . وهذا التعبير جاء على لسان العبد الصالح الذى لقيه سيدنا موسى عليه السلام وسأله الصحبة واتباعه بشرط أن يعلمه مما علمه الله . لكن العبد الصالح أجابه بأنه لن يستطيع الصبر معه لأن ما يجريه الله على يديه من الأمور تجعل موسى يسارع إلى الاعتراض عليه لخفاء ما فيه من حكمة على موسى . لكن موسى وعد العبدَ الصالح بأنه سيصبر على ما يراه من الأمور الخفية الأسباب التى يجريها العبد الصالح أمامه ولا يعصى له أمرا - وهذا ما ينبغى للمتعلم مع معلمه .

عندئذ قال العبد الصالح لموسى : فإن اتبعتنى وصحبتنى فى رحلتى هذه فلا تسألنى عن شىء رأيته بعينك وأنكرته بقلبك ، واصبر حتى أقدم لك فى شأنه بيانا يفسر ما عمى عليك من سببه .

٣٧٤ ﴿ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

٨٦ - **الكهف** (١٨)

« تتخذ فيهم حُسنا » أى أمرا حسنا ، مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

« تتخذ » هنا بمعنى تصنع . وحُسنا معناه : حالة حسية أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشىء ورغبة الناس فيه . ويكون فى الأقوال والأفعال والذوات والمعانى .

٣٧٥ ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ١٠٠ ، ١٠١ - **الكهف** (١٨)

« كانت أعينهم فى غطاء » أى أن أعينهم كانت داخل غطاء يغطيها من جميع الجهات ويحجبها « عن ذكرى » أى عن آياتى أو عن القرآن وتأمل معانيه وتدبر فوائده. ومن ينظر آيات الله فى الكون بتفكر واعتبار ، فإنه يذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، وهكذا أطلق المسبب على السبب مما أكسب التعبير بلاغة وعمقا .

والغطاء هو ما يُجعل فوق الشىء فيواريه ويستره . والغطاء هنا وَرَدَ للغطاء المعنوى، أى أنهم أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولأن فى أسماعهم صمما « وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

هؤلاء الكفار تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله ، فما يستطيعون اليوم إعراضا ـ لقد نُزع الغطاء عن عيونهم نزعا فرأوا عاقبة الإعراض والعمى : جهنم !

والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد ، متقابلين فى الحركة على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

٣٧٦ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

١٠٩ - **الكهف** (١٨)

المداد : سائل ذو لون يُكتَب به (الحبر)[١] .

والبحر هنا : الجنس أى كل البحار والمحيطات .

والمَدَد : الزيادة فى الشىء تكون من مثل ما هو فيه . والفعل : مَدَّ أى زاده من مثل ما هو فيه . يقال : مَدَّ النُّهَيْرُ النهرَ . ومَدَّ الدواة أى زاد فى مدادها وحبرها .

والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مداد لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ؛ ولو جئنا بمثل البحر أيضا مدادا لنفد هو الآخر .

والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر . والبشر يكتبون بالمداد كل علمهم الذى يعتقدون أنه غزير . والتعبير يعرض لهم البحر بسعته وغزارته فى صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ، فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد .

وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب التعبير القرآنى إلى تصور البشر المحدود القاصر ، يقرب إليه معنى غير المحدود ـ لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها فى صور ومشاهد ومحسوسات . والبحر فى هذا المثال يمثل علم الإنسان الذى يظنه واسعا وغزيرا ، وهو ـ على سعته وغزارته ـ محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهى الذى لا حدود له ولا يدرك البشر نهايته .

ولقد يدرك البشر الغرورُ بما يكشفونه من أسرار فى أنفسهم وفى الآفاق ، فتأخذهم نشوة الظفر العلمى ، فيحسبون أنهم علموا كل شىء .

ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التى لا حد لها ، فإذا هم ما يزالون على خطوات من الشاطئ ، والخضم أمامهم أبعد من الأفق الذى تدركه أبصارهم .

إن ما يطيق الإنسان ويقدر على تلقيه وتسجيله من علم الله شىء ضئيل ضئيل .

وقريب من هذا التعبير ، التعبير الآخر فى الآية ٢٧ من سورة « لقمان » « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

---

(١) قال ابن الأنبارى : سُمى المدادُ مدادا لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجئ الشىء بعد الشىء ؛ ويقال للزيت الذى يوقد به السراج : مداد وهو السليط .

٣٧٧ ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

﴿ كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ ١ - ٣ - مريم (١٩)

﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ : سراً ، جوف الليل لأنه أسرع للإجابة .

إنه يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، فى عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ، ويناديه : ﴿ رب إنى وهن العظم منى ﴾ بلا واسطة ولا حتى حرف النداء .

وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ؛ ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ ٦٠ ـ غافر ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ، وليستشعروا صلتهم بالجناب الذى لا يُضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه .

قال الزمخشرى : أخفى دعوته لأن الإخفاء أبعد عن الرياء وأدخل فى الإخلاص . أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى إبان الكِبَرَة (كبر السن) والشيخوخة [1] .

---

(١) وقيل : خفت صوته لضعفه وهَرَمه ، ففى صفات الشيخ العجوز : صوته خُفات وسمعه تارات . واختلف فى سن زكريا عليه السلام فى ذلك الوقت فيما بين الخامسة والستين والخامسة والثمانين .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ ٤ - مريم (١٩)

التعبير مُصَوِّرٌ : يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ، ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى فى الرأس المشتعل سواد .

قال الزمخشرى : شبه الشَّيبَ بشُواظ النار (١) فى بياضه وإنارته ، وانتشارَه فى الشعر وفشوَّه (٢) فيه وأخذَه منه كل مأخذ باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس .

وأخرج الشيب مميزا (٣) ، ولم يضف الرأس (٤) اكتفاء بعلم المخاطَب أنه رأس زكريا . فمن ثم فَصُحت هذه الجملة وشُهد لها بالبلاغة .

وزكريا يشكو إلى ربه وَهَنَ العظم ، وحين يهن العظم (يضعف) يكون الجسم كله قد وهن ، فالعظم هو أصلب ما فيه ، وهو قوامه الذى يقوم به ويتجمع عليه .

ووهن العظم واشتعال الرأس شيبا كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذى يعانيه زكريا .

ثم يعقب : « ولم أكن بدعائك رب شقيا » فالله قد عوده أن يستجيب له إذا دعاه ، فلم يَشْقَ مع دعاء ربه .

---

(١) الشُّواظ : اللهب لا دخان له :
(٢) فَشَايَفْشو فُشُوًا : ظهر وانتشر .
(٣) « شيبًا » : تمييز .
(٤) أى لم يقل (رأسى) .

٣٧٩ ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ ٨ ـ ١٠ ـ مريم (١٩)

يقال : عتَا الشيخُ يعتو عُتُوًّا وعُتيا وعتيا : كبرووَلَّى .

﴿ بلغت من الكبر عتيا ﴾ : بَلغتَ النهاَية فى الكبر واليُبْس والصلابة فى المفاصل والعظام . أى بلغ بسبب الكبر حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها .

دعا زكريا ـ وهو أحد أنبياء بنى إسرائيل البارزين ـ دعا ربه أن يهبه من عنده ابنا صالحا يرثه ويحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده ، ويحسن القيام على أهله الذين يرعاهم ـ ومنهم مريم التى كان قيما عليها وهى تخدم المحراب الذى يتولاه .

وتأتيه البشرى من الملأ الأعلى : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ وهو اسم فذ غير مسبوق : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ . والذى دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالى (أى الذين يلونه فى النسب كبنى العم) من بعد موته على الدين أن يضيعوه كما شاهد فى بنى إسرائيل من تبديل الدين ، وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء ، فإذا هو يواجه الواقع : هو شيخ بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقر ، فكيف ياترى سيكون له غلام ؟ هنا يأتيه الجواب : إن هذا هين على الله سهل ، ويذكره بمثل قريب فى نفسه ـ خلقه الله وأوجده من العدم : « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .

وليس فى الخلق هين وصعب على الله ، ووسيلة الخلق للصغير والكبير واحدة ، هى : كن فيكون .

والله هو الذى جعل العاقر لا تلد ، والشيخ الفانى لا ينسل ـ وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل . فكل شيء من إعادة وإنشاء هين أمام قدرة الله .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة على أنه سيرزق بالإبن تدفعه إلى أن يطلب آية وعلامة على تحقيق البشرى فعلا . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة ـ وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ويحتبس إذا كلم الناس رغم سلامة لسانه من الآفة والعوج : ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ .

(انظر التعبيرين : نداء خفيا ، رقم ٣٧٧ . اشتعل الرأس شيبا ، رقم ٣٧٨)

٣٨٠ ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾

١٢ ـ مريم (١٩)

﴿ بقوة ﴾ أى بجد واجتهاد ، قاله مجاهد . وقال زيد بن أسلم : ﴿خذ الكتابة بقوة﴾ أى بالعلم به والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام بأوامره والكف عن نواهيه .

والكتاب هو التوراة .

يترك السياق القرآنى زكريا فى تسبيحه ، ويفتح الصفحة الجديدة على يحيى ، يناديه ربه من الملأ الأعلى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ، ورث يحيى أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة .

لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبيا ، فى الفجوة التى تركها السياق بين المشهدين : مشهد زكريا ومشهد يحيى . على طريقة القرآن فى عرضه الفنى للقصص ، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد ، وأشدها حيوية وحركة .

٣٨١ ﴿ إذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١) ﴾

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ٣٥ - مريم (١٩)

﴿ إذا قضى أمرا ﴾ : إذا أراد إيجاد هذا الأمر : قضَى هنا بمعنى أراد وقدر (٢) .

﴿ كــن فيكـون ﴾ هو من كان التامة ، أى احدُث فيحدُث ؛ وهذا مجاز وتمثيل . وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف . كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر ، يمتثل للأمر ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك كَمالَ قدرته وعظيمَ سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراو أراد كونه فإنما يقول له : كن ، أى مرة واحدة ، فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ ٨٢ ـ يس ، وقوله : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ٤٠ ـ النحل .

ونبه بذلك على أن خلق عيسى كان بكلمة ﴿ كن ﴾ فكان كما أمره الله : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قاله له كن فيكون» ٥٩ ـ آل عمران .

لقد صدر الكون عن خالقه ، عن طريق توجه إرادته ـ سبحانه ـ المطلقة القادرة المتمثلة فى : ﴿ كن فيكون ﴾ . فتوجه هذه الإرادة الإلهية إلى خلق كائن من الكائنات ، كفيل (أى هذا التوجه) وحده بوجود هذا الكائن على الصورة المقدرة له ، بدون وسيط من قوة أو مادة . وتوجه هذه الإرادة الإلهية يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشرى ، لأنها فوق طاقة الإدراك البشرى . وهى أى طاقة الإدراك البشرى ، غير مهيأة لإدراك هذا التوجه لأنه لا يلزمها فى وظيفتها التى خلقت لها وهى خلافة الأرض وعمارتها .

وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التى تفيده فى مهمته ، وسخر له الانتفاع بها ، بقدر مازوى عنه (أى طوى عنه) الأسرار الأخرى التى لاعلاقة لها بخلافته فى الأرض .

ولقد ضربت الفلسفات فى تيه لا منارة فيه ، وهى تحاول كشف هذه الأسرار ، فلم تنته إلى شىء يُطمأن إليه وعَصَم الإسلامُ أهلَه من أن يضربوا فى هذا التيه ؛ ولما أراد بعض

---

(١) هذا التعبير موجود فى سبع مواضع أخرى هى : ١١٧ ـ البقرة ؛ ٤٧ ـ آل عمران ؛ ٥٩ ـ آل عمران ؛ ٧٣ ـ الأنعام ؛ ٤٠ ـ النحل ؛ ٨٢ ـ يس ؛ ٦٨ ـ غافر .

(٢) ومن معاني قضى : خَلَق نحو « فقضاهن سبع سماوات ؛ وأمَر « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ؛ وبمعنى وفّى « فلما قضى موسى الأجلَ » .

متفلسفتهم ـ تحت تأثير الفلسفة الإغريقية وغيرها ـ أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى ، باءوا بالتعقيد والتخليط ، كما باء أساتذتهم الإغريق . وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة يبذلها العقل البشرى وراء مجاله ، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه .

﴿ كنْ ﴾ : فعل أمر تام ، من كان التامة ، مبنى على السكون وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت .

﴿ فيكونُ ﴾ : الفاء حرف عطف ، « يكون » مضارع تام مرفوع على الاستئناف أى فهو يكون ، أو على أنه معطوف على « يقول » والرفعُ قراءة السبعة إلا ابن عامر فقد قرأه بالنصب « فيكونَ » جوابا للأمر « كن » ، مثل قولك : أكرمِ زيدا فيكرمَك .

٣٨٢ ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣٧ ، ٣٨ - مريم (١٩)

﴿ أسْمِع بهم وأبصر ﴾ : صيغة تعجب ، أى ما أدق سمعهم وبصرهم فى هذا اليوم، يوم يأتوننا ، يوم المشهد العظيم ، يوم القيامة . والمفارقة بين سمعهم وبصرهم فى ذلك اليوم وهو أشد ما يكون السمع وأقوى ما يكون البصر ليسمعوا ما يكرهون ويروا الخزى ، وبين الصمم والعمى اللذين أصابهم فى الدنيا فلا يهتدون إلى الحق ولا إلى الهدى ؛ والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر وإغفال الاستماع اليوم ، أى فى الحياة الدنيا .

٣٨٣ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٣٩ - مريم (١٩)

الأَمْر : يعنى المأمور به إيجادا وعدما .

قُضِىَ : أُنجز وفُرِغ منه .

﴿ قُضِىَ الأمرُ ﴾ أنجز المأمورُ به وفُرِغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . وعن النبى ﷺ ، أنه سُئِل عنَ قضاء الأمر فقال : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظران . ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت » ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر ﴾ هكذا جاء فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا .

« يوم الحسرة » هو يوم القيامة يتحسر فيه المسئ على ترك الإحسان فى الدنيا . إنه يوم تشتد فيه الحسرات حتى لأنما اليوم مُمَحَّض للحسرة لا شىء فيه سواها ، فهى الغالبة على جوه . لكنه يوم لا تنفع فيه الحسرات « إذ قضى الأمر » .

٣٨٤ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ ٩٦ ـ مريم (١٩)

وَدَّه يَوَدُّه وُدًّا ووَدًّا ومودةً : أحبه وهَوِيَه .

﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ أى محبة فى القلوب ، وتلك بشارة بسعة الإسلام وبسط سلطانه ، ومحق المنافقين الذين يضمرون البغض للمؤمنين .

فالله اختص أولياءه بهذه الكرامة : يحدث لهم فى القلوب ويزرع لهم فى القلوب مودة من غير أن يتعرضوا للأسباب التى تجعل الناس يود بعضهم بعضا ، كما أنه ـ سبحانه ـ يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاما لهم . رُوى أن النبى ، ﷺ ، قال لعلى رضى الله عنه : « يا على قل اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » أخرجه الثعلبى والطبرانى فى مسند حمزة الزيات . وعن النبى ﷺ : « يقول الله عز وجل يا جبريل قد أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء ، إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهلَ السماء ، ثم يضع له المحبة فى أهل الأرض » متفق عليه من حديث أبى هريرة . وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه .

والسين فى قوله « سيجعل » إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام [1] وإما أن يكون ذلك يوم القيامة ، إذ يتآلف المؤمنون منزوعا ما فى صدورهم من غل .

للتعبير بالود فى هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، ورَوْح [2] رضى يلمس النفوس . وهو ود يشيع فى الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض فيمتلئ به الكون ويفيض .

---

(١) دَجَا الإسلامُ : شاع وكَثُر ، من دجا الليلُ إذا تمت ظلمتُه وألبَس كلَّ شىء .
(٢) الرَّوح : السرور والفرح .

٣٨٥ ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ٧ ـ **طه** (٢٠)

« وأخفى » أى وما هو أخفى من السر ، وهو ما حدثت به النفس وما خطر لها ولم تحدث به أحدا أى ما تُسره النفس والصدور .

هناك تنسيق بين الظل الذى تلقيه الآية السابقة على هذا التعبير وهى قوله تعالى : ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ وبين الظل الذى يلقيه هذا التعبير «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » . فالتنسيق بين الظاهر الجاهر فى الكون ، والظاهر الجاهر من القول . وبين المستور المخبوء تحت الثرى (الأرض) والمستور المخبوء فى الصدور . فالسر خاف وما هو أخفى من السر : هى درجات من الخفاء والاستتار يصورها التعبير وينسق بينها وبين المَخبوء المستتر تحت أطباق الثرى .

والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وحين يستشعر علمه ـ سبحانه ـ بسره ونجواه ، فإنه يطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ، ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

٣٨٦ ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾

٢٥ ، ٢٦ ـ **طه** (٢٠)

﴿ اشرح لى صدرى ﴾ : وسِّعه ونوِّره بالإيمان والنبوة . شرح الشىءَ : بَسَطه ووَسَّعه . ويقال شرح صدرَه للأمر : حببه إليه .

﴿ ويسر لى أمرى ﴾ : سَهِّل علىَّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . كان هذا من دعاء سيدنا موسى عليه السلام عندما أمره ربه بالذهاب إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان .

٢٧ ، ٢٨ - طه (٢٠)

﴿ واحْلُلْ عقدةً من لسانى ﴾ : يعنى العُجمة التى كانت فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت فى لسانه رُتَّة [1] . وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذَات يوم وهو طفل صغير فلطمه لطمة وأخذ بلحيته فنتفها ، فقال فرعون لآسية زوجته : هذا عدوى فهات الذباحين .

فقالت آسية : على رِسْلك [2] فإنه صبى لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بَطستين فجعلت فى أحدهما جَمْرًا وفى الآخَر جوهرا ، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها فى فيه على لسانه ، فكانت تلك الرتة .

﴿ يفقهوا قولى ﴾ أى يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه فى كلام العرب : الفَهم . فَقِه الأمرَ يفقَهُه فقهًا وفَقَهًا : فَهمه وأحسن إدراكه . وفَقُه يفقُه فقاهةً : صار فقيها .

والفقه : الفهم والفطنة ؛ وأيضا : العلم ، وغلب فى علم الشريعة وفى علم أصول الدين . ومثل الفقه الفقيه ، فالفقيه هو العالم الفَطِن ، وهو أيضا العالم بأصول الشريعة وأحكامها .

---

(١) رَتَّ يرت رَتَتًا ورَتَّة : كان فى لسانه رُتَّةٌ أى عُجمة وهى اللُّثْغَة والتردد فى النطق ، والأرَتُّ : الألْثَغُ .
(٢) تعبير معناه : اتئِدْ ولا تَعْجَلْ .

٣٨٨ ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ ٣١ ـ طه (٢٠)

الأَزْر : الظهر . وأَزَر الزرعُ : التف فقَوَّى بعضُه بعضًا [١] .

﴿ اشدُدْ به أزرى ﴾ : قَوِّنى به ، زدنى به قوة ، فالأزر أيضا : القوة .

والفعل شَدَّ الشيءُ يَشدُّ شدَّةً : قوىَ ومَتُنَ .

ويقال : شَدَ عضُدَه ، وشَدَ على يديه : قواه وأعانه . وأيضا : شَدَ أزرَه : قواه .

وقيل : الأزر : العون ، ويكون معنى التعبير : يكون عونا لى يستقيم به أمرى . قال الشاعر :

شَـدَدتُ بـه أزرى وأيقنـتُ أنـه
أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبُه

وكان هارون أكثر لحما من موسى ، وأتم طولا ، وأبيض جسما ، وأفصح لسانا .

٣٨٩ ﴿ وَأَلْقَيتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ ٣٩ ـ طه (٢٠)

قال ابن عباس : أحبَّه اللهُ وحبَّبَه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مسحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتادة : كانت فى عينى موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه .

وقال الطبرى : وألقيت عليك رحمتى .

على أن هذا التعبير يذكرنا بالحقيقة القائلة أنه مهما أوتى بنو البشر من قدرات على التحليل والتبيين وعلى الشرح والتفسير ، إلا أن سحر التعبير القرآنى وروعته وأثره وتأثيره تظل جميعا فوق مستوى قدرة الإنسان على التوضيح ـ إنه كامل فى نفسه ، سامق فى علوه ، مستغن بذاته عن كل شرح وتفسير

---

(١) وأيضا آزَرَ الزرعُ ومنه قوله تعالى : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ ٢٩ ـ الفتح .

٣٩٠ ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ ٣٩ - طه (٢٠)

صَنَع الشيءَ يصنعه صُنْعًا : عَمله . ويقال : صنعه على عينه إذا تولى توجيهه فى جميع أطوار حياته ، وهو استعارة تمثيلية للحَفظ والصون .

﴿ ولتصنع على عينى ﴾ أن تُربى وتُغَذى على مرأى منى بالحُنُوِّ والشفقة ؛ وأنا مراعيك كما يراعى الإنسانُ الشيءَ بعينه إذا اعتنى به . رافقته العناية وسندته يد القدرة الإلهية .

قال ابن عباس فى تفسير « ولتصنع على عينى» : إن ذلك بعينى حيث جُعلتَ فى التابوت ، وحيث أُلقىَ التابوتُ فى البحر ، وحيث التقطك جوارى امرأة فرعون . . . فذهبن بالتابوت إليها مغلقًا ، فلما فتحته رأت صبيا لم يُرَ مثلهُ قط ؛ وألقى عَليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون ، فقالت له : ﴿ قرة عين لى ولك ﴾ . . . وقالت : هبْه لى ولا تقتله ، فوهبه لها . كل هذا تم برعاية الله وفى كنفه . كان موسى تحت عين فرعون وفى متناول يده ـ بلا حارس ولا مانع ولا مدافع ـ ولكن عين فرعون لا تمتد إليه بالشر لأنى ألقيت عليك محبة منى ، ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عينى .

وما من شرح يمكن أن يضيف شيئا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذى يلقيه التعبير القرآنى العجيب : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾ وكيف يصف لسانٌ بشرى خلقاً يُصنع على عين الله ؟ إن قصارى أى بشرى أن يتأمله ويتملاه . إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية ـ فكيف بمن يُصنَع صنعا على عين الله ؟

---

(١) يقال : صنع فرسَه ونحوه : تعهده وأحسن القيام عليه بعلفه وتسمينه .

٣٩١ ﴿ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ (١)

﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ ٤٠ - طه (٢٠)

قَرَّت عينُه : سُرَّ ورضى ، فهو قرير العين . فمن معاني الفعل قَرَّ : سَكَنَ واطمأن . فالعين إذا رأت ما كانت متشوقة إليه سكنت إليه ولم تنظر إلى غيره .

ويقال : قر بهذا الأمر عيناً أى سُرَّ به .

﴿ كى تقر عينها ﴾ أى تُسر برجوعك إليها بعد أن قذفتك فى اليَمّ .

٣٩٢ ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ٤١ - طه (٢٠)

اصطنع : مبالغة فى صَنَع .

اصطنع فلانا لنفسه : اختاره .

وقال ابن عباس فى تفسير هذا التعبير : اصطفيتك لِوَحْيِي ورسالتى .

وقيل : قَوَّيتك وعلمتك لتبلغ عبادى أمرى ونهيى .

﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ خالصا مستخلصا مُمحضاً لى ولرسالتى ودعوتى . ليس بك شيء لهذه الدنيا ، إنما أنت للمهمة التى صنعتك على عينى لها واصطنعتك لتؤديها .

---

(١) التعبير موجود فى الآية ٢٦ من سورة مريم : ﴿ فكُلى واشربى وقَرى عينا ﴾ .

٣٩٣ ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ٥٠ - طه (٢٠)

المعنى : أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به . فأعطى العينَ الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكلَ الذى يوافق الاستماع ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق وهكذا .

وقال مجاهد وعطية ومقاتل : أعطى كل شىء صورةً ؛ لم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شىء فقدره تقديرا . قال الشاعر :

وله فى كل شىء خِلقَةٌ ... وكذاك الله ما شاء فَعَلْ

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شىء زوجه من جنسه .

﴿ ثم هدى ﴾ أى هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة والطعام والشراب والمسكن .

وقال الفراء : خلق الرجلَ للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للأنثى .

قال القرطبى : والتعبير يتناول جميع هذه الأقوال . وهو هبة الوجود لكل موجود، وهبة خلق هذا الموجود على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته إلىَ الوظيفة التى خُلق لها . وحيَن يجول الإنسان ببصره وبصيرته فى جنبات هذا الوجود الكبير ، تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة فى كل كائن صغير كان أو كبير . من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة المتمثلة فى الإنسان . كل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حى فيه يتحرك ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى - وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة فى فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور فى لحظة من اللحظات !

٣٩٤ ﴿ فَجمَعَ كَيْدَهُ (١) ﴾ ٦٠ - طه (٢٠)

كَادَ فلانًا : خدعه ومكَربه . وكاد له : أراده بسوء .

الكَيْد : إرادة مَضَرَّة الغيْر خفية ، وهو من الخَلق : الحيلة السيئة ؛ ومن الله : التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق (٢) .

﴿ فجمع كيده ﴾ أى مكره وحِيَله والمراد : جمع سَحَرَته ، وكان معهم حبالهم وعصيهم .

جمع هذا التعبير المكون من كلمتين كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه وما دبره هو ومستشاروه .

٣٩٥ ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بينَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ ٦٢ - طه (٢٠)

تَنَازَعَ القومُ الشىءَ : تجاذبوه . وتنازع القومُ فى الأمر اختلفوا فيه . وتنازعوا أمرهم : تجاذبوا الرأىَ فيه ، هذا يدلى برأى ، وذاك يدلى برأى يتشاورون فيه .

﴿ تنازعوا أمرَهم بينهم ﴾ أى تشاوروا ، يريد السحرة الذين جمعهم فرعون لملاقاة سيدنا موسى .

﴿ وأسروا النجوى ﴾ : بالغوا فى إخفاء ما يتسارُّون به عن موسى وأخيه . والنجوى : المُسَارَّة فى الحديث .

---

(١) التعبير موجود فى الآية (٦٤) من نفس السورة : ﴿ فَأجمعوا كيدكم ﴾ .
(٢) قال تعالى : ﴿ إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا ﴾ ١٥ ، ١٦ - الطارق .

٣٩٦ ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ ٦٧ - طه (٢٠)

أَوْجَسَ فلانٌ : وقع فى نفسه الخوفُ . وأوجس القلبُ شيئا : أحَسَّ به أو خافه .

أوجَسَ فلانٌ الأمر : أضْمره وأخفاه [١] .

﴿ خيفة ﴾ : مصدر خَافَ يخاف خوفاً ومخافةً وخيفةً .

﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ : أضمر موسى (وقيل أحس ، وقيل وجد) فى نفسه شيئا من الخوف وذلك بمقتضى الطبيعة البشرية عندما فوجئ بالحيات التى سحر بها سحرة فرعون الناسَ . ولكن الله ثبته وقال له فى الآية التالية :

﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى . وألْقِ ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ أى تبتلع بسرعة ما موّهوا به على الناس .

والتعبير يشى بضخامة ذلك السحر حتى أن موسى وجد فى نفسه خوفا ، وهو لا يحس مثل هذا الخوف إلا لأمر جَلَل ينسيه لحظة أنه هو الأقوى .

٣٩٧ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ [٢] ٩٥ - طه (٢٠)

الخَطْبُ : الحال والشأن . والخطب : الأمر الشديد يكثر فيه التخاطُبُ . والجمع : خُطوب . ويقال : خطب يسير وخطب جَلَل ، وخصه بعضهم بما له خطر ومن ثم يكثر فيه التخاطب .

﴿ فما خطبك يا سامرى ﴾ : فما شأنك وما الأمر العظيم الذى حملك على ما صنعت ؟ كان السامرى عظيما فى بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة . ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة ﴾ فاغتنمها السامرى وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل .

---

(١) تَوَجَّسَ فلانٌ : تَسَمَّع إلى الصوت الخفى .

(٢) ورد التعبير فى ٥١ ـ يوسف ، ٥٧ ـ الحجر ، ٢٣ ـ القصص ، ٣١ ـ الذاريات .

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ٩٧ - طه (٢٠)

﴿ لا مسَاسَ ﴾ أى لا أَمَسّ ولا أُمَسّ طول الحياة . مساس مصدر الفعل مَاسَّ؛ كقتال من قاتل . والمراد : أنه لا يخالط أحدا ولا يخالطه أحدٌ . ونفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له .

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامرى ألا يُماس الناسَ ولا يماسوه عقوبة له ولما كان منه إلى يوم القيامة؛ وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة . ويقال : ابتلى بالوسواس .

قال القرطبى : فهرب السامرى وجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش . لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه .

وقال القرطبى : هذه الآية أصل فى نفى أهل البدَع والمعاصى وهجرانهم وألا يُخالَطوا . وقد فعل النبى ﷺ ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلفوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قَتْلٌ لا يُقتَل عند بعض الفقهاء ولكن لا يُعامَل ولا يُبايَع ولا يُشارى ، وهو إرهاق إلى الخروج .

ونورد عن الزمخشرى توضيحا ساطعا لمعنى التعبير : عوقب (أى السامرى) فى الدنيا بعقوبة لا شىء أطَمَّ منها وأوحش ، وذلك أنه مُنع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحُرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته وكل ما يعايش به الناسُ بعضهم بعضا . وإذا اتفق أن يُماسَّ أحدا رجلا أو امرأة ، حُمَّ الماس والممسوس (أصابت الحمَّى الاثنين) ، فتحامى (تحاشى) الناسَ وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس ، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم .

١٢٤ ـ طه (٢٠)

أعْرَض عنه : صَدَّ ووَلّى . « ذكرى » : دينى وتلاوة كتابى والعمل بما فيه . وقيل عما أنزلت من الدلائل .

﴿ معيشة ضنكا ﴾ : ضيِّقة شديدة . والضَّنْك : ضيق العيش ، وكل ما ضاق فهو ضنك ، يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . يقال : ضَنُك يضنُك ضَنكاً وضناكة : ضاقَ .

ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليمَ والقناعةَ والتوكل عليه وعلى ما قسمه له . فصاحبه ينفق مما رزقه الله ـ عز وجل ـ بسماح وسهولة ويعيش عيشا رافغا (رغدا لينا) ، كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة[1] . والمعرض عن الدين مُستول عليه الحرصُ الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا ، مُسَلَّطٌ عليه الشح الذى يقبض يَده عن الانفاق ، فعَيْشُه ضنك وحاله مظلمة .

إن الحياة المقطوعة الصلة بالله ضنك مهما كان فيها من سَعَة ومتاع . إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه ، ضنك الحيرة والقلق والشك ، ضنك الحرص والحذر : الحرص على ما فى اليد والحذر من الفَوْت ، ضنك الجرى وراء المطامع والحسرة على كل ما يفوت ـ إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة ، والحرمان من طمأنينة الإيمان شقوة لا تعد لها شقوة الفقر والحرمان .

---

(١) ٩٧ ـ النحل .

٤٠٠ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾

١٦ـ الأنبياء (٢١)

لَعِبَ يلعَب لَعِبًا ولعبًا : لَهَا . ولَعِب : عمل عملا لا يجدى عليه نفعا ، فهو لاعب وهم لاعبون . ورد هذا التعبير مع اختلاف يسير فى الآية ٣٨ من سورة الدخان : ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أى ما خلقناهما عبثا وباطلا . هذه المخلوقات البديعة الصنع المحكمة التدبير ليست خالية من الحكم والمصالح ؛ بل خلقناها لحكم بالغة ، وللتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وأنه يجازى المحسنَ والمسيءَ.

ما خلقنا السماء والأرض ليظلمَ بعضُ الناس بعضاً ، ويكفرَ بعضُهم ، ويخالفَ بعضهم ما أمروا به ، ثم يموتوا ولا يُجَازوا على أعمالهم .

٤٠١ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ٢٢ ـ الأنبياء (٢١)

المعنى : لو كان فى السموات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدتا ، أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع والاختلاف اللذين يقعان بين الشركاء .

جاء فى « صفوة البيان لمعانى القرآن » : إن هذا النظام المحكم المستمر ، والاتساق البديع الدائم ، والارتباط بين أجزاء العالم العُلوىّ والسُّفلىّ ، والآثار الكونية المترتبة على ذلك ـ لا يمكن أن يصدر إلا عن صانع قادر . حكيم مدبر ، منفرد بالإيجاد والإبداع والتدبير ، لا شريك له فى فعله ، ولا معقب لحكمه ولارادَّ لأمره . إذ أن تعدد الآلهة يترتب عليه التنازع والتغالب بينهم فى الأفعال ، والتصادم فى الإرادات ؛ فيختل النظام ويضطرب الأمر ويخرَب العالم . ولما كان المشاهَد غيرَ ذلك ، دلّ على وحدة الإله المتصرف المتدبر القدير .

﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ : تنزه الله تعالى المسيطر ، ﴿ رب العرش ﴾ والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء ، تنزه عما يقولون ، والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون .

٤٠٢ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ٣٠ - الأنبياء (٢١)

المعنى : أن الله خلق كل شيء من الماء . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . روى أبو حاتم البستى فى المسند الصحيح له من حديث أبى هريرة قال : قلت يارسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ؛ أنبئنى عن كل شىء ؛ قال : ﴿ كل شىء خلق من الماء ﴾ .

ولقد جاء ذكر الخلق من الماء أيضا فى قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ ٤٥ - النور . وأيضا فى قوله تعالى : ﴿وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ ٥٤ - الفرقان . هذه هى الحقيقة الضخمة التى يعرضها القرآن وهى أن الله خلق الأحياء كلها من الماء - وهى حقيقة لم يكتشفها العلم إلا حديثا !

وجسم الإنسان يحتوى على حوالى ٤٧ر٣٥ لتر ماء ، ونسبة ما تحويه أجهزة الجسم من مياه نسبة عالية جدا إلى حد يثير الدهشة :

فتبلغ نسبة الماء فى عضلة جسم الإنسان ٧٥٪ ، وفى الكبد ٧٠٪ ، وفى المخ ٧٩٪ ، وفى الكلى ٨٣٪ . لكنه ليس ماء نقيا وإنما هو محلول ملحى . وهناك نظرية علمية حديثة تقول إن جميع الحيوانات البرية ، بما فيها الإنسان ، إنما جاءت من البحر . راجع كتاب :

« قل لى لماذا » ص ٢٦٦ لمؤلفه : أركادى ليوكم ، دار هاملن للنشر إنجلترا [1] .

هذه الحقيقة العلمية الخطيرة : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء ﴾ يُعد العلماءُ كشفَها وتقريرَها أمرا عظيما . وهى حقيقة تثير الانتباه حقا ، وورودها فى القرآنَ لا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن ، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله ، وليس من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له .

---

(1) Arkady Leokum, Tell Me Why p. 266 (Hamlyn Publishing Group, Middlesex, England) .

٤٠٣ ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ٣٧ ـ الأنبياء (٢١)

العَجَل : طلبُ الشيء وتَحَرّيه قبل أوانه . عَجِل يعجَل عَجَلاً وعَجَلَةً : أسرع .

ومعنى التعبير أن جنس الإنسان خُلق مجبولا مطبوعا على العجلة والتسرع ، فيستعجل كثيرا من الأشياء وقد تكون مضرة به . ومن ذلك استعجالهم العذابَ الذى أوعدوا به ـ متى هذا الوعد ـ جهلاً منهم وغفلةً عن شأنه .

وخلق من عجل أى رُكب على العجلة فُخلق عجولا ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ﴾ أى خلق الإنسان ضعيفا . وأيضا يقال عند المبالغة فى وصف الإنسان بالشر : خلق الإنسان من الشر أى شريرا . ومهما قيل فى شرح هذا التعبير فلن يبلغ شيئا من سحره ونصاعته .

لكن الإنسان إذا اتصل بالله وأوكل الأمر إليه ، فإنه يثبت ويطمئن . فالإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

٤٠٤ ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ٩٠ ـ الأنبياء (٢١)

أَصْلَحَ الشئَ : أزال فسادَه .

وأصلح الله لفلان ذريته : جعلها صالحة أى مستقيمة مؤدية لواجباتها .

قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين فى تفسير ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ : إنها كانت عاقرا فجعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قال القرطبى : يحتمل أن تكون جمعت المعنيين ، فجُعلت حسنة الخلق ولَودا .

والتعليقات ـ مهما تعددت ـ حول هذا التعبير ، فلن تبلغ شيئا من وقعه الطاغى على العقول والقلوب جميعا . إنه أكبر من قدرة العقل على الاستيعاب ، وجماله وروعته فى القلب أكبر من أن توصف بالكلمات .

٤٠٥ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ٢ - الحـــج (٢٢)

﴿ تَذْهل كل مرضعة ﴾ : تنسى وتترك كل امرأة الطفلَ الذى ألقمته ثديَها من شدة كربها ودهشتها ؛ من الذهول وهو الغفلة عن الشيء بطروء ما يشغل عنه من هَمّ أو وجع أو غيره ، والفعل ذَهَل عنه يذهل ذُهولا : نسيه وغَفَل عنه .

والمرضِعة : المباشِرة للإرضاع بالفعل لولدها ، وتسمى مرضِع إذا لم يكن ولدَها .

﴿ وتضع كل ذات حمل حملَها ﴾ أى ولدها قبل تمامه من شدة الهول .

﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع . قال أهل المعانى : وترى الناس كأنهم سكارى ، أى تظن ويخيل إليك ، ويدل على ذلك قراءة أبى زرعة هرم بن عمرو بن جرير بن عبد الله ﴿ وتُرى الناسَ ﴾ بضم التاء [1] . وقرأ حمزة والكسائى « سُكرى » بغير ألف ، وقرأ الباقون « سكارى » وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثل كسْلَى وكُسالى .

تصور الآية مشهدا مزدحما بذلك الحشد المتماوج : بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعى ، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها ؛ والناس سكارى ، لا من شراب وإنما من خوف ، يتبدى السُّكر فى نظراتهم الذاهلة وفى خطواتهم المترنحة - مشهد تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى .

﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾

٥ ـ الحــج (٢٢)

﴿ أَرْذَل العُمُر ﴾ أى أخَسّه وأدْوَنه ، وهو الهرم والخَرَف حتى لا يعقل .

والفعل رَذَلَه يرذُله رَذْلاً : عَدَّه رَذيلاً . ورَذُل : رَدُؤَ .

والأَرْذَل : الدُّون الخسيس ، أو الردىء من كل شىء . وأرذل العمر : آخره فى حال الكِبَر والعجز والخَرَف ، ولهذا قال :

﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ . كما قال فى سورة يس : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق ﴾ . وكان النبى ، ﷺ ، يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » . أخرجه النسائى .

والذى يرد إلى أرذل العمر إنما هو صفحة مفتوحة للتدبر . فبعد العلم وبعد الرشد ، وبعد الوعى وبعد الاكتمال ، إذا هو يرتد طفلا : طفلا فى عواطفه وانفعالاته ، طفلا فى وعيه ومعلوماته ؛ طفلا فى تقديره وتدبيره ، أقل شىء يرضيه وأقل شىء يبكيه ؛ طفلا فى حافظته فلا تمسك شيئا ، وفى ذاكرته فلا تستحضر شيئا ؛ طفلا فى أخذ الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدى فى حسه ووعيه إلى نتيجة لأنه ينسى أولها قبل أن يأتى إلى آخرها .

قال الزمخشرى : بين ـ سبحانه ـ أنه كما قدر على أن يرقيه فى درجات الزيادة حتى يُبلغه حد التمام ، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهى به إلى الحالة السفلى .

٤٠٧ ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ٥ ـ الحـــج (٢٢)

﴿ هامدة ﴾ : يابسة لانبات فيها . يقال : همدت الأرض تَهْمُدُ هُموداً : يَبِست ودرست . وهمدت أصواتهم إذا سكنت ، وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولم يصبها مطر .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾ أى تحركت فى رأى العين بسبب حركة النبات ، والاهتزاز شدة الحركة . يقال : هززت الشيءَ فاهتز ، أى حركته فتحرك (١) . فالأرض تهتز بالنبات ، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها عن بعض إزالة خفية ؛ فسماه اهتزازا مجازا ، وهو مجاز متصل بالمجاز السابق عليه عندما وصف الأرض بأنها هامدة أى ساكنة (٢) .

﴿ وربَت ﴾ : زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات . يقال : ربا الشيء يربوا رَبْوًا : زادونما .

﴿ وأنبتت ﴾ أى أخرجت ﴿ من كل زوج ﴾ أى من كل صِنف (٣) ﴿ بهيج ﴾ أى نَضِر حَسَن ؛ من بَهُج بَهَاجةً وبهجةً أى حَسُنَ .

ذكر فى أول الآية دلالة على البعث فقال : ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ ، ثم ذكر دلالة ثانية : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ .

---

(١) وهزّ الحادى الإبَل هزيزا فاهتزت هى إذا تحركت فى سيرها بحُدائه .

(٢) وقيل : اهتز نباتها ، فحذف المضاف ، قال الشاعر :

تَثَنَّى إذا قامت وتهتز إن مَشَت
كما اهتز غُصنُ البانِ فى ورقٍ خُضْرِ

(٣) من معانى كلمة زوج : الصِّنف ، والنوع من كل شيء .

٤٠٨ ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ٨ ، ٩ - الحج (٢٢)

عطفا الإنسان : جانباه من لدُن رأسه إلى وركه ، ويمكن للإنسان أن يثنى جانبه ، ويُعبَّر بتلكَ الحركة عن الإعراض فيقال ثَنَى عطفَه يثنيه أى تكبر ، وهو تعبير يماثل فى معناه التعبير : نأى بجانبه ، والتعبير : صعَّر خده .

وبرغم الدلائل التى وردت فى الآيات السابقة على البعث والقيامة ، فإن هناك من يجادل فى الله غير مستند إلى علم ولا إلى دليل ولا إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر والإعراض ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ لا يكتفى بأن يضل ، إنما يحمل غيره على الضلال .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

١١ ـ الحج (٢٢)

حَرْف الشيء : ناحيتُه . وفلان على حرف من أمره أى ناحية منه كأنه ينتظر ويتوقع ، فإذا رأى ووجد ما يحب استمر على هذه الناحية ، أما إذا رأى ووجد ما لا يعجبه عدل عن هذه الناحية .

﴿ يعبد الله على حرف ﴾ : على غير ثبات وعلى غير طمأنينة من الأمر ، فهو لا يدخل فى الدين دخول متمكن ، وإنما هو مضطرب فى أمر دينه وقدَمُه مزلزلة فيه . جاء فى « تفسير الجلالين » : على حرف أى على شك فى عبادته ، شُبِّه بالواقف على حرف جبل فى عدم ثباته .

فالتعبير يصور ﴿ من يعبد الله على حرف ﴾ فى حركة جسدية متأرجحة ، فهو معرض للسقوط عند أول دفعة .

وسياق الآية يشرح التعبير . « فإن أصابه خير » أى سراء (نعمة وخصب ، كثرة مال ، صحة وعافية ، الخ) « اطمأن به » أى بما أصابه ورضى بدينه . ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أى ضراء (جدب ، قلة مال ، سقم ، الخ) ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أى رجع عن دينه إلى الكفر .

قال الأزهرى : كأن الخير والخصبَ ناحيةٌ ، والضُّرَّ والشر والمكروه ناحيةٌ أخرى ، فهما حرفان وعلى العبد أن يعبدَ خالقَه على حالتى السراء والضراء . ومن عَبَد اللهَ على السراء وحدَها دون أن يعبده على الضراء يبتليه بها فقد عبده على حرف . ومن عَبَدَه كيفما تصرفت به الحالُ فقد عبده عبادة عَبْد مُقرّ بأن له خالقًا يُصرفه كيف يشاء ؛ وأنه إن امتحنه باللأواء (ضيق المعيشه) أو أنعم عليه بالسراء ، فهو فى ذلك عادل أو متفضل غيرُ ظالم ، بيده الخيرُ ولا خِيرَةَ للعبد عليه .

قال الزمخشرى : « على حرف » على طرف من الدين ، لا فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر (أى الجيش فى المعركة) فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرَّ واطمأن ، وإلا فرَّ وطار على وجهه . قالوا : نزلت فى أعراب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه

مهرا سريا ، وولدت امرأته غلاما سويا ، وكثر ماله وماشيته ، قال : ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيرا ، واطمأن . وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شرا ، وانقلب .

إن العقيدة هى الركيزة الثابتة فى حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة ، وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بعقيدته لا يتلجلج ولا يضطرب ؛ فهى الحمى الذى يلجأ إليه والسند الذى يستند عليه . ويرى من حوله الحيارى الشاردين تتقاذفهمَ الزوابع ويستبد بهم القلق . أما هو - ذلك الموصول بالله - فمطمئن بهذا الاتصال ، هادئ البال وثابت القدم .

(انظر التعبير : انقلب على وجهه)

٤١٠ ﴿ انقلَبَ علَىٰ وَجْهِهِ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

١١ـ الحــج (٢٢)

انقلب : رَجَعَ أو تَحَوَّل .

انقلب على عقبيه أو على وجهه : رجع عن رأيه أو عن عقيدته فى خزى .

« وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » : هذا حال من يعبد الله على حرف ، حالُ القَلَق فى دينه ، الذى لم يتمكن الإيمان من قلبه ـ إذا أصابته فتنة أى مكروه فى أهله أو ماله أو نفسه ، ارتد إلى الكفر . وبهذا يجمع على نفسه محنتين : محنة ما حل به من مكروه ومحنة ضياع ثواب الصابرين ، فخسر الدارين : الدنيا والآخرة .

﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ الظاهر الواضح الذى لا خسران مثله .

﴿ خَسر الدنيا والآخرة ﴾ : قرئت خاسراً الدنيا والآخرة على صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحالَ . وقرئت خاسرٌ الدنيا والآخرة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى خسران الدنيا والآخرة . وهو مبتدأ وخبره : ﴿ هو الخسران المبين ﴾ .

وإلى أين يتجه هذا الذى يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيدا عن الله ؟ تقول الآية التالية رقم ١٢ : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ ، يدعو صنما أو وثنا على طريقة الجاهلية الأولى ، ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة فى كل مكان وفى كل زمان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده والسير على صراطه ومنهجه ـ ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ .

(انظر التعبير : يعبد الله على حرف ﴾

٤١١ ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ ١٥ ـ الحج (٢٢)

نبدأ بمن قال إن ضمير « الهاء » فى « ينصره » يرجع إلى محمد ﷺ . وهؤلاء هم ابن عباس وأبو جعفر النحاس والزمخشرى وتبعهما القرطبى فى أحد الأقوال التى أوردها والنسفى والجلالين وحسنين مخلوف حديثا .

قال ابن عباس : الكناية فى « ينصره الله » ترجع إلى محمد ﷺ، وهو وإن لم يجر له ذكر فجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان فى الآية السابقة : ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات . . . ﴾ هو الإيمان بالله وبمحمد، والانقلاب عن الدين فى الآية قبلها : ﴿ومنهم من يعبد الله على حرف . . . ﴾ انقلاب عن الدين الذى أتى به محمد ﷺ .

والمعنى أن الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة ، فمن ظن من أعدائه غيرَ ذلك ﴿فليمدد بسبب﴾ أى بحبل « إلى السماء » إلى سماء بيته أى سقف بيته « ثم ليقطع » أى ليختنق به . وسمى الاختناق قطعا لأن المختنق يقطع نفسَه بحبس مجارى تنفسه .

« ما » فى قوله « ما يغيظ » بمعنى الذى ، أى هل يذهبن كيدُه الذى يغيظه (والذى يغيظه هو نصر الله لمحمد) ، وحذف الهاء ولم يقل ما يغيظه ليكون أخف . وسمى فعله هذا كيدا على سبيل الاستهزاء ، لأنه لم يكد به محسودَه وإنما كاد به نفسَه ، والمراد : ليس فى يد من يعادى محمدا ما يذهب به غيظه .

وقال مجاهد : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه (١) ، وهو قول أبى عبيدة ، والهاء فى « ينصره » تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير فى الحياة عندما تخلو من عون الله .

وقيل إن الهاء فى « ينصره » تعود على الدين ، والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه فليمدد بحبل إلى السماء ، وهى السماء المعروفة ، كما يقول ابن زيد ، والسبب : الحبل - وهذا كناية عن المستحيل .

قرأ الكوفيون « ثم لْيقطع » بإسكان اللام . وقال النحاس : وهذا بعيد فى العربية لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء ، لأنها يوقف عليها وتنفرد . وقرأ البصريون بكسر اللام « ثم لِيقطع » .

---

(١) تقول العرب : من ينصرنى نصره الله ، أى من أعطانى أعطاه الله .

ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة أى ممطورة . قال الفقعسى :

وإنك لا تعطى امرءًا فوقَ حقّه
ولا تملك الشقَّ الذى الغيثُ ناصرُه

٤١٢ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ٣١ ـ الحــج (٢٢)

خرَّ البناءُ يخِرُّ خرًا وخُرورًا : سقط من عُلو إلى سُفْلٍ بصوت . وخَر الشيءُ : سقط .

سحيق : بعيد . تهوى به الريح : تُسقطه .

المعنى : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من خَر وسقط من السماء فاختطفته الطيور الجارحة ، فتفرق مُزَعا (جمع مُزعة وهى قطعة اللحم) فى حواصلها ؛ أو عصفت به الريح حتى أسقطته فى بعض المطارح البعيدة .

يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الخالص : «حنفاء لله غير مشركين به » . ثم يرسم النص مشهدا عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بَدَدًا كأن لم يكن من قبل أبدًا . إنه مشهد السقوط من شاهق ، وفى مثل لمح البصر يتمزق فتتخطفه الطير ؛ أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار فى هوة ليس لها قرار .

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ باستخدام الفاء العاطفة ، وفى المنظر بسرعة الاختفاء .

إنها صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إنه يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها : قاعدة التوحيد . ويفقد المستَقَر الآمن الذى يثوب إليه فتتخطفه الأهواء تخطف جوارح الطير ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح ـ فهو لا يمسك بالعروة الوثقى ولا يستقر على القاعدة الثابتة التى تربطه بهذا الوجود .

٤١٣ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

٣٨ ـ الحـــج (٢٢)

يدافع الله عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم .

وقيل : يدفع الله عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة .

وقيل : يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ، كما قال : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » ٥١ ـ غافر ، وقوله : « إنهم لهم المنصورون » ١٧٣ ـ الصافات .

والآية بشارة للمؤمنين بالنصر ـ لتثبيت قلوبهم .

إن قوى الشر والضلال تعمل فى هذه الأرض ، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان . والشر جامح وهو يبطش غير متحرج ، ويملك أن يفتن الناس عن الخير وعن الحق وعن إيمانهم ـ فلابد للإيمان من قوة تحميه . ولم يشأ الله أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمعركة ويتمكنون من وسائل الجهاد . وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم (أعلمهم وأخبرهم) أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم فى حمايته : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما : ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ .

ضمن الله للمؤمنين أنه هو يدافع عنهم ، ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه وظاهر عليه . ففيم إذن يكتب عليهم الجهاد حيث يصيبهم القتل والجرح والآلام؟ لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كى يتم نضجهم فى أثناء المعركة ، فالبنية الإنسانية لا تُستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ؛ وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قواها لتواجه القوة المهاجمة .

٤١٤ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

٤٠ ـ الحـــج (٢٢)

﴿ من ينصره ﴾ أى من ينصر دينه ونبيه .

والتعبير يؤكد وعد الله بالنصر للمجاهدين فى سبيله بحر فى التوكيد : اللام والنون فى قوله : ﴿ ولينصرن ﴾ ؛ ثم بلام التوكيد مرة ثانية وبأداة التوكيد « إن » فى قوله تعالى : ﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾ ؛ ويؤكده مرة ثالثة بالإشارة إلى أن الله هو القوى القادر على إنفاذ إرادته وهو العزيز الذى لا يغلب .

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره ، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله فيستحقون نصره ؟ بيّنهم فى الآية التالية : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ هم الذين يعبدون الله ويوثقون صلتهم به ؛ ويؤدون حق المال بالانتصار على شح النفس وبكفالة الضعاف والمحاويج ؛ ويدعون إلى الخير والصلاح ويدفعون إليه الناس ، ويقاومون الشر والفساد ـ هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذى أراده للناس فى هذه الحياة ، وهم بهذا يستحقون نصره وتأييده .

٤١٥ ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

٤٦ ـ الحـــج (٢٢)

الأبصار : جمع بَصَرَ ، والبَصَر : العين ، أو قوة الإبصار . فما عميت عيونهم من الرؤية والإبصار ، وإنما عميت قلوبهم عن التدبر والاعتبار .

قال قتادة : البصر الناظر جعل بُلغة ومنفعة ، والبصر النافع فى القلب .

« أفلم يسيروا فى الأرض » يعنى كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم فى الآية ٤٥ : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ .

﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ : أضاف العقل إلى القلب . ويدور معنى العمى على الستر والتغطية ؛ ومن ذلك عَمَى الشىءُ : خَفِىَ ، وعَمَّاه : أخفاه . والعمى : ذهاب البصر ، وأيضا : ذهاب نظر القلب كذلك . وكل ما ورَد فى القرآن ذَمًّا للعَمَى فهو ذمٌّ لعمى البصيرة ، والبصيرة : نور القلب الذى به يستبصر أى يميز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر .

وعلى هذا فعمى القلب هو تعطل قوى الإدراك والفطنة فى الإنسان .

قال الزمخشرى : أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها . وإنما العمى بقلوبهم . أوْ لا يُعتَد بعمى الأبصار ، فكأنه ليس بعمى إذا ما قورن بعمى القلوب . . فأى فائدة من ذكر الصدور ؟ والجواب هو أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله فى القلب استعارة ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وتوكيد ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، فقال : ﴿ القلوب التى فى الصدور ﴾ ، تلك التى لم تعتبر بمصارع الغابرين .

٤١٦ ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عند رَبِّكَ كَأَلْف سَنَة مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ٤٧ ـ الحـج (٢٢)

تقدير الزمن فى حساب الله غيرُ تقديره فى حساب البشر ، ومن حلمه ـ سبحانه ـ واستقصاره المدد الطوال أن يوما واحدا عنده كألف سنة عندكم .

والله يملى للظالمين ويمهلهم على سبيل الاختبار ، لكنهم ـ من باب السخرية ـ يستعجلون ما يوعدون به من العذاب ، ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ فهو آت فى موعده الذى أراده وقدره .

٤١٧ ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ ٢٧ ـ المؤمنون (٢٣)

﴿ اصنع الفلك بأعيننا ﴾ : بمَرأى منا ومَنظر . أو بحفظنا لك عن أن يفسدها عليك قومك ، وكأن معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم لئلا يتعرض له مفسد يفسد عليه عمله . ومنه قولهم : عين كالئة .

﴿ ووحينا ﴾ أى نأمرك كيف تصنع ونعلمك . رُوى أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤ جؤ الطائر (أى صدره) .

راح نوح يواصل جهوده الخالصة لهداية قومه ودعوتهم إلى الإيمان ، ويحتمل إعراضهم واستهزاءهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ! لم يجد نوح منفذا إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ، فدعا عليهم بالهلاك بعد أن يئس من اتباعهم إياه . دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ ٣٦ ـ هود .

ألهم نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل وجهها من الشر العارم الذى انتهى إليه القوم فى زمانه . وكان العلاج هو الطوفان الذى يجرف كل شىء ويغسل التربة ، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد : ﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان ، ولحفظ بذور الحياة السليمة كيما يعاد بذرها من جديد .

وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده ، لأنه لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل آخر ما فى طوقه كى يستحق المدد من ربه .

٤١٨ ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ ٣٦ - المؤمنون (٢٣)

هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بَعُد ؛ والمعنى : بَعُد بَعُدَ ما توعدون به من الخروج من القبور الوارد فى الآية السابقة رقم ٣٥ : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾ .

وهيهات الثانية تأكيد لفظى للأولى . واللام فى « لِمَا » زائدة فى الفاعل ﴿ ما توعدون ﴾ .

٤١٩ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٤٤ - المؤمنون (٢٣)

﴿ أرسلنا رسلنا تترى ﴾ أى متواترين ، أى متتابعين واحداً إثْرَ واحد مع فَصْل ومُهلة بينهم .

يقال : جاءُوا تترى : متواترين (وأصله : وَتْرَى فقلبت الواوُ تاءً ؛ من المواترة وهى التتابع)[١] . والفعل : تواترت الأشياء تتابعت مع فترات تفصل بينها .

﴿ تترَى ﴾ : منصوب على الحال من رسلنا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو تَتْرًى بالتنوين .

---

(١) وأيضا : جاءُوا تَتْراً أى متواترين . والحديث المتواتر : ما أخبر به جمعٌ يُؤْمَن تواطؤهم على الكذب .

٤٢٠ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٤٤ ـ المؤمنون (٢٣)

﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ جمع أحدوثة وهى ما يتحدث به ، كأعاجيب جمع أعجوبة وهى ما يُتَعَجب منه . والمعنى : جعلنا الأمَمَ المكذبة مثلا يتحدث بهن الناس تعجبا وتَلَهِّياً . ولا يقال ذلك إلا فى الشر[1] . والمراد أنهم أهلكوا ، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم يتلهون بها . قال الأخفش : ﴿ جعلناهم أحاديث ﴾ إنما يقال فى الشر ولا يقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثا أى عبرة ومثلا ؛ كما قال فى آية أخرى : ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ ١٩ ـ سبأ .

٤٢١ ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

٥٣ ـ المؤمنون (٢٣)

زَبَرَ الكتابَ : كَتَبه أو أتقن كتابته ، فهو مزبور وزبور . والزبور : الكتاب المزبور (وغلب على صحف داود عليه السلام) .

﴿ فتقطعوا ﴾ أى افترقوا ، من تقطع أمرُهم بينهم : تفرقوا . فهذه الأمم جعلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع فى الآية السابقة رقم ٥٢ : ﴿ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ . وهم قَطَّعوا أمرَ دينهم وجعلوه زُبُرا أى كتبا مختلفة وضعوها وضلالات ألفوها ، كما نقل القرطبى عن ابن زيد ، وصاروا طوائف وأحزابا شتى . وكل حزب منهم معجب برأيه وضلالته بعد ما حرف الكل وبَدّل فى الكتب ، كما قال قتادة ، فكل حزب بما لديهم فرحون .

وقيل فى تفسير زبرا أى قِطعًا أى طوائف من الناس فهم تفرقوا إلى طوائف مختلفة .

---

(١) قال القرطبى : وقد يقال فلانٌ حديثٌ حَسَنٌ ، إذا كان مقيدا بذكر ذلك ، ومنه قول ابن دريد :

وإنمـا المـرءُ حديثٌ بعـده ... فكُن حديثاً حَسَنًا لِمنْ وعى

﴿ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

٥٣ - المؤمنون (٢٣)

لَجَّ فى الأمر يَلِجُّ لَجَاجًا ولجاجةً : تمادى فيه (١) .

﴿ يعمهون ﴾ من العَمَه وهو التحير والتردد وعدم معرفة الحجة ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر . والفعل عَمِه يَعمَه عَمَهًا .

ولم يرد منه فى القرآن الكريم إلا المضارع ، مع الطغيان والسكرة وتزيين الأعمال .

ولتوضيح معنى التعبير نورد السياق الذى وردت فيه الآية بذكر الآية التى جاءت قبلها والآية التى جاءت بعدها : ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون. ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ .

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ينحرفون عن الطريق المستقيم وهو معنى « عن الصراط لناكبون » عادلون عن الصراط المستقيم مائلون إلى غيره . ولا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، وهو معنى « رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر » أى من قحط وجوع وأبدلناهم خيرات لتمادوا فى طغيانهم وعمى بصائرهم . كما أنهم لا يفيدهم الابتلاء بالنقمة ، فلقد أصبانهم بالأمراض والحاجة والجوع ، فما خضعوا لربهم وما خشعوا لجلاله ، وهو معنى « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » وهى جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها (٢) .

هذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة : لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة . والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله ، والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رَقّ ولان ، واستيقظ وتذكر . وبهذا يقى صاحبه من الغفلة والزلل .

---

(١) فهو وهى لجوج . ويقال : لج فى الخصومة .

(٢) انظر : « فتح القدير » للشوكانى .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ ١١٥ ـ المؤمنون (٢٣)

٤٢٣

﴿ خلقناكم عبثا ﴾ : أى مهملين كما خُلقت البهائم لاثوابَ لها ولا عقابَ عليها ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى ﴾ ٣٦ ـ القيامة ، يريد كالبهائم مهملا لغير فائدة .

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على : إن الله تعالى خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد كرام أحرار من رق الدنيا ، ملوك فى دار الإسلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُبَّاقٌ سُقاط لئام ، وغدا أعداء فى السجون بين أطباق النيران .

﴿ عبثا ﴾ : نصب على الحال عند سيبويه وقطرب .

﴿ وأنكم إلينا لا تُرجَعون ﴾ فتجازون بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائى « تَرجِعون » بفتح التاء وكسر الجيم .

وقيل فى إعراب ﴿ عبثا ﴾ إنها مفعول له ، أى : ما خلقناكم للعبث ، فلقد خلقناكم لحكمة ، وهى أن نتعبدكم ونكلفكم الطاعات وترك المعاصى ، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء ، فنثيب المحسن ونعاقب المسىء .

فى الآية تعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث ، فحكمة البعث من حكمة الخلق : محسوب حسابها ومقدر وقوعها ، وما البعث إلا حلقة فى سلسلة النشأة ، تبلغ بها كما لها ويتم فيها تمامها .

٤٢٤ ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٢٢ ـ النــور (٢٤)

اللام فى ﴿ وَلْيَعفوا ولْيَصفحوا ﴾ هى لام الطلب ، وحركتها الكسر لكنها تسكن بعد الفاء والواو . والتعبير يحض على العفو عن المسىء ؛ عفا الرَّبْعُ أى دَرَس ، فالعفو هو محو الذنب حتى يعفو أى يذهب أثره كما يذهب أثر الربع .

﴿ وليصفحوا ﴾ مرادف ﴿ وليعفوا ﴾ جاءت للتأكيد .

﴿ ألاَ تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ : ألا أداة تبتدأ بها الجملة للتنبيه والعرض وللتحضيض . قال القرطبى : هذه الجملة تمثيل وحجة ، فكما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم . وفى هذا المعنى ينظر إلى قول النبى عليه الصلاة والسلام : « من لا يَرْحَم لا يُرحَم » .

﴿ ولا يأتل ﴾ أى لايحلف من الأليَّة وهى اليمين . ائتَلَى يَأتلى أى حلف . « أولو الفضل منكم والسعة » أصحاب التقى والسعة فى المال أى الغِنى . ﴿ أن يؤتوا أولى القربى ﴾ أى يعطوهم .

نزلت الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه عندما حلف ألا ينفق على مسْطح ، وهو ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين ، بعد أن خاض مع الخائضين فى حديث الإفك ، ونزل القرآن ببراءة عائشة رضى الله عنها . ولما نزلت قال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، وأعاد إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه .

غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا يتصدق على من أساء إليه . ومن حلف على شىء لا يفعله فرأى فعله أولى منه ، أتاه وكفر عن يمينه .

٤٢٥ ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ٢٦ ـ النــور (٢٤)

﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ : تقرير للسنة الإلهية فيما بين الناس من إلف الشكل (أى مألوف الشكل) لشكله ، وانجذاب كل قبيل (الصنف المماثل) إلى قبيله . والمعنى أن الخبيثات من النساء مختصات بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون منهم مختصون بالخبيثات منهن . ولما كان رسول الله ﷺ أطيب الطيبين تبين كونُ عائشة بنت الصديق من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بُطلان ما رُميت به افتراءً (فى حديث الإفك)[1] ؛ كما قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ [2] والإشارة إلى أهل بيت النبوة رجالاً ونساء ، وتدخل فيهم عائشة دخولا أوليا بقرينة السياق . أى أولئك منزهون عما يقوله أهل الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة . وحسب عائشة ـ رضى الله عنها ـ فضلا تبرئة الله لها فى هذه الآية .

وجاء فى « الكشاف » للزمخشرى : « الخبيثات » أى الخبيثات من القول (الأقوال السيئة) تقال أو تعد « للخبيثين » من الرجال والنساء ، « والخبيثون » منهم يتعرضون «للخبيثات » من القول ، وكذلك الطيبات والطيبون . و « أولئك » إشارة إلى الطيبين ، وأنهم مبرؤون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم ، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رُميت به من قول لا يطابق حالها فى النزاهة والطيب .

---

(١) لما قفل رسول الله ﷺ عائدا إلى المدينة من غزوة بنى المصطفى سنة ست ، جاوزت عائشة الجيش لبعض شأنها ثم للبحث عن عقدها الذى افتقدته ، ولما رجعت إلى مكان الجيش لم تجد أحدا . وكان صفوان بن المعطل صاحب ساقة رسول الله . قد تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة ، فوجد عائشة ، فنزل عن ناقته وتنحى جانبا حتى ركبت عائشة ، ثم قاد الناقة حتى بلغ بها الجيش ، فوقع أهل الإفك فى مقالتهم ، وكان الذى تولى ترويجه عبدالله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين ، الذى رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة ، فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . ولما بلغ حديث الإفك عائشة خرت مغشيا عليها . والحديث بكماله فى صحيحى البخارى ومسلم .

(٢) قال أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمى بالفاحشة برأه الله على لسان صبى فى المهد ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه ، وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن .

٤٢٦ ﴿ تَسْتَأْنسُوا وَتُسلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٧ ـ **النـــور** (٢٤)

استَأْنسَ الزائرُ : استأذن . واستأنس له : تَسَمَّع .

والاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف ، من آنس الشيءَ إذا أبصره ظاهرا مكشوفا . والمستأنس : مستعلم للحال مستكشف هل يراد دخوله أم لا . قال الزمخشرى : والذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم ، وهذا من باب الكناية ، لأن هذا النوع من الاستئناس يتبع الإذن ، فوُضع موضع الإذن . والتعبير عن الاستئذان بالاستئناس يوحى بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التى يجيئ بها الطارق ، فتحدث فى نفوس أهل البيت أنسًا به واستعدادا لاستقباله .

والسنة فى الاستئذان ثلاث مرات ، إلا من علم أنه لم يُسْمَع ، فلا بأس أن يزيد إذا استيقن أنه لم يُسمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم أأدخل ، فإن أذن له دخل ، وإن أمر بالرجوع انصرف ، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا ، ثم ينصرف من بعد الثلاث . وقد قال رسول الله ﷺ :

« إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، كما جاء فى تفسير القرطبى .

أما الدق على الباب فيكون خفيفا بحيث يُسْمع ولا يعنف فى ذلك . ثم لكل قوم فى الاستئذان عرفهم فى العبارة .

هذه الأحكام تتعلق ببيت ليس لك . أما بيتك الذى تسكنه ، فإن كان فيه أهلك (زوجتك فلا إذن عليها . لكن يستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . فقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبى ﷺ : أستأذن على أمى ؟ قال : «نعم» قال : إنى أخدمها ؟ قال : « استأذن عليها » فعاوده ثلاثا ، قال : « أتحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا ، قال : « فاستأذن عليها » ، ذكره الطبرى .

٤٢٧ ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ (١) وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٣١ ـ النــــور (٢٤)

غَضُّ البصر : كَفُّ النظر إلى ما يحرم النظر إليه . والغَض هو إطباق الجَفن على الجفن بحيث يمنع الرؤية . يقال : غض الرجلُ صوته وطرفَه ، ومن صوته ومن طرفه ، غضًا : خفَضَه .

ومنه غَض من فلان غضا وغَضاضةً إذا انتقصه . ومنه : غض طَرْفَه عن فلان : احتمل المكروه منه ولم يأخذه بفعله .

« يغضُضْن » : جواب فعل الأمر « قل » .

﴿ويحفظن فروجهن﴾ عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق والإبداء ﴿ ولا يبدين زينتهن﴾ الزينة : ما يُتَزين به كالخلخال والخضاب فى الرِّجل ، والسِّوار فى المعصم ، والقُرط فى الأذن ، والقلادة فى العُنُق ، والوشاح فى الصدر ، والإكليل (التاج) فىَ الرأس ، ونحو ذلك ـ فلا يجوزَ للمرأة إظهارها حال لبسها ولا يجوز للأجنبى النظر إليها كذلك .

والنهى عن إظهار الزينة حال لبسها يستلزم النهىَ عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب .

« إلا ما ظهر منها » أى ما جرت العادة بظهوره ؛ كالخاتم فى الإصبع ، والكُحل فى العين ، والخضاب فى الكف فإنه يجوز للمرأة إظهاره . فالزينة ظاهر وباطن ، فما ظهر فمباح للمحارم والأجانب ، وما بطُن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سماهم الله تعالى فى هذه الآية . وللعلماء آراء فى الزينة الظاهرة أى فيما يجوز إظهاره من الزينة ، فقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرطَة (جمع قُرط وهو ما

---

(١) ورد التعبير فى موضع آخر فى القرآن الكريم هو الآية السابقة على هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ .

يعلق فى شحمة الأذن من دُر أو ذهب) والفَتْخ (وهو الخلخال الذى لا يصلصل) . وقال سعيد بن جبير وعطاء والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدى وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء « إلا ما ظهر منها » فيما يظهر بحكم ضرورة حركة أو إصلاح شأن أو نحو ذلك ، فما تؤدى إليه الضرورة فى النساء هو المعفو عنه .

وقال القرطبى : لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك فى الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه ، فهذا أقوى فى جانب الاحتياط . وقد قال ابن خويز منداد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك . ويحرم إظهار مواضع الزينة من البدن وكذلك النظر إليها ، إلا ما استثنى لدفع الحرج وهو الوجه والكفان .

« وليضربن بخمرهن على جيوبهن » : بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة . ومنها الجيوب : جمع جيب وهو فتحة فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد وأصله الجيب بمعنى القطع . والمراد بالجيب هنا : مَحَله وهو العُنق . أمر النساء بستر شعورهن وأعناقهن ونحورهن وصدورهن بخمرهن عن الأجانب لئلا يرى منهن شىء من ذلك . والخُمُر جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها فيجب أن يمتد ليغطى العنق والنحر والصدر .

﴿ ولا يبدين زينتهن . . . ﴾ نُهى النساءُ فى هذه الآية عن إبداء مواضع الزينة الباطنة الخفية إلا للأزواج لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال لهم . وبعد الأزواج المحارم السبعة المذكورون فى الآية ، لاحتياج النساء لمخالطتهم ، وأمن الفتنة من قبلهم لما ركز فى الطباع من النفرة من مماسة القرائب . والتاسع ﴿ نسائهن ﴾ المختصات بهن بالصحبة والخدمة من الحرائر . والعاشر «﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ أى من الإماء ، وأما العبيد فهم كالأجانب ، لأنهم فُحول ليسوا أزواجا ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم . والحادى عشر : « التابعين غير أولى الإربة من الرجال » وهم الرجال الذين لا حاجة لهم بالنساء ولا يعرفون شيئا من أمورهم ، بحيث لا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ولا يصفونهن للأجانب . والإربة : الحاجة والبغية ، قيل التابع غير أولى الإربة : هو الأبله ، وهو العنين ، وهو الخصى ، وهو المخنث ، وهو الشيخ الكبير ، وهى الصبى الذى لم يدرك ، وقيل : هو الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم وهو ضعيف لا يكترث للنساء ولا يشتهيهن . والثانى عشر : «الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » أى الأطفال الذين لم يعرفوا بعد ما العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها ، من قولهم : ظهر على الشىء إذا اطلع عليه .

﴿ ولا يضربن بأرجلهن ﴾ : نُهى النساءُ عن أن يضربن بأرجلهن فى الأرض للفت الأنظار إليهن والدعوة إلى التطلع والميل إليَهن ، وذلك سَدا لذريعة الفساد . وفى حكمه إبداء ما يخفين من زينتهن بأى وسيلة كانت . وأما صوتهن فلا يحرم سماعه إلا إن خشيت منه فتنة أو التذاذ . (راجع : تفسير القرطبى، و « صفوة البيان لمعانى القرآن » لمفتى الديار المصرية حسنين مخلوف) .

قال الزمخشرى : لمَ قدَّم غض الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلت : لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشد وأكثر ، ولا يكاد يُقدر على الاحتراس منه .

وذكر الزينة دون مواقعها (أى أجزاء الجسم التى تزين بها) للمبالغة فى الأمر بالتصون والتستر ، لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها ، وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن ، فنهى عن إبداء الزينة نفسها ، ليعلم أن النظر إذا لم يَحل للزينة ، كان النظر إلى المواقع أنفُسها متمكنا فى الحظر (١) ، ثابت القدم فى الحرمة ، شاهدًا على أن النساء حقهن أن يحتطن فى َسترها ويتقين الله فى الكشف عنها .

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفىء ولا يرتوى ؛ والنظرة الخائنة والحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة والجسد العارى تهيج ذلك السعار الحيوانى المجنون ــ وبعده إما الإفضاء الفوضوى الذى لا يتقيد بقيد وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهى تكاد تكون عملية تعذيب .

وإحدى وسائل الإسلام إلى انشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة بتحريم أسبابها ودواعيها ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليما وبقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة وتصريفه فى موضعه المأمون بالزواج .

شاعت بعض النظريات المادية القائمة على أساس تجريد الإنسان من خصائصه التى تميزه عن الحيوان ، وعلى أساس الرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة فى الطين ــ وبخاصة نظرية فرويد . وعلى أثرها شاع أن النظرة المباحة ، والاختلاط الميسور والدعابة المرحة بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة ـ شاع أن فى هذا تنفيسا وترويحا ، وتخفيفا من حدة الضغط الجنسى وما وراءه من اندفاع غير مأمون ، وأن فى هذا وقاية من الكبت ومن العقد النفسية .

لكن البلاد التى أباحت العرى الجسدى بدون أى قيد وأباحت الاختلاط الجنسى بكل صوره وأشكاله ، انتهى الأمر فيها إلى سعار جنسى مجنون لا يرتوى ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع . وفى هذه البلاد تتفشى الأمراض النفسية ويتفشى معها الشذوذ الجنسى بكل أشكاله ــ مما يقدم الإثبات العملى على خطورة الاختلاط الكامل بين الجنسين وخطورة الأجسام العارية فى الطريق ، وعلى فداحة خطأ نظريات فرويد ومن لف لفه .

---

(١) حرم النظرَ إلى الزينة لملابستها لأجزاء من الجسم بدليل أن النظر إلى هذه الزينة وهى غير ملابسة لأجزاء من الجسم لا مقال فى حله .

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ منكُمْ ﴾

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٣٢ ـ النـــور (٢٤)

﴿ الأيامى ﴾ : جمع أَيِّم ، وهو كل ذكر لا زوجة له ، وكل أنثى لا زوج لها ، بكرا أو ثيبا . يقال : آم يئيم أى أقام بلا زوجة ومثله آمت تئيم أقامت بلا زوج .

﴿ وأنكحوا ﴾ أى زوجوا ، والأمر للأولياء والسادة أن يزوجوا من لا زوج له (والزوج للذكر وللأنثى) من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح وخير من عبيدكم [١] وإمائكم .

والمراد من الإنكاح : المعاونة والتوسط فى النكاح والتمكين منه .

قال القرطبى : هذه المخاطبة تدخل فى باب الستر والصلاح ، أى زوجوا من لازوج له منكم فإنه طريق التعفف ، والخطاب للأولياء ، وليس للأزواج لأنه لو أراد الأزواج لقال : ﴿وانكحوا ﴾ بغير همز وكانت الألف للوصل .

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ : رجع الكلام إلى الأحرار ، أى لاتمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . وهذا وعد بالغنى للمتزوجين طلبا لرضا الله واعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، وتلا هذه الآية . وقال عمر رضى الله عنه : عجبى ممن لا يطلب الغنى فى النكاح وتلا الآية وأخرج ابن ماجة فى سننه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة كلهم حق على الله عونه المجاهد فى سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء[٢]» .

هذه الآية دليل على تزويج الفقير ، ولا يقول : كيف أتزوج وليس لى مال ، فإن رزقه على الله . وقد زوج النبى ﷺ المرأة التى أتته تهب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد ونفحات الله تعالى مأمولةٌ فى كل حال موعودٌ بها .

إن الزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، والغاية النظيفة لهذه الميول العميقة ، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج . والعقبة المالية تقف فى طريق بناء البيوت وتحصين النفوس . والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء .

---

(١) ﴿ من عبادكم ﴾ أى من عبيدكم . وقرأ الحسن : ﴿ والصالحين من عبيدكم ﴾ .

(٢) المكاتَب : العبد الذى كُتب بينه وبين سيده اتفاق على مال يقسطه له ، فإذا ما دفعه صار حرا ، والسيد يسمى مكاتِب . هذا الحديث أخرجه أيضا الترمذى والنسائى .

ولهذا أمر الجماعة بتزويج الأيامى ، والجمهور على أن هذا الأمر للندب ، ولكن هناك من العلماء من يرى أنه يتعين إعانة الأيامى على الزواج وتمكينهم من الإحصان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية وتطهير المجتمع الإسلامى من الفاحشة . وصحيح أن الأصل فى النظامى الاقتصادى الإسلامى أن يستغنى كل فرد بدخله ، وأن تيسير العمل وكفاية الأجر حق على الدولة للأفراد . لكن إذا وجد بعد ذلك أيامى فقراء وفقيرات تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فإن على الجماعة أن تزوجهم .

٤٢٩ ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٣٥ ـ النــور (٢٤)

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ أى مُنوِّرُهما [١] بالآيات المبثوثة فى الكون وبالآيات التى أنزلها ، وكلها تدل على وجوده ووحدانيته ، وكلها تهدى إلى الحق وإلى ما فيه صلاح المعاش والمعاد .

قال أبى بن كعب : الله مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقيل : به وبقدرته ـ سبحانه ـ أنارت أضواء السموات والأرض ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال : الملك نور أهل البلد ، أى به قوام أمرها وصلاح جملتها لجريان أموره على سنن السداد . فهو ـ سبحانه ـ الذى أبدع الموجودات وخلق العقل نورا هاديا ، وهو مدبر الأمور فى السموات والأرض .

والله ناط بهذا النور مصالح خلقه ومعايشهم ، حتى أبصروا وعملوا ، ولولاه لظلوا فى عَماء وظلمة وخمود .

﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ المشكاة هى الكُوة غيرُ النافذة ، وهى أجْمع للضوء الذى يكون فيها من مصباح أو غيره . والمَصباح فى زجاجة من الزجاج الصافى الأزْهَر (أى الأبيض المشرق المضىء) ﴿ كوكب دُرى ﴾ : شديد الإنارة ، نسبة إلى الدُّرَّة (وهى اللؤلؤة العظيمة الكبيرة) فى إشراقها وصفائها .

« يوقد من شجرة مباركة » أى من زيت شجرة كثيرة المنافع ، ليس فيها شىء إلا وفيه منفعة . « لا شرقية ولا غربية » أى ليست شرقية فقط ولا غربية فقط ، وإنما هى شرقية وغربية ، ضاحية للشمس (أى بارزة ومعرضة لها) طوال النهار ، تصيبها عند طلوعها وعند غروبها ، وذلك أحسَن لزيتها .

---

(١) قال ابن عرفة والضحاك : نور السموات والأرض أى منورهما كما يقولون : فلان زادى ، أى مزودى ، وقال جرير :

وأنت لنا نورٌ وغَيْثٌ وعِصْمَة ... ونَبْت لمن يرجو نَدَاك وَرِيقُ

﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ وذلك من شدة صفائه وإنارته .

شبهت الآية نورَ الله ، أي أدلته وآياته - في دلالتها على الحق والهدى وعلى ما ينفع الخلق في الحياتين - شبهت الآية هذا النور الإلهي بنور المشكاة التي فيها زجاجة صافية ، وفي تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ الغاية في الصفاء والرقة والإشراق حتى يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار .

﴿ نور على نور ﴾ أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت ، فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون ، فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهي برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، كإرساله الرسل وإنزاله الكتب . وقيل في معنى ﴿ نور على نور ﴾ إن نور الله متضاعف ولا حد لتضاعفه .

﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ هدايته من عباده ، بتوفيقهم لفهم آياته الدالة على صفاته وحكمته ، وفهم كتبه وشرائعه وأسرار مخلوقاته .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ أي يبين الأشباه تقريبا إلى الأفهام .

٤٣٠ ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾

﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ ٣٧ - النـــور (٢٤)

﴿ يخافون يوما ﴾ يعنى يوم القيامة .

﴿ تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، التقلب : التحول ، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر ، فلا هى ترجع إلى أماكنها ولا هى تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزرق بعد الكحل والعمى بعد البصيرة .

وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع فى النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أى ناحية يُعطون كتبهم وإلى أى ناحية يُؤخذ بهم .

وقيل إن تقلب القلوب : وَجِيبُها [1] ، وتقلب الأبصار : النظر بها إلى نواحى الأهوال .

---

(١) وَجَبَ القلبَ وَجِيبًا ووَجَبَانًا : خفق واضطرب ورجف .

٤٣١ ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

٣٩ - النــــور (٢٤)

السراب هو الشعاع الذى يُرى وسط النهار عند اشتداد الحر فى الفلوات [1] الواسعة كأنه ماء سارب (أى جارى) ، وهو ليس بشىء . ويسمى أيضا الآل . وسمى سرابا لأنه يسرب أى يجرى كالماء ، ولا يكون إلا فى البرية والحر فيغتر به العطشان .

قال امرؤ القيس :

ألــم أنْضِ المطىَّ بكــل خَــرقٍ . . أَمَــقَّ الطــولِ لَمَّــاعِ الســرابِ

وقال آخر :

فلما كففنا الحربَ كانت عهودُهم . . كَلَمْــعِ ســرابٍ بالفَــلا متألــقِ

« بقيعة » القيعة جمع القاع ، وهو ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب .

﴿ يحسبه الظمآن ﴾ العطشان الذى اشتدت حاجته إلى الماء .

« ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » مما حسبه وظنه . شبه ما يعمله الكافر من أعمال الخير فى الدنيا كصلة الرحم ونفع الجيران ـ وهى الأعمال التى يعول على ثوابها ـ بالسراب فالكفر يحبط ثواب أعمال البر التى قام بها فى الدنيا .

﴿ ووجد الله عنده ﴾ أى وجد حكمه تعالى وقضاءه ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أى أعطاه جزاءه وافيا كاملا .

﴿ الذين كفروا ﴾ ابتداء ﴿ أعمالهم ﴾ ابتداء ثان وخبرها ﴿ كسراب ﴾ والجملة خبر عن ﴿الذين ﴾ ، والمقصود بأعمالهم أعمال الخير التى عمِلوها فى الدنيا .

---

(١) جمع فلاة وهى الأرض الواسعة المقفرة .

٤٣٢ ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ ٢٧ ـ الفرقان (٢٥)

عَضّ اليدين والأنامل ، والسقوط فى اليد ، وأكل البَنان [١] ، وحرق الأسنان والأرم [٢] وقرعها : كنايات عن الغيظ والحسرة ؛ لأنها من روادفها [٣] ، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام إلى طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المُكَنّى عنه .

﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ المراد بالظالم كل ظالم ، والظلم هو مجاوزة الحق (أى تعديه وترك الشخص له) ، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ، ويستعمل فى الذنب الكبير وفى الذنب الصغير ، فالمشرك والكافر ظالم : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ١٣ ـ لقمان لأنه تجاوز حدود الحق مع ربه ؛ وتجاوز الحدود مع الناس ظلم : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ ٤٣ ـ الشورى . ولا ينفى ذلك ورود الآية على سبب خاص ، إذ قيل إنها نزلت فى المشرك عقبة بن أبى معيط كان نطق بالشهادتين أمام النبى ﷺ ثم رجع عنهما إرضاء لصديقه وخليله أبى بن خلف . فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ على يديه ﴾ : ندما وتحسرا فى يوم القيامة « يقول يا » للتنبيه « ليتنى اتخذت مع الرسول» محمد « سبيلا » طريقا إلى الهدى والنجاة وهو طريق الإيمان .

« ويوم » يوم : ظرف منصوب بمحذوف ، أى واذكر يوم .

« يقول » فى محل نصب على الحال .

---

(١) البَنان : أطراف الأصابع ، واحدته : بنانه . والأنامل : جمع أُنمُلَة وهى المفصل الأعلى من الأصبع الذى فيه الظفر .

(٢) الأرم : الأضراس . يقال : فلان يحرق عليك الأرم إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض .

(٣) توابعها ، رَدِفه يردَفُه رَدفًا : تبعَه .

٤٣٣ ﴿ أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ (١) ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ ٤٠ ـ الفرقان (٢٥)

السَّوْء والسُّوء مصدران للفعل : ساء مثل الكَرْه والكُرْه ؛ إلا أن السَّوْء (بالفتح) غلب عليه أن يضاف إليه ما يُراد ذمه وتقبيحه من كل شيء .

« مطر السوء » هو الحجارة . أى أهلكت بالحجارة التى أمطروا بها .

« ولقد أتوا » يعنى أهل مكة « على القرية » قرية سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وكانت خمسا .

والمعنى أن قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء . أما شاهدوا ذلك بأبصارهم فيتفكروا فيؤمنوا . « بل كانوا لا يرجون نشورا » أى لا يخافون بعثا .

« مطر السوء » : مفعول ثان ، فالمعنى أمطرتها مطر السوء .

« أفلم يكونوا يرونها » الاستفهام للتقرير .

---

(١) قريب من ذلك الآية ١٧٣ من سورة الشعراء : « وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطرُ المنذَرين » وتكررت بنصها فى ٥٨ ـ النمل .

٤٣٤ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ ٤٧ ـ الفرقان (٢٥)

اللَّبَاس : ما يُلبَس ويستر الجسمَ .

ويستعمل اللباس مجازا فيما يشبه الثوب .

وأطلق اللباس على الليل فى هذا التعبير على سبيل التشبيه لأن ظلام الليل يحيط بالإنسان، كما يحيط الثوب بلابسه ، أو لأن ظلام الليل يستر الأشياء ويغشاها كما يستر الثوبُ الجسمَ .

« والنوم سُباتا » أى راحة لكم لأنكم تنقطعون عن العمل أثناء النوم . والسبات : القَطع ، فالنوم : انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن العمل فيه . قال الزجاج : السبات هو النوم ، أى الانقطاع عن الحركة والروح فى بدنه .

وقيل : أصل السبات التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . وقيل للنوم : سُبات لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . والتعبير معناه : جعلنا النوم راحة لكم .

« وجعل النهار نشورا » : نَشَرَ النائمُ إذا استيقظ وتقلب فى عمله . وقد جعل الله سبحانه النهار نشورا أى ظرفا لليقظة والانتشار لكسب العيش .

وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق ، فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وهذه الفوائد تتحقق كذلك بالنوم وباليقظة .

---

(١) قريب منه قوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا . . . ﴾ ٨٦ ـ النمل ، وقوله: ﴿ وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا ﴾ ١٠ ، ١١ ـ النبأ . وقوله: « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا» ٦٧ ـ يونس ، وقوله: « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » ٧٣ ـ القصص.

٤٣٥ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ٨٣ - الشعراء (٢٦)

الحكم : الحكمة ، أو الحكم بين الناس بالحق . وقيل : النبوة لأن النبى ذوحكمة وذو حُكم بين عباد الله .

والإلحاق بالصالحين : أن يوفقه لعمل ينتظم به فى جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم فى الجنة .

٤٣٦ ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ ٨٤ - الشعراء (٢٦)

أى : اجعل لى ثناء حسنا وذكرا جميلا فى الأمم التى تجئ بعدى . ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به .

٤٣٧ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ١٢٨ ، ١٢٩ - الشعراء (٢٦)

الرِّيع : الجبل أو المكان المرتفع عن الأرض .

آية : الأصل فى معنى الآية : العلامة الواضحة ؛ فسمى خلق الكون آية لأنه علامة على قدرة الله .

وسُمى البناء العالى آية لأنه علامة على قدرة بانيه .

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ : إنكم تبنون بكل مكان مرتفع أبنية عالية تشرفون منها على الطريق فتؤذون المارة وتسخرون منهم .

المصانع : القصور المشيدة والحصون ، وقيل : مآخذ للماء تحت الأرض . ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ : راجين أن تخلدوا . وقيل المعنى : كأنكم باقون مخلدون . وقيل : لعل للاستفهام التوبيخى ، أى هل تخلدون ؟

قال الإمام أحمد : وتأويلها على القصور أظهر . وجاء فى وصف أهل آخر الزمان أنهم يتطاولون فى البناء .

٤٣٨ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ١٣ ـ النمـــل (٢٧)

﴿ مبصرةً ﴾ : واضحة بينة . واسناد الإبصار إلى الآيات مجازٌ ، من الإسناد إلى السبب ؛ والمبصر حقيقة هم المتأملون فيها .

أو جُعلت الآيات كأنها تُبصر فتَهدى ، لأن العُمْى لا يقدرون على الاهتداء ، فضلا عن أن يهدوا غيرهم . ومن ذلك قولهم : كلمة عيناء وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد والكلمة السيئة تغوى .

وقرأ على بن الحسين رضى الله عنهما وقتادة : مَبْصَرة بفتح الميم أى مكانا يكثر فيه التبصر ، وهى مثل : مَجبنة ومَبخلة .

وقال الراغب الاصفهانى : مُبْصِرَة أى مُضيئة للأبصار ، كما فى قوله تعالى : ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ١٢ ـ الإسراء ، وقوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ ٥٩ ـ الإسراء .

٤٣٩ ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ٣٤ ـ النمـــل (٢٧)

﴿ إذ دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أى إذا دخلوها عَنوَةً [١] فى حرب خربوها وأتلفوها .

لما أحست ملكة سبأ من أعيان قومها ، وهى تستشيرهم فى أمر الكتاب المرسل إليها من سليمان عليه السلام ، الميل إلى المحاربة فى الآية السابقة : ﴿ قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴾ رأت هى الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن . ورتبت قولها : فبينت لهم أولا الخطأ فيما ذكروه بأن قالت ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية ﴾ قهرا خربوها وأذلوا أشرافها وقتلوا وأسروا ، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ، ثم قالت : ﴿وكذلك يفعلون ﴾ أى أن هذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير ، لأنها (أى الملكة) كانت فى بيت المُلك القديم وسمعت نحو ذلك ورأت . وقد يتعلق الساعون فى الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم ـ لكن من استباح حراما فقد كفر .

وبعد ذلك البيان عرضت ما رأته من رأى سديد وهو أن ترسل هدية تصانع بها سليمان (أى تداريه وتلاينه) عن ملكها : ﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ﴾ الآية التالية رقم ٣٥ [٢] .

---

(١) عَنَا يعنُو عُنُوًّا : خضع وذلّ ، ومنه ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ ١١١ ـ طه . وعنا الشيءَ عَنْوَةً : أخذه قَسْرًا .

(٢) راجع : « الكشاف » للزمخشرى .

٤٤٠ ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ ٤٧ ـ النمل (٢٧)

﴿ قالوا اطيرنا بك ﴾ ، قال الكافرون من قوم ثمود لنبيهم صالح : أصابنا الشؤم والنحس بك . والفعل اطَّيَّرَ أصله تَطَيَّرَ : تفاءل ، وتطير به ومنه : تشاءم ، وأصله التفاؤل بالطير ، ثم استعمل فى كل ما يُتَفَاءَل به ويُتَشَاءَم .

وكان العرب أكثر الناس طِيَرَةً (تطيرا أى تفاؤلا وتشاؤما) ؛ فإذا أراد أحدهم سفرا مثلا زجر طائرا فإذا طار يَمْنَةً (جِهَة اليمين) تيمن (أى تبرك) ، وإذا طار يَسْرَةً أى جهة اليسار تشاءم ؛ فنسبوا الخير والشر إلى الطائر ، واستعير (أى الطائر) لما كان سبباً لهما ؛ مع أن السبب هو قدر الله أو عمل العبد الذى يكون سببا فى الرحمة أو النقمة .

قال القرطبى : ولا شىءَ أضر بالرأى ، ولا أفسدُ للتدبير من اعتقاد الطِيَرَة ؛ ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيبَ غراب يَرد قضاءً أو يدفع مقدورا فقد جَهِل .

« وبمن معك » أى ومن هم على دينك . والمعنى : توالت علينا الشدائد منذ جئتَ بما جئت به . فلما قالوا ذلك ، قال لهم صالح : ﴿ طائركم عند الله ﴾ أى أن ما يصيبكم هو قدر الله ، أو هو عملكم السيء مكتوب عليكم عنده تعالى .

« بل أنتم قوم تفتنون » أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، لتتنبهوا إلى أن ما ينالكم من حسنة فبفضل الله ، وما يصيبكم من سيئة فبشؤم أعمالكم . أو أن الشيطان يفتنكم بوسوسته إليكم فتتشاءمون .

٤٤١ ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ٨٢ ـ النمـــل (٢٧)

﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ أى دنا وقرب وقوعُ وتحققُ ما نطقت به الآيات الكريمة من مجئ الساعة وأهوالها ، سمى معنى القول ومؤداه بالقول .

« أخرجنا لهم دابة من الأرض » والدابة لغةً كل ما يدبُّ على الأرض عاقلا أو غير عاقل وإن غلب على ما يُركب من الحيوان . أما هذه الدابة التى يخرجها الله من الأرض آخر الزمان فالله أعلم بحقيقتها ، وهى من أشراط الساعة الكبرى .

﴿ تكلمهم ﴾ أى تخبرهم أن الناس المنكرين للبعث كانوا لا يوقنون بصدق الآيات المنزلة من عند الله بمجئ الساعة .

٤٤٢ ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠ ـ القصص (٢٨)

الفارغ : الخالى . يقال : إناء فارغ ، وقول فارغ ، وقلب فارغ .

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » أى أصبح قلبها خاليا من الصبر والتعقل حتى كادت أن تصرح أن الطفل الذى ألقته فى اليم والتقطه آل فرعون هو ابنها ، وذلك من شدة وجدها عليه ، وهذا هو معنى : « إن كادت لتبدى به » . ولكن الله ثبت قلبها بما أنزل فيه من السكينة وبما ألهمها من الصبر ، وهذا هو معنى « لولا أن ربطنا على قلبها »؛ وأصل الربط : الشَد للتقوية ، ويقال لقوى القلب : رابط الجأش .

ونورد ما قاله الزمخشرى ، فهو يزيد معنى التعبير وضوحا :

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » أى صفرا من العقل ، يعنى بطل قلبها وذهب ، وطار عقلها لما دهمها من فرط الجزع الدهش حين سمعت بوقوع ابنها فى يد فرعون . قال الزمخشرى : وذلك أن القلوب مراكز العقول ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ ٤٦ ـ الحج . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وأفئدتهم هواء﴾ أى جوف لا عقول فيها .

وقال الراغب الأصفهانى : فارغا أى كأنها فَرَغَ فؤادها من لُبِّها لمَا تداخلها من الخوف . وقيل : فارغا من ذكره أى أنسيناها ذكره حتى سكنت واحتملت أن تَلقيه فى اليم .

٤٤٣ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ٣٥ - القصص (٢٨)

العَضُد [1] : ما بين المرفق إلى الكتف . وشَد العضد كناية عن تقويته . واليد تشتد بشدة العضد .

﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ : سنقويك ونعينك به

﴿ ونجعل لكما سلطانا ﴾ أى حجة واضحة أو تسلطا وغلبة ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ بأذى ، والخطاب لموسى عليه السلام .

(١) والعضُد أيضا : المعين . يقال : فَتَّ فى عضُده : أضعف قوته وفرق عنه أعوانه .

٤٤٤

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ٧٦ - القصص (٢٨)

ناء به الحِمْلُ ينوءُ نَوْءًا : أثقله وأماله .

﴿ ما إنَ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ أى أن مفاتيح الكنوز التى يملكها يثقل حملها على العصبة التى تضم الرجال الأقوياء فيميلون على جانبهم بسبب ثقلها ؛ والباء فى «بالعصبة» للتعدية . والعصبة : الجماعة المتعاضدة من الناس أو الخيل أو الطير ، وخُصصت فى العرف بما يتراوح بين العشرة إلى الأربعين .

وجاء فى « تفسير غريب القرآن » أن « تنوء بالعصبة » من المقلوب ومعناه ما أن العصبة لتنوء بمفاتحه أى تنهض بحمل مفاتيحه مثقلة (أى بجهد ومشقة) ، وذلك من قولهم : ناء بحمله أى نهض به مثقلا . وقال الفراء : ليس هذا من المقلوب ، إنما معناه : ما إن مفاتحه لتُنئ العصبةَ أى تميلهم بثقلها (من قولهم : أنَاءَ الحِمْلُ حاملَه ينيئه أى أثقله وأماله) فلما انفتحَت التاءُ دخلت الباءُ ، كما قالوا يُذهب البؤسَ ويَذهب بالبؤس .

المفاتح : جمع مفتح (بالكسر) وهو ما يفتح به . ومثله : مفتاح ومفاتيح .

صور التعبير ضخامة ثروة قارون بهذه الكلمات الموحيَة : الكنوز ، المفاتح ، النوء ، العصبة ، أولى القوة .

﴿ لا تفرح ﴾ مثل قوله تعالى ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ ؛ وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن ؛ وأما من قلبه إلى الآخرة ، ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب ، لم تحدثه نفسه بالفرح ، قال المتنبى :

أشَدُّ الغَمّ عندى فى سرور ∴ تيَقَّنَ عنه صاحبه انتقالا

أى : أشد الغم عندى وقت السرور الذى تيقن صاحبُه الانتقالَ عنه ـ وهكذا سرور الدنيا كله . قال هدبة بن خشرم :

ولستُ بمفراح إذا الدهر سرنى ∴ ولا جازعٌ من صرْفه المتقلب

المفراح : الكثير الفرحَ ، والمراد : نفى الفرح من أصله . وصَرْف الدهر : نوائبه .

٤٤٥ ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾٤١ ـ **العنكبوت** (٢٩)

وبيت العنكبوت هو بيت واه تنسجه دُوَيَّبَةُ العنكبوت نسجا رفيعا مهلهلا فى الهواء لا يغنى عنها فى حر ولا قر ، ولا فى مطَر ولا أذى .

﴿ أوهن البيوت ﴾ أكثرها وهنًا ، والوهَن : الضعف والذبول ، والواهن : الضعيف عديم البطش .

والعنكبوت تطلق على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، والغالب فى استعمالها التأنيث . والواو والتاء زائدتان ، وتجمع على عناكب وعناكيب .

والذين اتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم ويعينونهم مثلهم كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا واهيا من نسجها لا يغنى عنها شيئا .

فى هذه الآية تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى فى هذا الوجود وهى الحقيقة التى يغفل عنها الناس عندما ينسون القوة الحقيقية الوحيدة فى هذا الكون ، قوة الله القاهرة التى تخلق سائر القوى وتسخرها كما تريد وتمنحها لمن تريد . فالناس تخدعهم قوة الحكم والسلطان فيحسبونها القوة القادرة التى تعمل فى هذه الأرض فيتوجهو إليها بمخاوفهم ورغائبهم ؛ وتخدعهم قوة المال فيسعون للحصول عليه ليستطيلوا به على الناس ؛ وتخدعهم قوة العلم فيتعبدون فى محرابه . تخدعهم هذه القوى الظاهرة فى أيدى الأفراد والجماعات وفى أيدى الدول ، فيتهافتون عليها ، وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى ـ بدلا من الالتجاء إلى الله صاحب القوة الحقيقية الوحيدة فى هذا الكون ـ إنما هو كالتجاء العنكبوت ، الحشرة الضعيفة الرخوة إلى بيت من صنعها وهو بيت واه واهن مهلهل .

٤٤٦ ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٤ ـ العنكبوت (٢٩)

اللهو : اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه ، أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا . واللعب : العبث وهو العمل الذى لا فائدة فيه .

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾ أى أن الحياة الدنيا فى سرعة تقضيها ليست إلا كالشىء الذى يلهو ويلعب به الصبيان ، يجتمعون عليه ويبتهجون به زمنا ثم ينصرفون عنه . « هذه » فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها ، وذلك لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ـ ما هى إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون .

« الحيوان » : مصدر الفعل حَيِىَ يَحْيَا حياةً وحيواناً ، سُمى به ذو الحياة ، وأطلق هنا على الحياة الحقة ، فالآخرة هى الحياة الَحقة : فهى الحياة الدائمة التى لا يعقبها موت ولا يعتريها انقضاء .

قال الراغب الأصفهانى : « الحيوان » هو مالَهُ البقاءُ الأبدىُّ وهو المذكور فى قوله عز وجل : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » ، وقد نبه بقوله : « لهى الحيوان » أن الحيوان الحقيقى هو السرمدى الذى لا يفنى ، لا ما يبقى مدة ثم يفنى . وقال بعض أهل اللغة الحيوان والحياة واحد .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ١٩ ـ الروم (٣٠)

٤٤٧

﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ قال الحسن : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران .

وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان ؛ فقال عكرمة : هى إخراج الدجاجة وهى حية من البيضة وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقال ابن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حى ، ويخرج الرجل منها حيا وهى ميتة ـ والتفسير على هذه الصورة ليس صحيحا .

فالبيضة المخصبة التى يمكنها أن تربى كتكوتا هى حية لأن الجنين فى داخلها يتنفس ويتغذى . والنطفة كائن حى طالما كان فى قدرته أن يتحرك لإخصاب بويضة الأنثى الناضجة ، وطالما كانت له القدرة على الولوج فيها لإخصابها ؛ فإن مات عجز عن أداء مهمته هذه . وكذلك البذرة يكون الجنين فيها حيا طالما كان قادرا على الإنبات ، فإن مات عجز عن تكوين البادرة .

أما إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى فظاهرتان مستمرتان ومتلازمتان . والعلم يقرر أن كل كائن حى من حيوان ونبات تجرى فيه ـ فى جسمه ـ ظاهرة تعرف بالتحويل الغذائى (Metabolism) ، وهذا يشمل حدثين أحدهما هو البناء (Anabolism) أو التمثيل (Assimilation) والآخر هو الهدم (Katabolism) .

وفى عملية البناء يتناول الإنسان ، وسائر الحيوانات ، غذاءه من مصدر نباتى أو حيوانى ، فيتعاطى غذاءه ميتا ثم يهضم ما يصلح منه ، وهذا الصالح من الغذاء يمتص فى الأمعاء فيختلط بالدم الذى يوصله بدورانه إلى مشارف الخلايا فى الجسم كله ، وهو ما يزال ميتا . والخلايا ما هى إلا معامل إلهية هيأها الله سبحانه لتختار من مكونات الغذاء الصالح ، الذى وصلها فى الدم ، ما تحتاجه ؛ فتحوله بداخلها إلى مادة الحياة فيها أى البروتوبلازم (Protoplasm) ؛ وهكذا تنقلب المادة الميتة خارج الخلية إلى مادة حية داخل الخلية بحيث تصبح جزءاً لا يتجزأ منها ـ وهذا هو إخراج الحى من الميت . ولا يمكن أن يقوم بهذه العملية سوى المعامل الإلهية (أى الخلايا) التى هيأها الله لذلك .

---

(١) ورد التعبير فى الآية ٣١ من سورة يونس ، وقريب منه ما ورد فى الآية ٩٥ من سورة الأنعام ، وما ورد فى الآية ٢٧ من سورة آل عمران .

والنبات يتناول غذاءه الميت فى صورة مركبات معدنية تمتصها جذوره من التربة الصالحة لإنباته ، بالإضافة إلى قدرة اليخضور (الكلوروفيل) فى استخدام ثانى أووكسيد الكربون من الجو فى وجود الماء والطاقة الشمسة فى بناء جسم النبات أيضاً . وكلها عناصر ميتة تتحول فى المصانع الإلهية (الخلايا) إلى أنسجة حية فى النبات .

وعملية البناء تلازمها عملية الهدم التى لابد منها ، فعليها تتوقف حياة الكائن الحى كما تتوقف على عملية البناء تماما . وتنتج عن عملية الهدم تغيرات كيماوية فى الخلايا ينتج عنها مركبات بسيطة ميتة ـ وهذا هو إخراج الميت من الحى . ويتأتى عن ذلك :

أ ـ تحويل الطاقة المخزنة فى الأنسجة (الخلايا) إلى طاقة كامنة يستخدمها الحيوان فتظهر على شكل حرارة أو حركة أو غيرهما .

ب ـ الإفراز وذلك بتوليد مواد كيماوية يستخدمها الحيوان لصالحه كاللعاب والإنزيمات الهاضمة وكالدموع .

جـ ـ ومع المواد المفيدة السابقة الناتجة عن عملية الهدم ، توجد مواد إخراجية ضارة تضر الحيوان إن بقيت فيه . وقد رتب الله لها الأجهزة التى تخلص الحيوان منها ، فثانى أوكسيد الكربون يتخلص الحيوان منه بالرئتين ، والماء الزائد (البول) عن طريق الكليتين .

فعملية البناء فى الكائنات الحية هى إخراج الحى من الميت وعملية الهدم هى إخراج الميت من الحى [1] .

كل لحظة تمر على الحى تموت منه خلايا حية وتذهب ، وتنشأ فيه خلايا جديدة وتعمل . ويموت الحى كله ، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل فى تركيب آخر ، ثم تدخل فى جسم حى فتدب فيها حياة ـ وهكذا دورة دائبة وحركة فى كيان الكون كله (تعاقب الليل والنهار) وفى كيان كل حى ، حركة خفية عميقة لطيفة هادئة تمشى بيد القادر المبدع اللطيف المدبر . فأنى يحاول البشر أن ينعزلوا بتدبير شأنهم عن اللطيف المدبر ؟

وإحياء الأرض : إخراج النبات منها ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ ٣٣ ـ يس وقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ٥ ـ الحج .

﴿ وكذلك تخرجون ﴾ : ومثل إخراج النبات من الأرض ، فإنكم تخرجون من القبور وتبعثون . فالإبداء والإعادة متساويان فى قدرة من هو قادر على إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى .

---

(١) يراجع ذلك المقال المفيد الذى كتبه الدكتور أحمد حسنين القفل بعنوان : الحى من الميت والميت من الحى ـ كيف ؟ المنشور فى مجلة « منبر الإسلام » عدد رمضان ١٤٠٩ .

٤٤٨ ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ٤١ - الروم (٣٠)

يكشف التعبير عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم ، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع فى الأرض الفساد ، ويملؤها برا وبحرا بهذا الفساد . والفساد اسم جنس يعم كل فساد واقع فى حيزى البر والبحر « بما كسبت أيدى الناس » أى بسبب معاصيهم وذنوبهم ، كما فى قوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ .

﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ أى ليذيقهم عقاب بعض عملهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم فيه من المعاصى ويتوبون إلى الله ويرجعون إلى المنهج القويم .

والفساد يشمل معاصى بنى آدم واقترافهم السيئات وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم ، ويشمل أيضا القحط وكثرة الخوف ونقصان الزرع والثمار وانتشار الأمراض المستعصية والقلق والاكتئاب .

﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيث ﴾ ٤٤٩

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ٦ - لقمان (٣١)

ولَهْوُ الحديث : كل كلام يُلهى القلبَ ويأكل الوقت ، ولا يُثمر خيرا ولا يُؤتى حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف فى هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والإصلاح .

جاء فى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » : اللهو هو تناول ما لا يجدى من الأعمال ، مصدر لَهَا يَلْهُو أى تَسَلى وشغل نفسه بما فيه لذتها ، أو بما لا يجدى كالغناء والأساطير الوهمية .

وقال القرطبى : إن أولى ما قيل فى تفسير « لهو الحديث » هو الغناء ، وهو قول الصحابة والتابعين . قال الطبرى : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبدالله العنبرى . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته إذ ليس شىء منها عليه حرام .

« لهو الحديث » أضاف اللهو إلى الحديث للتبيين ، فالإضافة بيانية بأن يضاف الشىء إلى ما هو منه ، مثل : جُبَّة خَز [١] .

وقوله « يشترى » إما من الشراء على ما رُوى عن النضر بن الحرث الذى كان يشترى كتب الأعاجم وفيها أحاديث رستم وبهرام والأكاسرةَ وملوك الحيرة يحدث بها قريشا ويلهيهم بها عن الاستماع إلى القرآن ، كما كان يشترى المغنيات ليلهى بالاستماع إليهن من أراد الإسلام . لكن النص أعم ، إذ أنه يصور فريقا من الناس واضح السمات موجودا فى كل زمان : يشترى لهو الحديث بماله ووقته وبحياته ، ويضيع عمره الغالى المحدود الذى لا يعاد ولا يعود فى لهو رخيص .

وإما « يشترى » بالمعنى الوارد فى قوله تعالى : « اشتروا الكفرَ بالإيمان » ١٧٧ ـ آل عمران أى استبدلوه منه واختاروه عليه ، يختار حديث الباطل على حديث الحق [٢] .

﴿ ليُضل عن سبيل الله ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء « ليُضل » أى يضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحَق . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ووَرش وابن محيصن وحميد بفتح الياء « ليَضل » أى ليضل هو فى نفسه ويصير أمره إلى الضلال .

﴿ سبيل الله ﴾ : دين الإسلام أو القرآن .

---

(١) الخَزُّ من الثياب : ما ينسج من صوف وحرير خالص .

(٢) قال قتادة : اشتراؤه : استحبابه .

« بغير علم » أى حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر ، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض لَأنه غير بصير بفنون التجارة حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطلَ بالحق ، كقوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » أى وما كانوا مهتدين للتجارة بُصراء بها .

﴿ ويتخذها هزوا ﴾ : يتخذ سبيل الله ومنهجه هزوا ، استهزاء وسخرية من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس . والسبيل يذكر ويؤنث (1) .

﴿ ويتخذَها ﴾ قرأها حمزة والكسائى والأعمش بالنصب عطفاً على « ليضلَّ » . وقرئت «ويتخذُها » بالرفع عطفا على « يشترى » .

﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى شديد يصير به من وقع عليه مَهينًا .

---

(1) مؤنث كما فى قوله تعالى : ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به تبغونها عوجا ﴾ ٨٦ ـ الأعراف .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ ١٧ ـ لقمان (٣١)

﴿ من عزم الأمور [١] ﴾ : من معزوماتها التى يُعزَم عليها أى التى تُعقد النية على فعلها . قال الزمخشرى : وحقيقته (أى حقيقة هذا التعبير : عزم الأمور) أنه من تسمية المفعول بالمصدر ، وأصله من معزومات الأمور ، أى مقطوعاتها ومفروضاتها . فتلك الطاعات : إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر ، إنما هى مما عزمه الله من الأمور ، أى قطعه قطع إيجاب وإلزام . ومنه الحديث : « لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل » أى لم يقطعه بالنية .

قال الشوكانى : ﴿ من عزم الأمور ﴾ أى مما جعله الله عزيمة [٢] وأوجبه على عباده . وقال ابن جرير : ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق وعزائم أهل الحرم السالكين طريق النجاة .

قال صاحب الظلال : عزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

والإشارة فى قوله « إن ذلك » إلى الطاعات المذكورة . قال الزمخشرى : وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم . وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، موصى بها فى الأديان كلها .

---

(١) العزيم : العَدُوُّ الشديد . وفى لغة هُذيل ، العزم : الصبر ، يقولون : مالى عنك عزم ، أى صبر . ومن هذا قالوا : العزم هو الجد وعقد القلب على أمر أنك فاعله . والفعل : عَزَمَ ، وهو متعد بنفسه مثل قوله تعالى : ﴿ وإن عزموا الطلاقَ ﴾ ٢٢٧ ـ البقرة ، وبعلى كقولك : عزمت على ترك التدخين .

(٢) وجمع عزيمة عزائم ، وعزائم الله : فرائضه التى أوجبها . وفى الحديث : ﴿ إن الله يحب أن تؤتى رُخصُه كما يحب أن تؤتى عزائمُه ﴾ ، رواه ابن حبان وأحمد والبزار وأبو يعلى .

٤٥١ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ١٨ ـ لقمان (٣١)

﴿ تصعر خدك للناس ﴾ : تعرض بوجهك عنهم تكبرا . والصَّعَر : ميل فى العنق خلقة أو مرضا . وهو داء يأخذ البعير فى رأسه فيقلب رأسه فى جانب . ويشبه به الرجل الذى يتكبر على الناس . والأسلوب القرآنى يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر ، حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس فى تعال واستكبار .

قرأ الجمهور : « ولا تصعر » وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم : « ولا تُصَاعِر » يقال : صعر خده إذا أمال وجهه وأعرض تكبرا ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبَّارُ صعَّر خده . . مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

٤٥٢ ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ١٩ ـ لقمان (٣١)

﴿ واقْصد فى مشيك ﴾ : توسط فيه بين الدبيب والإسراع وعليك السكينة والوقار .

قَصَدَ فى أمره يَقصدُ قَصْدًا : اعتدل وسلك فيه مسلكا وسطا بين المغالاة والتقصير ، أو بين الإفراط والتفريط .

وأما قول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع . فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت (انظر : الكشاف للزمخشرى) .

٤٥٣ ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ١٩ - لقمـان (٣١)

الغَضُّ : نقص ما فى الإناء . ويجئ منه معنى الخفض فى الصوت والطرْف ، وهو ما استعمل فى القرآن للصوت تارة وللبصر تارة . يقال : غضّ صوته وغض من صوته .

﴿ واغضض من صوتك ﴾ : انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه ، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذى السامع .

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . وما يزعق أو يغلط فى الخطاب إلا سيئ الأدب ، أو شاكّ فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه ؛ يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق .

وجملة « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » : تعليل للأمر بالغض من الصوت . ومعنى أنكر الأصوات : أوحشها وأقبحها . قال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير أو له زفير وآخره شهيق . واللام فى « لَصوت » للتأكيد . وبهذه العبارة يرذل الأسلوب القرآنى هذا الفعل ويقبحه فى صورة تبعث على السخرية مع النفور والبشاعة . ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك الذى يصوره هذا التعبير المبدع ، ثم يحاول شيئا من رفع الصوت .

٤٥٤ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ٢٧ ـ لقمان (٣١)

﴿ كلمات الله ﴾ : الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ، لأنه ـ جل وعلا ـ علم ، قبل أن يخلق الخلق ، ما هو خالقٌ فى السموات والأرض من شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّر ، وعلَمَ الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما فى الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخَلق . فكلمات الله هى العبارات الدالة على علم الله وكلمته (كلمته : المخلوق يخلقه الله تعالى بكلمة « كن »)[1] .

جاء فى « الكشاف » : فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لاالتقليل . فهلا قيل كَلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تفى بكتابتها البحار ، فكيف بكَلمه ، وهى جمع كثرة ؟

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام » أى لو أن جميع ما فى الأرض من الشجر أقلام . وحَّد الشجرة لما تقرر فى علم المعانى من أن استغراق المفرد أشمل ، فكأنه قال : كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بُريت أقلاما ، وجَمَع الأقلام لقصد التكثير .

« والبحر » اسم جنس يعنى كل بحار الدنيا . وقوله « يمده » أغنى عن ذكر المداد ، يقال : مَدّ الدواةَ يمدها : زاد مدادها . فالتعبير جعل البحر بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداد فهى تصب فيه مدادها .

والمشهد يمثل لبنى البشر أن جميع ما فى الأرض من شجر تحول أقلاما ، وجميع ما فى الأرض من بحر تحول مدادا ، بل وتمده وتصب فيه المدادَ بلا انقطاع سبعة أبحر مثله . . وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه ، المعبرة عن مشيئته ، فماذا ؟ لقد نفدت الأقلام ، ونفد المداد ، وكلمات الله باقية لم تنفد ـ إنه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسينتهى ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق !

---

(١) انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية .

٤٥٥ ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[1]

٣٣ - لقمــان (٣١)

غَرَّ فلاناً يغُرُّه غُروراً : خدعه وأطمعه بالباطل .

﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ : لا تخدعنكم بزخارفها ولهوها وملذاتها ، فإنها زائلة ذاهبة - فهى مهلة محدودة ، وهى ابتلاء واستحقاق للجزاء .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغَرور ﴾ : الغَرور هو الشيطان لأن من شأنه أن يخدع الخلق (يغرهم) ويمنيهم بالأمانى الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ويصدهم عن طريق الحق .

وقيل : الغَرور الدنيا . وقيل : تمنيكم فى المعصية المغفرة . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : الغِرَّة[2] بالله أن يتمادى الرجل فى المعصية ويتمنى على الله المغفرة. وقيل : ذكرك لحسناتك وَنسيانك لسيئاتك غِرَّة (أى غفلة) .

٤٥٦ ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ٥ - السجدة (٣٢)

﴿ يُدَبِّر الأمرَ ﴾ : يقضى ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والكمال . « يعرُج إليه » : يرتفع . « يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » : يوم القيامة .

والمعنى : يدبر أمر الدنيا كلها على امتدادها من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرتفع إليه ذلك الأمر كله ويصير إليه ليحكم فيه فى يوم القيامة .

والتعبير يرسم مجالا واسعا شاملا لتدبيره - سبحانه وتعالى : « من السماء إلى الأرض » ليلقى على الحس البشرى الظلال التى يقدر على تصورها ويخشع لها ، وإلا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض . ثم يرتفع إليه - سبحانه - كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه « فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ليحكم فيه ، فليس شىء متروكا سدى ولا مخلوقا عبثا - إنما يُدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم .

---

(١) تكرر هذا التعبير فى ٥ - فاطر .
(٢) غَرَّ الرجلُ يَغِرُّ غِرَّةً : جَهِلَ الأمورَ وغَفَلَ عنها ، فهو غِرٌّ .

٤٥٧ ﴿ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴾

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ١٠ ـ الأحزاب (٣٣)

زاغَ البصرُ يزيغ زَيْغًا وزَيَغَاناً : مال عن مستوى النظر حَيْرَةً وشُخوصًا [١] ، فهو زائغ .

﴿ زاغت الأبصار ﴾ : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع . فالتعبير يصور حالة الخوف والكربة التى اعترت المسلمين فى غزوة الأحزاب فى السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة . فقد تحزبت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب ، وغطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزارى ، وبنومرة بقيادة الحارث بن عوف ، ويهود بنى قريظة والنضير وخرجوا جميعا لحرب رسول الله ﷺ . فلما سمع بهم الرسول وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ولهذا سميت كذلك بغزوة الخندق . ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين أعدائه المهاجمين وكانوا عشرة آلاف من قريش وألفا من غطفان فضلا عن محاربى هوازن ويهود قريظة والنضير .

﴿ جاءوكم من فوقكم ﴾ من أعلى الوادى من قبل المشرق ، ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ من أسفل الوادى من قبل المغرب .

وقد استمر حصار الأعداء لمدينة رسول الله ﷺ قرابة شهر لاحرب بينه وبينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة . روع الهولُ المدينة وشملها الكربُ ، وتناوشت الناسَ الظنون المختلفة ؛ فبعضهم وهم المؤمنون ظنوا النصر ورجوا الظفر ؛ والبعض الآخر وهم المنافقون ظنوا أن المسلمين يُستأصلون . لكن الله أرسل على المشركين ريحا وجنودا ـ هم الملائكة ـ قلعت الأوتاد وقطعت حبال الخيام وأطفأت النيران وأكفأت القدور . وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم من أحزاب المشاركين ينادى فى قومه :

النجاة ! النجاة بعد أن دهمهم الرعب والخوف . وهكذا حقق الله النصر لنبيه بلا قتال .

---

(١) شَخَصَ بَصَرُ فلان : فتح عينيه ولم يَطْرِف متألما أو منزعجا .

٤٥٨ ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ١٠ - **الأحزاب** (٣٣)

سُمِّيَ قلبُ الإنسان قلباً لكثرة تقلبه . ويُعبر بالقلب عن المعانى التى تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك .

﴿ بلغت القلوب الحناجر ﴾ : قالوا إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ، ربَت (علت وارتفعت) وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة . ويجوز أن يكون ذلك مثلا فى اضطراب القلوب ووجيبها (١) وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة .

والتعبير يصور حالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب . وكان ذلك فى غزوة الأحزاب يوم أن خيم الرعب على المدينة على أثر الحصار الذى فرضه عليها جموع المشركين .

(انظر التعبير : زاغت الأبصار)

---

(١) يقال : وجب القلبُ وجيباً : خفق واضطرب ورجف .

٤٥٩ ﴿ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾

﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴾ ١٣، ١٤ - **الأحزاب** (٣٣)

العَوَر في العين : ذهاب الحس . والعَوَر : قُبحُ الأمر وفساده .

والعَوْرة : الخَلل في الثغور يُتَخوَّف .

ووردت « عَوْرة » وصفا للبيوت أى ذات عَوْرة يعنى ذات خَلَل فى صونها أى غير حَريزة[١] . يقال : عَورَ المكانُ عَوَراً إذا بدا فيه خلل يُخاف منه العَدو والسارق[٢] .

﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ : اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق لأنها غير محرزة ولا محصنة ؛ فاستأذنوه ، أى استأذنوا النبى ﷺ وكان ذلك فى غزوة الأحزاب ، ليحصنوها ثم يرجعوا إليه . فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار من الحرب ومقاتلة المشركين الذين كانوا يحاصرون المدينة

ترسم الآية صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض - صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف : « ولو دخلت عليهم من أقطارها » أى لو اقتحمت عليهم المدينة من أطرافها ، « ثم سئلوا الفتنة » أى طلبت إليهم الردة عن دينهم « لآتوها » سراعا غير متلبثين ولا مترددين إلا قليلا من الوقت .

---

(١) الحَريز : الحصين .

(٢) وأعور الفارسُ إذا بدا منه موضعُ خَلَلٍ للضرب والطعن .

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

١٩ ـ **الأحزاب** (٣٣)

﴿تدور أعينهم﴾ : ينظرون يمينا وشمالا وفى كل جهة وبكل حدَّة ، لشدة خوفهم من أن يأتيهم القتل من كل جهة . التعبير يصور جبنهم .

ويصل بهم الخوف والجزع أقصى درجة « كالذى يُغْشَى عليه من الموت » أى الذى يُغمى عليه ، من الغاشية أى الجائحة المهلكة فى الآخرة أو الدنيا [1] . شبههم بالذى نزل به الموت وغشيته أسبابه ، فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ، كذلك هؤلاء .

والخوف هو الخوف من قتال العدو إذا أقبل .

ترسم الريشة المعجزة سمات هؤلاء المعوقين الذين ورد ذكرهم فى الآية السابقة : ﴿قد يعلمُ الله المعوقين منكم﴾ والذين يسعون بالتخذيل فى صفوف الجماعة المسلمة . « أشحة عليكم » بالجهد وبالمال وبالعواطف والمشاعر على السواء . ثم ترسم لجبنهم صورة واضحة الملامح متحركة الجوارح مثيرة للسخرية . وإذا ذهب الخوف يخرجون من الجحور وترتفع أصواتهم مدعين فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال : « سلقوكم بألسنة حداد » .

وقريب من هن هذا التعبير قوله تعالى : ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت﴾ ٢٠ ـ محمد .

---

(١) الغاشية والغشاء والغَشَاوة : الغطاء . وتقال الغاشية والغِشاوة لغطاء خاص هو جلدة تُغَشِّى القلب ، فإذا انخلع منها القلبُ مَات صاحبه .

٤٦١ ﴿ سلقوكم بألسنة حداد ﴾

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

١٩ - الأحزاب (٣٣)

سَلَقَه بلسانه يَسْلُقُه سَلْقًا : بَسَط لسانَه فيه بما يؤذيه .

﴿ فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ : بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت قسمة الغنيمة بعد انتهاء القتال ، يقولون : أعطنا أعطنا فإنا قد شهدنا معكم القتال . فعند الغنيمة هم أشح قوم وأحدهم لسانًا ، ووقت البأس والقتال هم أجبن قوم وأخوفهم .

وحكى الفراء « صلقوكم » . يقال خطيب مِسْلاق ومصلاق إذا كان بليغا . قال الأعشى :

فيهم المجدُ والسماحة والنجـ ... دَةُ فيهـم والخاطـب المسـلاق

إن صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجئ الأمن أكثر إثارة للسخرية : يخرجون من الجحور ، وترتفع أصواتهم بعد الارتعاش ، وينفشون بعد الانزواء ، ويدعون فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال .

ثم هم « أشحة على الخير » فلا يبذلون لعمل الخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم ، رغم تبجحهم وطول ألسنتهم .

﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ﴾ أى لم يُثبهم عليها فهم لم يؤمنوا بقلوبهم ، ولم يقصدوا وَجه الله تعالى بهذه الأعمال .

٤٦٢ ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ ٣٢ ـ الأحزاب (٣٣)

خَضَعَ بالقول : ألان كلامه .

نُهين عن إلانة القول وترقيقه حتى لا يطمع الرجال فيهن .

﴿ الذى فى قلبه مرض ﴾ أى تشوف لفجور ، وهو الفسق والغزل .

النهى لأزواج النبى ﷺ ، أمهات المؤمنين اللاتى لا يطمع فيهن طامع ولا يرف عليهن خاطر مريض . وهو ، أى هذا النهى قد جاء فى عهد النبى ﷺ ، عهد الصفوة المختارة من البشرية . ولكن الله الذى خلق الرجال والنساء يعلم أن فى صوت المرأة حين تخضع بالقول إثارة للطمع وتهييجا للفتنة وأنه لا طهارة من الدنس ولا تخلص من الرجس إلا بمنع الأسباب المؤدية إليهما .

فكيف بهذا المجتمع الذى نعيش فيه اليوم ، وكل شىء فيه يثير الفتنة وينبه الغريزة ويوقظ السعار الجنسى المحموم ؟ النساء يتميعن فى أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى وكل هتاف الجنس ثم يطلقنه فى نبرات ونغمات ـ أنَّى يتحقق الطهرُ ؟

﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ فى موضع جزم بالنهى . « فيطمع » بالنصب على جواب النهى ، ويجوز « فيُطمِعَ » أى يطمع الخضوعُ فى القول من فى قلبه مرض .

﴿ إن اتقيتن ﴾ أى خفتن الله ، فبين أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى .

﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمرأة تُندب إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة فى القول من غير رفع صوت ، هذا فى لهجة الحديث . أما موضوع الحديث فيكون أمورا معروفة غير منكرة ، فلا لحن ولا إيماء ، ولا هذر ولا هزل ، ولا دعابة ولا مزاح كى لا يكون مدخلا إلى شىء آخر .

٤٦٣ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ ٣٦ ـ الأحزاب (٣٣)

خارَ الشيءَ على غيره يَخيرُه خيرَةً وخيَرَةً : فضله وانتقاه[١] .

هذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لأحد أن يخالفه ، فلا اختيار لأحد عند ذاك ولا رأى ولا قول ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ٦٥ ـ النساء . ولهذا شدَّدَ فى خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ٦٣ ـ النور . روى ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ ، على مولاه (عبده ومملوكه) زيد بن حارثة ، فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسبا ، وامتنعت ، فأنزل الله هذه الآية . ووردت روايتان أخريان تتعلقان بسبب نزول هذه الآية . إحداهما بخصوص زواج زيد ـ أيضا ـ من أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فسخطت هى وأخوها لهذا الزواج . والثانية تتعلق بزواج جليبيب ، وكان من الموالى ، من امرأة من الأنصار ، وكان أبواها قد مانعا فى هذا الزواج إلا أنها قالت لهما : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ؟ إن كان قد رضيه (أى جليبيب) لكم فأنكحوه (أى زوجوه ابنتكم) وهكذا تزوجته .

لكن نص الآية أعم من أى حدث خاص ، والقاعدة التى تقررها الآية أعم وأشمل . فالمسلمون ليس لهم فى أنفسهم شىء ، وليس لهم من أمرهم شىء . إنما هم وماملكت أيديهم ملك الله ، يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد . إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم ، وهم مطمئنون لليد التى تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والأمان .

وهم ـ مع هذا ـ يعملون ما يقدرون عليه ، ولا يضيعون وقتا ولا جهدا ، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة . ثم إنهم لا يتكلفون مالا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص ومن ضعف وقوة .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدرالله ، والعمل الجاهد بكل ما فى الطاقة ،

---

(١) وردت كلمة « الخِيرة » مرة ثانية فى قوله تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيَرةُ ﴾ ٦٨ ـ القصص .

والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون ـ هذا التوازن هو السمة التى طبعت حياة المسلمين الأوائل، ومكنتهم من تحقيق ما حققوه من إنجازات خارقة سواء فى حياتهم الخاصة أو فى حياة المجتمع الإنسانى آنذاك .

لفظ « ما كان » فى أول التعبير معناها الحظر والمنع ، مثلها فى ذلك مثل لفظ « ما ينبغى » . فتجئ لحظر الشىء والحكم بأنه لا يكون .

﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ قرأ الكوفيون « أن يكون » بالياء ، لأنه قد فرق بين المؤنث « الخيرة » وفعله « يكون » بكلمة « لهم » . وقرأ الباقون بالتاء « تكون » لأن اللفظ مؤنث وتأنيث فعله حَسَن .

﴿ قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ٣٧ ـ الأحزاب (٣٣)

الوَطَر : المأرب والحاجة والبُغية . والجمع : أوطار . ويقال : قضى منه وطره أى نال منه بغيته .

﴿ فلما قضى زيد منها وطرا ﴾ أى لما لم يبق لزيد فيها حاجة ، وتقاصرت عنها همته ، وفرغ منها ، وفارقها وطلقها ، وانقضت عدتها .

مضى فى أول هذه السورة إبطال التبنى ، ورد الأدعياء [1] (مَن تَمَّ تبنيهم) إلى آبائهم ، وإقامة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ من الآيتين ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب .

ولكن نظام التبنى كانت له آثار واقعية فى حياة العرب ، ولم يكن إبطال هذه الآثار بالأمر السهل ، فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثرا فى النفوس ، ولابد من سوابق تبطل هذه الآثار ، ولابد وأن تستقبل هذه السوابق فى أول أمرها بالاستنكار .

وقد مضى فى السورة أن النبى ﷺ زوَّج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش . وكان زيد مُتَبَنَّى رسول الله ، وكان يدعى زيد بن محمد . ولما أبطل الله التبنى وأمر بنسب الأدعياء إلى آبائهم ، أصبح زيد يدعى زيد بن حارثة ، نسبة إلى أبيه .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك ـ فيما يحمل من أعباء الرسالة ـ مؤونة إزالة آثار التبنى ، فيتزوج من زينب بعد أن قضى زيد منها وطرأ وطلقها وانقضت عدتها ، ويواجه النبى ﷺ وسلم المجتمع بهذا الزواج ـ زواجه من مطلقة متبناه ـ الذى لا يستطيع أحد غيره أن يواجه المجتمع به .

---

(١) دَعَاه إلى غيره ولغيره : نَسَبَه وعَزَاه .

﴿ الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ﴾ هو زيد بن حارثة : أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله ، وأنعم الرسول عليه بالعتق من العبودية وبالتربية وبالحب حتى كان يقال له الحب ، ويقال لابنه أسامه الحب ابن الحب .

﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ : لما أخبر زيدٌ الرسولَ عليه الصلاة والسلام أنه يريد فراق زينب بنت جحش ، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر ، وأذى باللسان وتعظيما بالشرف (بأنها من سادة قريش بينما هو عبد) ، قال له النبى : اتق الله ولا تطلق زوجتك .

وطلقها زيد فى النهاية ، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب مطلقته فيما سيكون بعد ذلك. لأن العرف السائد حتى ذلك الوقت كان يعد زينب ، مطلقة لابن محمد ، ومن ثم لا تحل له . صحيح كان الله قد أبطل التبنى ، لكن لم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء ، إنما كان زواج النبى فيما بعد من زينب هو الذى قرر إباحة زواج المؤمنين من زوجات من كانوا يتبنونهم. وهذا هو ما ورد فى نهاية الآية : ﴿زوجناكها﴾ أى زوجناك زينب بعد ما طلقها زيد الذى كان متبناك « لكى لا يكون على المؤمنين حرج » أى إثم وذنب ﴿ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ إذا فرغوا منهن وفارقوهن وطلقوهن « وكان أمر الله مفعولا » أى لا مرد له ، ولا مفر منه، فهو واقع ومحقق ولا سبيل إلى تخلفه .

٤٦٥ ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ من جَلابِيبِهِنَّ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وبَنَاتِكَ ونِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ٥٩ - الأحزاب (٣٣)

﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ : يُسْدلن الجلابيب عليهن حتى يسترن أجسامهن من رؤوسهن إلى أقدامهن . قال الزمخشرى : يرخينها (أى جلابيبهن) عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطا فهن (جمع عطف وهو الجانب) ، يقال إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة : أدنى ثوبك على وجهك . « من » للتَبعيض أى ترخى المرأة بعض جلبابها على وجهها تتقنع به (أى تستر به وجهها) .

أدنى السِّترَ أو الثوبَ : أرخاه وأرسله . ولتضمنه معنى السدل أو الإرخاء عُدِّى بعلى .

الجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن . قال المبرد : الجلباب ما يستر الكل .

﴿ ذلك أدنى أن يعرفن ﴾ أى أولى وأجدر بأن يعرفن ، فلا يُتَعَرَّض لهن ولا يَلْقَيْن ما يكرهن .

أمر الله نبيَّه ، ﷺ ، أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، إذا خرجن من البيوت ، أن يغطين أجسامهن ورؤوسهن وجيوبهن (وهى فتحات الصدر من الثوب) بجلباب كاس ، فيجعلهن هذا الزى فى مأمن من معابثة المعابثين ، فإن حشمتهن تلقى الخجل والتحرج فى النفوس .

٤٦٦ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا[١] ﴾ ٧٢ - الأحزاب (٣٣)

« الأمانة » هى التكاليف والفرائض . أو كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دينى ودنيوى [٢] . وسُميت أمانة لأنها حقوق أودعها الله المكلفين وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها من غير إخلال بشىء منها .

وجاء فى تفسير القرطبى : أن العرض فى الآية ضربُ مَثَل ، أى أن هذه الأجرام ، على عظمها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع ؛ لما فيها من العقاب والثواب . أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حمله الإنسان وهو ظلوم جهول .

الظلوم : الظالم . الجهول : مُضيع الحق ، من الفعل : جَهِل الحقَّ : أضاعه فهو جاهل وجهول .

﴿ فأَبَيْنَ ﴾ : امتنعن . ﴿ أشفقن منها ﴾ : خفن منَ الخيانة فيها .

قيل : الآية من المجاز ؛ أى أنا إذا قايسنا ثقَلَ الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ؛ وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ؛ فعبِّر عن هذا بعرض الأمانة . كما تقول عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايستَ قوته بثقَل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه .

وقال الراغب الأصفهانى فى معنى « الأمانة » : قيلَ هى كَلمة التوحيد ، وقيل العدالة ، وقيل حروف التهَجِّى ، وقيل العقل وهو صحيح . فإن العقل هو الذى لحصوله يتحصل معرفة التوحيد ، وتحرى العدالة ، وتعلم حروف التهجى ؛ بل لحصوله تعلُّمُ كُلِّ ما فى طوق[٣] البشر تعلمُه وفعلُ ما فى طوقهم من الجميل فعلُه وبه فُضِّل على كثيرمن الخلق .

وقال النسفى : لما عَلق بالطاعة الفوز العظيم بقوله فى الآية السابقة (رقم ١٧) : ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ ، أتبعه قوله : ﴿ إن عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها﴾ وهو يريد بالأمانة : الطاعة لله ، وبحمل الأمانة الخيانة .

وقد نقل النسفى رأيه هذا عن الزمخشرى الذى قال : وهو يريد بالأمانة الطاعة ، ووجه الشبه بينهما عند الزمخشرى أن الطاعة لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء . وعرضها على الجمادات (أى السموات والأرض والجبال) وإباؤها وإشفاقها : مجاز ، كما جاء فى أول الشرح .

---

(١) كلمة « الأمانة » لم ترد مفردة ومعرفة بأل إلا فى هذا الموضع .

(٢) هذا قول حسنين مخلوف فى « صفوة البيان لمعانى القرآن » .

(٣) الطَّوْق : القدرة .

٤٦٧ ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ(١) ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣ - سبإ (٣٤)

﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ لا يغيب عن علمه شىءٌ ما مهما دَقَّ وصَغُر . قال مجاهد وقتادة : أى الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شىء . فالعظام ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم . عَزَبَ يعزُبُ ويعزِب إذا بعُد وغاب .

وعلم الله يقيد كل شىء ولا يند عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ ، وإلى عهد قريب كان معروفا أن الذرة هى أصغر الأجسام . والآن يعرف البشر - بعد تحطيم الذرة - أن هناك ما هو أصغر من الذرة وهو جزيئاتها التى لم تكن فى حسبان أحد . وتبارك الله الذى علم عباده ما يشاء من أسرار خلقه عندما يشاء .

فهذا التعبير يعرض علم الله فى صورة كونية كالتى سبقت فى مطلع السورة : ﴿يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ الآية الثانية . مثل هذه الصورة لا تخطر عادة على خيال البشر ، وليست لها سابقة فى كلام البشر شعره ونثره .

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيهن رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد عندما أنكره أهل الكفر والعناد . وثانى هذه الآيات قوله تعالى فى سورة يونس : ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ الآية ٥٣ . وثالثها فى سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ الآية ٧ .

وقد جاء التعبير فى سياق تأكيد مجىء الساعة ردا على إنكارهم لها ونفيهم للبعث . فقد أوجَب ما بعد النفى بالحرف « بَلَى » ، فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ أى : ليس الأمر إلا إتيانها ومجيئها . ثم أكد هذا الإيجاب باليمين بالله عز وجل فقال : ﴿ وربى لتأتينكم ﴾ والقسم بالله هو الغاية فى التوكيد والتشديد . وزاد هذا التأكيد القسمى توكيدا بأن أورد وصف المُقْسَم به فوصفه بأنه ﴿عالم الغيب ﴾ وأنه لا يفوت

---

(١) ورد التعبير أيضا فى قوله تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ٦١ - يونس .

علمَه شيءٌ مهما كان ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ ؛ وذلك لأن عظمة حال المُقسَم به تؤذن بقوة حال المُقسَم عليه وشدة ثباته . وكلما كان المقسمُ به أعلى كعبا وأبين فضلا وأرفع منزلة ، كان المقسم عليه أثبت وأرسخ .

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله فى الآية التالية : ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بالثواب والكافرين بالعقاب . فقد وضع الله فى العقول وركب فى الغرائز وجوبَ الجزاء ، وأن المحسنَ لابد له من ثواب والمسىءَ لابد له من عقاب . فقوله « ليجزى » متصل بقوله « لتأتينكم » تعليلا له .

وإنكار الذين كفروا للآخرة ناشىء عن عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى : يحسن منهم من يحسن ويسىء منهم من يسىء ، ثم لا يلقى المحسن جزاءه ولا يلقى المسىء جزاء إساءته . وقد أخبر الله على لسان رسله أنه يستبقى الجزاء كله أو بعضه للآخرة ـ فكل من يدرك حكمة الله فى خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره .

قرأ نافع وابن كثير ﴿ عالمُ الغيب ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره ﴿ لا يعزب عنه﴾ . وقرأ عاصم وأبو عمرو ﴿ عالم الغيب ﴾ بالجر صفة لربى . وقرأ حمزة والكسائى ﴿ علام الغيب﴾ على المبالغة والنعت .

٤٦٨ ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

٥١ ـ سبإ (٣٤)

﴿ فلا فَوْت ﴾ : فلا نجاةَ ولا مهربَ لهم يومئذ من عذاب الله . فاتَ الأمرُ فلانًا فَوْتًا وفَواتًا : لم يدركه .

﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ أى لو ترى إذا اعتراهم فزع وهلعٌ فى الآخرة عند البعث ومعاينة العذاب لرأيت أمرا هائلا .

﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أى من موقف الحساب إلى النار ؛ وقيل : من حيث كانوا ؛ فهم من الله قريب لا يعزِبون عنه ولا يفوتونه .

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ من مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ٥٢ ، ٥٣ ـ سبإ (٣٤)

قَذَفَ فلانٌ بقوله : تكلم من غير تدبُّر ولا تأمُّل . وقذف بالغيب ورجَم بالغيب : تكلم بما لا يعلم .

﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ : كانوا يرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم ، فينسبون إلى الله تعالى الشريك ويقولون : لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء من جنة أو نار . وكانوا يقولون عن القرآن إنه سحر وشعر وأساطير الأولين . وكانوا يقولون عن الرسول إنه شاعر وساحر وكاهن .

﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ : كانوا يتكلمون بما لا يعلمون وهم أبعد ما يكونون عن معرفة من تكلموا فى شأنه ، وهم أبعد ما يكونون عن الحق والصدق .

﴿ التناوش ﴾ من الفعل تناوش القوم فى القتال : تناول بعضهم بعضا بالرماح ولم يتدانَوْا كل التدانى [1] وقيل : التناوش : الرجعة أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك . ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تؤوب إلى مىٌّ . . . وليس إلى تناوشها سبيل

﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ هم الآن (أى فى الآخرة) يعلنون إيمانهم ولكن من أين يتحقق لهم ذلك وهم بعيدون عنه كل البعد ؟ كان الإيمان زمانُه ومكانُه الحياةَ الدنيا ، وقد مضت وأصبحت بعيدة تماما إلى حد الاستحالة لكنهم ضيعوا الفرصة ، فلا يقدرون على الظفَر بالإيمان أو التوبة فى الآخرة ، دار الجزاء ، البعيدة الآن عن الدنيا ، دار العمل .

وكانوا من قبل الآخرة قد كفروا فى الدنيا وتكلموا بما لا علم لهم به ، وهم بعيدون كل البعد عن الحق والصدق .

---

(١) نَاشَ فلانًا بالشىء : ناوله أو أصابه به . يقال : ناشه بالرمح وناشه بخير .

٤٧٠ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ١٩ ، ٢٠ ـ فاطر (٣٥)

التعبير يمثل الكافرَ فى عدم اهتدائه بالأعمى ، ويمثل المؤمنَ فى اهتدائه بالمبصر ويمثل الكفر بالظلمات والإيمانَ بالنور .

استوى الشيئان : تساويا . والحَرور : حر الشمس(١) . فلا يمكن لهذه الأضداد أن تتساوى .

كما مثل العلماء بالله بالأحياء ، والجاهلين به بالأموات .

زاد « لا » فى هذه المواضع لتأكيد نفى التساوى بين هذه الأضداد .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به بين الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ١٢٢ ـ الأنعام ، وقوله تعالى : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا » ٢٤ ـ هود . فالمؤمن بصير سميع فى نور ، يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون . والكافر أعمى وأصم ، فى ظلمات يمشى ، لاخروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم .

ما فائدة اقتران لا النافية بواو العطف فى قوله : « ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور » ؟ الفائدة هى تأكيد معنى النفى .

والإيمان نور فى القلب وفى الجوارح ، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد . فالمؤمن ينظر بهذا النور ، فيرى تلك الحقائق ويتعامل معها ولا يخبط فى طريقه .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والحيرة والقلق .

والإيمان حياة فى القلوب والمشاعر وفى القصد والاتجاه . كما أنه حركة بانية مثمرة لا خمود فيها ولا عبث .

أما الكفر فعمىً ، عمى فى القلب ، وعمى عن رؤية دلائل الحق وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث . وهو ظلمة تعز فيها الرؤية الصحيحة للأشياء .

والكفر هاجرة حرور تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار . ثم هو موت وانقطاع عن الله ، عن مصدر الحياة الأصيل .

---

(١) قال النحاس : الحرور فعول من الحر ، وفيه معنى التكثير ، أى الحر المؤذى .

٤٧١ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ٢٨ ـ فاطر (٣٥)

خَشِيَ فلاناً ومنه خَشْياً وخَشْيَةً وخشَاةً ؛ خافه بتعظيم ومهابة .

ومدارُ الخشية معرفة الْمَخْشىِّ والعلمُ بصفاته وأفعاله ، وعلى هذا فإن العلماء هم أكثر الناس خشية لله . ومن ازداد بالله علما ازداد منه خوفا . وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : ﴿ أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية ﴾ . وروى مالك والشافعى أن النبى ﷺ قال : ﴿أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به ﴾ .

وهذه الآية مكملة لقوله تعالى فى الآية ١٨ من هذه السورة : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ هؤلاء هم العلماء . أما الجاهلون بالله تعالى فلا يخشونه ولا يخافون عقابه .

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ ٤٢ ، ٤٣ - فاطر (٣٥)

معنى التعبير : لا يلحق شرُّ المكر السَّئ إلاَّ بأهله الماكرين من الحَيْق وهو الإحاطة . حاق به الشيء يَحيق حَيْقًا وحُيُوقًا : أصابه وأحاط به .

مكَرَ يمكُرُ فهو ماكر : دبَّر الشَّر لغيره فى خفية ، واحتال لإيقاع الأذى به .

وأكثر ما ورد المكر فى القرآن إنما هو مكرَ الكفار بالرسل . وهو القدح فى دعوتهم ، وتدبير المعوقات حتى لا يُستجاب لهم ، وإيراد الشُّبَه حول دلائلهم ، وكذلك محاولة الفتك بهم .

ومن المكر صرفُ الشيء عن وجهه المستَقيم ، يقال : مكر فى الحق وفى آيات الله ودلائله ، فذلك صرفها عن وجهها والتكذيب بها ، وكأن ذلك إيذاء للحق وإساءة إليه[1] .

كان العرب يرون اليهودَ أهل كتاب يجاورونهم فى الجزيرة ؛ وكانوا يرون من أمر انحرافهم وسوء سلوكهم الكثير ، وكانوا يسمعون من تاريخهم وقتلهم أنبياءهم وإعراضهم عن الحق ؛ فكانوا (أى العرب) ينحون على اليهود باللائمة ، وكانوا يقسمون بالله مشددين فى القسم : ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ يعنون اليهود ، يعرضون بهم بهذا التعبير ولا يصرحون .

يعرض السياق حالهم وأيمانهم كأنما ليشهد المستمعين على ما كان من هؤلاء العرب فى الجاهلية ، ثم يعرض ما كان منهم بعد ذلك عندما حقق الله أمنيتهم وأرسل إليهم رسولا ونذيرا منهم : ﴿ فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكبارا فى الأرض ومكر السيء ﴾ فالقرآن يكشفهم ويسجل عليهم مسلكهم ، ثم يهددهم ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ .

﴿ استكبارا ﴾ حال بمعنى مستكبرين ﴿ ومكر السيء ﴾ الواو عاطفة ومكر معطوف على استكبارا . قرأ ابن مسعود ﴿ ومكرا سيئا ﴾ . قال الزمخشرى : أصل ﴿ ومكرَ السيء ﴾هو : وأن مكروا السيء أى مكروا المكر السيء .

أخرج ابن المبارك فى الزهد عن النبى ﷺ قال « لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله تعالى يقول: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، يقول الله تعالى : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ : وفى الحديث « المكر والخديعة فى النار » يعنى فى الآخرة تدخل أصحابها فى النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى سياق هذا الحديث : « وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة» .

وعن ابن عباس أن كعبا قال له : إنى أجد فى التوراة : « من حفر لأخيه حفرة وقع فيها » فقال ابن عباس فإنى أوجدك فى القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال ابن عباس لكعب : فاقرأ ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ . وفى أمثال العرب : «من حفر لأخيه جبًا وقع فيه مُنكبًا» .

---

(١) وقد يُسند المكرُ إلى الله سبحانه فيُراد به إيقاع السوء بالعبد من حيث لا يشعر . ومن ذلك أن يمهله ولا يعاجله بالعقاب ، وأن يمكنه من أعراض الدنيا فيتمادى فى طغيانه .

٤٧٣ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ ٨ - يس (٣٦)

قَمَحَ الرجلُ سَويق القمح [١] أو نحوه يَقمَحُه قَمْحًا : سفَّه وهو رافع رأسه .
وأقمحَ الرجلُ : رفع رأسَه وغَضَّ بصرَه من الذُّل .
وأقْمَحَ الغُلُّ الأسيرَ : ضاق على عنقه ، فجعل يرفع رأسه متضررا ، فهو مُقْمَح ، وهم مقمحون .
فالمُقْمَح : الأسير يرفع رأسه متضررا من ضيق الغُل على عنقه .

ومعنى التعبير : أنهم يرفعون رؤوسهم متضررين من ضيق الأغلال حول أعناقهم ، ويبلغ من ضيق الأغلال حول أعناقهم أنها تصل فى سمكها إلى أذقانهم حتى تلتصق بها أى بالأذقان فلا يستطيعون خفض رؤوسهم إلى أسفل ، بل تظل مرفوعة إلى أعلى ، لا يطأطئون رؤوسهم ليروا الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يلتفتون إليه . وهذا تمثيل يراد به وصف من كفروا بدعوة الرسول بالعناد والتَّأبى ، والتضرر من الاستماع إلى الحق . مَثَّل التعبيرُ تصميمَهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين .

فنفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله ، حسبما تقرر الآية السابقة : ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ يرسم التعبير مشهدا محسوسا لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قَسْرًا عن النظر ، فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى ، فلا يملكون حرية النظر والرؤية وهم فى هذا المشهد العنيف . لقد قضى فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم وطبيعة مشاعرهم ، فهم لا يؤمنون .

ومع عنف هذا المشهد الحسى وشدته فإن الإنسان ليلتقى بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هناك حائلاً عنيفا كهذا بينهم وبينه ؛ وأنه إذا لم تكن الرؤوس مُقحمة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم هى الملفوتة عن الحق لفتا ومشدودة بعيدا عن الهدى ، وبينها وبين دلائل الهدى سَدٌّ من هنا وسد من هناك .

وقيل : إن المراد تصوير أحوال هؤلاء الذين لا يؤمنون يوم القيامة ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أرجلهم . والأول أكثر مناسبة للمقام [٢] .

﴿الأذقان﴾ : جمع ذقن ، وهو مجتمع اللَّحْيين [٣] وهما العظمان اللذان تنبت عليهما اللحية .

(انظر التعبير : وجعلنا من بين أيديهم سَدًا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون)

---

(١) السَّويق : طعام يُتَّخذ من مدقوق الحنطة والشعير .
(٢) راجع : « معجم ألفاظ القرآن الكريم » ، مجمع اللغة العربية .
(٣) مثنى : اللَّحْى ، والجمع : لُحِىّ ولِحاءَ .

٤٧٤ ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ٩ - يس (٣٦)

سَدَّ البابَ يَسُدُّه سَدًّا : أغْلَقَه . والسد : الحاجز .

ومعنى التعبير : جعل الله بينهم وبين الهدى حواجز وموانع من كل الجهات . « من بين أيديهم » أى من أمامهم .

﴿ فأغشيناهم ﴾ : فألبسنا أبصارهم غشاوة (أى غطاء) ، قاله مجاهد . وقيل : أعشيناهم أى أعشينا أبصارهم ، أى غطيناها وَجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئى . وقرئ بالعين من العشا [1] .

المشهد حسّىٌ لحالة نفسية : إنهم مُحَال بينهم وبين الحق والهدى بسَد من أمامهم وسد من خلفهم ، ولَو أنه ليست هناك سدود فعلية ، وإنما سدت عليهمَ سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال ، فلا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله .

قيل : نزلت فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلى ليرضخن رأسه بحجر ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، فقال مخزومى آخر : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب فأعمى اللهُ عينيه ، أخرجه ابن اسحق فى السيرة .

وجاءت الآية التالية (رقم ١٠) تؤيد ما جاء فى هذه الآية وفى الآية التى قبلها : ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . » فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التى لا ينفذ إليها الإيمان ، ولا ينفع الإنذار قلبا غير مهيأ للإيمان ، محال بينه وبينه بالسدود .

انظر التعبير : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

---

(١) عَشِيَ يعشَى عَشًا وعَشَاوةً : ضعُف بصرُه ليلا فهو أعْشَى وهى عَشْواء .

٤٧٥ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ٦٥ - يس (٣٦)

خَتَم الكتابَ وختم على الكتاب : طبع عليه الخاتَم استيثاقا وصونا له . ويُستعار من ذلك الخَتْمُ على الفم بأن يسده فلا ينطق .

قال الراغب الأصفهانى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ أى نمنعهم من الكلام . قال المفسرون : إنهم ينكرون الشرك وتكذيب الرسل كما فى قولهم : ﴿ والله ربنا ماكنا مشركين﴾ ٢٣ ـ الأنعام ، فيختم الله على أفواههم ختما لا يقدرون معه على الكلام . قبل سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف . وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ فى الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز .

﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ أى تكلمنا أيديهم بما كانوا يفعلونه ، جعل ما تنطق به الأيدى كلاما وإقرارا لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى . وجعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كل معصية ـ وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر شهادة . وهكذا ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعوانا لهم فى المعاصى صارت شهودا عليهم .

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم والنسائى عن أنس : « يقول العبد يوم القيامة : إنى لا أجيز علىَّ شاهدا إلا من نفسى ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى فتنطق بأعماله ، ثم يُخَلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعدًا لكنَّ وسُحقًا فعنكُنَّ كنت أناضل » أى أجادل .

قرأ طلحة بن مصرف : ﴿ ولتكلمنا ولتشهدَ ﴾ بلام كى أى اللام التى تعمل عمل كى .

وقرئ : ﴿ ولتكلمنا أيديهم ولْتشهدْ أرجلهم ﴾ بلام الأمر وجزم الفعل ، على أساس أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة ـ إنه مشهد عجيب تذهل من تصوره القلوب .

٦٦ - **يس** (٣٦)

يقال : قَفْرٌ [١] طامس أى بعيد لا مسلك فيه ، وفلاة طامسة : بعيدة لا تتبين من بُعد .

والطامس : البعيد ، وطمَس : بَعُد .

وإذا غُطى الشىءُ حتى لا يرى ، أو درس وانمحى أثره ، أو مسخ وذهب عن صورته ، قيل : إنه طَمِس طُموسا . ويمكِن أن يتعدى ويأخذ مفعولا به فيقال : طمسته طَمْسًا .

والمطموس : الأعمى الذى لا يبين حرف جفنه . وفى القرآن : طمس العين ، والطمس عليها ، بمعنى ذهاب بصرها .

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ أى أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن . قال الكسائى : المطموس . والطميس عند أهل اللغة هو الذى ليس فى عينيه شق [٢] . ومفعول المشيئة محذوف : أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا . قال السدى والحسن : المعنى لتركنا هم عُميا يترددون لا يبصرون طريق الهدى .

﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على ﴿ لطمسنا ﴾ : أى تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ويمضوا فيه ﴿ فأنى يبصرون ﴾ أى كيف يبصرون الطريق ويحسنون سلوكه ولا أبصار لهم .

---

(١) القفر : الخلاء من الأرض لا ماءَ فيه ولا ناسَ ولا كلأ .

(٢) كما فى قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ ٢٠ ـ البقرة .

٤٧٧ ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾(١)

٤٨ ، ٤٩ ـ الصافات (٣٧)

قَصَرَ الطرْفَ يقصُره : غَضَّه أو حَبَسه عن النظر ، فهو قاصر الطرف ، وهى قاصرة الطرف ، وهن قاصرات الطرف ؛ من إضافة اسم الفاعل لمفعوله .

والطرف : العين .

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أى نساء قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، ولا يمددن طرْفا إلى غيرهم حياءً وعفةً فهن حييات عفيفات .

﴿ عينٌ ﴾ : جمع عَيْناء ، وهى الواسعة العين . وقال مجاهد : العِين هُن حِسان العيون . وقال الحَسن : هن الشديدات بياض العين الشديدات سوادها .

﴿ كأنهن بَيْض مكنون ﴾ : البَيْض معروف . مكنون من الفعل كَنَّ الشىءَ يكُنُّه كَنًّا : صانَه ، فهو مكنون أى مصون . شبههن بالبيض بياضا وملاسة وصفاء لون ، قاله أبوبكر السجستانى . وقال الحسن وأبو زيد : شبههن ببيض النعام ، فالنعامة تكُنُّ بيضها أى تصونه بالريش من الريح والغبار ، فلونه أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . قال المبرد : وتقول العرب إذا وصفت الشىء بالحسن والنظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش ، لا تبتذ له الأيدى ولا العيون .

وقيل : المكنون : المصون عن الكسر أى أنهن عذارى .

وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ ، كما فى قوله : ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ ٢٢ ، ٢٣ ـ الواقعة .

---

(١) ورد التعبير « قاصرات الطرف » أيضا فى ٥٢ ـ ص ، وفى ٥٦ ـ الرحمن .

ورد هذا التعبير فى القرآن الكريم أربع مرات ، كلها فى هذه السورة . وفيما يلى نوردها واحدا واحدا ، وكل واحد مشفوعٌ بالآية التى تليه :

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ﴾ ٧٨ ، ٧٩ .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم ﴾ ١٠٨ ، ١٠٩ .

﴿ وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون ﴾ ١١٩ ، ١٢٠ .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إل ياسين ﴾ ١٢٩ ، ١٣٠ .

والذى يلفت النظر فى هذا التعبير أنه آية قائمة بذاتها ولها رقمها ، مع أن الفعل فيه ـ وهو ﴿ تركنا ﴾ ـ فعل متعدٍّ يأخذ مفعولا به ، ولم يرد فى الآية مفعول به . وهذا هو ما استوجب البحث وأثار التساؤل .

ولذلك جاء شرح الفعل ﴿ ترك ﴾ فى معجم ألفاظ القرآن الكريم بالتعبير مشفوعا بالآية التالية له هكذا : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين ﴾ أى أبقينا له هذ السلام تحية وذكرى دائمة فى الآخرين ، ومثلها ما ورد فى المرات الثلاث الأخريات فى الآيات ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢٩ .

ولهذا قال الكسائى إن ابن مسعود قرأ : ﴿ سلاما على نوح ﴾ منصوبا بـ ﴿ تركنا ﴾ أى تركنا عليه سلاما . يعنى تركنا عليه هذه الكلمة ﴿وهى سلام على نوح فى العالمين﴾ باقية ، يسلمون عليه (أى الخلائق من الملائكة والناس وهو معنى العالمين) تسليما ويدعون له . قال القرطبى . تركنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة ، فإنه مُحَبَّبٌ إلى الجميع .

والآخرين هم الأجيال الآتية إلى آخر الزمان .

قال الزمخشرى : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ من الأمم (أى الأجيال الآتية بعده) هذه الكلمة وهى ﴿ سلام على نوح ﴾ يعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له[1] . . . فما معنى قوله ﴿فى العالمين ﴾ ؟ قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثَبَّت اللهُ التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين (الإنس والجن) يسلمون عليه عن آخرهم . عَلَّل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من إبقاء ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا : ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ الآية ٨٠ .

وقيل ﴿ فى الآخرين ﴾ أى فى الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبى إلا أُمر بالاقتداء به ؛ قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ من الآية ١٣ من سورة الشورى .

وفى الآيتين ١٠٨ ، ١٠٩ : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم ﴾ أى تركنا على إبراهيم ثناء جميلا فى الأمم بعده ، فما من أمة إلا تسلم وتصلى عليه وتحبه .

ومثله ما ورد فى الآيتين ١١٩ ، ١٢٠ . وفى الآيتين ١٢٩ ، ١٣٠ .

---

(١) هو من الكلام المحكى كقولك : قرأت : « سورة أنزلناها » .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

١٠٢ ـ الصافات (٣٧)

سَعَى فلانٌ يَسْعَى سَعْيًا : تصرف فى أى عمل كان .

وبَلَغَ الشيءَ يبلُغُه بُلوغًا : وَصَل إليه .

﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ : فلما بلغ معه المبلغ (أى بلغ السن) الذى يعمل مع أبيه فى أمور دنياه معينا له على أعماله أى بدأ صباه يتفتح ويرافق أباه فى أمور الحياة .

كانت سنه سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة . هذا قول القرطبى ، وقال مثله الزمخشرى حين قال : فلما بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه .

« معه » بيان ، كأنه لما قال : فلما بلغ معه السعى أى الحد الذى يقدر فيه على السعى ، قيل : مع من ؟ فقال : مع أبيه [1] .

جاء فى تفسير القرطبى : كانت الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظا ورقودا ، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهذا ثابت فى الخبر المرفوع . قال ﷺ : ﴿ إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا ﴾ أُتى إبراهيمُ فى المنام فقيل له : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، فلهذا قال : « إنى رأى فى المنام أنى أذبحك » فذكر تأويل الرؤيا . قيل : رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روّى فى ذلك أى نظر وتعقب فى ذلك الأمر من الصباح إلى الرواح ولم يَعجَل فيه بقرار : أمِنَ الله هذا الحلم أو منَ الشيطان ؟ ولذلك سُمى يوم التَّروِيَة .

فلما أَمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، فمن ثم سُمىَّ يوم عَرَفَة .

ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فَهَمَّ بنحره فسمى اليومُ يومُ النَّحر .

« فانظر ماذا تَرى » من الرأى ، على وجه المشاورة . وقرئ « ماذا تُرى أى ماذا تُبصر من رأيك وتُبديه ؟ وقرئ على البناء للمفعول : ماذا تُرَى ، أى ماذا تريك نفسك من الرأى ؟

« قال يا أبت افعل ما تؤمر » أى ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف فى البيت المنسوب إلى عمرو بن معد يكرب (أو عباس بن مرداس) :

أمرتُك الخيرَ فافعل ما أمرتَ به . . . فقد تركتك ذا مال وذا نسب

---

(١) قال الزمخشرى إنه لا يصح أن تتعلق « معه » ببلغ لأن هذا يقتضى بلوغهما معا حَدَّ السعى وسِنه ؛ ولاتتعلق « معه » بالسعى لأن صلة المصدر (أى معه) لا تتقدم عليه .

أى أمرتك بالخير . وقرئ : ما تؤمر به .

لماذا شاور إبراهيمُ اسماعيلَ فى أمر هو حتمٌ من الله ؟ قال الزمخشرى لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ما عند أبيه فيما نزل به من بلاء الله ، فيُثبت قدمه ويُصَبِّره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلّم ، وليُعْلمَه الأمر فيوطن نفسه عليه (١) ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله .

لماذا كان ذلك بالمنام دون اليقظة ؟ قال الزمخشرى : كما أُرِىَ يوسفُ عليه السلام سجودَ أبويه وإخوته له فى المنام ، وكما وُعِد رسولُ الله ﷺ دخولَ المَسجد الحرام فى المنام . وذلك لتقوية الدلالة على أن الأنبياء صادقون مصدوقون ؛ لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك أقوى على الدلالة من حالة واحدة .

ها هو ذا إبراهيم عليه السلام يهاجر إلى ربه : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » بعد أن نجاه الله من النار التى ألقوه فيها .

يترك إبراهيم وراءه كل شىء من ماضى حياته : الأهل والبيت والوطن وكل ما كان مألوفا له ، والأرض التى نشأ فيها وكل ما يشده إليها ، ويدع وراءه كل شاغل وكل عائق . يهاجر هجرة كاملة من حال إلى حال ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لايزحمها فى النفس شىء - الهجرة إلى الله .

لم يكن له عقب ، فاتجه إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح : ﴿رب هب لى من الصالحين﴾ . فاستجاب الله دعاءه : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ هو اسماعيل عليه السلام - كما يرجح سياق السيرة والسورة . وقد رأينا آثار حلمه عندما قال لأبيه وهو يستشيره فى رؤيا ذبحه : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الشيخ الهرم بهذا الغلام الذى رزقه الله به فى كبرته وشيخوخته !

وآن لنا أن نطلع على ذلك الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم - بل فى حياة البشر أجمعين . هاهو ذا إبراهيم الشيخ الفانى الطاعن يرزق فى شيخوخته بغلام ممتاز ، وما يكاد يأنس به وصباه يتفتح ويبلغ معه السعى ويرافقه فى الحياة ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه! رأى إبراهيم تلك الرؤيا ثلاث ليال متتابعات . فيدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . لا يُطلَب إلى إبراهيم أن يرسل ابنه إلى المعركة مثلا ، ولا يطلب إليه أن يكلف ابنه بأمر يعرضه للموت ، وإنما يُطلب إليه أن يتولى هو بيده ، يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه ! إنه البلاء العظيم .

لكن إبراهيم لا يخالجه إلا شعور الطاعة والتسليم ، والابن أيضا يأخذ الأمر طاعة

---

(١) ولأن المغافصة (أى الأخذ على غرة والمفاجأة) بالذبح مما يُستَسْمج .

وإسلاما وتسليما . ويمضى إبراهيم فيُكب ابنه على جبينه استعدادا لذبحه والابن مستسلم لا يمتنع . وهكذا وقع الامتحان وتم البلاء وظهرت النتائج ، ظهر صدق إبراهيم وإسماعيل فى طاعة ربهما . يا إبراهيم قد جُدْت بكل شىء وبأعز شىء ، ولم يبق إلا أن تقطع السكين اللحم ويسيل الدم ـ وهذا ينوب عنه أى ذبح من دم ولحم . ويفدى الله هذه النفس ، التى أسلمت وأدَّت ، يفديها بذبح عظيم ، هو كبش أملح أقرن وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه ليذبحه فداء وبدلا من إسماعيل : ﴿ وناديناه أن ياإبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ الآيات من ١٠٤ إلى ١٠٧ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ١٧١ ـ ١٧٣ **الصافات** (٣٧)

هذا التعبير يمتد ليشمل ثلاث آيات

قرأ ابن مسعود: ﴿ سبقت كلمتنا على عبادنا ﴾ على أساس أن كلمة « سبقت » تتضمن معنى حَقَّت.

« كلمتنا » هي قوله: ﴿ إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون ﴾. والمراد الوعد بعُلوِّهم على عدوهم في مقام الحجاج (أي المجادلة) وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة، كما في قولَه: ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ ٢١٢ ـ البقرة، وانهزامهم في بعض المشاهد وما جرى على بعضهم من القتل لا ينقض هذا الوعد لأن الغلبة كانت لهم في النهاية. وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلا يحتذى وعبرا يعتبر بها. وعن الحسن رحمه الله: ما غُلب نبي في حرب ولا قتل فيها.

هذا الوعد من الله واقع، والدليل على ذلك أن جذور العقيدة استقرت في الأرض، وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة ومتبعي دعوة الإيمان. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار، وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل تسيطر على قلوب وعقول البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها. وفي أيامنا هذه شاهدنا الشيوعية وقد أقبرت ودُفنت، وماتت أول ما ماتت في مهدها: في روسيا، وأعقب ذلك اندحارها في باقي الدول التي كانت تعتنقها. قامت دولة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ وشيعت إلى مثواها الأخير مصحوبة باللعنات مرجومة بالأحجار في عام ١٩٩٠.

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء.

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله، ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله، ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون. ومن الأمثلة على ذلك أن المسلمين قبيل غزوة بدر كانوا يريدون أن تكون لهم عير قريش، وأراد الله أن تفوتهم تلك العير الرابحة الهينة، وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة. وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام، إذ كان النصر

(١) وقريب منه قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ٧ ـ محمد؛ وقوله: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ٢١ ـ المجادلة وقوله: ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ٨ ـ المنافقون.

لرسوله وجنده ودعوته : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ ٧ - الأنفال ، أي : واذكروا وقت أن وعدكم الله أن تكون لكم إحدى الطائفتين : طائفة أبى سفيان مع التجارة (وهى العير [١]) وهى المقصود بالوصف فى قوله « غير ذات الشوكة » فلم تكن لها شوكة أى قوة لقلة الرجال فيها . الطائفة الثانية هى طائفة أبى جهل مع الرجال الذين خرجوا من مكة لحربكم (وهى النفير) . وأنتم تحبون ملاقاة العير فهى الأقل قوة وهى المحملة بالتجارة ، والله يحب أن تلاقوا النفير الأقوى وذلك للقضاء على آخر مشركى مكة وأعوانهم واستئصال صناديدهم [٢] ، والآية تتحدث عن غزوة بدر الكبرى حيث قُتل من الكفار سبعون وأسِر سبعون .

(١) العير : ما جُلب عليه الطعامُ من قوافل الإبل والبغال . والنَّفير : القوم ينفرون للقتال أى يهجرون وطنهم للقَتال . وفيَ المثل : فلان لا فى العير ولا فى النير ، يُضرب للرجل الصغير القدر المستهان به .

(٢) أبو جهلُ وحنظلة بن أبى سفيان ، وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، والوليد بن عتبة ، وأميةَ بن خلف وابنه على .

٤٨١ ﴿ وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ٣ - ص (٣٨)

﴿ لات ﴾ : حرف نفى يختص بالدخول على كلمة « حين » . وهى مكونة من « لا » النافية وحرف التاء الذى زيد عليها ، كما زيد على « رُبَّ » و « ثُمَّ » فيقال ثمت وربُت .

قال سيبويه : لاَتَ مثل ليس نافية ، والاسم فيها مُضْمَر .

فقوله تعالى : ﴿ ولات حين مناص ﴾ أى ليست أحيانُنا حينَ مناص .

فهى يظهر معها الاسم أو الخبر ولكن لا يظهر الاثنان معها .

المناص : الهروب والفرار ، من الفعل ناصَ ينوص نُوْصًا ومناصًا أى فَرَّ وراغ . ويقال أيضا : ناص من المكروه أى نَجَا منه ، فالمناص : النجاة والسلامة .

﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ أى ليس الحينُ حينَ فرار من الهلاك ، أو ليس حينَ نجاة وسلامة منه .

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ أى من أمة مكذبة و « كم » لفظة التكثير . ﴿فنادوا ﴾ أى بالاستغاثة والتوبة وجأروا إلى الله تعالى .

وليس ذلك بمجد عنهم شيئا . قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس الحينُ حينَ التوبة ولاحينَ ينفع العمل . لجأوا إلى الاستعطاف ولكن بعد فوات الأوان .

لعل الكافرين المستكبرين المارقين عن الدين يتعظون بما حدث للأمم المكذبة من قبلهم، فيطامنوا من كبريائهم ويرجعوا عما هم فيه من ضلال قبل أن تضيع الفرصة ، وقبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص .

---

(١) ورد التعبير مرة واحدة فى القرآن الكريم .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ ٢٠ - ص (٣٨)

الخطاب هو الكلام ، والفصل : التمييز بين الشيئين . وقيل للكلام البيِّن : فَصْلٌ ؛ لأنهم قالوا : كلام مُلتبَس وفى كلامه لَبْس أى خَلْط ؛ والمتلبس : المختلط ، فقيل فى نقيضه : فَصْلٌ أى مفصول بعضه من بعض .

« فصل الخطاب » هو البيِّن من الكلام الذى يتبينه من يُخاطَب به ولا يلتبس عليه[1] . أو هو الكلام الذى يفصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل ، والصواب والخطأ . وقيل هو الفصاحة والبيان الشافى فى كل قصد .

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمى وقتادة وابن مسعود والحسن والكلبى ومقاتل : فصل الخطاب هو الفصل فى القضاء [2] . فالله أعطى داود عليه السلام الكلام والفصل فى القضايا والخصومات وتدابير الملك . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن الله أعطاه الفصل والحكم فى القضايا بالبينة أو اليمين ، فالبينة على من ادَّعى واليمين على من أنكر . قال ابن كثير فى تفسيره : وهذا هو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة .

ولخص مجاهد القولين بقوله : فصل الخطاب هو الفصل فى الكلام وفى الحُكم .

« وشددنا ملكه » أى قويناه حتى ثبت ، وذلك بالهيبة وإلقاء الرعب منه فى القلوب وبكثرة الجنود .

« وآتيناه الحكمة » : النبوة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأمور .

---

(١) قال صاحب الظلال : فصل الخطاب : قَطْعه والْجَزْمُ فيه برأى لا تردد فيه .

(٢) قال الآلوسى : والذى يترجح عندى أن المراد بفصل الخطاب هو علم القضاء والفصل فى الخصومات ، وهو يتوقف على مزيد علم ، ودقة فهم وتفهيم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وايتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذى هو أساس الملك .

٤٨٣ ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ٤٥ ، ٤٦ ـ ص (٣٨)

﴿ أخلصناهم ﴾ : جعلناهم مختارين خالصين من الدنس أى اخترناهم واصطفيناهم .

﴿ بخالصة ﴾ أى بسبب خالصة فيهم ، وخالصة : خَصْلَة خاصة فيهم هى ذكرى الدار .

﴿ ذكرى الدار ﴾ : ذكراهم الدار الآخرة دائما ونسيانهم ذكر الدنيا أو تذكيرهم بالآخرة وترغيبهم فيها ، وتزهيدهم فى الدنيا كما هو شأن الأنبياء وديدنهم .

﴿ أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ أى اخترناهم واصطفيناهم بسبب خَلَة خاصة فيهم هى تذكيرهم بالدار الآخرة . وقال مالك بن دينار وعطاء : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرَها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها . وقال مجاهد : جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم غيرها . وقال قتادة : كانوا يذكرون الناس بالدار الآخرة والعمل لها .

قراءة العامة « بخالصة » مُنَوَّنَة على أساس أن « ذكرى الدار » بدل منها ؛ والتقدير : إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها ، ويرغبوا فيها ويرغبوا الناسَ فيها .

وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر عن ابن عامر : « بخالصةِ ذكرى الدار » بإضافة خالصة إلى ذكرى .

٤٨٤ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ٢٣ ـ الزمر (٣٩)

« أحسن الحديث » : أبلغه وأصدقه وأوفاه ، وهو القرآن .

« كتابا متشابها » : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته ، ونظمه وإعجازه ؛ وفى صحة معانيه وأحكامه ، وصدقه وحكمته ؛ وهدايته واستتباعه مصالح الخلق فى المعاش والمعاد.
«مثانىَ » : تُثنى وتُكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام ، والوعد والوعيد . وتثنى تلاوته ، فلا يُمَل على كثرة الترداد جمع ثِنْى ومثناة ومثنى ، من التثنية بمعنى التكرير والإعادة . وُصف القرآن كله هنا بالمثانى ، وسميَت الفاتحة بالمثانى فى سورة الحجر : « ولقد آتيناك سبعا منَ المثانى والقرآن العظيم » الآية ٨٧ .

﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ : تعلوها قشعريرةٌ ورعْدة من الخوف مما فيه من الوعيد ، من الاقشعرار وهو التقبض الشديد . ومنه أيضا قَفَّ الشعرُ أى قام من الفزع والخوف الشديد من أمر هائل دَهَمه بغتة ـ وهو كناية عن شدة خوفهم من الله تعالى .

﴿ تلين جلودهم ﴾ : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة . سُمِّىَ القرآن حديثا لأن رسول الله ﷺ كان يحدث به أصحابه وقومه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ وقوله : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ ، وقوله : ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ ، وقوله : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ .

وعن فائدة تثنيته وتكرار تلاوته قال الزمخشرى : النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يُكرر عليها عودًا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله . ومن ثم كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ، وفى البخارى أنه كان ﴿ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ﴾ ، وذلك ليركزه (أى القرآن) فى قلوبهم ويغرسه فى صدورهم .

وعن قوله تعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ ورد فى تفسير القرطبى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ ما اقشعر جلد عبد مؤمن من خشية الله إلا حرمه الله على النار ﴾ . وعن العباس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تَحاتَّت عنه خطاياه كما يتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقها » . وقال زيد بن أسلم : قرأ أُبَىٌّ بن كعب عند النبى ﷺ ومعه أصحابه فرَقُّوا فقال النبى : «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة».

وروى ثابت البُنانى عن أحدهم قوله : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا قشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

وقيل : إن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته ، اقشعرت الجلود منه إعظاما له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ فالتصدع قريب من الاقشعرار ، والخشوع قريب من قوله : ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه .

عَدَّى الفعل « تلين » بإلى : ﴿ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ فضمن الفعل تلين معنى فعل متعد بإلى مثل تسكن أو تطمئن إلى ذكر الله لينة غير متقبضة ، راجية فضله ورحمته .

« كتابًا » : نُصب على البدل من « أحسنَ الحديث » . وإيقاع اسم الله مبتدأ فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده ، وتنبيه على أنه وحى مُعجزِ مُباين لسائر الأحاديث .

٣٦ ـ الزمر (٣٩)

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ : أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفى « ليس » فأفادت إثبات الكفاية . وتسمى أيضا همزة الاستفهام ودخولها على النفى يقتضى التقرير والإثبات .

﴿ بكاف عبده ﴾ أى بحافظ له من كل شر . يقال : كفانى العدوَّ أى حمانى منه ومن كيده وشره . والفعل كفاه الشىء يكفيه كفاية : سَدَّ حاجته وجعله فى غنى عن غيره [١] .

العبد : اسم جنس تعنى العبيد على الإطلاق لأن الله كافيهم فى الشدائد وكافل مصالحهم .

فالله يكفى من عَبَده وتوكل عليه . فمن ذايخيفه ؟ وماذا يخيفه إذا كان الله معه وإذا كان هو (أى العبد) قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذه العبودية ؟ منيعُ الجناب لايُضام ولا يُذل من استند إلى جناب ربه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز صاحب القوة والغلبة : ﴿ أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ .

« ويخوفونك بالذين من دونه » أى بمن هم أقل منه ، الذين هم تحته ، فكلمة دون معناها تحت ـ وهل فى الكون كله إلا من هم دون الله ؟ فكيف يخاف ؟ إن القضية واضحة ، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن ، فطرفاها : الله ، ومن هم دون الله . وإرادة الله هى النافذة ومشيئة هى الغالبة ﴿ وهو القاهر فوق عبادة ﴾ ؛ وهو الذى يقضى فى العباده قضاءه : فى ذوات أنفسهم وفى حركات قلوبهم ومشاعرهم .

ومن المفسرين من قال إن « عبده » يعنى محمدا ﷺ وأن الله يكفيه وعيد المشركين وكيدهم . وورد فى سبب نزولها أن مشركى قريش كانوا يخوفون رسول الله ﷺ من آلهتهم ويحذرونه من غضبها .

ولكن مدلول التعبير أوسع وأشمل ، فهو يسكب الرضا والسكينة والثقة والطمأنينة وتجليات اليقين فى القلب المؤمن فى كل زمان ومكان .

---

(١) روى ابن أبى حاتم والترمذى والنسائى أن رسول الله ﷺ قال : « أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » .

٤٨٦ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

٥٣ ـ الزمر (٣٩)

﴿أسرفوا على أنفسهم﴾ : الإسراف تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان ؛ وإن كان ذلك فى الإنفاق أشهر ، ولتضمنه معنى الجناية عُدى بعلى ، فقال : أسرفوا على أنفسهم بأن أفرطوا فى المعاصى فجنوا على أنفسهم بارتكابها . والخطاب للمؤمنين المذنبين .

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ : قَنَط يقنَط قُنوطًا : يَئس ، والمعنى لا تيأسوا من رحمة الله ومغفرته .

﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ بأن يسترها أو يمحوها ولا يؤاخذ بها . غَفَر الشىءَ : ستره[1] ، وغفر اللهُ ذنبه غَفْرًا وغفرانًا ومغفرةً : ستره وعفا عنه .

والله يغفر لمن شاء من عصاة المؤمنين تابوا أو ماتوا من غير توبة . فإن تابوا قَبِل توبتهم كما وعد ـ فضلا منه . وإن لم يتوبوا فهم فى مشيئته تعالى : إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم .

وتوالى ذكر الإفراط فى المعاصى ﴿أسرفوا على أنفسهم﴾ ، والنهى عن اليأس ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ ، وتفضله سبحانه بمغفرة الذنوب جميعا ، وتأكيد مغفرته ورحمته ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ ـ كل هذه يجعل هذه الآية أرْجَى آية فى كتاب الله فى رأى بعض المفسرين .

أما غير المؤمنين : فإن تابوا من الكفر ، قَبِلَ اللهُ توبتَهم ـ والإسلام يجب ما قبله . وإن ماتوا مصرين على كفرهم ، فلن يغفر الله لهم : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ٤٨ ـ النساء .

ونورد ما جاء فى عدد من كتب التفسير المشهورة عن التوبة كشرط للمغفرة من الله سبحانه وتعالى عما اقترف العبد من ذنوب .

قال الزمخشرى : ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرر ذكر هذا الشرط فى القرآن[2] ؛ فكان ذكرُه (أى شرط التوبة) فيما ذُكر فيه ، ذكْرا له فيما لم يذكر فيه ، لأن القرآن فى حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض . وفى قِراءة ابنَ عباس وابن مسعود: ﴿يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء﴾ والمراد بمن يشاء : من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله .

---

(١) ويقال : غَفَر الشيبَ بالخضاب : غطاه .

(٢) من ذلك قوله تعالى : ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾ ١٧ ـ النساء . وقوله : ﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ ٥٤ ـ الأنعام . وقوله : ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالةثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ ١١٩ ـ النحل .

وجاء هذا المعنى أيضا فى « التفسير الوسيط » : وقال آخرون إنها (أى المغفرة) وردت فى غير موضع من القرآن الكريم مقيدة بالتوبة ، فإطلاقها هنا يحمل على التقييد بها ، لأن المُطلَق يُحمل على المُقيد ما لم ينسخ ، ولا نسخ فى عقاب المؤمن المذنب ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ فى الآية التالية ، فإنه عَطَف على ﴿ لا تقنطوا ﴾ كأنه قيل : لا تقنطوا من رحمة الله فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى وأخلصوا له .

وجاء فى تفسير القرطبى : وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له ، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ، ودل على أنه يريد التائب ما بعده ﴿وأنيبوا إلى ربكم ﴾ فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وإنى لغفار لمن تاب ﴾ وقال ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ؛ وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة . روى البخارى عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنَوا فأكثروا ، فقالوا للنبى ﷺ أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ .

إنها الرحمة الواسعة التى تسع كل معصية ، وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله . وهو يعلم ضعفهم ؛ ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجهم ؛ ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ، ويجلب عليهم بخيله ورجله ؛ ويعلم أن ما ركب فى كيان هذا المخلوق الإنسانى من وظائف ومن شهوات يمكن أن تنحرف به عن التوازن وتوقعه فى الشطط .

لهذا فإن الله يمد له يد العون ، ويهىء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط . فبعد أن يسرف فى المعصية يجد باب التوبة مفتوحا ، بلا حواجز ، فليس عليه بواب يمنع ولا وسطاء ولا شفعاء ـ إنما هى الإنابة والعودة إلى ظلال الطاعة وإلى رحمة الله الندية .

٤٨٧ ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ٧ - غافر (٤٠)

وَسِع الشيءَ يَسَعُه سَعَةً : استوعبه ولم يضق به ، ويجرى هذا فى الأمور الحسية والمعنوية . وتعالى الله عن المكان ، فكيف صحَّ أن يقال : وسع كل شيء ؟ والجواب أن الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء فى المعنى . والأصل : وسع كلَّ شيء رحمتُك وعلمُك ، ولكن أُزيل الكلامُ عن أصله بأن أسند الفعلُ إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق فى وصفه بالرَحمة والعلم (٢) (رحمة تمييز منصوب بالفتحة وكذا علماً المعطوف على رحمة) .

﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ : فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك . وسبيل الله : سبيل الحق التى نهجها (أى أبانها وأوضحها كما فى الصحاح)لعباده ودعا إليها .

﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى المَلك الذى لا يُغلب : وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شيئا إلا بداعى الحكمة .

﴿الذين يحملون العرش﴾ : قال القرطبى : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مُجَسّم خلقه الله عز وجل ، وأمر ملائكة بحمله ، وتَعَبَّدهم(٣) بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة . جاء فى « التفسير الوسيط» : وظاهر الآية أن الملائكة يحملون العرش حقيقة ، ونحن نقول : ما المانع من أن يكون المراد من حملهم إياه كونهم الرؤساء الذين يحملون مسئولية تبليغ أوامر الله لسائر ملائكته فى كونه . قال القرطبى : ويروى أنهم أشراف الملائكة وأفضلهم ، ففى الحديث : « إن الله تبارك تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلالهم على سائر الملائكة » .

والملائكة الذين حول العرش كثيرون لا يحصى عددهم سوى الله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ٣١ ـ المدثر .

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين ، وهم حملة العرش ومَن حولَ العرش بأنهم يسبحون بحمد ربهم أى يتقربون بين التسبيح الدال على نفى النقائص ، والتمجيد المقتضى لإثبات

---

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ ورحمتى وَسِعت كل شىء ﴾ ١٥٦ ـ الأعراف .

(٢) راجع « الكشاف » للزمخشرى .

(٣) تَعبَّد فلانا : اتخذه عبدا .

صفات المدح . ﴿ ويؤمنون به ﴾ أى خاشعون له أذلاء بين يديه ، ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون ، لكن الفائدة من ذكر هذا هو إظهار شرف الإيمان وفضله ، كما وُصف الأنبياء فى غير موضع من القرآن بالصلاح .

﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ : يستغفرون لمن فى مثل حالهم وصفتهم . وفيه تنبيه على أن الإشتراك فى الإيمان يجب أن يكون أدعى شىء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن . فإنه لا تجانس بين مَلك وإنسان ولا بين سماوى وأرضى قط ـ ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلى حتى استغفر مَن حولَ العرش لمن فوق الأرض من أهلها المؤمنين ، فقيض الله ـ تعالى ـ ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب . ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم يُؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الْمَلَك آمين ولك بمثله » .

قال شهر بن حوشب رضى الله عنه : حملة العرش ثمانية . أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك ؛ وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك . ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾ أى رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ .

وقد وردت لبعض المفسرين أقوال فى وصف العرش وحَمَلته ـ لكن لا جدوى من الجدل حول غيبيات لم يُطلع اللهُ أحدا من المتجادلين عليها . ولا يليق بَالمؤمن أن يبدد الجهد والوقت فى الجرى وراء صور وأشياء ليست فى طوق الإدراك البشرى ، وحسبنا ما قررته الآية من أن هناك عبادا مقربين من الله ﴿ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴾ وهم يحملون العرش ، لكنا لا نملك صورة للعرش ولا نعرف كيف يحمله حَمَلَتُه ، ولا كيف يكون مَن حولَه . هؤلاء العبادُ المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن .

وبين يدى الدعاء يقدمون أنهم ـ فى طلب الرحمة للناس ـ إنما يستمدون من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ويحيلون إلى علم الله الذى وسع كل شىء ، وإلى رحمته وعلمه يلجئون : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ، وتلتقى هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة وبصفة الله هناك : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ كما تلتقى الإشارة إلى عذاب الجحيم بصفة الله : ﴿ شديد العقاب ﴾ . ثم يرتقون فى الدعاء إلى طلب الجنة لهم فى الآية التالية : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

٤٨٨ ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ١٨ ـ غافر (٤٠)

معنى التعبير أن قلوبهم تكون مرتفعة عن مواضعها من صدورهم ، متشبثة بحلوقهم ، ممسكين عليهم لا تخرج مع أنفاسهم ، كما يمسك صاحب القربة فمها لئلا يُهراق الماء . وهو كناية عن شدة الفزع وفرط الغم . قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها . فلا هى تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا ، ولكنها معترضة كالشجا ، والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة .

« كاظمين » : انطوت نفوسهم على هم وغم . كظم يكظم فهو كاظم وهم كاظمون. انتصبت « كاظمين » على الحال من أصحاب القلوب لأن المعَنى : إذ قلوبهم لدى الحناجر كاظمين عليها أى كاتمين لها . ويجوز أن تكون حالا عن القلوب ، وجمعها جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ، كما فى قوله تعالى: ﴿إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمسَ والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ ٤ ـ يوسف .

﴿يوم الآزفة ﴾ يوم القيامة ، سميت بالآزفة لقربها من أزف الشىءُ يأزَف أزفًا إذا قرُب . فإن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منه قليلَ جدا ، وقد ظهرت أشراطها وعلاماتها، وكل آت قريب . كما قال تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ ٥٧ ـ النجم، وقوله ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ١ ـ القمر .

﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك قريب ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

٤٨٩ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ١٩ ـ غافر (٤٠)

الخائنة : اسم بمعنى الخيانة ، وهو من المصادر التى جاءت على لفظ الفاعلة ، كالعاقبة ، والعافية .

﴿ خائنة الأعين ﴾ هى النظرة الخائنة المختلسة ، كمُسَارقَة النظر إلى ما حرم الله تعالى ﴿وما تخفى الصدور ﴾ من المكنونات . فهو يعلم ، سبحانه ، هذا وذاك ويحاسب عليه .

يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء : جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ـ فيستحيوا من الله حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه . وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت وأظهرت الأمانة ، ويعلم خبايا الصدور وأسرارها .

٤٩٠ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ٥١ ـ غافر (٤٠)

معنى التعبير : شأننا دائما أن ننصر رسلنا وأتباعهم فى الدنيا بالحجة والظَّفَر . وننصرهم أيضا فى الآخرة ﴿ يوم يقوم الأشهاد ﴾ أشهاد ، وشهود ، وشُهَّد : جمع شاهد . وهم فى الآخرة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب . ويريد بالأشهاد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

قال الزمخشرى : وإن غُلبوا فى الدنيا فى بعض الأحايين امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين .

أورد أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله تعالى ، عند قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾ سؤالا فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم السلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعيب ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصرة فى الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاما ، والمراد به البعض ، وهذا سائغ فى اللغة .

الثانى : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيب ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم . وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فإن الله سلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم .

وقال السدى : لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ؛ أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون ، فيذهب ذلك القَرن (الذى قتلوا فيه) حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم .

ونصر الله نبيه محمدا ﷺ على من خالفه وناوأه وعاداه ، فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان . وأمره بالهجرة إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصارا وأعوانا . ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وقتل صناديدهم وأسر سراتهم .

ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده . وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب . وأقام الله تعالى أصحابه خلفاء بعده ، فبلغوا عنه دين الله ، وفتحوا البلاد حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها .

وهذه سنة الله تعالى أن ينصر عباده المؤمنين . وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » .

وفضلا عن هذا فإن الناس يقيسون الأمور بظواهرها ، ويغفلون عن قيم وحقائق كثيره . فعندما يشاهدون بعضا من المؤمنين يُسامون العذاب أو يعيشون فى كرب واضطهاد أو يُلْقَون فى الأخدود ويستشهدون ، يتساءل الناس : أين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا ؟ ولكن النصر هو انتصار العقيدة والإيمان ، وأصحاب العقيدة يهمهم انتصار عقيدتهم وارتفاع رايتها، وهم يقدمون أرواحهم فداء لها . واستشهادهم يحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ويحرك خطى التاريخ إلى الأمام .

٤٩١ ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٢٢ ـ **فصلت** (٤١)

استتر : تَخَفَّى .

معنى التعبير : تقول لهم جوارحهم يوم القيامة (حينما تشهد عليهم، وهم يلومونها: لم شهدتهم علينا ؟ كما فى الآية السابقة) تقول لهم : ما كنتم تتخفون منا وأنتم ترتكبون المعاصى، فما كنتم تخافون أن نشهد عليكم وما كنتم تعلمون أننا سنشهد علكم.

وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أى ماكنتم تتقون فى الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم فى الآخرة، فتتركوا المعاصى خوفا من هذه الشهادة.

وقال قتادة: « وماكنتم تستترون » أى تظنون «أن يشهد عليكم سمعكم» بأن يقول سمعت الحق وما وعيت وسمعت مالا يجوز من المعاصى، « ولا أبصاركم» فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لايجوز.

وقيل : ما كان يخطر يبالكم أن جوارحكم ستخرج عليكم وتشهد عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم .

كانوا يستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ظنا منهم أن الله لا يعلم الخفيات من أعمالهم ؛ وذلك الظن هو الذى أهلكهم وأرداهم (فى الآية التالية ﴾ . وفى هذا تنبيه على أن من حق المؤمن ألا يغيب عن باله ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عينا كالئة ورقيبا مهيمنا ، حتى يكون فى أوقات خلواته أهيب لربه وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وخوفا منه ـ سبحانه .

٤٩٢ ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ٣٤ـ فصلت (٤١)

﴿ تستوى ﴾ : تتساوى . الولى : النصير والصديق . الحميم : القريب الذى تَوَدُّه ويودُّك .

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه .

﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ أى من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه . كما قال عمر رضى الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وأورد الزمخشرى مثالا على ذلك فقال : رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه . وعن ابن عباس : ﴿ بالتى هى أحسن ﴾ أى الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة . وقال على بن أبى طالب : دع شاتمك ، والهَ عنه ترضى الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . قال الشاعر

وللْكفُّ عن شتْم اللئيم تكرُّمًا
أضرُّ له من شتْمـه حين يُشْتَمُ

وقال آخر :

وما شـىٌ أحَبُّ إلى سفيـه . . إذا سَبَّ الكريمَ من الجواب
مُتاركـةُ السفيه بلا جواب . . أشَدُّ على السفيه من السِّباب

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » أى إن فعلت ذلك صار عدوك المُشَاقُّ مثل الصديق المشفق ، بل قد تزول العداوة وتحل محلها الصداقة . قال الشاعر :

إن العداوة تستحيل مـودةً . . بتدارك الهفـوات بالحسنات

ومن الناس من لا تصلح معه الملاينة إذ يحسبها ضعفا ويتمادى فى سيئاته ، فمثل هذا تستعمل معه المخاشنة بعد فشل استعمال الملاينة ، وذلك فى حدود الضوابط الشرعية .

٤٩٣ ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ ٤٧ ـ فصلت (٤١)

الأَكْمَام : جمع كُمّ وهو وعاء الطلعّ (١) أو النَّوْر (٢) ؛ والفعل : كَمَّ الشىء يكُمُّهُ كَمًّا : غطاه وستره . فالكم هو وعاء الثَمرة .

﴿ علم الساعة ﴾ : وقتها وأمرها .

﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ : إذا سُئل عنها ، قيل : لا يعلمها إلا الله ، كما قال سيد البشر محمد، ﷺ لجبريل ، وهو من سادات الملائكة ، حين سأله عن الساعة فقال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . وكما قال عز وجل ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ وكما قال: ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .

﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أى الجميع بعلمه ، لا يعزب ولا يبعد عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وقد قال سبحانه: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ وقال : ﴿ يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾ .

ويذهب القلب يتتبع الثمرات فى أكمامها والأجنة فى أرحامها ، يذهب فى جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التى لا تحصى ، ويتصور الأجنة التى لا يحصر ها خيال ، وترتسم فى الضمير صورة لعلم الله ، لكنها صورة محدودة بقدر ما يطيق الضمير البشرى أن يتصور من الحقيقة التى ليس لها حدود .

---

(١) الطلع : غلاف يشبه الكوز ينفتح عن حب منضود فيه مادةُ الإخصاب .
(٢) النور : الزهر الأبيض ، واحدته نَوْرة .

٤٩٤ ﴿ لا يَسْأَمُ الإنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾

٤٩ ـ **فصلت** (٤١)

﴿ لا يسأم ﴾ : لا يَمَل ولا يفتر . سَئِمَ الشيءَ وسئِمَ منه يَسْأَمُ سَأْمًا وسَآمةً : مَلَّه وضجر منه وأحس نحوه فتورا .

﴿دعاء الخير﴾ : طلب السعة فى المال والنعمة والسلطان . وقرأ ابن مسعود : من دعاء بالخير .

« وإن مسه الشرُّ » أى أصابه الفقر والمرض .

يئوس : صيغة مبالغة من يائس ، والفعل يَئِسَ يَيْأَسُ يَأْسًا : انقطع أمله .

قَنوط وقانط : يائسٌ أشدَّ اليأس ، من الفعل قَنَط يَقْنُط قُنُوطًا .

والتعبير يكشف عن طبع أصيل فى النفس البشرية ، فالإنسان لا يَمَل ولا يفتر من طلب السَّعة فى النعمة وأسباب العيش ، « وإن مسه الشر » أى أصابه فهو يئوس قنوط من فضل الله ورحمته .

﴿ يئوس قنوط ﴾ : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول (وهى من صيغ المبالغة) ومن طريق التكرار .

٤٩٥ ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ ٥١ ـ **فصلت** (٤١)

﴿ دعاء عريض ﴾ أى كثير مستمر ، مستعار مما له عَرْض مُتَّسع للإشعار بكثرته ؛ والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة . يقال : أطال فلانٌ فى الكلام وأَعْرَضَ فى الدعاء إذا أكثر .

وقال ابن كثير فى شرح هذا التعبير : أى يطيل المسألة فى الشىء الواحد ، فالكلام العريض هو ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل . وقد قال تعالى : ﴿وإذا مس الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ﴾ ١٢ ـ يونس ومعنى «لجنبه » أى مضطجعا مُلْقى لجنبه أو مستقرا على جنبه .

وقال ابن عباس « فذو دعاء عريض » : فذو تضرع واستغاثة .

إنه رسم دقيق عجيب للنفس البشرية ، يصور تقلبها وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، واغترارها بالسراء ، وجزعها من الضراء .

٤٩٦ ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾٥٣ ـ **فصلت** (٤١)

آياتنا : دلائل وحدانيتنا وقدرتنا . آفاق . جمع أُفُق وهو الناحية ، ومثله : عُنُق وأعْناق .

المعنى : سنريهم الدلائل على وحدانيتنا وقدرتنا فى أقطار السموات والأرض ؛ من الشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق ، والنبات والأشجار ، والجبال والبحار وغيرها . « وفى أنفسهم » بما أودعنا فيهم من الحواس والقوى ، والعقل والروح ، وبما نجريه عليهم من النعم ، وبما نبتليهم به من المحن .

هذه الآية وعد من الله لعباده ـ بنى الإنسان ـ أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق « حتى يتبين لهم أنه الحق » والضمير فى «أنه » يعود على القرآن على أساس ما جاء فى الآية السابقة مباشرة على هذه الآية : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ . قال ابن كثير فى التفسير : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به ؟ أى كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عز وجل ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ أى فى كفر وعناد ومُشاقّة للحق ومسلك بعيد عن الهدى . ثم قال جل جلاله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ أى سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسوله بدلائل خارجية (فى الآفاق) من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان . ودلائل فى أنفسهم ، قالوا وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التى حلت بهم ونصر الله فيها محمدا ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه . ويحتمل أن يكون المراد من ذلك (أى أنفسهم) ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى .

وأرجع « التفسير الوسيط » الضميرَ فى الآيتين إلى القرآن أيضا ، إذ جاء فيه : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : إن كان من عند الله ثم جحدتم به مع تعاضد الأدلة والبراهين التى هى من موجبات الإيمان ـ إن كان هذا شأنه فأخبرونى : من أضل منكم ؟ . . . سنريهم فى الآفاق (أى مشارق الأرض ومغاربها) آياتنا الدالة على حقية القرآن وكونه من عند الله .

وجاء فى « تفسير الجلالين » أيضا أنه القرآن . « قل أرأيتم إن كان » أى القرآن « من عند الله » كما قال النبى . . . « سنريهم آياتنا فى الآفاق» أقطار السموات والأرض «وفى أنفسهم»

من لطيف الصنعة وبديع الحكمة « حتى يتبين لهم أنه » أى القرآن «الحق» المنزل من الله بالبعث والحساب والعقاب .

وجاء فى تفسير القرطبى : « حتى يتبين لهم أنه الحق » فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن ، والثانى الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه ، والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق ، والرابع أن محمدا ﷺ هو الرسول الحق .

وقال صاحب الظلال : حتى يتبين لهم أنه الحق ، أى هذا الدين ، وهذا الكتاب ، وهذا المنهج ، وهذا القول الذى يقوله لهم .. ووعد الله عباده أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم حتى يتبين لهم ويثبت أن هذا الكتاب ، أى القرآن، وهذا الدين ، أى الإسلام ، هو الحق .

ولقد صدقهم الله وعده ، فكشف لهم عن آياته فى الآفاق ، فى المشارق والمغارب . كشف لهم الكثير على امتداد ما يجد من سنوات فى عمر هذا الكون . وعرف بنو الإنسان أن أرضهم التى كانوا يظنونها مركز الكون إن هى إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة ، ويوجد فى الكون مئات الملايين منها ، فيتبين لنا أن ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾[1] إنما هو الحق ، فَمُلكُ الله واسع وأوسع من قدرة بنى الإنسان على التصور . وعرف الإنسان أن سرعة الضوء تبلغ ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية ـ وهذا من شأنه أن يقرب إلى قدراتنا العقلية البشرية المحدودة وإلى تصوراتنا المحدودة ، شيئا عن رحلة الإسراء والمعراج التى أرادها الله ـ سبحانه ـ لنبيه الكريم بعد فقده زوجه الكريمة ، خديجة ، وفقد عمه الحبيب ، أبو طالب : «﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [2] .

وفى مجال الجسم الإنسانى وتكوينه ووظائفه وأمراضه وغذائه وتمثيله وغيرها ، تترى الاكتشافات وتتوالى . ونذكر مثالا واحدا هو عملية البناء فى الجسم الإنسانى (Anabolism) حيث يتناول الإنسان ، وسائر الحيوانات ، غذاءه ـ وهذا الغذاء ميت ـ ثم يهضم ما يصلح منه . وهذا الصالح من الغذاء يُمتَص فى الأمعاء فيختلط بالدم الذى يوصله بدورانه إلى مشارف الخلايا فى الجسم كله ، وهو أى الغذاء المهضوم ، مايزال ميتا . والخلايا ما هى إلا معامل إلهية هيأها الله ، سبحانه ، لتختار من مكونات الغذاء الصالح الذى وصلها

---

(١) ١٣٣ ـ آل عمران ، وقريب منه قوله تعالى فى الآية ٢١ من سورة الحديد : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ .

(٢) ١ ـ الإسراء .

فى الدم ما تحتاجه ، فتحوله بداخلها إلى مادة الحياة فيها أى البروتوبلازم (Protoplasm) . وهكذا تنقلب المادة الميتة خارج الخلية إلى مادة حية داخل الخلية بحيث تصبح جزءا لا يتجزأ منها : ﴿ وتخرج الحى من الميت﴾ [1] ولا يمكن أن يقوم بهذه العملية سوى المعامل الإلهية (الخلايا) التى هيأها الله لذلك .

والحديث عن الاكتشافات العلمية فى أقطار الأرض ، وعن الاكتشافات الطبية فى جسم الإنسان ، وعن كون هذه وتلك بينات ودلائل على أن ما جاء به القرآن هو الحق وأنه (أى القرآن) منزل من عند الله ـ هذا الحديث إنما يمتد ليشمل مئات الصفحات ، ويلزمه جهد مشترك يبذله علماء العلوم الطبيعية والطبية وعلماء الدين المتفقهون فى علوم القرآن . وهو بحث هام وشيق لعل الله يقيض له من يقوم به .

ومعرفة نواميس هذا الكون وأسراره قد ترتقى بالبعض إلى معرفة خالق الكون والإيمان به . وقد بانت طلائع الإيمان وراحت تتوالى منذ مطلع هذا القرن ، وموكب النور يتجمع من فجاج شتى ، وعن طريق العلم وحده يفد الكثيرون إلى ملاذ التوحيد ، وهناك أفواج وأفواج آخذة فى التجمع من بعيد رغم موجة الإلحاد .

---

(١) ٢٧ ـ آل عمران . انظر التعبير رقم ٤٤٧ .

٤٩٧ ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ٢٧ ـ الشورى (٤٢)

بَسَطَ اللهُ الرزق لعباده : كَثَّره ووسَّعه .

﴿ لبغوا فى الأرض ﴾ : لَطغَوْا وعَتَوْا فيها بسبب الغنى . بَغَى يبغى بغْيًا : ظلم وتجاوز الحد . والغنى مَبْطَرَةٌ مَأْشَرة [١] . أو لا ستكبروا فى الأرض وفعلوا ما يفعله الكِبْر فى النفوس من العلو والفساد . « بقدر » بتقدير حكيم ، أو بقدر ما يشاء لكفايتهم ، وما يَشاؤه ـ سبحانه ـ هو الحكمة وهو صالحهم . والله خبير بصير بعباده ، يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدر لهم ما هو أصلح وأقرب إلى جمع شملهم ، فيقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية .

وهذا التعبير فيه إشارة إلى قلة ما فى هذه الحياة الدنيا من أرزاق إذا ما قورنت بما فى الآخرة من فيض غزير .

والله يعلم أن عباده من بنى الإنسان لا يطيقون الغنى إلا بقَدَر ، وأنه لو بسط لهم فى الرزق ، لبغوا وطغوا . إنهم ضعاف لا يملكون القدرة على التوازن إذا بُسط لهم الرزق ، إنهم ضعاف لا يحتملون إلاّ إلى حد ـ ومن ثم جعل رزقهم فى هذه الأرض مقدرا محدودا بقدر ما يطيقون .

وفى الحديث : « أَخْوَفُ ما أخاف على أمتى زهرةُ الدنيا وكثرتها » . قيل : نزلت هذه الآية فى قوم من أهل الصُّفة تمنوا سعة الرزق والغنى ، قال خباب بن الأرت : فينا نزلت ، وذلك أننا نظرنا إلى أموال بنى قُريظة وبنى النَّضير وبنى قَيْنُقاع فتمنيناها .

---

(١) بَطِرَ النعمة : استخفها فكفرها . ومَبْطَرة : مدعاة للبطر . ومَأْشَرَة ؛ مدعاة للأشَر وهو البطر والاستكبار ؛ وفعله أشِرَ يأشَرُ أشرا .

٤٩٨ ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه ﴾

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ٤٠ ـ الشورى (٤٢)

﴿ فمن عفا ﴾ عمن أساء إليه « وأصلح » ما بينه وبين من أساء إليه بالإغضاء عما صدر منه من إساءة « فأجره على الله » فإن الله يجزيه أعظم الجزاء .

وفى التعبير تحريض على العفو ، لأن ﴿ فأجره على الله ﴾ مُبْهَمةٌ لا يقاس أمرها فى العظم . وعن النبى ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على الله أجر فليقم . قال : فيقوم خلق ، فيُقال لهم : : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله » أخرجه العقيلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب . ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها [1] : معناه أنه يجب إذا قُوبلت الإساءةُ أن تُقابَل بمثلها من غير زيادة . شرع الله الانتصار من الظالم بأخذ الحق منه وشَرع القصاص لردع المعتدى ؛ ولكنه مع هذا ندب إلى الفضل وهو العفو والإحسان ليرتقى بالبشرية إَلى الذروة فى السماحة والمروءة .

والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة ، فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه فى إصلاح المعتدى والمسامح . فالمعتدى حين يشعر أن العفو جاء سماحة ولم يجئ ضعفا ، يخجل ويستحيى ، ويحس بأن خصمه الذى عفا هو الأعلى . والقوى الذى يعفو تصفو نفسه وتعلو .

قال ابن كثير : شرع ـ سبحانه ـ العدلَ وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جل وعلا : ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق بَه فهو كفَّارة له ﴾ ولهذا قال هاهنا ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾أى لا يضيع ذلك عند الله ، كما صح فى الحديث : « ومازاد الله تعالى عبداً بعفوٍ إلا عزاً » .

---

(١) هو كقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وقوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ .

٤٩٩ ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

٤١ ـ الشورى (٤٢)

كلمة سبيل لها معانى عديدة، ومعناها هنا : الحرج واللوم والمؤاخذة . ﴿ انتصر ﴾ : انتقم.

فلا حرج ولا لوم على من ينتقمون من ظالميهم ، فهم أتوا بما هو مباح لهم . فالذى ينتصر من بعد ظلمه ما لأحد عليه من سلطان ، ولا يجوز أن يقف فى طريقه أحد ـ إنما الذين يجب الوقوف فى طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ .

﴿ بعد ظلمه ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، وتفسره قراءة من قرأ : بعد ما ظُلِم . ﴿فأولئك ﴾ إشارة إلى معنى « من » دون لفظه .

٥٠٠ ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(١)

٤٣ ـ الشورى (٤٢)

عَزَم الأمرُ : جَدَّ ولزِم . والفعل عَزَم فلانٌ يعزِم عَزْمًا وعزيمةً : جَدَّ وصَبَر . فالعزم هو الصبر والجِدُّ .

﴿ لمن عَزم الأمور ﴾ : لَمِنَ الأمور الجادة المطلوبة شرعا .

﴿ ولمن صبر ﴾ على الظلم والأذى « وغفر » ولم ينتصر من ظالمه وفوض أمره إلى الله فإن ذلك التصرف منه إنما هو من عزم الأمور أى من الأمور الجادة العظيمة التى ينبغى للعاقل أن يوجبها على نفسه لأنها مطلوبة شرعا ، وهى من الصفات التى رغب الشارع فيها وأجزل لصاحبها العطاء .

---

(١) ورد منه الفعل فى قوله تعالى : ﴿ فإذا عَزَم الأمرُ فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ﴾ ٢١ ـ محمد : عَزم الأمرُ : جَدَّ الأمرُ .

٥٠١ ﴿ يَنظُرُونَ من طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ من طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذين آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ ٤٥ ـ الشورى (٤٢)

﴿ ينظرون من طرف خفى ﴾ أى يبتدى نظرهم بتحريك ضعيف لأجفانهم بمُسَارقَة النظر ؛ كما يُرى المصبور (أى المحبوس على القتل) ينظر إلى السيف . وهكذا الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها ، على العكس مما لو كان الشىء الذى ينظر إليه محببا إليه فإنه يملأ عينيه منه .

معنى الآية : وتراهم أى الظالمين (فى الآية السابقة مباشرة) يُعرضون على النار خاضعين متضائلين بسبب ما يلحقهم من الذل ولما يلاقونه من الأهوال عقابا لهم ، تراهم يسارقون النظر إلى النار خوفا من مكارهها .

﴿ خسروا أنفسهم ﴾ بالكفر فألقى بهم فى النار ، وخسروا أهليهم إذ حيل بينهم وبين أزواجهم وأحبابهم وأبنائهم .

قال يونس : « من » بمعنى الباء ، أى ينظرون بطرف خفى أى ضعيف من الذل والخوف .

وقال القرطبى : لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تاما ، لأنهم ناكسو الرؤوس ، والعرب تصف الذليل بغض الطرف ، كما يستعملون فى ضده حديد النظر إذا لم يتهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة .

٥٠٢ ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾

٥ ـ الزخرف (٤٣)

الصَّفْح : العَفو . والصفح : الجانب . يقال : صفح الجبل .

وصفح الوجه : عُرضه ، والجمع : صِفاحٍ وأصْفاح . وصَفحًا : إعراضًا .

ضَربَ عنه صفحًا : أعْرض ، وذلك أنه يوليه صفح وجهه وعنقه .

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ : أنُهملكم فنعرض عن أن نذكركم بالقرآن لأنكم أسرفتم على أنفسكم ؟ لاَ !

وقال السدى فى معنى التعبير : أفنترككم سدى فلا نأمركم ولاننهاكم .

وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكرَ طيا فلا توعظون ولا تؤمرون .

وقيل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال : أنترك تذكيركم لأنكم قوم مسرفون .

« الفاء » فى « أفنضرب » للعطف على محذوف ، تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر « أن كنتم مسرفين » أى لأن كنتم مسرفين ، ذلك أن أكثرهم ظل على الإسراف فى العناد والضلال ، فقال لهم الله : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ أى أنهملكم فننحى عنكم إنزال القرآن الكريم الذى فيه شرفكم ورفعتكم ، أنصرفه عنكم لأنكم لازلتم مستمرين ومنهمكين فى الإسراف وتجاوز الحد فى الكفر ؟ لا ، لأن حكمتنا تقتضى أن نذكركم وننزل القرآن الكريم عليكم [١] .

---

(١) راجع : التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية .

٥٠٣ ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

٢٢ ـ الزخرف (٤٣)

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أى على دين وطريقة تُؤَمُّ وتُقصَد [١] ، وهى الشرك فى العبادة . ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ بهم . فاعترفوا بأنهم لا مستندلهم سوى تقليد آبائهم .

أمَّ القومَ أمًّا وإمامًا وإمامةً : تقدمهم ، أو صلى بهم إماما . والأمة : الطريقة والمذهب فى قول عمر بن عبد العزيز . وقال مجاهد وقطرب : أمَّة أى ملة . والقولان متقاربان[٢] .

﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أى نهتدى بهم . وتكرر التعبير فى نهاية الآية التالية رقم ٢٣ ، ولكن باستبدال « مهتدون » بـ « مقتدرون » : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدرون ﴾ نقتدى بهم متبعون لهم . قال القرطبى : وفى هذا دليل على إبطال التقليد ؛ لذَمِّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ . « مُترفوها » : المنعَّمون والمراد الملوك والجبابرة .

---

(١) قال قيس بن الخَطيم :

كنا على أمة آبائنا ٠ ٠ ويقتدى الآخر بالأول

(٢) والإمّة (بكسر الألف) : النعمة ، قال عدى بن زيد فى النعمة : ثم بعد الفلاح والمُلك والإِمة وَارَتْهم هناكَ القبورُ .

٥٠٤ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ٣٢ ـ الزخرف (٤٣)

ورد هذا التعبير فى سياق يتحدث عن النبوة والقرآن ، واعتراض المشركين على نزولهما على محمد ﷺ : ﴿ وقالوا لولا نُزل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾ إلى آخر الآية . والقريتان هما : مكة والطائف . فجَهَّلَهم الله تعالى بقوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ يعنى النبوة فيضعونها حيث شاؤوا ، ويختارون لها من أرادوا ؟

ويرد التعبير على هذا السؤال : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾ ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قسم ووزع بينهم الرزقَ فى الدنيا ، ولم يكل هذا الأمرَ إليهم[1] ، لعلمه ـ سبحانه ـ أنهم يعجزون عن تدبيره ؛ فكيف يفوض أمرَ النبوة إليهم ـ وهو أعلى شأنا وأبعد شأوا من أمر الدنيا ؟ وكيف يتخيرون للرسالة من يشاؤون ؟ إنهم لا علم لهم بالله ، ولا بحكمه وشئونه وتدبيره ، وقد اصطفى لرسالته من شاء من عباده بإرادته وحكمته ، ولا معقبَ لحكمه .

﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ : فمنهم فاضل ومفضول ، ورئيس ومرؤوس ، ومالك ومملوك وغنى وفقير .

﴿ليتخذ بعضُهم بعضًا سُخريا﴾ أى ليستخدم بعضُهم بعضًا فى حوائجهم ، ويُسَخر بعضُهم بعضا فى مهامهم ، فيكون بينهم من التعاون والترافد ما ينتظم به أمر المعاش والعُمران ، ولو وكَلْنا ذلك إليهم لتهارجوا وتهالكوا ، واختل النظام وتقوض العمران . قال الشاعر :

النَّاسُ للناس من بدو وحاضرة ٠ ٠ بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

« سُخريا » : المصدر من سَخَر فلانٌ فلانًا أى كلفه بعمل ، وهكذا يكون بعضُ الناس سَبَبًا لمعاش بعض . قرأ ابن مُحَيْصن ومجاهد :

« سِخْريا » بكسر السينَ ، وقرأ الباقون بالضم . وأيضا بالنسبة لكلمة « معيشتهم » فقد قرأها مَجاهد وابن محيصن « معايشَهم » .

﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أى أفضل مما يجمعون من الدنيا وحطامها ـ وفى هذا تصغير لشأن الدنيا .

---

(١) قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عَيِيَّ اللسان (لا يكاد يبين) وهو مبسوط له (موسع عليه فى الرزق) ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان (لسِن) وهو مُقَتر عليه (فى الرزق) .

٥٠٥ ﴿ ومَن يعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

٣٦ ـ الزخرف (٤٣)

عَشَا يَعْشُو عَشْوًا : ساء بصرُه ليلا [١] . وعشا عن الشىء : ضَعُف عنه بصرُه فلم يرَه .

وعشا عن الشىء : أعرض ومضى عنه ، فشأن من يتعامى عن ذكر الرحمن ولا ينظر فى حججه وآياته شأن من عشا بصره وأظلمت عينه كأن عليها غشاوة .

وجزاء مثل هذا الغافل عن ذكر الله أن ﴿ نقيض له شيطانا ﴾ أى نهىء له شيطانا يستولى عليه استيلاء القَيْض [٢] على البيض فيُغويه ﴿ فهو له قرين ﴾ أى مُصاحب ومُلازم يمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية . قرأ السُّلَمى وابنُ أبى إسحاق ويعقوب عن عاصم وعن الأعمش : ﴿ يقيض ﴾ بالياء تعود على ﴿ الرَّحمن ﴾ أى يقيض له الرحمن شيطانا .

قال أبو الهيثم والأزهرى : عَشَوْتُ إلى كذا أى قصدتُه . وعشوتُ عن كذا أى أعرضت عنه ؛ مثل ملتُ إليه ، وملتُ عنه .

---

(١) قرأ ابن عباس وعكرمة : « ومن يعشَ » بفتح الشين ومعناه : يَعْمَى ؛ عَشِىَ يَعْشَى عشًا إذا عَمِىَ . وقال الخليل : العَشْوُ هو النظر بَبصر ضعيف . والعَشْوَاء : الناقة التى لا تبصرَ أمامها فهى تخبط بيديها كل شىء ، ومنه . ركب فلانٌ العَشواء : إذا خَبَط أمرَه على غَير بصيرة ، ومنه يخبِط خَبْطَ عشواء .

(٢) القَيْض : القشرة العُليا اليابسة على البيضة .

٢٩ ـ الدخان (٤٤)

﴿ فما بكت عليهم السماءُ والأرض ﴾ أى لأنهم كانوا كفارا ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أى مؤخرين إلى وقت آخر فى الدنيا ، بل عُجِّل لهم العذابُ . من الفعل أنْظره أى أخره وأمهله ، فالله لم يمهلهم إلى وقت آخر فى الدنيا كى يتوبوا ، ولم يمهلهم إلى يوم القيامة ، وإنما عَجَّل لهم العذابَ فى الدنيا .

ونورد ما قاله القرطبى من حديث شائق عن بكاء السماء والأرض . كانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ؛ أى عَمَّت مصيبته الأشياء حيث بكته السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات . قال يزيد بن مُفَرِّغ الحِميرى :

فالريح تبكى شجوَها . . . والبرق يلمع فى الغمامه

وقال جرير :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ . . . تُبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية ترثى أخاها الوليد بن طريف [1] :

أيا شجرَ الآراك مَالكَ مُورقًا . . . كأنك لم تجزعْ على ابن طريف

قالت ذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه .

ومعنى ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أنهم هلكوا فلم تعظُم مصيبتهم ولم يُفْتَقَدوا . وقيل : فى الكلام إضمار ، أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ أى اسأل أهلها .

روى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ثم تلا : « فما بكت عليهم السماء والأرض» . يعنى أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم لأجله ، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكى فقْدَه .

---

(١) الخارجية هى ليلى بنت طريف الشيبانى قالت ذلك فى معرض رثائها لأخيها الوليد ، وكان رأس الخوارج وأشدهم بأساوصولة .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله . فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكى على عبد يعْمُرُها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيّ كدوى النحل !

وقال علىٌّ وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مُصَلاَّه (المكان الذى كان يصلى فيه) من الأرض ومصعد عمله من السماء (المكان الذى كان يصعد منه عمله فى السماء) . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض .

وقال شريح الحضرمى قال النبى ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغُرباء يوم القيامة » قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « هم الذين إذا فسد الناسُ صلَحوا » ثم قال : « ألا لا غُربةَ على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماءُ والأرض» ثم قرأ رسول الله ﷺ : « فما بكت عليهم السماء والأرض » ثم قال : « ألا إنهما لا يبكيان على الكافر » .

وقال عطاء الخراسانى : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت .

﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

٢٣ ـ الجاثية (٤٥)

﴿ علَى علـم ﴾ : يجوز أن يكون حالا من المفعول (وهو الهاء فى أضله أى الكافر)، فيكون المعنىَ : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . وفى هذا الصدد قيل : على علم من عابد الصنم أن الصنم لا ينفع ولا يضر . ويجوز أن يكون « على علم » حالا من الفاعل (الله) فيكون المعنى : أضله عالما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه، وفى هذا قيل : أضله على علم قد سبق عنده أنه سيضل . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه .

﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى .

﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ أى غطاء حتى لا يبصر الرشدَ ولا الهدى .

﴿ فمن يهديه من بعَد الله ﴾ أى من بعد أن أضله . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

والآية تعجب ممن اتخذ إلهه هواه ، أى جعل هواه معبوده يخضع له ويطيعه ، كما يخضع العابد لمعبوده : « أفرأيت » أى أخبرنى ! أو انَظرتَ من هذه حالته فرأيته ! قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئا إلا ركبه .

قال ابن عباس : ما ذكر الله فى القرآن هوًى إلا ذمَّه ؛ قال تعالى : « واتبع هواه فمثله كمثل الكلب » ١٧٦ ـ الأعراف ، وقال : « واتبع هواه وكان أمره فرطا » ٢٨ ـ الكهف ، وقال: « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » ٥٠ ـ القصص ، وقال: « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله » ٢٩ ـ الروم، وقال : «ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ٢٦ ـ ص .

قال شداد بن أوس عن النبى ﷺ : « الكَيِّسُ من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » . وقال عليه السلام : « إذا رأيت شُحًا مطاعا وهوًى مُتَّبعًا ودنيا مُؤثَرةً وإعجابَ كلِّ ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودعْ عنك أمر العامة » . وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شحٌّ مُطاع وهوًى مُتَّبع وإعجاب المرء بنفسه والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب » .

وسُئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونُه ؛ فأخذ شاعر هذا المعنى ونظمه قائلا :

نونُ الهوان من الهوى مسروقةٌ . . فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال عبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة . . ألاَّ يُرى لك عن هواك نزوعُ

العبد عبد النفس فى شهواتها . . والحر يشبع تارة ويجوع

وقال ابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفسُ يوما بشهوة . . وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هَوِيت فإنما . . هواك عدوٌّ والخلاف صديق

وللعلماء فى ذم الهوى كتبٌ وأبواب ، وحسبك بقوله تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ الآيتان ٤٠ و ٤١ من سورة النازعات .

٥٠٨ ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٢٨ ـ الجاثية (٤٥)

الأمة هنا : أهل كل ملة ودين .

جاثية : مستوفزة ، والمستوفز هو الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . وقال الحسن : جاثية أى باركة على الركب ، والجَثْو : الجلوس على الركب ، جثا على ركبتيه يجثو ويَجْثى جُثُوًا وجُثيا .

﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ : ويوم تقوم الساعة (فى الآية السابقة) ترى أهل كل ملة ودين باركين على الركب عند الحساب من هول الموقف ، مستوفزين على هيئة المذنب المنتظر لما يكره .

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ أى إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذى كان يستنسخ فيه ما عملت من خير وشر ، أى إلى سجل أعمالها الذى أمر الله الحفظة بكتابته لتحاسب عليه . وقيل : كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه .

وقرأ يعقوب الحضرمى « كلَّ أمة » بالنصب على البدل من « كُلَّ » الأولى لما فى الثانية من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جثوها شىء من حال شرح الجثو كما فى الثانية حيث ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها .

٥٠٩ ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ٩ ـ الأحقاف (٤٦)

﴿ ما كنت بدْعا من الرسل ﴾ أى أولَ من أرسل ، قد كان قبلى رسل . فلست أولَ الرسل الذين جاءوا بكتاب من عند الله ؛ بل كان قبلىُ رُسُل كثيرون أرسلوا بالكتب إلى أمم قبلكم ، فكيف تنكرون علىَّ ما جئتكم به ؟ يقال : هو بِدْعٌ فى هذا الأمر ، أى أوَّلٌ لم يسبقه أحد .

أو ما كنت بديعًا منهم ؛ أى لست مبتدعا لأمر يخالف ما جاءوا به من الدعوة إلى التوحيد . فهو صفة مُشبَّهة ، مثل خِل بمعنى خليل ، من الابتداع وهو الاختراع .

٥١٠ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١٣ - الأحقاف (٤٦)

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، وبين الاستقامة فى الدين التى هى منتهى العمل .

﴿ قالوا ربنا الله ﴾ : لابد وأن يكون القول باللسان تعبيرا عما اشتمل عليه القلب ، واطمأنت به النفس ، وأذعن له الفؤاد قالوا : ربنا اللهُ رعانا بإحسانه ، وحفَّنا بلطفه ، وتكفَّل - تفضلا منه سبحانه - بأسباب حياتنا .

﴿ ثم استقاموا ﴾ على شريعته فامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، ولزموا مَحَجته(٢) .

﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ : والخوف غم يلحق لتوقع المكروه ، والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار . والمعنى أن الله كتب لهم الأمن من كل غم فلن يذوقوه أبدا .

« ثم » حرف عطف يفيد التراخى ، واستخدم هنا لتراخى الاستقامة فى المرتبة عن الإقرار لله بالعبودية وفضلها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كله (٣) ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ أى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : استقاموا فعلا كما استقاموا قولا . وعن عمر رضى الله عنه : استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب . وعن عثمان رضى الله عنه : أخلصوا العمل . وعن على كرم الله وجهه : أدوا الفرائض . وقال سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه : قلت يارسول الله أخبرنى بأمر أعتصم به . قال : «قل ربى الله ثم استقم» فقلت : ما أخوَف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال «هذا» أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ومسلم .

وليست قولة ﴿ ربنا الله ﴾ مجرد كلمة يلفظها اللسان ، وإنما هى منهج كامل للحياة : فلله العبادة وإليه المتجه ومنه الخشية وعليه الاعتماد . وكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير يقوم به العبد إنما يراعى فيه رضا الله . ولا احتكام إلا إلى الله ولا سلطان إلا لشريعته .

وتأتى بعد هذا الاستقامة والثبات على هذا المنهج : « ثم استقاموا » استقامة النفس وطمأنينة القلب والمشاعر ، فلا تضطرب ولا تتأرجح ولا تشك بفعل الدوافع والمؤثرات ودواعى الانحراف تأتى من هنا وهناك .

---

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ﴾ ٣٠ - فصلت .
(٢) المحَجَّة : الطريق المستقيم . (٣) راجع : الكشاف للزمخشرى .

٥١١ ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ ٢ ـ محمد (٤٧)

﴿ أصلح بالهم ﴾ حالهم وشأنهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد . قال مجاهد : أصلح بالهم أى شأنهم ؛ وقال قتادة : حالهم ؛ وقال ابن عباس : أمورهم . والأقوال الثلاثة متقاربة وهى مؤولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم .

وحكى النقاش أن المعنى : أصلح نياتهم (١) ، وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم .

والبال هو كالمصدر ، ولا يُعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . وقال المبرد : قد يكون البال فى موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال: ما يخطر فلان على بالى أى على قلبى .

﴿ وأصلح بالهم ﴾ : يلقى التعبير ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام . ومتى صَلُح البالُ ، استقام الشعور والتفكير واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب ، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام ـ ألا إنها نعمة ما بعدها نعمة .

---

(١) قال الشاعر :

فإن تُقبلى بالود أقبل بمثله . وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

٥١٢ ﴿ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

٤ ـ محمد (٤٧)

أوزار الحرب : آلاتها وأسلحتها التى لا تقوم إلا بها ومنها الكُراع (الخيل) . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارَها . . رماحا طوالاً وخيْلا ذكوراً

والأوزار جمع وِزْر وهو الثقل (١) ، وسمى السلاح أوزار وأثقال لثقل حَمله .

﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ (٢) : حتى تلقى من يدها وتحط آلاتها وأثقالها . وأسند الوضع للحرب وهو لأهلها على سبيل المجاز .

وقيل فى معنى التعبير : ينقضى أمرها وتخف أثقالها فلا يبقى قتال ؛ وقيل : أوزارها آثامها ، جمع وزر وهو الإثم ويعنى : حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شِركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

﴿ فضرب الرقاب ﴾ : أصله فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدم المصدر لينوب عنه وأضافه إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد . وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، وفى هذه العبارة (ضرب الرقبة) من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حَزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه .

﴿ أثخنتموهم ﴾ بأن أكثرتم فيهم القتل ، وأخذتم من لم يقتل منهم أسرى بعد أن أوهنتموهم بالجراح ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ فأحكموا قيدَهم (٣) حتى لا يفلتوا منكم ، وبعد ذلك إما أن تمنوا عليهم فتطلقوهم أو تفادوهم .

---

(١) ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال .

(٢) ويقال : أعدوا أوزار الحرب : آلاتها .

(٣) الوَثاق والوِثاق : اسم ما يوثق به ويُقَيّد .

٥١٣ ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

٢٤ ـ **محمد** (٤٧)

﴿ أقفالها ﴾ : جمع قُفل ، وهو ما يُحكَم به الغَلق ، ويجمع أيضا على قفول .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أي يتصفحونه ويراجعون ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة ، حتى لا يجسروا على المعاصى . إنهم لم يتدبروا ولم يتفكروا ، فالسؤال استنكارى .

﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ : أم بمعنى بل وهمزة التقرير ، أى أن التعبير يقرر أن قلوبهم محكمة الغلق بالأقفال والمغاليق ـ وهو مجاز بليغ ـ فلا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الكفر . فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج (استغلاق) القلب وخلوه عن الإيمان .

وتنكير القلوب : إما لتهويل حالها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة فهى قلوب منكرة لا يعرف مثلها فى الغفلة والجمود ، وإما المراد بعض القلوب وهى قلوب المنافقين .

وإضافة الأقفال إلى القلوب فى قوله : ﴿ أقفالها ﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة غير مشابهة لسائر الأقفال المعروفة .

إن تدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير .

٥١٤ ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ٣٥ ـ محمد (٤٧)

﴿ فلا تهنوا ﴾ فلاتضعفوا عن قتال العدو ولا تذلوا له . والوهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسان ووهنَه غيرُه : يتعدى ولا يتعدى وَهَن ووهِن : بالفتح وبالكسر .

السَّلم والسِّلم (بفتح السين وكسرها) : الصلح والمسالمة .

﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أى الأغلبون القاهرون لعدوكم لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال ، فأنتم الأعلون فى الحجة وأنتم الأعلون بقوة الإيمان .

﴿ والله معكم ﴾ أى ناصركم ومعينكم ، وهى بشارة عظيمة بالنصر على الأعداء .

﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ : لن ينقصكم من أعمالكم شيئا . وَتَر فلانًا يَتِرُه وِترًا وترَةً: قتل حميمه (أباه أو أخاه أو ولده) . ووتر فلانًا حقّه ومالَه : نقصه إياه ؛ شبه إضَاعة عملَ العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام . ومنه قول النبى ، ﷺ : (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتَر أهلَه ومالَه) ، متفق عليه من حديث ابن عمر ، والمعنى : كأنما أفرد عنهما (أى حُرِم منهما) قتلا ونهبا .

قال قتادة فى معنى التعبير : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة[1] ، فالله ينهى المؤمنين عن إظهار الضعف أمام الكافرين وعن الدعوة إلى مصالحتهم ومسالمتهم إلا إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى المسلمين ، ورأى الإمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ عام الحديبية حين صده كفار قريش عن دخول مكة للعمرة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم النبى إلى ذلك ، بل إن الله سمى ذلك الصلح فتحا مبينا : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ ١ ـ الفتح وهى إخبار عن صلح الحديبية فى رأى الجمهور .

---

(١) ضَرَعَ إليه وله : ذَلَّ وخَضَع . والمُوادعة : المهادنة والمصالحة والمسالمة .

٥١٥ ﴿ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِين ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ ٤ ـ الفتح (٤٨)

السكينة : الطمأنينة والثبات والسكون . سكَنَت النفسُ بعد الاضطراب : هدأت ، وسكن إليه : استأنس به واستراح إليه .

فالله ـ جلت قدرته وعظُم فضله ـ سكب الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ، حيث يرى الجمهور أن سورة الفتح نزلت فى صلح الحديبية وأن الفتح المبين فى أول السورة هو صلح الحديبية ، فيسر الله لعباده المسلمين الأمن بعد الخوف والهدنة بدل القتال ، ليزدادوا يقينا برسوخ العقيدة فى نفوسهم .

وقيل : أنزل فى قلوب المؤمنين الاطمئنان إلى ما جاء به الرسول من الشرائع ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . والرأى الأول أظهر . وأورد تفسير القرطبى قول ابن عباس : بُعث النبى ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله فكان أول ما أتاهم به التوحيد ؛ فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ أى تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان

٥١٦ ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ ٦ ـ الفتح (٤٨)

الدائرة فى الأصل : ما أحاط بالشىء ، ثم استعملت فى النازلة المحيطة بمن نزلت به ـ فأكثر استعمالها فى المكروه .

سَاءَ فلانًا يسُوؤُه سُوءًا وسَوْءًا ومَسَاءةً : فعل به ما يكره ﴿ عليهم دائرة السَّوْء ﴾ : دعاء عليهم بأن يحيق بهم من الهلاك والدمار ما يتربصونه بالمؤمنين . قال القرطبى : ﴿ عليهم دائرة السوْء ﴾ فى الدنيا بالقتل والسَّبى والأسْر ، وفى الآخرة بجهنم .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دائرة السُّوء ﴾ بالضم .

٥١٧ ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ١٧ ـ الفتح (٤٨)

كلمة حرج فى هذا السياق تعنى : إثم . ومعنى التعبير : ليس على هؤلاء إثم فى التخلف عن الجهاد ، لما بهم من الأعذار والعاهات المُرَخِّصَة لهم فى التخلف عنه (أى عن الجهاد) .

قال ابن عباس : لما نزلت الآية السابقة (رقم ١٦) وهى قول الله تعالى : ﴿ وإن تتولوا كما توليتم من قبلُ يعذبكم عذابا أليما ﴾ قال أهل الزَّمَانَة [١] : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت : ﴿ ليس على الأعمى حرج . . . ﴾ الآية .

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأعذار المبيحة لترك الجهاد ، فمنها ما هو لازم كالعمى والعرج البيِّن ، ومنها ما هو عارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول ، فهو فى حال مرضه مُلْحَق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ . وليس فى نفى الإثم عنهم نَهْىٌ لهم عن الغزو ، بل قيل إن أجرهم مضاعَف إذا خرجوا للقتال . ولقد غزا ابن أم مكتوم ـ رضى الله عن ـ وكان أعمى ، وحضر فى بعض حروب القادسية وكان يحمل الراية . كما غزا أحد العلماء (وهو أعمى) مع الجيش الإسلامى فى حرب التَّتار والصليبيين ، ولما سُئل عن ذلك وعما سيقدم من خدمات للجيش المقاتل قال : أكثِّرُ سواد المسلمين [٢] وأحرُس متاعهم وأحرضهم على القتال، وأستجيب لقول الله : ﴿ انفروا خفافا وثقالاً ﴾ [٣] .

---

(١) الزَّمانة : المرض الذى يدوم زمانا طويلا . والفعل منه زَمِنَ يزْمَنُ زَمَنًا وزَمَانَةً
(٢) أزيد فى عدد المسلمين واحدا .
(٣) ٤١ ـ التوبة .

٥١٨ ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾٢٩ ـ الفتح (٤٨)

الشَّطْء : الطرف والجانب . وشطءُ الزرع : فروخه ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شطئيه أى جانبيه . يقال : أشطا الزرع إذا فرخ . فآزره : فأعانه وقواه .

فاستغلظ : فغلُظ .

فاستوى على سوقه : استقام على سوقه ، والسُّوق جمع : السَّاق .

معنى التعبير : وَصَفَهم الإنجيل الذى نزل على سيدنا عيسى والذى بشر بمحمد ومن معه من أصحابه ، وصفهم وشبههم بزرع أخرج فراخه من أغصان وأفنان وأوراق ، فتفرعت فى جانبيه فأعانه ذلك وقواه فامتلأ الزرع وغلظت سيقانه ، واشتد واستقام وانتصب قويا سويا .

هذه صورة الزرع فى ذاته ، فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة وهم الزراع الذين يعرفون جيده ورديئه والمثمر منه والبائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب « يعجب الزراع» .

ونقل « التفسير الوسيط » عن قتادة قوله : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . نقول : وعلى هذا يكون الوصف للصحابة .

وفى إحدى القراءات « يعجب الزارع » وهو رسول الله ﷺ ، صاحب هذا الزرع النامى القوى المخصب البهيج . وأما وقعه فى نفوس الكفار فهو وقع الغيظ والكمد : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

﴿ ومثلُهم فى الإنجيل ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ كزرع أخرج شَطْأه ﴾ وقرئ شطَأه بفتح الطاء .

يخبر سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقا بلا شك فقال « محمد رسول الله » مبتدأ وخبره .

ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال «﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون الواحد منهم شديدا على الكافر ، رحيما برا بأخيه المؤمن . « والذين معه » مبتدأ وخبره أشداء على الكفار أما ﴿ رحماء بينهم ﴾ فخبر ثان[1] .

﴿ تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾ : وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهى خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل واحتساب جزيل الثواب عند الله تعالى وهو الجنة المشتملة على فضل الله وسعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من كل ما عداه ، كما قال : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

﴿ سيماهم ﴾ أى علامتهم مبتدأ وخبره ﴿ فى وجوههم ﴾ وعلامتهم نور وبياض فى الوجوه يعرفون به فى الآخرة أنهم سجدوا فى الدنيا . وقال مجاهد : سيماهم فى وجوههم يعنى الخشوع والتواضع . وقيل السمت الحسن . وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار . وقال بعضهم : إن للحسنة نورا فى القلب وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الناس . وروى عن عمر رضى الله عنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته .

وقال الزمخشرى : المراد بالسيماء السمة التى تحدث فى جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله تعالى « من أثر السجود » يفسرها ، أى من التأثير الذى يحدثه السجود ، وقرئ : من آثار السجود . والحديث ليس على من يعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها علامة رياءً ونفاقا ، وإنما على ما يحدث فى جبهة السَّجَّاد الذى لايسجد إلا خالصا لوجه الله تعالى .

« ذلك » مبتدأ وتشير إلى الوصف المذكور قبله ، وخبره : « مثلهم فى التوراة » .

---

(١) ورد فى الصحيح عن النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه .

٥١٩ ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ١ - الحجرات (٤٩)

يقال : قَدَّمَ فلانٌ بين يدى فلان : سبقه بالقول أو الحكم . ﴿ لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ أى لا تتقدموا فتسبقوهما بقول أو حكم . مَثّل التعجلَ فى الإقدام على الحكم فى أمر من الأمور الدينية بغير إذن من الله ورسوله ، مَثَّل هذا التعجل بحالة من تقدم بين يدى متبوعه إذا سارا فى طريق أى مشى قُدَّامَه ، وهذا مُسْتَهْجَن فلا يجوز للتابع أن يمشى قُدام متبوعه (سيده أو رئيسه ، الخ) (١) .

« تقدموا » : فعل متعدى يأخذ مفعولا به ، وحذف مفعوله فى هذا التعبير قصدا إلى التعميم فى كل قول وفعل .

﴿ لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ لأن من قدم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عز وجل . قال العلماء كان فى العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبى ﷺ وتلقيب الناس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب .

﴿ واتقوا الله ﴾ فإنكم إن اتقيتموه منعتكم التقوى عن أن تسبقوا رسول الله فى أى قول أو حكم ، وعن جميع ما تقتضى مراقبة الله تجنبه ، فإن التقى حَذِرٌ لا يُشافه أمرا أى لا يتشاغل بأمر إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك فى أنْ لاَتَبِعَة عليه فيه .

---

(١) جاء فى « التفسير الوسيط » : يَشتمل هذا التعبير على صورة بلاغية ، حيث استعير التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم فى أمر دون اقتداء بكتاب الله وبرسوله ، تصويرا لشناعته بصورة المحسوس . فمثله كمثل تقدم الخادم بين يدى سيده فى سيره . والمراد من الآية : لا تقطعوا أمرا ولا تجرؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله فيه ورسوله ، فإن ذلك شديد القبح كالذى يسبق سيده فى سيره .

٥٢٠ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

٦ ـ الحجرات (٤٩)

فَسَقَت الرُّطَبَة من قشرها إذا خرجت (١) . وفسق فلان فى الدنيا فسقًا : اتسع فيها ولم يضيقها على نفسه . وفسَق فلانٌ مالَه إذا أهلكه بإنفاقه .

وقد نُقل أنه لم يُسْمع فى كلام الجاهلية كلمة « فاسق » لكن جاء الإسلام وأكسب الكلمة معنى جديدا ، فقد جاء الشرع بأن الفسق هو الإفحاش فى الخروج عن طاعة الله تعالى . وعُدَّت الكلمة من الألفاظ الإسلامية التى نقلت عن موضعها إلى موضع آخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت واشتراطات شرطت ، وهو مثل من التطور اللغوى لدلالة الكلمات .

وبهذا المعنى الإسلامى استعمل الفسق فى القرآن مقابلا للإيمان ؛ واستعمل بمعنى الكفر : ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ (٢) ؛ وبمعنى النفاق : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ (٣) ؛ وبمعنى الضلال : ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (٤) ؛ واستخدم أيضا ليعنى أنواعا من العصيان . وبهذاكان الفسقُ أعَم من الكفر (٥) . «فتبينوا» صدِّق النبأ من كَذبه . وفى قراءة «فتثبتوا» (٦) والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان والثبات والتعرف .

﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ : إن جاءكم من يحتمل فسقه وكذبه بخبر ما ، فتبينوا صدقه من كذبه لئلا تصيبوا أناسا وتعتدوا عليهم وأنتم جاهلون للحقيقة ، فتندموا على تسرعكم فى تصديق الخبر الكاذب وعلى ما اقترفتم من اعتداء ظالم على أبرياء .

فى تنكير « فاسق » و « نبأ » : شمُول لكل فاسق ولكل نبأ ، كأنه قال : إن جاءكم أى فاسق بأى نبأ ، لأن النكرة إذا وقعت فى سياق الشرط تَعُم .

---

(١) ومن مقلوبه : فقست البيضة ، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها . ومن مقلوبه أيضا : فقست الشىء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصبا له ، ثم استعمل فى الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق .

(٢) ٩٩ ـ البقرة . (٣) ٦٧ ـ التوبة .

(٤) ٢٦ ـ الحديد .

(٥) راجع : « معجم ألفاظ القرآن الكريم » ، مجمع اللغة العربية .

(٦) قراءة حمزة والكسائى وابن مسعود .

« أن تصيبوا » : مفعول له أى كراهة إصابتكم . « بجهالة » حال [1] ، يعنى جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة . « فتصبحوا » من الإصباح بمعنى الصيرورة . «نادمين» : الندم ضرب من الغم ، وهو أن تغتم على ما وقع منك وتتمنى أنه لم يقع ، وهو غَمٌّ يصحب الإنسانَ صحبة لها دوام ولزام ، لأنه كلما تذكر المُتَنَدَّم عليه راجعه الندم . والندم من الندام وهو ملازمة الشِّرِّيب (المولَع بالشرب) ودوام صحبته ، ومنه النديم : المصاحب على الشَّرَّيب المسامر [2] .

وقال القرطبى فى تفسير : ﴿ أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ أى لئلا تصيبوا ؛ فـ « أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . « قوما بجهالة » أى بخطأ ، فتندموا على العجلة وترك التأنى .

(١) هكذا أعربه الزمخشرى ، وأضاف : كقوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم ﴾ .
(٢) ومن مقلوباته : أدْمنَ الأمر ، أدامَه ؛ ومَدَن بالمكان : أقام به .

٥٢١ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾

٤ - ق (٥٠)

نَقَصَ الشىءُ ينقُصُ نَقصًا ونُقْصَانًا : خَسَّ وقَلَّ . ويقال : نَقَصَ عقلُه أو دينُه : ضعف .

ونقصَ الشىءَ : صيَّرَه ناقصًا . ويقال : نَقَصَه أى أذْهَب منه شيئا واقتطع منه جزءًا.

فالفعل نقص لازم ومتعدً . وهو فى هذا التعبير « تنقص الأرضُ منهم » بمعنى : تقتطع الأرض من أبدانهم .

﴿ ما تنقُص الأرضُ منهم ﴾ أى ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لطُف علمه ودق حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم ، فلا يضل عنا شىء ، فكيف يستبعدون أن نرجعَهم أحياء كما كانوا ـ يشير إلى ما جاء فى الآية السابقة من استبعادهم الرجع والإعادة والقيامة : ﴿أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ .

﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أى وعندنا ، مع علمنا بما تنقص الأرض منهم ، كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها : كلياتها وجزئياتها . ومنها أجزاؤهم وعددهم وأسماؤهم وأعمالهم . وهو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده سبحانه .

وقال السدى : النقص هنا الموت . يقال : قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى ، لأن من مات دُفن فى الأرض فكأن الأرضَ تنقص من الناس .

٥٢٢ ﴿ فتولَّىٰ بركْنه ﴾

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ٣٨ ، ٣٩ ـ الذاريات (٥١)

رُكنُ الشيء : جانبه الأقوى . والركن جانبُ البدن .

« فتولى برُكنه » : فازْوَرَّ وأعْرض ، كقوله تعالى : ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ ، وهذا عبارة عن المبالغة فى الإعراض عن الشيء .

وقيل : بركنه أى بجموعه وأجناده (جنوده) ، فالركن تعنى : المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بركنه أى بقوته . ومن ذلك قول عنترة :

فما أوْهَن مِراسُ الحربِ رُكني ولكـن مـا تقـادم من زمانـي

« وفى موسى » أى وتركنا أيضا فى قصة موسى آية .

﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أى بحجة بينة هى العصا وغيرها من المعجزات ، فأعرض فرعون عن الإيمان .

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ : « أو » بمعنى الواو ، لأن قوم فرعون قالوا الصفتين عن موسى . وقد توضع « أو » بمعنى الواو كقوله تعالى : ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ ، والواو بمعنى « أو » كما فى قوله تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (١)

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾٢١ ـ الطور (٥٢)

رَهَنتُهُ المتاع (٢) بالدَّين أرْهنُه رَهْنًا : حَبَست المتاعَ عنده أى أودعته عنده لينوب منابَ الديْن ، وكذلك رهنت الشيءَ عنده فهو مرهون ورَهين .

﴿ كلُّ امرئ بما كسب رهين ﴾ أى كل إنسان مرهون عند الله بكسبه كأن الكسبَ بمنزلة الديْن ، ونفسَ العبد بمنزلة الرهن ـ ولا ينفكّ الرهنُ ما لم يُؤدَّ الدينُ بالعمل الصالح . وفى « تفسير الجلالين » : كل امرئ بما كسب من عمل خير أو شر مرهون : يؤاخذ بالشر ويجازى بالخير . وقال ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » : كل امرئ مرتهن بعمله : لا يُحْمَلُ عليه ذنبُ غيره من الناس سواء كان أبا أو إبنا ، فلا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحد ، كما قال تعالى : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ والرهينة ما يُرهَن ، وهو فى الأصل وصفٌ غلبت عليه الإسمية كالنطيحة والذبيحة . ومما قاله الزمخشرى فى معنى التعبير : كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذى هو مطالب به . . . فإن عمل صالحا فكّها وخلصها ، وإلا أوبقها (أى أوردها موارد الهلاك) .

هذا هو مقام العدل : لا يؤاخَذ أحدٌ بذنب أحد . وهناك مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل عملته الذرية يقتضى ذلك ؛ ونقصد بذلك فضل الله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، يقول تعالى فى صدر الآية : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ مخبرا عن فضله وكرمه وامتنانه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم (أى نَسل الإنسان وأولاده) فى الإيمان فإن الله يلحق الأبناء بالآباء فى المنزلة حتى وإن كان عمل الأبناء أقل من عمل الآباء ولا يؤهلهم عملهم للوصول إلى منزلة الآباء ، ففى الحديث :

« إن الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته (٣) وإن كانوا دونه لتقربهم عينه » ثم تلا هذه الآية . أخرجه البزار وابن عدى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والثعلبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا . وهكذا يجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم فى أنفسهم وباجتماع أولادهم ونسلهم به .

---

(١) قريب منه قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ٣٨ ـ المدثر .
(٢) المتاع : كل ما يُنْتَفع به ويُرغَب فى اقتنائه كالطعام وأثاث البيت والسلعة والأداة .
(٣) أى إلى درجته .

﴿ واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾ كأنه قال بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء . قال الحافظ الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحاق التسترى حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن غزوان حدثنا شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس الآية .

﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وما نقصناهم أى الآباء شيئا من عملهم وثواب عملهم عندما تفضلنا ورفعنا درجة أبنائهم ليصلو إلى درجتهم ويلتحقوا بهم ، أى لم يكن هذا الرفع لدرجة الأبناء على حساب الآباء وإنما ظل ثواب عمل الآباء كاملا غير منقوص .

هذا فضل الله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء . وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» .

٥٢٤ ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ ٣٠ ـ الطور (٥٢)

رَبَصَ بالشيء رَبْصًا : انتظر به خيرا أو شرا يحل به .

تَرَبَّص به أمرًا : انتظره يتوقعه له .

والرَّيْب : الحادث من حوادث الدهر يَفْجأ الناس ولا يستيقنون بوقت وقوعه . ومنه رَيْب المنون .

والمنون : الدهر والزمن لأنه يقطع الأعمار بمُضيِّه ، من الفعل مَنَّ الشيءَ يَمُنُّه مَنًا أى قطعه والمنون أيضا الموت لأنه يقطع الأعمارَ .

« رَيب المنون » : ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر .

فكفار قريش يقولون عن النبى ﷺ إنه شاعر ويضيفون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه . ولكن الله يلقن الرسول أن يرد عليهم فى تهديد ملفوف : ﴿ قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾ وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهى به الانتظار إلى النصر .

٥٢٥ ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ٤٨ ـ الطور (٥٢)

ومع التوجيه إلى الصبر إيذان بالإعزاز الربانى والعناية الإلهية ، والأنس الكريم الذى يُنسى المشقة والصعاب : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ ويا له من إعزاز ! ويا له من تعبير يصور التقدير والإعزاز فى أسمى درجاتهما .

إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التى يصورها هذا التعبير الفريد فى القرآن كله .

إنه تعبير فريد بين كل التعبيرات المشابهة . قيل لموسى عليه السلام : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » ، وقال له ربه : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ ، وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . لكن محمدا ﷺ ، قيل له : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ وهو تعبير فيه إعزاز خاص وأنس خاص . وهل يلقى ظلا أرق وأشف من كل ظل . ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص ـ وحسبنا أن نتملاه وأن نتفيأ ظلاله .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة بربه : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ فعلى مدار اليوم ، عند اليقظة من النوم ، وفى ثنايا الليل ، وعند مغيب النجوم فى الفجر يكون تسبيحك لله متصلا ومقرونا بحمده ـ فالتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾

٩ ـ النجم (٥٣)

القاب : المقدار . والقاب من القوس : ما بين المقبِض وطرف القوس ، وهما قابان . يقال : بينهما قابُ قوس ، كناية عن القرب .

« فكان قاب قوسين » أى طول أو مقدار قوسين ، أو أراد قَابَىْ قوس فقلبه .

وقال سعيد بن جبير وعطاء : « فكان قاب قوسين » أى قدر ذراعين والقوس الذراع يقاس بها كل شىء ، وهى لغة بعض الحجازيين .

ونورد السياق القرآنى الذى ورد فيه التعبير مع شىء من الشرح حتى يزداد معنى التعبير وضوحا .

﴿ وما ينطق ﴾ الرسول ﷺ بما ينطق به من قرآن عن هوى نفسه ورأيه . ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ إليه من الله تعالى ﴿ علمه شديدُ القوى ﴾ علم النبىَّ ﷺ الوحىَ أو القرآن شديدُ القوى وهو جبريل عليه السلام [١] . « ذومرة » ذو حصافة واستحكام فى عقله ورأيه أو ذو منظر حسن ﴿ فاستوى ﴾ فاستقام وظهر فى صورته الملائكية فى ناحية المشرق [٢] . ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ بالجهة العليا من السماء فَسَدّ الأفق إلى المغرب .

﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أى دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى ، دنا وقَرُب من الأرض ومن النبى ﷺ وزاد فى القرب منه حتى كان أقرب شىء إليه كما قال تعالى ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ والدنو : الاقتراب ؛ والتدلى : أصله النزول إلى الشىء حتى يقرب منه فوضع مو ضع القرب [٣] ؛ فكانت المسافة بينه وبين النبى ﷺ مقدار ذراعين عربيتين ، بل أقرب .

---

(١) بلغ من شدة قوته أن اقتلع قُرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم قلبها . وصاح بثمودَ صحيحة أهلكتهم . وكان هبوُطه على الأنبياء وعروجُه إلى السماء فى أسرع من رجع الطرْف .

(٢) وكان النبى ﷺ عند حراء فى مبادئ النبوة .

(٣) قال لَبيد

فَتَدَلَّيْتُ عليه قافلا ... وعلى الأرض غيابات الطَّفَلْ

البيت فى وصف فرس . أراد أنه نزل من مربائه وهو على فرسه راكب .

وقال القرطبى : لما رأى النبى ﷺ من عظمة جبريل وهو على صورته الأصلية (1) (سَادًّا الأفق من المشرق إلى المغرب) ما رأى ، وهاله ذلك ، ردّه الله إلى صورة آدمى حين قرب من النبى ﷺ بالوحى .

ورد هذا التعبير مرة واحدة فى القرآن الكريم .

---

(٢) جاء فى « صفوة البيان لمعانى القرآن » : كان جبريل يأتى النبى ﷺ فى صورة آدمية ، فسأله أن يُرِيَه نفسَه على الصورة التى جُبل عليها . فأراه نفسه مرتين : مرة فى الأرض ومرة فيالسماء . ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الَتى خُلق عليها إلا نبينا ﷺ ، وهذه المرة أولاهما ، فَخَرَّ النبىُّ مغشيا عليه . فنزل جبريل متمثلا فى صورة آدمَية وضَمه إلى نفسه حتى أفاق وسكن روعه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أى قرُب جبريل من النبى حتى كان أقرب ما يكون إليه .

سعَى يَسْعى سَعْيًا : تَصرف فى أى عمل كان .

معنى التعبير فى رأى أكثر أهل التأويل (كما جاء فى تفسير القرطبى) أن الآية محكمة ولا ينفع أحدًا عملُ أحد ، وأجمعوا أنه لا يصلى أحدٌ عن أحد . وتبعا لهذا الرأى : لا يثاب أحدٌ بعملِ غيره ، كما لا يؤاخذ بذنب غيره .

فالآية السابقة وهى : ﴿ ألا تزر وازرة وزرَ أخرى ﴾ فسرها ابن كثير بقوله : أى كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شىء من الذنوب فإنما عليها وزرها (أى إثمها وذنبها) لا يحمله عنها أحد ، كما قال : ﴿ وإن تدعُ مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ ١٨ ـ فاطر وفسر ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فقال : كما لا يُحمل عليه وزرُ غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . وتابعه فى ذلك صاحب الظلال فقال : لا يحسب للإنسان سوى كسبه وسعيه وعمله ، لا يُزاد عليه شىء من عمل غيره ، ولا يُنقَص منه شىء لينا له غيره . وهذه الحياة الدنيا هى الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى ، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل ، إلا ما نص عليه حديث رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به » رواه مسلم . ويعلق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذه الثلاثة هى فى الحقيقة من سعيه وكده وعمله كما جاء فى الحديث : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن يُنقص من أجورهم شيئا» ورد هذا التعبير مرة واحدة فى القرآن الكريم .

والآية التالية : ﴿ وأن سعيه سوف يُرى ﴾ أى يوم القيامة [1] والآية التى بعدها : ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أى كاملا غير منقوص ، هاتان الآيتان تؤكدان ما جاء فى التعبير من معنى فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسئولا مؤتمنا على نفسه .

أما الدعاء والصدقة فذاك مُجمع على وصولهما (أى إلى من توجهان إليه) ومنصوص من الشارع عليهما ، قاله ابن كثير فى تفسيره ، وسنده ما جاء فى حديث : « إذا مات

---

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أى يخبركم به ويجزيكم عليه .

الإنسان» الذى أوردناه آنفا ؛ ويعضده ما جاء فى تفسير القرطبى من أن سعد ا بن عبادة قال للنبى ﷺ: إن أمى توفيت أفأ تصدق عنها ؟ قال : « نعم » قال : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « سقى الماء » .

وهناك فريق من العلماء يرى أن الإنسان ينتفع بعمل غيره . ويتحمس لهذا الرأى الشيخ حسنين مخلوف فى كتابه « صفوة البيان لمعانى القرآن » حيث نقل خلاصة بحث فى هذا الأمر كتبه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذى قال : ومن اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع . وذلك أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره . وأن النبى ﷺ يشفع لأهل الموقف فى الحساب . وأن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن فى الأرض . وأن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم . وفى قصة الغلامين اليتيمين « وكان أبوهما صالحا » (١) فانتفعا بصلاح أبيهما إذ بسبب صلاحه حفظ الله لهما كنزهما وهما صغيران حتى كبرا وبلغا أشدهما . وأن الميت ينتفع بالصدقة عنه وأن الحج المفروض يسقط بحج وليه وذلك بنص السنة . وأن أبو قتادة وعليا بن أبى طالب قضيا الدين عن مدينين . وأن من عليه تبعات ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه . والصلاة على الميت والدعاء له فيها إنما هو انتفاع للميت بصلاة الحى عليه . والجمعة تحصل باجتماع العدد وكذا الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض . ويعلق ابن تيمية على كل واحدة من هذه الأمور بقوله إنه انتفاع بعمل الغير .

وهناك قول حسن جيد فى هذه القضية أورده القرطبى فى تفسيره وهو : إن الله عز وجل إنما قال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ولام الخفض (فى قوله للإنسان وهى لام الجر) معناها فى العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى . فإذا تصدق عنه غيرُه فليس يجب له شَىء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له .

وننقل كذلك رأيا للقرطبى نفسه فى هذه القضية حيث قال : ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ خاص فى السيئة بدليل ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل إذا هَمَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنةً فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » .

---

(١) « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » ٨٢ ـ الكهف .

٥٢٨ ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ٥٠ ـ القمر (٥٤)

﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أى إلا مرة واحدة .

﴿ كَلَمْح بالبصر ﴾ أى قضائى فى خلقى أسرع من لَمْح البصر ، وما أمرنا فى خلق الأشياء إلا كلمةٌ واحدة هى : « كن » ، فتوجد كلمح البصر فى السرعة . ونظيره : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ [1] .

واللمْح : النظرة العَجْلَى ، ويقال : رأيته لمحةَ البرق : قدر لمعة البرق من الزمان . ويقال أيضا : لَمَحَ البرقَ ببصره . وفى الصحاح : لَمَحَه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف .

وقيل فى تفسير هذا التعبير : وما أمرنا فى قيام الساعة إلا كلمة واحدة ، فتقوم كلمح البصر ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب[2] .

٥٢٩ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ ٥٢ ، ٥٣ ـ القمر (٥٤)

هذا التعبير امتد ليشمل آيتين ، إذ أن الآية الثانية تؤكد ما جاء فى الآية الأولى من معنى .

﴿ الزبر ﴾ : جمع زَبُور ، والزبور هو الكتاب المزبور أى المتقن الكتابة . زَبَر الكتابَ يزبُره زَبْرا : أتقن كتابته .

﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر كان مكتوبا عليهم فى كتب الحفَظَة من الملائكة . وقيل « فى الزبر » أى فى اللوح المحفوظ .

﴿ مُسْتطر ﴾ : مكتوب ، والفعل استطر : كتب « وكل صغير وكبير مستطر » أى وكل صغير وكبير من الأمور والأعمال ، ومنها الذنوب ، مسطور عندنا ومحصى على صاحبه .

---

(١) ٨٢ ـ يس .
(٢) ٧٧ ـ النحل .

يمتد هذا التعبير ليشمل آيتين .

﴿ علمّ القرآن ﴾ : الفاعل يعود على الرحمن ، فهو الذى علم القرآن ، ولم يذكر فى الآية من الذى علمه الرحمنُ القرآنَ . قيل : هو رسوله ﷺ ، فإنه أولُ من تعلمه من البشر ، ثم علمه ﷺ الصحابةَ ، والصحابة علمّوه مَن بعدهم ، وهكذا .

والمراد من تعليم القرآن : تعليم ألفاظه ومعانيه على وجه يعتد به ، وقد يصل العلم بمعانيه إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه فإن الله لم يغفل شيئا فيه . أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : أنزل الله فى القرآن عِلمَ كل شىء ، ولكن علمَنا يقصُر عما بُيِّنَ لنا فيه .

وقد أسندت نعمة تعليم القرآن وغيرها من النعم التى وردت فى هذه السورة إلى «الرحمن» الذى هو أحد أسماء الله الحسنى للتنبيه إلى أن تعليم القرآن من آثار رحمته الواسعة .

كما أن السورة بدأت بكلمة « الرحمن » لأن الله الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، بل هو أرحم بالعبد من نفسه ، ذكر ـ سبحانه ـ فى هذه السورة كثيرا من نعمه وآياته . وبدأ أول ما بدأ بنعمة تعليم القرآن ، لأنه أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانة ، فعليه تدور السعادة الدنيوية والأخروية ، فما من غاية تنتهى إليها آمال الأمم إلا موجودة وسائلها فيه . وهو منهج الحق وصراطه المستقيم . وهو هدى وشفاء ، وأمان ونور للناس فى دينهم ودنياهم . وهو آية الآيات على نبوة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

وقد تكفل الله بحفظه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) .

(١) ٩ ـ الحجر .

﴿ مقام ﴾ : مصدر ميمى معناه : قيام ، أى ولمن خاف قيام ربه وهيمنته عليه يوم القيامة ، وذلك هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (١) أى : أفمن هو رقيب على كل نفس ، حفيظ عليها ، عالم بما عملت من خير أو شر ، فمجازيها به ، كمن ليس كذلك ، والاستفهام إنكارى وجوابه : ليس كذلك . فمعنى ﴿ خاف مقام ربه ﴾ : خاف قيام ربه عليه أى اشرافه واطلاعه على كل أعماله .

وقيل : خاف قيامه بين يدى ربه للحساب فترك المعصية ، فالمراد بالمقام مكان وقوف الخلق وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، وإضافة المقام للرب ـ سبحانه ـ لأنه لا سلطان فيه لغيره ـ جل وعلا .

والخوف من الله ـ تعالى ـ هو خوف من حسابه وعقابه على فعل المعاصى وترك الطاعات ، فيحمله هذا الخوف على تقوى الله .

والجنتان لكل واحد من المتقين ، إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، كما يفعله الرؤساء والمترفون فى الدنيا . وقيل : بستانان أحدهما داخل قصره والآخر خارجه .

قيل : نزلت فى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، إذ ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة والموازين والجنة والنار ، وصفوف الملائكة وطى السماء ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب ، فقال : وددت أنى كنت خَضرا من هذه الخضر ، تأتى علىَّ بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق ، فنزلت : ﴿ ولمن خاف مقام ربهَ جنتان ﴾ ، لكن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، فهى لكل خائفٍ مقامَ ربه .

---

(١) ٣٣ ـ الرعد .

٥٣٢ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ ٦٠ ـ الرحمن (٥٥)

﴿ هَلْ ﴾ تأتى فى الكلام على عدة وجوه منها : أن تكون للاستفهام كما فى قوله تعالى : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ . أو تكون بمعنى قد كما فى قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ . أو تكون بمعنى ما فى الجحد ، كما فى هذه الآية .

ومعنى التعبير : هل جزاء الإحسان فى الطاعة إلا الإحسان فى الثواب ؛ فالذين خافوا ربهم واتقوه ، وتركوا المعاصى وأقبلوا على الطاعات ، أحسن الله إليهم وجازاهم على حسن صنيعهم بالجنات والفُرش من الحرير والحور العين الأبكار الفاتنات .

٥٣٣ ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ ٥٥ ـ الواقعة (٥٦)

الهيم : الإبل العطاش التى لا تَرْوى لإصابتها بداء تعطّش منه عطشا شديدا ، فلا تزال تشرب حتى تهلك أَو تسقَم سقماً شديدا ، واحدها أَهْيَمْ والأنثى هَيْماء ؛ ويسمى هذا الداء الهُيام (١) .

قال الزمخشرى : يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزَّقُّوم (وهو شجر فى جهنم قبيح المنظر كريه الطعم والرائحة) فإذا أكلوا وملأوا منه البطون ، سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم ، وهو الماء الذى اشتد غليانه ، فيقطع أمعاءهم وهم يشربونه شرب الهيم .

وقيل : الهيم الرمال التى لا تروى من الماء لتخلخلها . ونورد سباق الآيات كاملا : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم ﴾ الآيات من ٥١ إلى ٥٥ .

قرأ نافع وعاصم وحمزة « شُرب » بضم الشين ، وقرأ الباقون بفتحها . تقول العرب : شربت شُرْبًا وشَرْبًا وشِربًا .

---

(١) الهُيام : أشد العطش ؛ والهُيام كالجنون من العشق ؛ والهُيام داء يأخذ الإبل فتهيم فى الأرض لا ترعى .

الإدْهان والمداهنة : التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللِّين وأن يُسر خلاف ما يظهر[١] ، والمدْهن الذى ظاهره خلافُ باطنه ، كأنه شُبه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . والمدهن : المنافق الذى يَلين جانبه ليخفى كفره . والفعل منه داهَنَ وأدْهَنَ[٢] .

وأصل الإدهان : جعل الأديم (الجلد) ونحوه مدهونا بشىء من الدهن حتى يلين . ثم صار حقيقة عرفية فى المداراة والملاينة . وتُجُوِّزَ به هنا عن التهاون ؛ لأن المتهاون فى الأمر يُلين جانبَه ولا يتصلب فيه . وعلى هذا يكون معنى التعبير : أفبهذا الحديث أى القرآن الذى ذُكرت أوصافه الجليلة فى الآيات السابقة[٣] أنتم متهاونون كمن يتهاون فى الأمر ويلين فيه استهانة به .

وعن ابن عباس والزجاج ، « مدهنون » : مكذبون . وقال مجاهد : مدهنون أى ممالئون الكفار على الكفر به . وقال الضحاك : معرضون .

---

(١) قال أبو قَيْس الأسْلت :

الحزم والقوة خير من الإ ... دهان والفَهَّه والهاع

(٢) وقال قوم : داهنت بمعنى واريت ، وأدهنت بمعنى غَشَشت .

(٣) الآيات هى : « إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ من ٧٧ إلى ٨٠ .

٥٣٥ ﴿ وَأَنفقُوا ممَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فيه ﴾

﴿آمنُوا باللَّه ورَسُولِه وَأَنفقُوا ممَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذين آمَنُوا منكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ٧ ـ الحديد (٥٧)

﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ أى صدقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله ، لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال الصالحة .

﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ : هذا دليل على أن أصل الملك لله ـ سبحانه ـ فأنفقوا وتصدقوا من أموال الله التى فى أيديكم وقد أعطاكم إيها تستمتعون بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ـ وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب . ويسهل عليكم الإنفاق والبذل منها فى سبيل الله كما يسهل على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له بذلك .

وقال الحسن : ﴿ مستخلفين فيه ﴾ بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم من الوالدين والأقارب والأزواج ، وورَّثكم إياه ، فاعتبروا بحالهم ، حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى الذين من بعدكم ، فلا تبخلوا وانفعوا أنفسكم بالإنفاق منه فى سبيل الله .

روى الإمام أحمد عن مطرف عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مَالى مَالى وهل لك من مَالك إلا ما أكَلْتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبْليْتَ ، أو تصدَّقتَ فأبقيتَ » وَرواه مسلم أيضا وزادَ عليه : « وما سوى ذلك فذَاهِبٌ وتاركهُ للناس » .

٥٣٦ ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١)

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ٢٠ ـ الحديد (٥٧)

غَرَّ فلانًا يَغُرُّهُ غَرًا : خدعه وأطمعه بالباطل ، يقال : غَرَّه الشيطان ، وغَرَّته الدنيا .

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ : متاعها متاع خداع ، متاع الباطل الفانى . فما هى إلا لهو ولعب لا ثمرة له سوى التعب . قيل : اللعب الاقتناء وما رغب فى الدنيا . واللهو النساء وما ألهى عن الآخرة . « وتفاخر بينكم » بالخلقة والقوة وبالأنساب ، وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قال : ﴿ إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد ﴾ . ﴿وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة .

ثم ضرب الله تعالى مثلا لها . إنه الزرع الذى يترعرع إذا جاده الغيث والمطر ويعجب به الكفار أى الزراع لأنهم يغطون البذور من الفعل كفَر : غطى وستر . وقيل الكفار هم الكافرون بالله عز وجل ، لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين ، فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ومنهم يظهر التعظيم للدنيا وما فيها . « ثم يهيج » هذا النبات أى يجف بعد خضرته ويصفر بعد نضرة « ثم يكون حطاما » أى فتاتا وتبنا ـ وهكذا الحياة الدنيا منقضية ، ومتاعها خادع زائف .

---

(١) ورد التعبير أيضا فى ١٨٥ ـ آل عمران .

٥٣٧ ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ٢٣ ـ الحديد (٥٧)

عن ابن مسعود أن نبى الله ﷺ قال : « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه (١) وما أخطأه لم يكن ليصيبه » ثم قرأ ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم . ذلك أن ما يصيب الإنسان من القحط وقلة الثمار وضيق المعاش أو من الأوصاب والأسقام إلا كان مثبوتا فى اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله الأرض والنفس وهذا هو ما جاء فى الآية السابقة : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

أى أخبرناكم بذلك لكى لا تأسوا أى لا تحزنوا من الأسى وهو الحزن . يقال : أسِىَ على كذا يأسَى أسىً : حزن .

﴿ على ما فاتكم ﴾ من نعم الدنيا حزن قنوط .

﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم منها ﴾ فَرَحَ بَطَر وأشَر ؛ فإن من علم أن ذلك مُقَدَّر أزلاً فى اللوح المحفوظ ، رضى واطمأن وصبر وشكر .

---

(١) أخطأ الهدفَ ونحوه : لم يُصِبْه .

٥٣٨ ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ١١ ـ المجادلة (٥٨)

فى هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله . قال رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ، أخرجه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

وقول الله عز وجل : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ١١٤ ـ طه واضح الدلالة فى فضل العلم ، لأن الله تعالى لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شىء إلا من العلم .

قال البخارى : العلمُ قبل القول والعمل [1]، لقول الله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورَّثوا العلم ، من أخذه بحظ وافر ، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة . وقال جل ذكرُه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وقال ﴿ هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . وقال النبى ﷺ : ﴿ من يرد الله به خيرا يفقهه ﴾ .

وننقل شيئا مما جاء فى « فتح البارى يشرح صحيح البخارى » تعليقا على كلام البخارى . « فبدأ بالعلم » أى حيث قال « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ثم قال ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ . والخطاب ، وإن كان للنبى ﷺ ، فهو متناول لأمته . واستدل سفيان بن عيينة بهذه الآية على فضل العلم .

قوله ﴿ وأن العلماء ﴾ بفتح أن ، ويجوز كسرها ، ومن هنا إلى قوله « وافر » طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم مصححا من حديث أبى الدرداء ، ولم يفصح المصنف (البخارى) بكونه حديثا . . . وشاهده فى القرآن : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا ﴾ ٣٢ ـ فاطر .

« ورثوا » بتشديد الراء المفتوحة (ورَّثوا) أى الأنبياء . ويُروى بتخفيفها مع الكسر (ورِثوا) أى العلماء . ويؤيد الأول ما عند الترمذى وغيره فيه : ﴿ وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورَّثوا العلم ﴾ .

---

(١) قال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط فى صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل .

قوله : ﴿ بحظ وافر ﴾ أى نصيب كامل .

قوله : ﴿ ومن سلك طريقا يطلب به علما ﴾ (١) نكَّر طريقاً ونكّر علماً ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى تحصيل العلوم ، وليندرج فيه القليل والكثير .

قوله : ﴿ سهل الله له طريقا ﴾ أى فى الآخرة ، أو فى الدنيا بأن يوفقه للأعمال الصالحة الموصلة إلى الجنة . وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لأن طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة .

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ٢٨ ـ فاطر أى يخاف من الله مَن عَلم قدرتَه وسلطانَه وهم العلماء ، قاله ابن عباس .

﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ٤٣ ـ العنكبوت أى الأمثال المضروبة : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ﴾ أى سَمْعَ من يعى ويفهم ، وعَقْلَ من يميز ، وهذه أوصاف أهل العلم ، فالمعنى لو كنا من أهل العلم لَعَلمنا ما يجب علينا فعملنا به فنجونا .

وقول النبى ﷺ : « من يُرد اللهُ به خيرا يفقهه » كذا فى رواية الأكثر . والفقه هو الفهم ، قال الله تعالى : ﴿ لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ ٧٨ ـ النساء أى لا يفهمون ، والمراد الأحكام الشرعية .

وفى نهاية هذا الباب (٢) نقل البخارى عن ابن عباس قوله :

« كونوا ربَّانيين حكماءَ فُقهاءَ . ويقال الربَّانى الذى يُربى الناسَ بصغار العلم قبل كباره . وقد فسر ابن عباس « الربانى » بأنه الحكيم الفقيه ، ووافقه ابن مسعود ؛ وقال الأصمعى والإسماعيلى : الربانى نسبة إلى الرب ، أى الذى يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل ؛ وقال ثعلب : قيل للعلماء ربانيون لأنهم يربون العلمَ أى يقومون به . والمراد بصغار العلم ما وضُح من مسائله ، وبكباره مادَقَّ منها . وقيَل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعَه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده . وقال ابن الأعرابى : لا يقال للعالم ربانى حتى يكون عالما معلما عاملا .

---

(١) هذه العبارة جزء من الحديث الذى أوله « وأن العلماء هم ورثة الأنبياء » والذى أخرجه الترمذى . وخرج هذه العبارة الإمام مسلم أيضا . لكن البخارى لم يفصح بأنه حديث .

(٢) هو باب « العلم قبل القول والعمل » ورقمه (١٠) فى كتاب : « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى .

﴿ وَالَّذين تَبوَّءوا الدَّار وَالإِيمَانَ من قَبْلهم يُحبُّونَ مَنْ هَاجَر إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٩ ـ الحشر (٥٩)

الخَصَاصَةُ : الفقر والحاجة وسوء الحال . وفعله خَصَّ يخَصُّ خَصَاصًا وخصاصةً : افتقر .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ : آثَرَه إيثاراً : اختاره وفضّله ، ويقال آثره على نفسه . والإيثار : تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياوية ورغبة فى الحظوظ الدينية . وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة . ومفعول الإيثار محذوف ، أى يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ، لا عن غنى بل مع احتياجهم إليها .

روى الترمذى عن أبى هريرة أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لأمرأته : نوِّمى الصِّبية وأطفئى السراج وقَرِّبى للضيف ما عندك ؛ فنزلت هذه الآية . وورد هذا الحديث فى صحيح مسلم كذلك .

« ولو كان بهم خصاصة » أى ولو كان بهم فاقة وحاجة . حُكى عن أبى الحسن الأنطاكى أنه اجتمع عنده نَيِّف وثلاثون رجلا بقرية من قُرى الرَّى ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئا ؛ إيثارا لصاحبه على نفسه .

انتصر المسلمون فى يوم بنى النضير بلا قتال وغنموا أموال هؤلاء اليهود (١) ، وكان المهاجرون فى دور الأنصار ، فدعا النبى ﷺ الأنصار وشكرهم على ما صنعوه مع المهاجرين حيث أنزلوهم فى منازلهم وأشركوهم فى أموالهم (أى أنزل الأنصارُ فى منازلهم المهاجرين) ثم قال : « أن أحببتم قسمت ما أفاء (٢) الله علىَّ من بنى النضير بينكم وبينهم (٣) ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم » فقال سعد بن عُبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه (أى الفئ) بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا (٤) ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا

(١) غَنم الغازى فى الحرب : ظَفَر بمال عدوه .

(٢) أفاءَ عليه المالَ : جعله فَيْئًا له ، والفَيْءُ : الغنيمة تُنال بلا قتال .

(٣) بينكم أيها الأنصار وبين المهاجرين .

(٤) انظر : تفسير القرطبى .

يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا ثلاثة محتاجين . قال ابن عباس قال النبى ﷺ للأنصار يوم بنى النضير : « إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئا » فقالت الأنصار : « بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ؛ فنزلت : « ويؤثرون على أنفسهم » الآية .

﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان ﴾ : هم الأنصار تبوؤوا المدينة ، دار الهجرة ، أى استوطنوها ، والتبوء : التمكن والاستقرار ؛ واعتقدوا الإيمان وأخلصوه . « من قبلهم» أى من قبل المهاجرين فالأنصار استوطنوا المدينة من قبل أن يهاجر المهاجرون إليها .

﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ يعنى لا يحسدون المهاجرين على ما خُصوا به من مال الفَىْءِ وغيره . وفيه تقدير حذف مضافين والمعنى : ولا يجدون فى صدورهم مَسَّ حاجة من فَقْد ما أوتوا . والحاجة هى كل ما يجد الإنسان فى صدره أنه محتاج إلى إزالة .

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) : جاء فى الصحاح : الشح البخل مع حرص . وقال القرطبى : الشح والبخل سواء . والصفة : شحيح ، تقول : رجل شحيح وقَوم شحاح وأشحة . وقال الزمخشرى : الشح أن تكون نفس الرجل كَزَّة حريصة على المنع ، قَال الشاعر :

يُمارسُ نفسًا بين جَنْبيه كَزَّة . . إذا هَمَّ بالمعروف قالت مَهْلاً (٢)

وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها ، ومنه قوله تعالى : « وأحْضرت الأنفس الشّحَّ »(٣) .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ أى من غَلَّب ما أمرتُه به على ما ركب فى النفس من شح وخالف ـ بتوفيق الله ـ ما يغلب عليها من حب المال وبُغض الإنفاق ، ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى الظافرون . جاء فى تفسير القرطبى أن النبى ﷺ كان يدعو « اللهم إنى أعوذ بك من شح نفسى وإسرافها ووساوسها » . وقال ﷺ : ﴿ اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمَهم » .

---

(١) ورد هذا التعبير أيضا فى الآية ١٦ من سورة التغابن .

(٢) يصف رجلا بالبخل ، وأنه يعالج نفسه التى بين جنبيه . كَزَّة : شحيحة منقبضة عن فعل الخير إذا غلبها. فإذا أراد المعروف دعته نفسه ثانية إلى البخل وحجبته عن البذل ، فكأنها قالت له : أمهل فيطاوعها .

(٣) انظر هذا التعبير ورقمه ١٢٣ .

٥٤٠ ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٥ - الممتحنة (٦٠)

فَتَنَ المعدنَ يفتِنُه فَتْنًا وفُتونًا : صَهَرَه فى النار ليختبره وفَتَنَ فلانًا : عذبه ليحوله عن رأيه أو دينه .

والفتنة : الاختبار بالنار ، ومن معانيها كذلك : الابتلاءوالعذاب . قال حسنين مخلوف : الفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون أى المعَذَّب ، وفَسّر « لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » بقوله : لا تجعلنا مفتونين مُعَذَّبين بهم ، بأن تُسلطهم علينا فيفتنونا أى يعذبونا بعذاب لا نحتمله ؛ وفى هذا المعنى قيل : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا .

وقال القرطبى : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » أى لا تُظهر عدونا علينا [1] فيظنوا أنه على حق فيفتتنوا بذلك أى يرون أنهم إنما ظهروا علينا لأنهم علىَ حق . وهذه شبهة كثيرا ما تحيك فى الصدور حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان . والمؤمن يصبر على هذا ، لكن هذا لا يمنعه من أن يدعو الله ألا يصيبه بلاء يجعله فتنة وشبهة تحيك فى الصدور .

---

(١) أظْهَرَ فلانًا على عدوه : أعانه .

٥٤١ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ٢ ، ٣ ـ الصف (٦١)

جاء هذا التعبيرَ على امتداد آيتين [١] . والآية الأولى تضمنت استفهاما على جهة الإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله . وإذا قال عن نفسه إنه فعل فى الماضى ما لم يفعله فإن هذا يكون كذبا وإذا قال سوف يفعل فى المستقبل ولا يفعل فيكون هذا خُلفاً ، والكذب والخلف كلاهما مذموم .

« لِمَ » مكونة من لام الإضافة وما الاستفهامية . وما الاستفهامية دخل عليها حروف جر أخرىَ غير اللام ، كما فى قولك بِمَ ، وفيمَ ، ومِمّ ، وعَمّ ، وإلامَ ، وعلامَ وحُذفت ألف ما الاستفهامية تخفيفا لكثرة استعمالهما معا .

« كَبُر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » : أنْ رفع بالابتداء وما قبلها الخبر ؛ وكأنه قال : قولكم ما لا تفعلون مذموم . وقال الكسائى : « أن » فى موضع رفع ، لأن « كبُر » فعلٌ بمنزلة بئس ، و « مقتاً » نصب بالتمييز والمعنى : كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا . والمقت والمقاتة مصدران ؛ يقال : رجل مَقيت وممقوت إذا لم يحبه الناس .

« عند الله » إذا ثبُت كبَرُ مقته عند الله ، فقدتم كبرُه وشدته وانزاحت عنه الشكوك . فيل لبعض السلف : حَدِّثنا ، فسكتَ ، ثم قيل له : حدثنا ؛ فقال : أتأمروننى أن أقول مالا أفعل فأستعجل مقت الله .

قال ابن كثير فى التفسير إن جمهور المفسرين حَمَلَ الآية على أن ناسا من المؤمنين تمنوا فريضة الجهاد أن تفرض عليهم ، فلما فرُض الجهاد نكل عنه بعضهم وشق عليهم أمره . فنزلت الآية تعاتبهم على ذلك . ولهذا نرى أن الآية التالية تشير إلى الموضوع المباشر الذى قالوا فيه ما لم يفعلوه ، وهو الجهاد . وتقرر هذه الآية ما يحبه الله فى الجهاد والقتال وما يرضاه فقال عز وجل : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ .

ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التى تنزل الآيات لمواجهتها ، وأشملَ لحالات كثيرة غير الحالة التى نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة ، مع اعتبار الحادث الذى تذكره روايات النزول .

---

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ ٤٤ ـ البقرة ، وهو التعبير رقم ١٣ .

٥٤٢ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٥ ـ الجمعة (٦٢)

أسفار : جمع سِفْر ، وهو الكتاب ، سَفَرْت الكتابَ أَسْفِرُه سَفْرًا : كتبته .

« حُمِّلوا التوراة » : كُلِّفوا حملَها والعملَ بما فيها .

« ثم لم يحملوها » أى لم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ، ومنه ما ورد فيها من نعت النبى ﷺ فلم يؤمنوا به .

﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ أى مثلهم فى عدم الانتفاع بما فى التوراه كمثل الحمار فى عدم انتفاعه بما يحمل من كتب كبيرة ، فهو لا يدرى ما فيها ولا يدرك قيمته لأنه لا فهم له . أما هم فلهم عقول تفهم لكنهم لم يستخدموها ، ومن ثم فَهُم أسوأ حالاً من الحمير . إنها صورة زَرِيَّة بائسه ، ومَثَل سيء شائن ، لكنها صورة تعبر عن حقيقة صادقة .

فالآية فى ذم اليهود الذين أعطوا التوراة للعمل بها . لكنهم لم يتفهموها ولا عملوا بمقتضاها ، بل أولوها وحرفوها وبَدَّلوها .

تذكر الآية أن اليهود قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التى لا تحملها إلا القلوب الحية المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل . وحمل أمانة التوراة بما فيها من عقيدة وشريعة يبدأ بالإدراك والفهم والفقه وينتهى بالعمل لتحقيق مدلولها فى عالم الضمير والواقع ـ ولكن سيرة بنى إسرائيل ، كما عرضها القرآن الكريم ، لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ، ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها . وكل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها من مسلمين يقرأون القرآن ولا ينهضون بما فيه إنما مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا .

﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ أى بئس مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، على أن التمييز محذوف . ويجوز أن يكون المخصوص بالذم محذوفا ، والتقدير : بئس مثلُ القوم المكذبين مَثَلُ هؤلاء .

٥٤٣ ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

١٥ ـ **التغابن** (٦٤)

جاء فى تفسير الجلالين : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لكُم شاغلة عن أمور الآخرة . « والله عنده أجر عظيم ﴾ فلا تفوتوه باشتغالكم بالأموال والأولاد .

وقال الشوكانى : إنما الأموال والأولاد بلاء واختبار ومحنة يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله تعالى ، فلا تطيعوهم فى معصية الله . « والله عنده أجر عظيم » لمن آثر طاعته وترك معصيته فى محبة ماله وولده .

٥٤٤ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مخرجًا ويرزُقْهُ من حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يتوكَّلْ على اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ٢ ، ٣ ـ الطلاق (٦٥)

خَرج من مقره يخرج خُروجًا : برز منه ، واسم المكان : مَخْرَج . وعن النبى ﷺ أنه قرأ هذه الآية فقال : « مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » .

وقال أبو ذر قال النبى ﷺ : « إنى لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم » ثم تلا الآية فما زال يكررها ويعيدها .

وقال عمر بن عثمان الصدفى : ﴿ ومن يتق الله ﴾ فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال ومن الضِّيق إلى السَّعَة ومن الجنة إلى النار .

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » وأخرج أحمد عن وهب قال يقول الرب تبارك وتعالى : ﴿ إذا توكل عَلَيَّ عبدى لو كادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج ﴾ .

احتسب الشيءَ : مأخوذ من حَسِبَه بمعنى ظنه ، أو مأخوذ من حَسَبه بمعنى عدَّه .

﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ أى من حيث لا يظن ولا يتوقع ، أى من وجهة لا تخطر بباله ومن حيث لا يدرى . وقال ابن عُيَيْنَةُ : هو البركة فى الرزق . وروى ابن أبى حاتم عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكَلَهُ(١) إليها » .

قال الشوكانى : من يتق عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والوقوف على حدوده التى حدَّها لعباده ، يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد والمحَن ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون فى حسابه .

حَسْبُه اللهُ : كافيه وكفيل به .

حَسْب : اسم بمعنى كافٍ . وتكون اسم فعل فى قولهم : حَسْبك هذا أى اكتف به .

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أى من فَوَّضَ إليه أمرَه ، كفاه ما أهمَّه . روى أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة والحاكم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لو

---

(١) وكَلَ إليه الأمرَ يكله وكْلاً : سلَّمه .

أنكم توكلتم على الله حق توكله لرُزقتُم كما تُرزَق الطير تَغدو خماصًا [١] وتروح بطاناً [٢] » .
وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما فقاله له : « يا غلام إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ورُفعَت الأقلام وجفت الصحف » وقد رواه الترمذى أيضا .

وقال الربيع بن الخيثم : إن الله تعالى قضى على نفسه أن من آمن به هداه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به نجاه ، ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ١١ ـ التغابن . ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ٣ ـ الطلاق . ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم ﴾ ١٠١ ـ آل عمران . ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ١٨٦ ـ البقرة .

---

(١) غَدا يغدو غُدُواً : ذهب وانطلق . خماص : جمع خميص وهو مَنْ دخل بطنُه فى جوفه من شدة الجوع .
(٢) راحت الإبلُ وغيرُها تروح رَوْحا : أَوت بعد الغروب إلى مَراحِها . بِطان جمع بَطِن وهو الذى عظُم بطنه من الشِّبع .

٥٤٥ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٦ ـ التحريم (٦٦)

وقاه المكروه يقيه وَقْيًا ووقايةً : حماه منه وحفظه أن يناله . والأمر منه للمفرد : قهْ بزيادة هاء السكت ، وقُوا للجمع .

ووقاية النفس تكون بترك المعاصى ولزوم الطاعات ، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتوجيه .

إن تبعة المؤمن فى نفسه وفى أهله تبعة ثقيلة . وكما أن المؤمن مكلف بهداية نفسه وإصلاح قلبه ، فإنه مكلف كذلك بهداية أهله وإصلاح أسرته . فالإسلام دين أسرة ، والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة ، ولابد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها ـ كل فرد فيها يقف على ثغرة لا يُنفذ إليها . وواجب المؤمن أن يؤمِّن هذه القلعة من داخلها ، وأن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله .

ففى صحيح الحديث أن النبى ﷺ ، قال « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » . وقال عليه السلام : « حقُّ الولَد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ » (١) . وقال أيضا : « ما نَحَلَ (٢) والدٌ ولداً أفضل من أدب حسن » ، وروى عنه ﷺ قوله : «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » رواه أبو داود .

وعلى الرجل أن يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر . وقد روى مسلم أن النبى ﷺ قال :

« رحم الله امرأً قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فإن لم تَقُم رَش وجهها بالماء . رحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء» . وذكر القشيرى أن عمر رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية : يا رسول الله ، نقى أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال : « تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله» .

وقال تعالى : ﴿ وأمُرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ١٣٢ ـ طه ، وقال تعالى لنبيه : «وأنْذر عشيرتك الأقربين » ٢١٤ ـ الشعراء . ويدخل هذا فى عموم قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ ٢ ـ المائدة .

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس .

(٢) نَحلَ فلا نا ينحله نُحلاً : تبرع له بشىء . ورد الحديث فى تفسير القرطبى .

٥٤٦ ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ ٤٢ ، ٤٣ ـ القلم (٦٨)

كشف الساق والتشمير عنها كناية عن اشتداد الخطب وعظم الأمر ، وفى المثل «كشف عن ساقه» وهو مثل يُضرب فى شدة الأمر ، كقولهم : شَمَّرت الحربُ عن ساقها (١) .

والأصل فى معنى هذا التعبير أن من وقع فى شىء يحتاج فيه إلى الجد شَمّر عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عنها فى موضع الشدة .

﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ هو يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والكرب والشدة والزلازل والبلاء والامتحان .

وقيل : ساق الشىء أصلهُ الذى به قوامه ، كساق الشجرة وساق الإنسان ، ويكون المعنى على هذا : هو يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها .

﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ : فى يوم القيامة حيث يشتد الكرب ، يدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم يكونون ﴿مهطعين مقنعى رؤوسهم ﴾ (٢) وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم .

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أى ذليلة متواضعة . نصبت على الحال . والفعل خشع معناه رمى ببصره نحو الأرض .

« ترهقهم ذلّة » : رَهقَه المكروه يرهقُه رَهقًا : غَشيَه . ذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسَهم ووجوهُهم أشدَ بياضا مَن الثلج ، وتسوَدّ وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سوادا من القار ، ويكونون فى ذلة مُرهقة .

« وقد كانوا يدعون إلى السجود» فى الدنيا « وهم سالمون» أى معافون أصحاء . وقال سعيد بن جبير : كانوا يسمعون «حَىَّ على الفلاح»فلا يجيبون .

---

(١) قال الشاعر :

فتى الحرب إن عضّت به الحرب عضّها ... وإن شَمَّرت عن ساقها الحربُ شَمَّرا

وقال الراجز :

قد كشفت عن ساقها فَشُدُّوا ... وَجَدَّت الحربُ بكم فَجِدُّوا

(٢) ٤٣ ـ إبراهيم .

٥٤٧ ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ ١٩ ، ٢٣ ـ المعارج (٧٠)

الْهَلَعُ فى اللغة : أشَدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه .

والفعل هَلِع يَهْلَع فهو هَلِع ، وهلوع صيغة مبالغة للتكثير . والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شر حتى يَفعل فيهما مالاَ ينبغى .

وفسر الله الهلوع فى الآيتين التاليتين : هو الذى إذا ناله الشرُّ أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله الخيرُ بَخل به ومنعه الناس ﴿ إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا ﴾ وقال النبى ﷺ : « شَر ما أُعطىَ العبدُ شُحٌ هالع وجُبْن خالع » . والعرب تقول : ناقة هلواعة وهلواع إذا كانت سريعة السير خفيفة . وقال ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يَسره ويرضيه ويهرب مما يكرهه ويسخطه . ثم تعبده الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره .

﴿ إذا مسه الشر جزوعا ﴾ : إذا أصابه الضر فزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير . الجزع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال ما ينزَل بها من مكروه .

﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴾ : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها . ويقال : يمنع أن يبخل بماله ، والمنوع الذى يكثر منه مَنعُ الفقيرِ خيرَه .

﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ : يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، فيراعون إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيمون أركانها ويكملونها بسننها وآدابها ، ويحفظونها من الإحباط فلا يقترفون الآثام . دائمون من الفعل : دامَ على الشيء أى واظب عليه .

548 ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

٢٤ ، ٢٥ ـ **المعارج** (٧٠)

المعنى فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات .

« حق معلوم » يريد الزكاة المفروضة ، قاله قتادة وابن سيرين وقال مجاهد : حق معلوم غير الزكاة . وعن ابن عباس : صلةُ رحِم وحَمْلُ كَلٍّ .

والأول أصح ، لأنه وصف الحق بأنه معلوم ، وغيرُ الزكاة ليس بمعلوم . ولعل المعنى أشمل من هذا وأكبر ، وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا فى الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبآصرة الإنسانية من جهة ، فضلا عن أنه تحرر من ربقة الشح ؛ كما أنه ضمانة لتكافل الأمة .

للسائل أى للذى يسأل . وفى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » : سأله أى طلب معروفَه وإحسانه . والسائل : الطالبُ المعروفَ والإحسان . روى الإمام أحمد وأبو داود عن النبى ﷺ أنه قال : « للسائل حق وإن جاء على فرس » .

« فى أموالهم حق » أى جزء مقسوم أفرزوه للسائل والمحروم .

والمحروم هو الذى لا يجد ما يدفع حاجته وهو متعفف لا يسأل الناس .

وقال الزمخشرى فى « الكشاف » : هو الذى يتعفف عن السؤال ، فيُحسبُ غنيا فيُحْرَم . وقالت أم المؤمنين عائشة هو المُحَارف (١) الذى لا يكاد يتيسر له مكسبُه . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غِنى يغنيه ولا يُفْطَنُ له فيُتَصدّق عليه » .

(١) المُحَارِف : المحروم الذى يطلب فلا يُرزَق ، وهو خلاف المُبارَك .

٥٤٩ ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ١٠ ، ١١ ـ نوح (٧١)

غَفَرَ يَغْفِر غَفْرًا ومغفرة وغُفرانًا . وأصل الغفر التغطية والستر فالمادى فيه هو الستر وإلباس ما يصون من الدنس[1] .

ومنه غَفَر اللهُ ذنوبَه أى سترها وعفا عنه . وهو ـ جل ثناؤه ـ الغفور الغفار ، وهما من أبنية المبالغة ومعناهما الساترُ لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم .

استغفر : طلب الغفر والغفران . « إنه كان غفارا » : ترغيب منه فى أن يتوب العبد .

« يرسل السماء عليكم مدرارا » : فى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الرزق . وكلمة مدرار معناها كثيرة الدر وتسكاب المطر . والفعل درَّت السماءُ أو السحابة : نزل منها المطر غزيرا متواصلا متتابعا ، وأصله : درت ذاتُ اللبن تَدِرُّ وتدُرّ دَرًّا ودُرورًا : نزل من ضرعها اللبن غزيرا .

وفى القرآن الكريم مواضع تكرر فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء . قال تعالى : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ ٥٢ ـ هود . قال : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ ٩٦ ـ الأعراف . وقال عن أهل الكتاب : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ٦٦ ـ المائدة . وقال : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ ٣ ـ هود .

هذه القاعدة التى تربط بين الاستغفار والاستقامة وبين الرزق قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها المتمثلة فى وعد الله وفى سنة الحياة .

كما أن الواقع العملى يشهد بتحققها على مدار القرون ؛ فما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته وحققت العدل والأمن للناس جميعا ، إلا فاضت فيها الخيرات ومكن لها الله فى الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح .

---

(١) وتقول العرب : اصبغ ثوبك بالسَّواد فهو أغْفَرُ للدنس ، أى أحْمَلُ له وأغْطى له .

أطمعهم نوح فى الرزق الوفير الميسور إذا استغفروا ربهم ، وأن هذا الرزق سيأتى لهم من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها ، وهى المطر الغزير الذى تنبت به الزروع وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التى يحبونها ـ وهى البنين ـ والأموال التى يطلبونها .

والاستغفار لابد وأن يكون عن إخلاص وإقلاع عن الذنوب ، وهو الأصل فى الإجابة .

﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أى يرسل ماء السماء ، ففيه إضمار . وقيل : السماء المطر ، أى يرسل المطر . قال الشاعر :

إذا سقط السماءُ بأرض قوم رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

« مدرارا » منصوب إما على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى إرسالا مدرارا . وإما على أنه حال من السماء ، ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث (تقول امرأة مئناث ومذكار) .

« يُرسل » جُزِم لكونه جواب الأمر (استغفروا) .

٥٥٠ ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

٣ - الجن (٧٢)

جَدّ يَجِدُّ جِدًا : عظُم .

والجَدّ في اللغة : العظمة والجلالة . وفى الحديث : « تبارك اسمك وتعالى جدك». ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدّفى عيوننا .

فمعنى جَد ربنا : عظمته وجلاله ، قاله عكرمة ومجاهد وقتادة .

وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه .

وقال أنس بن مالك والحسن : غناه ؛ وفى الحديث : « ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ قال أبو عبيد والخليل : أى ذا الغنى منك الغنى ، إنما تنفعه الطاعة .

وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالى هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله ـ سبحانه ـ وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا .

الصاحبة : الزوجة .

والولد : كل ما وُلد (ويطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع) .

كانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته مع صهر من الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة . وكانت الجن حرية أن تفخر بهذه المصاهرة الخرافيه لو كان يشبه أن تكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات المشركين ، وكل تصور يشبه هذه التصورات ممن زعموا أن لله ـ سبحانه ـ ولدا فى أى تصور وفى أية صورة .

ومعنى الآية : وأنه تعالى جلال ربنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما ، والرب يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد النظراء .

٥٥١ ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ ١٧ ، ١٨ ـ المزمل (٧٣)

شابَ فلانٌ يشيب شَيْباً وشَيْبَةً : ابيضَّ شعرُه . ويقال : شاب الشعرُ وشاب الرأس ، فهو شائب وأشْيَب ، والجمع : شيب (بكسر الشين) .

وأشابَ الكِبَرُ أو الحزنُ أو الخوفُ فلانًا : هَرَّمه وبيَّض شعرَه .

« الولدان » : الصبيان .

« يجعل الولدان شيبا » : هذا مثل فى الشدة . يقال فى اليوم الشديد : يوم يُشيب نواصى الأطفال ؛ والأصل أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت واشتدت على الإنسان ، أسرع فيه الشيبُ . قال أبو الطيب :

والهَمُّ يخترم الجسيم نحافةً ويُشيب ناصيةَ الصبى ويَهْرَم

فى هذه الآية توبيخ وتقريع . وفيها تقديم وتأخير ؛ أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم . « يوما » مفعول بـ « تتقون » .

﴿ السماء منفطر به ﴾ أى متشققة لشدته ، من الفعل انفطر الشىءُ أى تَشَقَق . ومعنى « به » فيه ، أى فى ذلك اليوم لهوله . وقيل به أى له أى لذلك اليوم ، يقال : فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك والباء واللام وفى متقاربة فى مثل هذا الموضع ؛ قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ أى فى يوم القيامة . وقيل : به أى بالأمر الذى جعل الولدان شيبا .

فالسماء ، مع عظمها وإحكامها ، تتصدع وتتداعى من هول ذلك اليوم ـ فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ والمراد بالسماء : كل ما فوقك من السموات والكواكب والنجوم وغيرها مما أظلك وعلاك .

جمعه : أى جمع القرآن فى صدرك بحيث لا يذهب ولا يتفلت شىء منه عليك . تكفل الله أن يجمعه فى صدر نبيه ﷺ .

وفى رواية للإمام أحمد : فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه . وفى رواية للبخارى : فكان النبى إذا أتاه جبريل بعد ذلك أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

الآية تطمئن الرسول إلى أن أمر هذا الوحى موكول إلى صاحبه ـ جل شأنه ـ ودوره ، ﷺ ، هو تلقيه وإبلاغه ، وسوف يجده فى صدره منقوشا ثابتا .

﴿ قرآنه ﴾ جريانه على لسانك ، أى قراءاتك له أى القرآن . قال الفراء : القراءة والقرآن مصدران ، قرأ الكتاب يقرؤه قراءةً وقرآناً : تلاه أى نطق بكلماته المكتوبة .

وقال حسنين مخلوف : معنى قرآنه أن تقرأه بلسانك متى شئت ومثله قوله تعالى فى الآية ٦ من سورة الأعلى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ أى القرآن يا محمد فنعلمكه ، نقرئك القرآن على لسان جبريل فتحفظه ولا تنساه ـ فلا للنفى لا للنهى .

---

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ٩ ـ الحجر .
وقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾ ٧٧ ، ٧٨ ـ الواقعة .
وقوله : « بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ ٢١ ، ٢٢ ـ البروج .

٥٥٣ ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ٣٦ ـ القيامة (٧٥)

أَسْدَى الإبلَ يُسْدِيها : أهملها .

وهو سُدًى : مُهْمَل ، يستوى فيه الواحد وغيره . يقال : إبل سُدًى أى ترعى بلا راع ، وامرؤ سُدًى .

قال الشاعر :

فأقسم بالله جَهْد اليمين ما ترك الله شيئا سدى

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » مُهملا فلا يُبْعَث ولا يُجازى .

والمقصود هنا إثبات المعَاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد . فالإنسان لا يترك فى قبره سدى لا يُبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . ولهذا قال فى الآية التالية مستدلا على الإعادة(أى البعث) بالابتداء (أى بدء الخلق) :

« ألم يك نطفة من منى يمنى » .

« أيحسب الإنسان » : أيظن ، والاستفهام إنكارى .

قال ابن زيد فى تفسير « أن يترك سدى » أى أن يُخلى مهملا فى الدنيا فلا يُؤمر ولا يُنهى . وقيل : أيحسب أن يترك فى قبره فلا يُبعث ، والظاهر أن الآية تعم الحالين كما قال ابن كثير .

كانت الحياة فى نظر الناس حركة لا علة لها ولا هدف : أرحام تدفع وقبور تبلع ، وبين هاتين لهو ولعب وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان . وكان بعيدا عن تصورهم أن يكون هناك ناموس وراءه هدف ، ووراء الهدف حكمة ، وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يميز الإنسان عن الحيوان هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات ، وبوجود الهدف والغاية من وجوده ومن الوجود كله . وهذه اللمسة « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » توجيه للقلب كى يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب التى تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة لهذا الوجود .

قرأ ابن سيرين ومجاهد وأبو حَيْوَة وابن أبى عبلة : « عليهم» بدلا من « عاليهم » ، وهى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة [١] - أى عليهم ثيابُ سندس .

قال الفراء وابن عطية : « عاليَهم » بمعنى فوقهم - أى فوقهم ثياب سندس .

وقال الزجاج وأبو حيان : « عاليَهم » اسم فاعل ، من علاَ الشىءُ يعلو ، وهو عال وهى عالية ، ونصب على الحال من الهاء والميم فى « ويطوف عليهم » أى على الأبرارِ [٢] ، وعاليهم أى عاليا الأبرارَ ثيابُ سندس (أى أن الثياب تعلو الأبرار) .

قرأ نافع وحمزه وابن محيصن « عاليهم » بسكون الياء وكسر الهاء .

« عاليهم ثياب سندس خضر » : هذا التعبير القشيب دوما ما برح يلمع ويتلألأعلى مر الأزمان تلألؤالماسة الفريدة الخلابة .

السندس : مَارقَّ من الديباج [٣] أى رقيقُ الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى الأبدان . أى أن لباسَ أهل الجنة السندسُ ، وهو الحرير الرفيع الرقيق ، والإستبرق وهو ما غَلُظ من الحرير ، وهى كلمة فارسية معربة .

ومعنى التعبير : يعلوهم ويُجَمل أبدانهم ثياب من رقيق الحرير ، وثياب أخرى فوقها من غليظ الحرير .

وفى التعبير ثلاث قراءات :

قرأ نافع وحفص برفع « خُضْرٌ وإستبرقٌ » على أن « خضر » نعت للثياب (فالثياب جمع والنعت يتبع المنعوت إفرادا وجمعا) ، و « إستبرق » معطوف على « ثيابُ » .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بجَرِّ « خضر وإستبرق » على أن خُضر نعت لسندس ، واستبرق معطوف على سندس ويكون المعنى : ثياب سندسٍ وإستبرق .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بجرِّ خُضْر نعتًا لسندس ورفع إستبرق عطفا على ثياب لكن سندس مفرد فكيف يمكن أن يوصف بالجمع : خضر ؟ قيل فى الرد على هذا إن سندس اسم جنس وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على استقباح له ، مثل قولهم : أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدِّرهمُ البيضُ .

---

(١) قاله الشوكانى فى « فتح القدير » .

(٢) السياق هو : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضرو إستبرق وحُلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ الآيات من ١٩ إلى ٢١ .

(٣) الديباج : ضرب من الثياب سَداه ولُحْمته حرير .

555 ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (١) ﴾

٦ ، ٧ ـ النبأ (٧٨)

يمتد هذا التعبير عبر آيتين .

المهاد : الفراش ، والمهاد : المَمَهَّد للسير ، والمهاد : اللين كالمهد . وفعله : مَهَد الفراشَ يمهَده مَهْدًا : بَسَطه ووطَّأه . وجَعْل الأرض مهادا للحياة ـ وللحياةالإنسانية بوجه خاص ـ شاهدٌ لا يُمارَى فى شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة فى خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها ، أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة فى خلق الحياة لتعيش فى الأرض ـ الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهادا .

فمثلا يكسو الماء ثلاثة أرباع قشرة الأرض ، وهو ماء المحيطات الذى يتبخر منه ما يتبخرليسقط مطرا تكون به الحياة . ومن فوق المحيطات واليابسة كلها يوجد محيط من الهواء يدعى الجو الذى ـ لولاه ـ ما كان على الأرض حياة ، فالهواء يقف حائلا دون وصول أشعة الشمس القوية التى تقضى على الحياة ، وإنما يسمح لبعضها فقط بالنفاذ إلى الأرض ، وهذا البعض هوالذى يؤدى إلى تبخر ماء البحر ليسقط بعد ذلك مطرا تعيش بمياهه الكائنات الحية . و ٧٨٪ من الغلاف الجوى للأرض نيتروجين تحتاجه كل الكائنات الحية لأجل الغذاء . و ٢١٪ من هذا الغلاف هو غاز الأوكسيجين اللازم للتنفس وللاشتعال ، ولوزادت نسبته على ذلك لما أمكننا السيطرة على النار ولتحولت من أداة نافعة وأساسية فى حياتنا إلى حدائق تدمر كل شىء .

وجاذبية الأرض لو قلت عما هى عليه الآن لتحول مَشْى الإنسان عليها إلى قفز . وتحدث قوة جاذبية القمر فى البحر حركتى المد والجزر اللتين تحفظان توازن كرتنا الأرضية وتجعلانها تدور بنفس السرعة دائما . فى ضوء الشمس تأخذ النباتات الخضراء غاز ثانى أوكسيد الكربون من الهواء ، وبطريقة عجيبة تحتفظ بالكربون غذاء لها وتنفث الأوكسيجن لتتنفسه الكائنات الحية (٢) .

﴿ والجبال أوتادا ﴾ : الجبال أشبه شىء بأوتاد الخيمة ، تثبت الأرض وتحفظ توازنها ـ وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار فى البحار ونسب المرتفعات فى الجبال ، وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفيه للأرض والتقلصات السطحية ، وقد يكون لأنها تثقل

---

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميدكم ﴾ فى ١٠ ـ لقمان وفى ١٥ ـ النحل .
(٢) انظر كتاب : Between Earth and Space ، لمؤلفه كلايد أور (Clyde Orr) .

الأرض فى نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين ، وقد يكون لسبب آخر لم يُكشف عنه بعد ـ وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم ، ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين .

كـتـاب « الأرض : Earth » مرجع دراسى أساسى فى كثير من جامعات العالم . ومن مؤلفيه البروفسور فرانك برس(Press) الرئيس الحالى لأكاديمية العلوم فى الولايات المتحدة الأمـريكيـة ، وكـان فى السـابق المسـتـشـار العلمى للرئيس الأمـريكى الأسبق جيـمى كـارتر (Carter).

يقول هذا الكتاب إن الجبال لها جذور تحت الأرض ، وأن هذه الجذور متغلغلة إلى أعماق كبيرة فى باطن الأرض . ولقد أثبتت العلوم الحديثة أن هذه الجذور يمكن أن تتغلغل فى باطن الأرض أطوالا تعادل ارتفاعات الجبال فوق سطح الأرض العديد من المرات . وعلى هذا فإن الكلمة المناسبة لوصف الجبال هى كلمة « أوتاد » ذلك أن الوتد المدقوق جيدا يكون معظمه مختفيا تحت الأرض . وينبئنا تاريخ العلم أن البشرية لم تعرف بوجود جذور عميقة للجبال إلا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ـ هذا عن شكل الجبال .

أمـا عن دورها الـهـام فى الحـفـاظ على اسـتـقـرار قـشـرة الأرض ومنع الأرض من أن تميل وتضطرب فإن القـرآن الكريم أشـار إلى ذلك فى الآية ١٥ من سـورة النحل وفى الآية ١٠ من سورة لقمان : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ . ولـم تبدأ البشرية فى معرفة دور الجبال كرواسى تثبت الأرض إلا فى أواخر الستينيات من هذا القرن العشرين [١] .

---

(١) انظر كتاب : Earth تأليف برس وسيفر . وكتاب Earth Science تأليف : تاربوك (Tarbuck) ولو تجنس (Lutgens) .

٥٥٦ ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ١٠ ، ١١ ـ النازعات (٧٩)

يقال : رجع فلان فى حافرته وعلى حافرته ، أى طريقه التى جاء فيها فحفرها بمشيه ؛ ثم كُنِّى به عن الرجوع إلى الحالة الأولى وهى الحياة .

فمنكرو البعث إذا قيل لهم إنهم سيبعثون ، يكون جوابهم : أَنُرَد إلى الحياة التى كنا فيها ؛ يقولون ذلك منكرين للبعث ومتعجبين منه ، ويضيفون : أئذا صرنا عظاما بالية نُرَدُّ ونُبعث ، وهو معنى قولهم : ﴿ أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ . والاستفهام هنا بمعنى الإنكار . نَخِر العظمُ : بَلِيَ وتفتت .

٥٥٧ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ ١٧ ـ التكوير (٨١)

عَسَّ فلانٌ يعُسُّ عَسًّا : طاف بالليل يكشف عن أهل الرِّيبة (المشكوك فيهم والمتهمين) ويحرس الناس .

عسْعَسَ الليلُ : أقبل بظلامه . وعسعس الذئب : طاف بالليل .

ولفظ عسعس مؤلف من مقطعين : عس ، عس . وهو يوحى بجرسه بحياة الإنسان فى هذا الليل وهو يعس فى الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .

تنفس أى انشق وانفلق . وأصل التنفس : خروج النفَس من الجوف ، فجُعل الروْحُ والنسيم الذى يُقبل بإقبال الصبح نَفَسًا له . فالصبح حىٌّ يتنفس ، أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حَىّ .

وربما لا تحوى اللغة العربية ـ بكل مأثوراتها التعبيرية ـ نظيرا لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجىء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة . وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : ﴿والليل إذا عسعس[1] . والصبح إذا تنفس﴾ ثروة شعورية وتعبيرية ، فوق ما يشير إليه من حقائق كونية .

---

(١) انظر التعبير رقم ٥٥٧ .

٦ ـ الانشقاق (٨٤)

الكدْح هو العمل والسعى والكسب.

يقول محمد عبده: يا أيها الإنسان إنك مُجد فى السير إلى ربك، وكل خطوة فى عملك هى فى الحقيقة خطوة إلى أجلك. فكل جهد وتعب يُحدث فى قُوى الإنسان أثر ضعف، ولايزال الضعف يتبع بعضه بعضا حتى ينتهى إلى الموت الذى لا محيد عنه. وهناك لقاء الله.

وفى الظلال: يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض، تحمل عبئك، وتجهد جهدك لتصل فى النهاية إلى ربك، فإليه المرجع. يا أيها الإنسان إنك كادح حتى فى متاعك فأنت لا تبلغه فى هذه الأرض إلا بجد وكد. وحقيقة الكدح هى المستقرة فى حياة الإنسان ثم النهاية فى آخر المطاف إلى الله. يا أيها الإنسان إنك لاتجد الراحة فى الأرض أبدا: «لقد خلقنا الإنسان فى كبد» [1]. التعب واحد فى الأرض والكدح واحد ـ وإن اختلف لونه وطعمه ـ أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك: فواحد إلى عناء، وواحد إلى نعيم.

«يا أيها الإنسان»: نداء علوى للإنسان الذى ميزه ربه بالإنسانية، بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه وأطوع لأمره من الأرض والسماء، وقد نفخ فيه من روحه، وأودعه القدرة على الاتصال به، وتَلَقِّى قَبَسٍ من نوره والتطهر به والارتفاع به إلى عليين.

---

(١) الآية الرابعة من سورة «البلد». والكَبَد: الشدة والعناء، والجهد والكد والكفاح والكدح.

٥٦٠ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (١) (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

٧ ـ ١٠ ـ الشمس (٩١)

تكشف هذه الآيات عن طبيعة النفس الإنسانية. فالإنسان ـ بطبيعة تكوينه من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه (٢) ـ مزدوج الطبيعة ومزود باستعدادات متساوية للخير والشر. فهو قادر على التمييز بينهما وعلى توجيه نفسه إلى أى منهما، وهذه القدرة كامنة فى كيانه. قال محمد عبده: إن تمام تسوية النفس أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر.

فالله يقسم فى الآيات السابقة من أول السورة بالشمس وبالقمر وبالنهار وبالليل وبالسماء وبالأرض، وبالنفس وبتسوية خلقها بما ركب فيها من قوى باطنة وظاهرة وحدد لكل قوة وظيفة تؤديها وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء؛ وأنه جلت قدرته عرفها طريق الفجور والمعصية وطريق التقوى والطاعة ـ يقسم سبحانه بكل هذه المخلوقات: «قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها».

فمن زكّى نفسه أى طهرها من الكفر والمعاصى وأصلحها بالصالح من الأعمال، وذلك بتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر، فقد أفلح وفاز.

ومن دَسَّى نفسَه أى أغواها وأفسدها بأن خبأ وأضعف استعدادها وقدرتها على مقاومة الشر فقد خاب وخسر. والفعل دسَّاها أصله دَسَّسَها من التدسيس وهو إخفاء الشىء فى الشىء، فأبدلت سينه ياءً، مثل قولهم فى تقصُّص: تقصِّى. ولذلك قيل فى معنى الآية «وقد خاب من دساها»: خاب مَنْ دَسَّ نفسه فى المعاصى.

وفى شرح المفردات زيادة توضيح.

«وما سواها» أى وتسويتها باعتبار «ما» مصدرية. وقيل المعنى: ومن سواها باعتبار «ما» بمعنى «من» وهو الله عز وجل. وسَوَّى بمعنى هيأ، وقيل: سوَّى خلقَها وعدَّله.

«ألهمها»: ألقى فى روعها ولقّنها. الفجور: الانسياق إلى المعاصى فى غير ما اكتراث. والتقوى: الخشية والخوف من الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وقال حسنين مخلوف فى تفسير هذه الآية «فألهمها فجورها وتقواها»: عرفها ما ينبغى لها أن تأتى أو تذكر من خير أو شر بحيث تميز رشدها من غيها.

«زكاها»: أصلِ الزكاة النمو والزيادة. ومنه زكا الزرعُ إذا كثرُ ريعُه. وأيضا زكا فلانٌ: صلح. وزكّى الشىءَ: أصْلحه وطهَّره.

---

(١) وقريب منه قوله تعالى: ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ٣ الإنسان، وقوله: ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى بينا له طريقى الخير والشر، والنجد: الطريق المرتفع، هذه الآية هى العاشرة من سورة البلد.

(٢) قال تعالى: ﴿ وإذْ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ ٢٨، ٢٩ ـ الحجر، وقال تعالى: ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ ٧١، ٧٢ ـ ص.

٥٦١ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ٥ ، ٦ ، ٧ ـ الليل (٩٢)

أعطى : أعطَى حق الله تعالى الذى عليه ، أو بذَل أى أنفق فى سبيل الله مما عنده من الفضل (والفضلِ ما بقى من الشىء وزاد على الحاجة).

اتقى : تجنب محارم الله ومعاصيه.

« وصدق بالحسنى » : أيقن بلا إله إلا الله . ولا يكون التصديق بالحسنى إلا إذا صدر عنه أثره الذى لاينفك عنه وهو بذل المال واتقاء المعاصى ـ لذا قدمهما فى الذكر . والحسنى هى لا إله إلا الله فى قول الضحاك وابن عباس . وقال القرطبى : هى الخلَف والعوض من الله تعالى على عطاء من يعطى ويتقى . وقيل الحسنى : العاقبة الحسنة وهى مؤنث الأَحسن [1].

« فسنيسره لليسرى » : اليسرى مؤنث الأيسر ، وفعله يَسَرَ الشىءُ يَيْسرُ يَسْرًا : سَهُل وأمكنَ . ويَسَّر فلانًا لكذا : هيأه ووفقه . ومعنى التعبير : فسنهيئة ونوفقه إلىَ ما يؤدى به إلى اليسر والراحة ، وهى الأعمال الصالحة التى تورث الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة . وقيل فى معنى التعبير : فسنرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يَيْسر عليه فعلُها.

وفى فضل البذل والعطاء ما ورد فى صحيح مسلمَ عن النبى ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعْط منفقا خلفًا ويقول الآخر اللهم أعْط مُمسكًا تلفًا ».

٥٦٢ ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ ٨ ، ٩ ، ١٠ ـ الليل (٩٢)

بَخل : أى بماله فلم يؤد حق الله فيه . أو لم ينفق منه فى سبيله.

استغنى : زَهَدَ فيما عند الله ، كأنه مُسْتَغنٍ عنه سبحانه ! فلم يَتَّقِه . أو استغنى بنعيم الدنيا عن نعيم العقبى.

« وكذب بالحسنى » أى كذب بلا إله إلا الله ، أو كذب بالخلف والعوض عما أنفق.

والعُسرى : الأمر الصعب الشديد ، وفعله عَسر الأمرُ والزمانُ يَعْسر عَسرًا : صعب واشتد.

« فسنيسره للعسرى » أى نهيئة للخَصْلة التىَ تؤدى إلى عُسْر وشدة ، وهى الأعمال السيئة التى تورث الخسران فى الدنيا والآخرة . وقيل المعنى : وأما من بخل فسنخذ له ونمنعه اللطف والتوفيق حتى تكون الطاعة أعسر شىء عليه.

وأصل التيسير : التهيؤ والتسهل . ويكون فى الخير والشر ، ومنه ما فى الحديث : « اعملوا وسددوا وقاربوا فكل مُيَسَّر لما خُلق له » رواه عبدالله بن الإمام أحمد بسند حسن.

---

(١) وقال مجاهد : الحسنى هى الجنة لقوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ٢٦ ـ يونس.

٥٦٣ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ٧ ، ٨ ـ الزلزلة (٩٩)

ذَرَّة: كان المفسرون القدامى يقولون إنها الهباءة التى ترى فى ضوء الشمس، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة. ونحن الآن نعلم أن الذرة شىء محدد وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التى تُرى فى ضوء الشمس ـ أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهير.

والتعبير مثل ضربه الله تعالى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة. وهو مثل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ ٤ ـ النساء.

وقال مقاتل: نزلت فى رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ ٨ ـ الإنسان كان أحدهم يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجَوْزَة (واحدة الجوز، هى أيضا الشربة الواحدة من الماء). وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالنظرة ويقول: إنما أوعد اللهُ النارَ على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم فى القليل من الخير أن يعطوه، وتحذرهم من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر.

وفى صحيح البخارى: «اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة» وأيضا: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء الْمُستَسْقى [1] ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط». وروى الإمام أحمد عَن النبى ﷺ قال: «إياكم ومُحَقَّرات الذنوب (أى الصغائر) فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» ورُوى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة.

«خيرًا» و «شرًا»: تمييز، ويجوز أن تكونا بدلين من «مثقال ذرة».

والمؤمن يرتعش وجدانه أمام ذلك الميزان الدقيق الذى يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ـ وفى الأرض قلوب لاتتحرك للجبل من الذنوب والمعاصى، قلوب مسحوقة تحت أثقالها تلك فى يوم الحساب.

---

(١) طالب السُّقْيا من الماء هو المستسقى.

٥٦٤ ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ٦ ، ٧ ، ٨ ـ العاديات (١٠٠)

طُبع الإنسانُ على كفرانِ النعمة ، وعلى حب المال .

« لكنود» : لكفورٌ جَحودٌ لنِعم الله ، وهو جواب القسم فى الآيات السابقة : ﴿والعاديات ضبحا . .﴾ . قال الحسن فى شرح هذا التعبير عن الإنسان : يذكر المصائب وينسى النعم . وقال أبو بكر الواسطى : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معاصى الله . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة ولا يرى المنعم ـ وكلها أقوال ترجَع إلى معنى الكفران والجحود [١] .

والفعل كَنَدَ يكندُ كُنوداً أى كفر النعمة وجحدها ، فهو كَنود ، وامرأة كنود أيضا وكُنُدٌ . وقيل : الكنود من كنَد الحبلَ إذا قطعه ، كأنه يقطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر لمن أنعم عليه .

« وإنه على ذلك لشهيد» : والله عز وجل ثناؤه على ذلك الكنود والجحود من بن آدم (فى الآية السابقة) لشهيد ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : «وإنه» أى الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع . قال ابن كثير : وإن الإنسان على كونه كنودا لشهيد أى شهيد بلسان حاله ، فذلك ظاهر عليه فى أقواله وأفعاله (بمعنى أن الكثير منها يفتقر إلى الإقرار والعرفان بفضل الله عليه ، بل ويتنافى مع العرفان والإقرار بفضل الله عليه) .

« وإنه لحب الخير لشديد» : الخير هنا هو المال [٢] . لشديد أى لقوى فى حبه للمال مُجد فى طلبه متهالك عليه . قال عَدِىّ :

ماذا تُرَجِّى النفوسُ من طَلَب الـ ـخير وحُبُّ الحياة كَارِبُها [٣]

وقيل : لَشديد أى لبخيل ، ويقال للبخيل : شديد ومتشدد ، ويكون المعنى على هذا أن الإنسان يبخل بالمال لفرط حبه له وحرصه عليه .

---

(١) وقيل : إنما سُمِّيت كِنْدةُ كندةً لأنها جحدت أباها . والأرضُ الكنود هى التى لا تنبت شيئا .

(٢) قال ابن زيد : سَمَّى الله المالَ خيراً ، وعسى أن يكون شرا وخيرا ؛ ولكن الناس يعدونه خيرا فسماه الله خيرا لذلك .

(٣) كاربْها : غامُّها ؛ من كَرَبه الأمرُ : اشتد عليه .

٥٦٥ ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

١ ، ٣ ـ **العصر** (١٠٣)

وهذا تعبير آخر من التعبيرات التى تتحدث عن الإنسان وطبيعته ونقاط ضعفه وسبل تقويمها [١]، ويمتد ليشمل سورة بأكملها هى سورة العصر.

والعصر هو الزمان مطلقا يقسم الله به إذ تقع فيه حركات الناس وأعمالهم. وقيل: هو الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر. وقيل: هو قسم بصلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور. والمشهور هو القول الأول.

« إن الإنسان لفى خُسر » أى فى غَبن وهلكة. أقسم تعالى على أن الإنسان لفى خَسارة وهلاك إلا الذين استثناهم. إنها حقيقة ضخمة تؤكدها السورة: فالإنسان، على امتداد جميع العصور، ليس أمامه إلا منهج واحد للربح، وليس له إلا طريق واحد للنجاة ـ هو طريق الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق وبالصبر ـ وكل ما عدا ذلك ضياع وخسار.

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » والإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنسانى الفانى الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلى الباقى الذى صدر عنه الوجود. والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التى لا يعلمها إلا الله.

ثم إن مقومات الإيمان هى بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ـ فالتعبد لإله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، فلا يذل لأحد، ولا يحنى رأسه لغير الواحد القهار.

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله. ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر. وهناك التبعة على حرية الإرادة وشمول الرقابة، وما تثيره فى حس المؤمن من يقظة وحساسية.

ومن إيحاءات الإيمان الارتفاع عن التكالب على أعراض الدنيا واختيار ما عند الله ـ وهو خير وأبقى ـ والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف.

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير الذى ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وهو المحور الذى تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة ـ ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يقوم على أساس الإيمان بالله: ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد

---

(١) ومن هذه التعبيرات أيضا التعبير رقم ٥٤٧، ورقم ٥٦٠، ورقم ٥٦٤.

اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شىء ﴾ ١٨ ـ إبراهيم ، وفى سورة النور ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾ الآية ٣٩ . وهى نصوص صريحة فى إهدار قيمة العمل كله مالم يستند إلى الإيمان ـ الإيمان الذى يجعل للعمل دافعا موصولا بمصدر الوجود، وهدفا متناسقا مع غاية الوجود.

«وعملوا الصالحات» أى الأعمال التى تكون نافعة لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين، بعيدا عن أن تضر أحدا إلا لكَفِّ ضرر أعظم منه.

قال ابن كثير : استثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم.

« وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» : أوصى فلانا بالشىء : أمره به وفرضه عليه. وأوصى به فلانا : استعطفه عليه.

« وتواصوا بالحق» : أوصى بعضهم بعضا، وحث بعضهم بعضا على التمسك بالحق؛ ومنه الثبات على الإيمان بالله وكتبه ورسله والعمل بشريعته.

والتواصى بالحق ضرورة لأن النهوض بالحق عسير والعقبات كثيرة منها : هوى النفس ومنطق المصلحة وتصورات البيئة من حولك وطغيان الطغاة. والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والأخوة فى العبء، فيحس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه. ومن خلال لفظ التواصى تبرز صورة الأمة أو الجماعة المتضامة المتضامنة.

« وتواصوا بالصبر» : أوصى بعضهم بعضا بالصبر عن المعاصى التى تميل إليها النفس بالطبيعة البشرية؛ والصبر على الطاعات التى يشق على النفوس أداؤها؛ والصبر على البلايا التى تصيب الناس ويصعب على النفوس احتمالها.

والتواصى بالصبر ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. لابد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة وعلى تبجح الباطل وعلى طول الطريق.

وفى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ١٥٣ ـ البقرة.

ذكر الطبرانى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر! وقال الشافعى : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ٤ - ٧ - الماعون (١٠٧)

يتكون هذا التعبير من كلمتين اثنتين الجناسُ بينهما يكاد يكون تاما، إلا أنهما متضادتان فى المعنى: فبينما تعنى الأولى المنع، تعنى الثانية العونَ.

«الماعون» اسم المفعول من أعان يعين أى ساعد، وأعانه وعاونه بمعنى.

وقيل: الماعون أصله معونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهرى. والمعونة والعون: الإمداد بالقوة والآلات والأسباب الميَسرة للأمر.

ذكر الزجاج وأبو عبيدة والمبرد أن الماعون فى الجاهلية هو كل ما فيه منفعة. وقال ابن مسعود هو اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك مما يتعاوره الناس (أى يتداولونه) بينهم كالملح والماء أيضا، فقد رُوى عن ابن عباس أن الماعون هو العارية (١).

ورُوى عن على رضى الله عنه أن الماعون هو زكاة المال؛ رواه الضحاك أيضا عن ابن عباس. وقال سعيد بن المسيب: الماعون المال بلسان قريش.

وقال قطرب: أصل الماعون من القلة، والمَعْن: الشىء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنَةٌ ولا مَعْنَة، وهو مثل يضرب لمن لا مَال له، والسعنة الشىء الكثير والمعنة الشىء القليل. فسمى الله عز وجل الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا لأنه قليل من كثير.

والذين هم عن صلاتهم ساهون هم الذين يؤخرونها عن وقتها الأول إلى وقتها الآخر دائما أو غالبا، وهم الذين يغفلون عن أدائها بأركانها وشروطها، وهم الذين يغفلون عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فهم يؤدون أقوالها وأفعالها بلا استحضار للمعانى فى القلوب- ومن هنا لا تنشىء الصلاة آثارها فى نفوس هؤلاء الساهين، فهم يمنعون الماعون، أى المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية.

والذين هم عن صلاتهم ساهون يصلون رياءً للناس لا إخلاصا لله، وفى الإسلام لا تغنى مظاهر العبادات والشعائر مالم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار فى القلب تدفع إلى العمل الصالح. ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله ما منعوا العون عن عباده.

(١) العارية: ما تعطيه غيرك على أن يرده إليك.

٥٦٧ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ٢ ـ الإخلاص (١١٢)

الصَّمَدُ : من أسماء الله الحسنى

« الله الصمد» أى الذى يُصْمَدُ إليه فى الحاجات أى يُقْصَد، من الفعل : صَمَده وصَمَد إليه يَصْمُد صَمْدًا وصُمودًا : قصدَه. ومثله قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون﴾ ٥٣ ـ النحل.

وقال أهل اللغة : الصمد السيد الذى يُصمد إليه فى النوازل والحوائج. وقال قوم : الصمد الدائم الباقى الذى لم يزل ولايزال.

وقال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد والمحتاج إليه كلُّ أحد. وقال السُّدى : إنه المقصود فى الرغائب، والمُسْتَعانُ به فى المصائب.

خرَّج مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « أيَعْجز أحدُكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » وقوله الله الواحد الصمد كناية عن : قل هو الله أحد. وثبت فى الصحيحين، البخارى ومسلم، قول النبى ﷺ إن سورة « قل هو الله أحد» تَعدل ثلثَ القرآن. قال بعض العلماء إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الإسم الذى هو «الصمَد» فإنه لا يوجد فى غيرها من السور، وكذلك « أحد». وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال : « إن الله جل وعز جزَّأ القرآن ثلاثة أجزء فجعل « قل هو الله أحد» جزءا من أجزاء القرآن. لهذا قيل إن القرآن أنزل أثلاثًا، ثُلثًا منه أحكام، وثلثًا منه وعْد ووعيد، وثلثًا منه أسماء وصفاتٌ، وقد جمعت « قل هو الله أحد» الأسماء والصفات.

أهم المراجع

- الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل — محمود بن عمر الزمخشري
- المفردات في غريب القرآن — الراغب الأصفهاني
- تفسير غريب القرآن — أبو بكر محمد السجستاني
- تفسير القرطبي — الإمام القرطبي
- تفسير القرآن العظيم — الإمام إسماعيل بن كثير
- تفسير القرآن الجليل — عبدالله بن أحمد النسفي
- تفسير الجلالين — جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي
- فتح القدير — الشوكاني
- صفوة البيان لمعاني القرآن — الشيخ حسنين مخلوف
- كلمات القرآن — الشيخ حسنين مخلوف
- في ظلال القرآن — الاستاذ سيد قطب
- التفسير الوسيط — مجمع البحوث الاسلامية
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبدالباقي
- معجم ألفاظ القرآن الكريم — مجمع اللغة العربية بالقاهرة
- لسان العرب — ابن منظور
- المعجم الوسيط — مجمع اللغة العربية بالقاهرة
- المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية بالقاهرة
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري — ابن حجر العسقلاني
- شرح ومعاني جزء «عم» — محمد محمد عتريس إبراهيم
- شرح ومعاني جزء «تبارك» — محمد محمد عتريس إبراهيم

تم بحمد الله وعونه الانتهاء من تأليف «معجم التعبيرات القرآنية» يوم الاثنين الخامس عشر من شهر شعبان المبارك سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٥ ديسمبر ١٩٩٧. وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

الكشّافان

الأول : كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدى للكلمة الأولى من التعبير .
الثانى : كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدى للكلمة الأساسية فى كل تعبير .

إرشادات بشأن استخدام الكشافين

١ ـ أورد الكشاف الأول الكلمات الأولى من التعبير كما هى فى المصحف ، وأثبت أمام كل منها رقم تعبيرها ، فالدليل إلى معرفة مكان التعبير هو رقم التعبير وليس رقم الصفحة .

٢ ـ عند ترتيب الكشاف الأول ، لم نجرد أوائل الكلمات من كل الحروف التى لحقت بها ، وإنما جردناها فقط من : أداة التعريف « أل » ، وحرفى العطف : الواو والفاء ، ولا الناهية ، ولا النافية .

أما فى الكشاف الثانى فقد تم تجريد أوائل الكمات من كل الحروف .

٣ ـ الكلمات فى الكشافين مرتبة ترتيبا أبجديا حسب النطق ووفق الحروف الأولى للكلمات ودون اعتداد بأصل الكلمة الذى اشتقت منه . أى أن القارئ لن يحتاج إلى رد الكلمة التى يبحث عنها إلى مصدرها ، كما هو الحال بالنسبة لمعجمنا العربى ، وإنما سيجدها فى الكشاف حسب ترتيب حروفها على طريقة المعجم الإنجليزى .

٤ ـ الحرف المشَدّد حرف مضعف ويحسب حرفين ، فمثلا « إنَّ » تحتسب همزة ونونا ونونا .

٥ ـ حرف الألف من حروف العلة الثلاثة (الألف والواو والياء) ويأتى ترتيبه بعد الواو وقبل الياء .

أما حرف الهمزة فترتيبه الأول فى الأبجدية .

أولا : كشّاف التعبيرات القرآنية
على أساس الترتيب الأبجدى للكلمة الأولى من التعبير

حرف الهمــزة

أئنّا لمردودون	٥٥٦
وابتغوا إليه الوسيلةَ	١٥٢
أبْصر به وأسمع	٣٧٠
أتأمرون الناس بالبر	١٣
أتبْنون بكل ريع آية	٤٣٧
أتتخذنا هُزُواً	١٨
اتَّخذوا دينَهم لهواً	٢٠٢
اتخذوا مسجداً ضرارا	٢٤٦
واتقوا اللهَ ويعلمكم	٨٠
واتقوا فتنة	٢٢٤
وأتموا الحج	٤٦
وأتوا البيوت من أبوابها	٤٣
اثاقلتم إلى الأرض	٢٣٦
وإثمهما أكبرُ	٥٤
واَجْعلْ لى لسانَ	٤٣٦
وأجْلب عليهم	٣٥٦
أُحْدث لك منه ذكرا	٣٧٣
وأحْضرت الأنفسُ	١٢٣
واَحْلُل عقدةً	٣٨٧
وأحاطت به خطيئته	٢٢
وأُحيط بثمره	٣٧١
أخذته العزةُ	٤٩
واخْفضْ لهما	٣٤٨
وإخْوانُهم يمدونهم	٢١٦
ادْخلوا في السِّلم	٥٠
وأدْنى ألاَّ ترتابوا	٧٨
إذ القلوب لدى الحناجر	٤٨٨
وإذْ تأذَّن ربكم	٣١٢
وإذا أنعمنا على الإنسان	٣٦٠
إذا قضى أمرا	٣٨١
وإذا قلتم فاعدلوا	١٩١
فأذاقها اللهُ لباسَ	٣٤٢
وإذا وقع القولُ	٤٤١
أرسلنا رسُلَنا	٤١٩
فاستبقوا الخيرات	١٥٥
اسْتمسك بالعروة	٦٨
أسَّس بنيانَه	٢٤٧
أسْلمت وجهى	٨٨
أسْمع بهم	٣٨٢
واشْتعل الرأسُ	٣٧٨
اشْدد به أزرى	٣٨٨
واشْدد على قلوبهم	٢٦٠
وأُشْربوا فى قلوبهم	٢٧
وأصْبح فؤادُ أم موسى	٤٤٢
فاصْدع بما تؤمر	٣٣١
واصْطنعتك لنفسى	٣٩٢
فاصْفح الصفحَ الجميل	٣٣٠
أصْلح بالَهم	٥١١
أصلحنا له زوجه	٤٠٤
وأصلحوا ذات بينكم	٢١٧
واصْنَع الفُلْكَ	٢٧٠
أضغاث أحلام	٢٩١
أضَلَّه اللهُ على علم	٥٠٧
واعْتصموا بحبل الله	٩٤
أعطى كلَّ شىء	٣٩٣
واعلموا أن الله يحول	٢٢٣
واعْلمو أن اللهَ يعلم	٥٩
واعْلموا أنما أموالكم	٢٢٥
اعملوا على مكانتكم	٢٨٠
أعمالهم كسراب	٤٣١

فأغرَيْنا بينهم العداوةَ	١٤٦
واغضُض من صوتك	٤٥٣
وأفئدتهم هواء	٣٢٢
أفَبهذا الحديث	٥٣٤
أفتؤمنون ببعض الكتاب	٢٥
أفَحَسبتم أنما	٤٢٣
أفرغ علينا صبرا	٦٦
أفَنَضرب عنكم الذكر	٥٠٢
أقسموا بالله	١٥٦
واقْصد فى مشيك	٤٥٢
وأقْوَم للشهادة	٧٧
أكرمى مثواه	٢٨٣
والبلدُ الطيب	٢٠٣
والذين فى أموالهم	٥٤٨
الذين يصدون	٢٦٩
الذين ينقضون	٩
وألقَوْا إليكم	١١١
وألقيتُ عليك	٣٨٩
الله الصمد	٥٦٧
والله غالبٌ	٢٨٤
اللهُ نزَّلَ أحسن الحديث	٤٨٤
الله نورُ السموات	٤٢٩
والليل إذا عسعس	٥٥٧
ألَم تَر كيفَ ضَربَ اللهُ	٣١٦
ألَم نَجعل الأرضَ	٥٥٥
إلاّ تفعلوه	٢٣٢
إلاّ حاجةً فى نفس	٢٩٧
إلا مَن أكره	٣٤٠
ألا بذكر الله	٣٠٩
ألا بُعدًا لعاد	٢٧٣
ألَيس اللهُ بكاف	٤٨٥
اليومَ نَختم	٤٧٥
إليه يُرَد	٤٩٣
أمطرت مطر السَّوْء	٤٣٣
أم على قلوب أقفالها	٥١٣
أمة مقتصدة	١٦١
فأما الذين فى قلوبهم	٨٣
فأما الزبدُ	٣٠٧
فأمّا من أعطى	٥٦١
وأما من بَخل	٥٦٢
أن اصْنع الفلك	٤١٧
وأن أقم وجهَك	٢٦٣
وأنْبتنا فيها	٣٢٦
وأن تشركوا بالله	١٩٩
وأن تعفوا أقرب	٦٠
وأنْذرهم يوم الحسْرة	٣٨٣
أنزلَ السكينة	٥١٥
وأنفقوا مما جعلكم	٥٣٥
وأنكحوا الأيامى	٤٢٨
وأنْ ليس للإنسان	٥٢٧
وأنه تعالى	٥٥٠
إن أحْسَنتم	٣٤٥
وإن تعُدوا نعمة الله	٣٢٠
إنْ عندكم من سلطان	٢٥٨
انقلبتم على أعقابكم	٩٨
انقلب على وجهه	٤١٠
وإنْ كان ذو عُسرة	٧٦
وإنْ من شىء	٣٢٧
إن إبراهيم كان أمة	٣٤٣
إن الإنسان خلق هلوعا	٥٤٧
إن الإنسان لربه لكنود	٥٦٤
إن الحسنات	٢٧٩
إن الدين عند الله	٨٧
إن الذين آمنوا	٣٨٤
إن الذين قالوا	٥١٠
إن الصلاة كانت	١١٨
إن العهد	٣٥٢
إن الله اشترى	٢٤٩

إن الله فالق الحب	١٨١
إن الله لا يغير	٣٠٤
إن الله يدافع	٤١٣
إن المبذرين كانوا	٣٤٩
إن الملوك إذا دخلوا	٤٣٩
إن النفس لأمارة	٢٩٣
وإن أوهن البيوت	٤٤٥
إن بيوتنا عورة	٤٥٩
إن ذلك من عزم	٤٥٠
إن صلاتك سكن	٢٤٤
إن علينا جمعه	٥٥٢
فإنك بأعيُننا	٥٢٥
فإن لك فى الحياة	٣٩٨
إنما أموالكم	٥٤٣
إنما سُكرت أبْصارُنا	٣٢٥
إنما يخشى اللهَ	٤٧١
إنه عملٌ غيرُ صالح	٢٧١
إنه ليس له سلطان	٣٣٩
إنه من يتق	٣٠١
فإنها لا تعمى الأبصار	٤١٥
إنا أخلصناهم	٤٨٣
إنا جعلنا فى أعناقهم	٤٧٣
إنا عرضنا الأمانة	٤٦٦
إنا لنراك فى سفاهة	٢٠٤
إنا لننصر رسلنا	٤٩٠
إنا نحن نزلنا الذكر	٣٢٤
وإن يوما عند ربك	٤١٦
وإن يتفرقا	١٢٦
وإن يمسسك	٢٦٤
فأوْجَس فى نفسه	٣٩٦
وأوجس منهم	٢٧٤
أوْقدوا نارا	١٦٠
أولئك شَرٌّ مكانا	١٥٧
وآتوا حقَّه	١٨٨
وآتيناه من الكنوز	٤٤٤
أيَحْسَب الإنسان	٥٥٣
وإياك نستعين	٣

حرف الباء

بالمعروف	٣٨
وبشر الذين آمنوا	٢٥٣
بل سولّت لكم	٢٨٢
بلغ أشُدَّه	٢٨٥
وبلغت القلوبُ الحناجرَ	٤٥٨
بل يداه مبسوطتان	١٥٩
وباؤوا بغضب	١٦
باشروهن	٤١

حرف التاء

تبتغى نفقا	١٧٢
ولا تبخسوا الناسَ	٢٠٥
ولا تبخسوا الناسَ	٢٧٦
تبغونها عوجا	٩٣
تبوء بإثمى	١٤٩
فلا تبغوا عليهن	١٠٥
فلا تتبعوا الهوى	١٢٨
ولا تتبعوا خطوات	٣٦
تتخذَ فيهم حُسنا	٣٧٤
تتقوا منهم تُقاة	٩٠
لا تثريب عليكم	٣٠٢
ولا تجعلوا الله عرضة	٥٧
ولا تجعل يدك مغلولة	٣٥٠
ولا تحسبن اللهَ غافلا	٣٢١

فتحسسوا من يوسف ٣٠٠
فلا تخضعن بالقول ٤٦٢
لا تدركه الأبصارُ ١٨٣
وتُدلوا بها إلى الحكام ٤٢
تدورُ أعينُهم ٤٦٠
وتذهبَ ريحكم ٢٢٨
ولا ترتدوا على أدباركم ١٤٨
ولا تركنوا إلى الذين ٢٧٨
وتركنا عليه فى الآخرين ٤٧٨
تراءت الفئتان ٢٢٩
ترى أعينَهم تفيض ١٦٣
وترى الأرضَ هامدة ٤٠٧
وترى كلَّ أمة ٥٠٨
ولا تزرُ وازرةٌ ١٩٣
ولا تَزرُ وازرة ٣٤٧
فتزلَّ قدمٌ ٣٣٧
تستأنسوا وتسلموا ٤٢٦
ولا تستوى الحسنةُ ٤٩٢
ولا تشتروا بآياتى ١٢
ولا تشتروا بآياتى ١٥٤
ولا تصعِر خدكَ ٤٥١
تضع الحربُ أوزارَها ٥١٢
تظاهرون عليهم ٢٤
تعرفهم بسيماهم ٧٣
فلا تغرنكم الحياة الدنيا ٤٥٥
لا تغلوا فى دينكم ١٣٥
لا تقدموا بين يدى الله ٥١٩
ولا تقربوا الزنا ٣٥١
ولا تقربوهن ٥٥
تقرَّ عينُها ٣٩١
وتقطعت بهمُ الأسبابُ ٣٤
فتقطعوا أمرَهم ٤٢١
ولا تقعدوا بكل صراط ٢٠٦
ولا تَقفُ ماليس لك ٣٥٣
ولا تقولنَّ لشَىء ٣٦٨
ولا تكتموا الشهادة ٨١
ولا تكسب كلُّ نفس ١٩٢
لا تُكلفَ نفسٌ ٥٨
ولاتكونوا كالتى نقضت ٣٣٦
ولا تلقوا بأيديكم ٤٥
ولا تلوون على أحد ١٠٠
ولا تَمْش في الأرض ٣٥٤
فلا تميلوا كلَّ الميْل ١٢٥
ولا تَنْسَوُا الفضلَ ٦١
فتنازعوا أمرَهم ٣٩٥
ولا تهنوا فى ابتغاء ١١٩
فلا تهنوا وتدعوا ٥١٤
فلا تولوهم الأدبارَ ٢٢١
فتولى بركنه ٥٢٢
ولا تيمموا الخبيثَ منه ٦٩
فتيمموا صعيداً طيبا ١٣٩

حرف الثاء

وثَبِّتْ أقدامَنا ٦٧
ثم الذين كفروا بربهم ١٦٧
ثانىَ عطفه ٤٠٨

حرف الجيم

لاجَرَم أن الله يعلم ٣٣٤
وجعلنا على قلوبهم أكنة ١٦٩
جعلنا لكم عليهم سلطانا ١١٤
وجعلنا من الماء كل شيء ٤٠٢
وجعلنا من بين أيديهم ٤٧٤
وجعلناهم أحاديثَ ٤٢٠
فجمع كيدَه ٣٩٤
جهزهم بَجَهازهم ٢٩٤
جاء أحدٌ منكم من الغائط ١٣٨

حرف الحاء

حتى يُعطوا الجزية ٢٣٥
حتى يَلج الجملُ ٢٠٠
حَصْحَصَ الحق ٢٩٢
حَصرت صدورُهم ١١٠
حاشَ لله ٢٨٩
حاضرى المسجدِ الحرام ٤٧

حرف الخاء

الخبيثات للخبيثين ٤٢٥
ختم الله على قلوبهم ٥
وختم على قلوبكم ١٧٤
خُذ العفوَ ٢١٥
خذوا ما آتيناكم بقوة ١٧
خلَصوا نَجيًا ٢٩٩
خُلق الإنسانُ من عجل ٤٠٣

حرف الدال

فَدَلاَّهما بغرور ١٩٦

حرف الذال

وذكرهم بأيام الله ٣١١
ذلك بأن الله ٢٣١
فذو دعاء عريض ٤٩٥
ذات الصدور ١٤٢

حرف الراء

رب العالمين ٢
ربنا اطمس ٢٥٩
ربنا افتح ٢٠٧
ربنا لا تجعلنا فتنة ٥٤٠
ربنا لا تزغ قلوبنا ٨٤
ربنا وسعت كل شيء ٤٨٧
رب هب لى ٤٣٥
وربطنا على قلوبهم ٣٦٦
رجما بالغيب ٣٦٩
الرجال قوامون ١٠٤
ورحمتي وسعت ٢١٢
الرحمن الرحيم ١
الرحمن علم القرآن ٥٣٠
رددنا لكم ٣٤٤
فردوا أيديَهم ٣١٣
الراسخون فى العلم ١٣٤
وراودته ٢٨٦

حرف الزاى

وزاده بسطة	٦٤	زُين للناس	٤٥٧
زاغت الأبصار	٤٥٧		

حرف السين

سبل السلام	١٤٧	سنراود عنه أباه	٢٩٥
سفه نفسَه	٣٠	سنريهم آياتنا	٤٩٦
سُقط فى أيديهم	٢١٠	ساعة العسرة	٢٥٠
سكت عن موسى	٢١١	فسيكفيكهم الله	٣٢
سلقوكم بألسنة	٤٦١		

حرف الشين

شَغَفَها حُبا	٢٨٨	شياطين الإنس	١٨٥
فشاربون	٥٣٣		

حرف الصاد

صبغةَ الله	٣٣	والصلح خير	١٢٢
صرفَ اللهُ قلوبهم	٢٥٢	والصاحب بالجنب	١٠٦
والصبح إذا تنفس	٥٥٨		

حرف الضاد

وضربَ اللهُ مثلاً	٣٣٥	وضائق به صدرك	٢٦٨
وضُربت عليهم الذلة	١٥	وضاق بهم	٢٧٥
فضربنا على آذانهم	٣٦٥	وضاقت عليكم	٢٣٤
ضلَّ سواءَ السبيل	٢٨	وضاقت عليهم	٢٥١

حرف الطاء

وطُبع على قلوبهم	٢٤١	فطوَّعت له نفسُه	١٥٠
طوبى لهم	٣١٠		

حرف الظاء

ظلموا أنفسهم	٩٦	ظهرَ الفسادُ	٤٤٨
وظنوا أنهم	٢٥٤		

حرف العين

عرَضَ الحياة الدنيا	١١٥	دائرة السوء	٥١٦
وعسى أن تكرهوا	٥٢	وعنده مفاتح الغيب	١٧٦
والعصر	٥٦٥	وعندهم قاصرات الطرف	٤٧٧
وعلى أبصارهم	٧	عَاليَهم	٥٥٤
وعلى الله قصد السبيل	٣٣٣		

حرف الغين

غَلَبوا على أمرهم	٣٦٧	غُلت أيديهم	١٥٨

حرف الفاء

والفتنة أشد من القتل	٤٤	فالقُ الإصباح	١٨٢
والفتنة أكبر من القتل	٥٣	وفى آذانهم وَقرا	١٧٠
فصلُ الخطاب	٤٨٢	فى شقاق	٣١
فلا فَوّت	٤٦٨	فى قلوبهم مرضٌ	٧

حرف القاف

وقد أفضى بعضُكم	١٠٢	فقلت استغفروا ربكم	٥٤٩
وقد بلغت من الكبر	٣٧٩	وقل جاء الحقُّ	٣٥٨
قد جاءتكم موعظة	٢٥٧	وقل رب أدخلنى	٣٥٧
قد جاءكم بصائرُ	١٨٤	قل لئن اجتمعت الإنس	٣٦٢
قد علمنا ما تنقص الأرض	٥٢١	قل لعبادى الذين آمنوا	٣١٩
وقد مكروا مكرَهم	٣٢٣	وقل لعبادى يقولوا	٣٥٥
وقُضىَ الأمرُ	٥١	وقل للمؤمنات يغضضن	٤٢٧
قَضَى زيدٌ منها وطرا	٤٦٤	قل لن يصيبَنا	٢٣٨
فقُطع دابر القوم	١٧٣	قل لو أنتم تملكون	٣٦٣

قل لو كان البحرُ ٣٧٦
قلوبُنا غُلف ٢٦
قلوبنا غُلف ١٣٣
قل يا عبادى الذين ٤٨٦
وقولوا للناس حُسْنًا ٢٣
وقالت هَيْت لك ٢٨٧
قال رب اشرح ٣٨٦
قال سَنَشُد عضُدَك ٤٤٣
قال فما خَطبُك ٣٩٧
قالوا اطيَّرنا بك ٤٤٠

حرف الكاف

كأنما أغشيت وجوهُهم ٢٥٦
كبُرت كلمةً ٣٦٤
كباسط كفيه ٣٠٦
كتَب على نفسه ١٦٨
كَدَأب آل فرعون ٨٥
وكذلك أخْذُ ربك ٢٧٧
كسب سيئة ٢١
كُلّ امرئ بما كسب ٥٢٣
وكل إنسان ألزمناه ٣٤٦
وكل شيء فعلوه ٥٢٩
كلمة سواء ٩١
كُلما رُدوا إلى الفتنة ١١٣
كُل يعملُ ٣٦١
وكُلوا واشربوا ١٩٨
وكُلاَ منها رَغدًا ١١
كمْ من فئة قليلة ٦٥
كونوا قَوامين بالقسط ١٢٧
كونوا قَوامين لله ١٤٣
كانت أعينهم ٣٧٥
فكان قابَ قوسين ٥٢٦
فكيف تتقون ٥٥١

حرف اللام

ولباسُ التقوى ١٩٧
ولتصنَع على عينى ٣٩٠
ولَستم بآخذيه ٧٠
لَستم على شيء ١٦٢
لَطَمَسْنا على أعينهم ٤٧٦
لَعَمرُك إنهم ٣٢٩
ولقد بوأنا بنى إسرائيل ٢٦١
ولقد سبقت كلمتنا ٤٨٠
لكل نبأ مستقر ١٧٨
ولكم فى القصاص ٣٩
ولكن ليقضى اللهُ ٢٢٧
لكى لا تأسوا ٥٣٧
لَلَجّوا فى طغيانهم ٤٢٢
ولَمَن انتصر ٤٩٩
ولَمَن خاف ٥٣١
ولَمَن صبَر ٥٠٠
فلما بلغ معه السعىَ ٤٧٩
فلما جاءتهم آياتنا ٤٣٨
ولم يُؤت سعةً ٦٣
ولن تستطيعوا ١٢٤
لن تنالوا ٩٢
ولن يجعل اللهُ ١٢٩
لهُمُ الأمن ١٨٠
ولو أن أهلَ القرى ٢٠٨
ولو أن ما فى الأرض ٤٥٤
ولو بسط اللهُ ٤٩٧

ولو شاء ربك ٢٦٢
لو كان فيهما آلهة ٤٠١
ولات حين مناص ٤٨١
ولا تزال تطلع ١٤٥
لا يزال بُنيانهم ٢٤٨
ولْيَأخذوا حذرَهم ١١٦
ولْيَخْشَ الذين ١٠١
ولَيَرْبط على قلوبكم ٢١٩
ليس على الأعمى ٥١٧
ولْيَعفوا وليصفحوا ٤٢٤
والليلِ إذا عسعس ٥٥٧
ولِيمُحِّص اللهُ ٩٧
فَليَمْدد بسبب ٤١١
ولَينصُرَن اللهُ ٤١٤

حرف الميم

مُتَجَانف لإثم ١٣٧
مَثَل الذين حُملوا ٥٤٢
مَثَل الذين كفروا ٣١٥
ومَثَلُ كلمة خبيثة ٣١٧
فمثلُه كَمثل الكلب ٢١٤
ومثلهم فى الانجيل ٥١٨
مُذَبذبين بين ذلك ١٣٠
مَعَاذ الله ٢٩٨
من أسْلم وجهَه ٢٩
ومَن أعْرض عن ذكرى ٣٩٩
فمن ثقُلت موازينه ١٩٥
فمن عفَا وأصلح ٤٩٨
مَنْ عَمل صالحا ٣٣٨
فمن فرض فيهن ٤٨
من قتلَ نفسا ١٥١
ومن لم يستطع ١٠٣
منه آيات محكمات ٨٢
ومنم من يَلمزك ٢٣٩
ومن يَتق اللهَ ٥٤٤
ومن يُشرك بالله ٤١٢
ومن يَعْشُ ٥٠٥
فمن يعمل مثقالَ ٥٦٣
ومن يكسَب خَطيئةً ١٢٠
وما الحياة الدنيا ٥٣٦
وما أمرُنا إلا واحدة ٥٢٨
ما أنزل اللهُ بها ٢٩٠
فما بكت عليهم ٥٠٦
فما جعَل اللهُ لكم ١١٢
وما خلقنا السماءَ والأرض ٤٠٠
فمار بحت تجارتهم ٨
وما رَمَيْت إذ رميت ٢٢٢
مَاعَلى الرسول إلا البلاغ ١٦٤
ما على المحسنين ٢٤٢
ماكنتُ بدعًا ٥٠٩
وما كنتم تستترون ٤٩١
وما كان لمؤمن ٤٦٣
مالم ينزل به سلطانا ٩٩
ومالنا ألا نتوكل ٣١٤
فما متاع الحياة الدنيا ٢٣٧
ما من دابة ٢٧٢
وما من دابة فى الأرض ٢٦٧
وما هذه الحياة الدنيا ٤٤٦
ما يريد اللهُ ليجعلَ ١٤٠
وما يستوى الأعمى ٤٧٠
ومايَعدُهم الشيطانُ ١٢١
ميثاقه الذى واثقكم به ١٤١

حرف النون

نَتَربّص به	٥٢٤
ونحن الوارثون	٣٢٨
نحن قَسَمنا بينهم	٥٠٤
نداءً خفيا	٣٧٧
نساؤكم حَرْث لكم	٥٦
ونطبع على قلوبهم	٢٠٩
نَطمسْ وجوهًا	١٠٩
ونَفس وما سَوَّاها	٥٦٠
نكصَ على عَقبيه	٢٣٠
لا نكلف نفسًا	١٩٠
وننزل من القرآن	٣٥٩

حرف الهاء

هل جزاء الإحسان	٥٣٢
هن لباس لكم	٤٠
وهو الذى جعل لكم	٤٣٤
وهى خاوية	٣٧٢
هيهات هيهات	٤١٨

حرف الواو

وَجَدنا آباءَنا	٥٠٣
وَسع ربى كل شىء علما	١٧٩
وُقفوا على ربهم	١٧١

حرف الياء

ويأخذ الصدقات	٢٤٥
ويؤثرون على أنفسهم	٥٣٩
يبسطوا إليكم أيديهم	١٤٤
يبلغَ أشدّه	١٨٩
يتخبطه الشيطانُ	٧٥
لا يتخذ المؤمنون الكافرين	٨٩
ويتربص بكم الدوائر	٢٤٣
يُثبت اللهُ الذين آمنوا	٣١٨
ويثبت به الأقدامَ	٢٢٠
يثنون صدورَهم	٢٦٥
ولا يجرمنكم شَنَآن قوم	١٣٦
يجعل صدره ضيِّقًا	١٨٧
يجعل لكم فرقانا	٢٢٦
لايحب الله الجهرَ بالسوء	١٣٢
يُحرفون الكلم	١٥٣
يحرفون الكلم	١٠٨
يحرفونه	٢٠
يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ	٧٢
يُحاط بكم	٢٩٦
ولا يحيق المكرُ السيءُ	٤٧٢
يخرج الحى من الميت	٤٤٧
ويخلق مالا تعلمون	٣٣٢
يَخلُ لكم وجهُ أبيكم	٢٨١
يخافون يومًا	٤٣٠
يدبر الأمرَ	٣٠٣
يدبر الأمرَ	٤٥٦
ويدرؤون بالحسنة	٣٠٨
يُدنين عليهن	٤٦٥

يُرد إلى أرذل العمر	٤٠٦
يرفع الله الذين آمنوا	٥٣٨
ولا يرهقُ وجوهَهم	٢٥٥
يُريهم اللهُ أعمالَهم	٣٥
لايسألون الناسَ	٧٤
لا يسأم الإنسانُ	٤٩٤
يُسبح الرعدُ بحمده	٣٠٥
لا يستطيعون ضربا	٧١
يَستغشون ثيابَهم	٢٦٦
يَسومونكم سوءَ العذاب	١٤
يشتري لهوى الحديث	٤٤٩
يشرحُ صدرَه	١٨٦
ويَشْفِ صدورَ قوم	٢٣٣
ويضع عنهم إصرَهم	٢١٣
ولايُضارّ كاتبٌ	٧٩
يعبد اللهَ على حَرف	٤٠٩
يعرفون كُلا بسيماهم	٢٠١
لا يعزبُ عنه مثقالُ	٤٦٧
يعلم السرَّ	٣٨٥
يعلم خائنة الأعين	٤٨٩
إذ يُغشيكم النعاسَ	٢١٨
ويقبضون أيديَهم	٢٤٠
ويقذفون بالغيب	٤٦٩
يُقرضُ اللهَ	٦٢
يَقُصّ الحقَّ	١٧٥
ويقطعون ما أمر الله	١٠
ويقيمون الصلاة	٤
فلا يكن في صدرك	١٩٤
يَلبسكم شيَعا	١٧٧
ويمنعون الماعون	٥٦٦
فيميلون عليكم	١١٧
ينظرون من طرف	٥٠١
ينعق بما لا يسمع	٣٧
ينفقون أموالهم	١٠٧
يَهبط من خشية الله	١٩
يولوكم الأدبارَ	٩٥
يوم تأتي كل نفس	٣٤١
يوم ترونَها	٤٠٥
ويوم يعض الظالم	٤٣٢
يوم يكشف عن ساق	٥٤٦
يا أيها الإنسان إنك	٥٥٩
يا أيها الذين آمنوا إنْ	٥٢٠
يا أيها الذين آمنوا عليكم	١٦٦
يا أيها الذين آمنوا قوا	٥٤٥
يا أيها الذين آمنوا لمَ	٥٤١
يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا	١٣١
يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا	١٦٥
يا يحيى خذ الكتاب	٣٨٠

ثانيا : كشّاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدى للكلمة الأساسية فى كل تعبير

حـــرف الهـمـزة

إبراهيم ٣٤٣
أبْصر ٣٧٠-٣٨٢
الأبَصار ١٨٣-٣٢١، ٤١٥-٤٥٧
أبصارُنا ٣٢٥
أبصارهم ٦
أبصارَهن ٤٢٧
اثّاقلتم ٢٣٦
الإثم والعدوان ٢٤
إثمُهُما ٥٤
إثمى ١٤٩
أحسنَ الحديث ٤٨٤
أحْسَنتم ٣٤٥
الإحسان ٥٣٢
أحلام ٢٩١
أحاديثَ ٤٢٠
أُحيط بهم ٢٥٤
أَخْذ ربَك ٢٧٧
أخرج شطئه ٥١٨
أخفى ٣٨٥
الأدبار ٩٥-٢٢١
أدباركم ١٤٨
الأذقَان ٤٧٣
أرجلَهم ٤٧٥
أرْذلِ العُمُر ٤٠٦
الأرض ٢٣٤-٢٣٦، ٤٠٧، ٥٢١-٥٥٥
أُركسُوا ١١٣
أزْرَى ٣٨٨
أسأتم ٣٤٥
الأسبابُ ٣٤
استغفروا ربكم ٥٤٩
استْغلظ ٥١٨
إستقاموا ٥١٠
أسرفوا على أنفسِهم ٤٨٦
أسْلم وجهَه ٢٩
الإسلامُ ٨٧
إشتعلَ ٣٧٨
أشُدَّه ١٨٩-٢٨٥
أشْربوا ٢٧
أشياءَ ١٦٥
الإصباحِ ١٨٢
إصْرَهم ٢١٣
اَصطنعتك ٣٩٢
اصفح ٣٣٠
أصّلح ٥١١
أصلحنا ٤٠٤
أضغاثُ ٢٩١
اطَّيرْنا بك ٤٤٠
اطمِس ٢٥٩

اعْدلوا ١٩١
الأعَرج ٥١٧
أعْطى واتَّقى ٥٦١
أعْقابكم ٩٨
الأعْلَوْن ٥١٤
الأعمى ٤٧٠ـ٥١٧
أعناقهم ٤٧٣
أعْيُنِنَا ٢٧٠ـ٥٢٥
أعينهم ١٦٣ـ ٣٧٥ـ٤٧٦
اغضُض ٤٥٣
أفئدتُهم ٣٢٢
افْتَح بيننا وبين قومِنا ٢٠٧
أفْضى ١٠٢
أفواههم ٣١٣ـ٤٧٥
الأقدامَ ٢٢٠
أقدامَنا ٦٧
أقْوَمُ ٧٧
أُكره ٣٤٠
أُكُلَهَا ٣١٦
أكنَّة ١٦٩
إلحافًا ٧٤
ألْسنة ٤٦١
التىَ هى أحسنُ ٣٥٥
الذين آمنوا ٢٥٣ـ ٣٣٩ـ٤١٣
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ٣٨٤
الذين ظلموا ٢٧٨
الذين قالوا ربنا اللهُ ٥١٠
الذين كفروا ١٦٧ـ٣١٥
الله ٤٨٥
الأمر ٥١ـ٣٠٣
أمرُنا ٥٢٨
أمرهم ٣٦٧ـ٤٢١
أمرًا ٢٢٧
امرىء ٥٢٣
أمسكتُم ٣٦٣
أمَنَة ٢١٨
أم الكتاب ٨٢
أُمّة ٣٤٣ـ٥٠٣
أمة مقتصدة ١٦١
الأمْنُ ١٨٠
أموالكم ٢٢٥ـ٥٤٣
أموالهم ٢٥٩ـ٥٤٨
الأمانةَ ٤٦٦
أنثى ٤٩٣
الإنسان ٣٦٠ـ ٤٠٣ـ٤٦٦ـ ٤٩٤ـ٥٢٧ـ٥٤٧ـ ٥٥٣ـ٥٥٩ـ٥٦٤ـ٥٦٥
الأنْفُسُ ١٢٣
أنفسكم ٥٩ـ٢٨٢
أنفسهم ٩٦ـ٢٥١
أنكاثًا ٣٣٦
اهتزّت ٤٠٧
أهلَ القرى ٢٠٨
أُوتوا العلمَ ٥٣٨
أوجَس ٣٩٦
أوزارَها ٥١٢
أولادُكم ٥٤٣
أولياء ٨٩ـ١٣١
آتوا حقَّه ١٨٨
الآخرِين ٤٧٨

آذانهم	١٧٠ـ٣٦٥	أيدى الناس	٤٤٨
آزَرَه	٥١٨	أيديهم	١٤٤ـ١٥٨ـ٢١٠
آمنوا	٥٣٨		٢٤٠ـ٣١٣ـ٤٧٤ـ٤٧٥
آيات مُحكَمات	٨٢	أيمانكم	٥٧
آياتنا	٤٣٨ـ٤٩٦	الأيَامى	٤٢٨
آياتى	١٢ـ١٥٤	أيامِ الله	٣١١

حرف الباء

بَخل واستغنى	٥٦٢	البلاغُ	١٦٤
بدْعًا	٥٠٩	بنيانَه	٢٤٧
البرَّ	٩٢	بنيانَهم	٢٤٨
بريئا	١٢٠	باشروهن	٤١
بَسْطةً	٦٤	بالَهم	٥١١
بصائرُ	١٨٤	بيتُ العنكبوت	٤٤٥
البصير	٤٧٠	بَيْضٌ	٤٧٧
بُعدًا	٢٧٣	بَيْعٌ	٣١٩
بكَت السماءُ والأرضُ	٥٠٦	البيوتَ	٤٣
البلَدُ الطيِّبُ	٢٠٣	بيوتَنا	٤٥٩

حرف التاء

تَأسَوْا	٥٣٧	تُحبوا شيئا	٥٢
تُؤمَر	٣٣١	تَحسَّسُوا	٣٠٠
تبخسوا	٢٠٥ـ٢٧٦	تَحْمل عليه	٢١٤
تُبْدَ لكم	١٦٥	تخضَعْنَ	٤٦٢
تبغوا	١٠٥	تخرق الأرضَ	٣٥٤
تبلغَ الجبالَ طولا	٣٥٤	تخطفُه الطيرُ	٤١٢
تبينوا	٥٢٠	تخلُدون	٤٣٧
تَترى	٤١٩	تُدلوا بها	٤٢
تتقلب فيه القلوبُ	٤٣٠	تدورُ أعينُهم	٤٦٠
تَثريبَ	٣٠٢	تَذْهَلُ	٤٠٥
تُجادلُ	٣٤١	ترتابوا	٧٨
تجارتُهم	٨	تَسُؤكم	١٦٥

تَستأنسوا ٤٢٦
تَستَترون ٤٩١
تُسْرفوا ١٩٨
تَشخَصُ ٣٢١
تُشركوا بالله ١٩٩
تُصعِّر ٤٥١
تضعُ ٤٠٥
تعدلوا ١٢٤
التعفُّف ٧٢
تعفوا ٦٠
تعلمون ٣٣٢
تعالى جَدُّ ربنا ٥٥٠
تَغلوا ١٣٥
تُغْمضوا فيه ٧٠
تَفْرَحوا ٥٣٧
تَقربوهُن ٥٥
تَقْشَعِر ٤٨٤
تَقفُ ٣٥٣
التقوى ١٩٧
تقولون مالا تفعلون ٥٤١
تُقاةً ٩٠
تُكره الناسَ ٢٦٢
تكرهوا شيئا ٥٢
تلوون ١٠٠
تَمْش فى الأرض مرحًا ٣٥٤
تَنسَوْن أنفسكم ١٣
تَنَفَّس ٥٥٨
تَنوءُ ٤٤٤
تنازعوا ٣٩٥
التَّهْلكة ٤٥
تهنوا ١١٩ـ٥١٤
تُوفى ٣٤١
تَيَمَّموا ٦٩ـ١٣٩

حرف الثاء

ثمرات ٤٩٣
ثيابَهم ٢٦٦

حرف الجيم

الجبالَ ٥٥٥
جُرُف ٢٤٧
جَرَمَ ٣٣٤
جَزوعًا ٥٤٧
الجِزْيَة ٢٣٥
جلابيبهن ٤٦٥
جمعَه ٥٥٢
الجَملُ ٢٠٠
جُندنا ٤٨٠
جَناحَ الذُّل ٣٤٨
جَهْدَ أيمانهم ١٥٦
الجَهْرَ بالسُّوء ١٣٢
جَهازهم ٢٩٤
جاء الحقُّ ٣٥٨
جاثية ٥٠٨

حرف الحاء

حُبًّا ٢٨٨
الحَبِّ ١٨١
حَبْلِ الله ٩٤
الحجَّ ٤٨
الحجَّ والعُمرةَ ٤٦
الحديث ٥٣٤
جذْرَهمَ ١١٦
الحرب ١٦٠ـ٥١٢
حَرْث ٥٦
حَرَج ١٤٠ـ ١٩٤ـ٥١٧
حَرْف ٤٠٩
والحَرور ٤٧٠
حسبانا ١٨٢
حسرات ٣٥
الحسنة ٣٠٨ـ٤٩٢
حُسْنًا ٢٣ـ٣٧٤
الحسنات ٢٧٩
حَصْحَصَ ٢٩٢
الحقُّ ٢٩٢
حُكما ٤٣٥
الحكّامِ ٤٢
الحمارَ ٥٤٢
الحناجرَ ٤٥٨
حنيفًا ٢٦٣
حاجَة فى نفس يعقوبَ ٢٩٧
حاشَ لله ٢٨٩
حاضرى ٤٧
الحافرة ٥٥٦
الحيوانُ ٤٤٦
الحياة الدنيا ٤٤٦ـ ٤٥٥ـ٥٣٦
الحىَّ ٤٤٧

حرف الخاء

الخبيث ٦٩
الخبيثات ٤٢٥
خَتَم ٥ـ١٧٤
خَدَك ٤٥١
خُذ ٢١٥
خَشْيَة الله ١٩
خَصَاصةٌ ٥٣٩
خَطْبُك ٣٩٧
خُطوات الشيطان ٣٦
الخطاب ٤٨٢
خَطيئة ١٢٠
خطيئته ٢٢
خَلَصوا ٢٩٩
خلقناكم عبَثًا ٤٢٣
خلالٌ ٣١٩
خائنة ١٤٥
خائنةَ الأعين ٤٨٩
خالصَة ٤٨٣
خاويةٌ ٣٧٢
خيْر ٢٦٤
الخيرَةُ ٤٦٣
الخَيْرات ١٥٥
خيفَةً ٢٧٤
خَيفته ٣٠٥
خَيْلك ٣٥٦

حرف الدال

دأب	٨٥	دائرةُ السَّوْء	٥١٦
دسَّاها	٥٦٠	دابَّة	٢٦٧ـ٢٧٢
دُعاء عريض	٤٩٥	دابةٌ من الأرض	٤٤١
دلّاهما	١٩٦	دابرُ	١٧٣
الدوائرَ	٢٤٣	دينَهم	٢٠٢

حرف الذال

ذَرْعًا	٢٧٥	ذكرى	٣٩٩
ذُرّيةً ضعافا	١٠١	الذلّة والمسكنة	١٥
الذكر	٣٢٤ـ٥٠٢	ذات الصدور	١٤٢
ذكر الله	٣٠٩	ذاتَ بينكم	٢١٧
ذكرًا	٣٧٣	ذاتُ حَمْل	٤٠٥

حرف الراء

الرأسُ	٣٧٨	الرعدُ	٣٠٥
رئاءَ الناس	١٠٧	رَغَدا	١١
ربَتْ	٤٠٧	رُكنه	٥٢٢
رَجلك	٣٥٦	رَمَيْتَ	٢٢٢
رَجْمًا	٣٦٩	رَهين	٥٢٣
الرجالُ	١٠٤	الراسخون	١٣٤
رَحمةً	٤٨٧	راودَته	٢٨٦
الرحمة	١٦٨ـ٣٤٨	ريْبَ المنون	٥٢٤
رحمتي	٢١٢	ريبَةً	٢٤٨
الرحمن	١	ريحكم	٢٢٨
الرزق	٤٩٧	ريع	٤٣٧
رُسْلنا	٤١٩ـ٤٩٠		

حرف الزاى

الزَّبَدُ ٣٠٧
الزُّبُر ٥٢٩
زُبُرا ٤٢١
زَرْع ٥١٨
زكاها ٥٦٠
الزنا ٣٥١
زَهَق الباطلُ ٣٥٨
زَوجَه ٤٠٤
زَيدٌ ٤٦٤
زَيغٌ ٨٣

حرف السين

سَبَب ٤١١
سُباتا ٤٣٤
السبيل ١٥٧
سبيلا ١٠٥ ـ ١١٢ ـ ١٢٩
سبيل ٢٤٢
سبيل الله ٢٦٩
سُخريا ٥٠٤
سَدًّا ٤٧٤
سُدًى ٥٥٣
السِّر ٣٨٥
سراب ٤٣١
سَعَة ٦٣
السَّعْىَ ٤٧٩
سَفَة ٣٠
سَفَاهة ٢٠٤
سُقط ٢١٠
سكت ٢١١
سكرَتهم ٣٢٩
سُكرت ٣٢٥
سكنٌ ٢٤٤
سكنا ١٨٢
سُكارى ٤٠٥
السكينةَ ٥١٥
سُلطان ٢٥٨ ـ ٢٩٠
سُلطانا ٩٩ ـ ١١٤
سَلَقوكم ٤٦١
السَّلَم ١١١
السِّلْم ٥٠
سُلما فى السماء ١٧٢
السلام ١٤٧
سمعكم ٤٩١
سمعهم ٥
سَمِّ الخياط ٢٠٠
سوء العذاب ١٤
سُوقه ٥١٨
سَوَّلت ٢٨٢
سواءَ السبيل ٢٨
الساعة ٤٩٣
سالمون ٥٤٦
سيماهُم ٧٣ ـ ٢٠١
السيئة ٣٠٨ ـ ٤٩٢
السيئات ٢٧٩

حرف الشين

الشُح	١٢٣	الشهوات	٨٦
شَطْئه	٥١٨	الشهادة	٧٧ـ٨١
شَغفها	٢٨٨	شهيد	٧٩
شفاءٌ	٢٥٧ـ٣٥٩	شاكلته	٣٦١
شقاق	٣١	شيء	١٦٢
شكرتم	٣١٢	شيبا	٥٥١
الشمسَ	١٨٢	الشيطان	٧٥ـ١٢١
شنَآن قوم	١٣٦	شيَعا	١٧٧
		شياطينَ	١٨٥

حرف الصاد

الصُبْح	٥٥٨	الصراط	٤٧٦
صَبَر	٥٠٠	صعيدا طيبا	١٣٩
صَبْرا	٦٦	صَفحا	٥٠٢
صبغَة	٣٣	الصلحُ	١٢٢
صدرك	١٩٤ـ٢٦٨	إالصلاة	٤ـ١١٨
صدره	١٨٦ـ١٨٧	صلاتك	٢٤٤
صدرى	٣٨٦	الصَّمد	٥٦٧
الصدقات	٢٣٩ـ٢٤٥	صَوتك	٤٥٣
صدور قوم مؤمنين	٢٣٣	الصاحب بالجُنْب	١٠٦
صدورَهم	١١٠ـ٢٦٥	الصالحين	٤٣٥
صراط	٢٠٦		

حرف الضاد

ضرَبَ اللهُ مثلاً رجلين	٣٣٥	ضَرْبا	٧١
ضُرِبَت	١٥	ضُرٌّ	٢٦٤

حرف الطاء

طُبع	٢٤١	طَوْلا	١٠٣
طَرْف خَفى	٥٠١	طوَّعتْ له نفسُه	١٥٠
طُغيانهم	٤٢٢	طائرُكم	٤٤٠
طُوبَى لهم	٣١٠	طائرَه	٣٤٦
طُولا	٣٥٤	الطيبات	٤٢٥

حرف الظاء

الظل	٤٧٠	الظالم	٤٣٢
ظلْمه	٤٩٩	الظالمون	٣٢١
ظهيرا	٣٦٢		

حرف العين

عبادنا	٤٨٠	العَفْوَ	٢١٥
عَتيا	٣٧٩	عفا	٤٩٨
العَجْل	٢٧	عَقبيْه	٢٣٠
عَجَل	٤٠٣	عقَلوه	٢٠
العداوة والبغضاء	١٤٦	علم	٥٠٧ـ٣٥٣
عَرَضَ الحياة الدنيا	١١٥	العلم	١٣٤
عُرْضَة	٥٧	العلماء	٤٧١
العُرْف	٢١٥	عليكم أنفسكم	١٦٦
العُروة الوثقى	٦٨	عَمْرُك	٣٢٩
عُروشها	٣٧٢	عَمَلٌ	٢٧١
العزّةُ	٤٩	عَمل صالحا	٣٣٨
عَزم الأمور	٤٥٠ـ٥٠٠	العَهد	٣٥٢
عُسْرة	٧٦	عَهْدَ الله	٩
العُسْرة	٢٥٠	عوَجا	٩٣
العُسْرى	٥٦٢	عَوْرَة	٤٥٩
عَسْعَسَ	٥٥٧	العالمين	٢
العصْر	٥٦٥	عَاليَهم	٥٥٤
عَضُدك	٤٤٣	عَينْها	٣٩١
عطْفه	٤٠٨	عينى	٣٩٠

حرف الغين

غُرور	١٩٦	غطاء	٣٧٥
الغَروَر	٤٥٥	غُلْف	٢٦ـ١٣٣
غزْلَها	٣٣٦	الغائط	١٣٨
غشاوةٌ	٦	غالب على أمره	٢٨٤
الغَضَبُ	٢١١	الغَيْب	٣٦٩ـ٤٦٩
غَضَب من الله	١٦	الغيِّ	٢١٦

حرف الفاء

فئة	٦٥	الفسادُ	٤٤٨
الفئتان	٢٢٩	الفضلَ	٦١
فؤادُ أم موسى	٤٤٢	الفلك	٤١٧
فتنة	٢٢٤ـ ٢٣٢ـ ٥٤٠	فوّتَ	٤٦٨
الفتنة	٤٤ـ ٥٣ـ ١١٣	فارغا	٤٤٢
فُرقانا	٢٢٦	فاسقٌ	٥٢٠
فَسَدَتا	٤٠١	فالقُ	١٨١ـ ١٨٢

حرف القاف

قَتَرٌ	٢٥٥	قلوبكم	١٧٤ـ ٢١٩
قتل نفسا	١٥١	قلوبنا	٢٦ ـ ٨٤ـ ١٣٣
قَتورا	٣٦٣	قلوبهم	٥ـ٧ـ٨٣ـ ١٦٩ـ ٢٠٩ـ
قَدَر	٤٩٧		٢٤١ـ ٢٥٢ـ ٢٦٠ـ ٣٦٦
قدر معلوم	٣٢٧	القمر	١٨٢
قدمٌ	٣٣٧	قَنوط	٤٩٤
قدمَ صدق	٢٥٣	قَوسَيْن	٥٢٦
القرآن	٣٥٩ـ ٣٦٢ـ ٥٣٠	القول	٤٦٢
قرآنه	٥٥٢	القول الثابت	٣١٨
القسط	١٢٧	قُوَّة	١٧ ـ ٣٣٦ـ ٣٨٠
قَصْدُ السبيل	٣٣٣	قوَّامين	١٢٧ـ ١٤٣
القصاص	٣٩	قُوا أنفسكم وأهليكم	٥٤٥
قضَى اللهُ ورسولُه أمرا	٤٦٣	قاصراتُ الطرف	٤٧٧
القلوب	٤١٥ـ ٤٥٨ـ ٤٨٨ـ ٥١٣	قيعَة	٤٣١

حرف الكاف

الكبَر ٣٧٩
الكتاب ٢٥ـ ٣٨٠
كتابا ١١٨
الكَرّةَ ٣٤٤
كَسَبَ ٢١
كفرتم ٣١٢
كفّيه ٣٠٦
الكلب ٢١٤
كَلّ ٣٣٥
كُلَّ المَيْل ١٢٥
كل شيء ١٧٩ـ ٣٩٣
الكَلم ١٠٨ـ ١٥٣
كلمةً ٣٦٤
كلمة خبيثة ٣١٧
كلمة سواء ٩١
كلمة طيبة ٣١٦
كلمات الله ٤٥٤
كلمات ربى ٣٧٦
كُن فيكون ٣٨١
كَنود ٥٦٤
الكنوز ٤٤٤
كاتب ٧٩
كادح ٥٥٩
كاظمين ٤٨٨
الكافرين ١٣١
كاف عَبْدَه ٤٨٥
كَيْدَهَ ٣٩٤

حرف اللام

لباس ٤٠ـ ١٩٧
لباس الجوع والخوف ٣٤٢
لباسا ٤٣٤
لَجّوا ٤٢٢
لسانَ صدْق ٤٣٦
لسانى ٣٨٧
لهْوَ الحديث ٤٤٩
لاتَ ٤٨١
لاعبين ٤٠٠
الليل ١٨٢ ـ ٤٣٤ـ ٥٥٧

حرف الميم

المؤمنون	٨٩
المؤمنين	٢٤٩
المبذرين	٣٤٩
مبسوطتان	١٥٩
مُبوّأ صدق	٢٦١
مُتَجانف	١٣٧
متاعُ الحياة الدنيا	٢٣٧
مثقال ذرة	٤٦٧ ـ ٥٦٣
مَثواه	٢٨٣
مَثانيَ	٤٨٤
مَحبةً	٣٨٩
المحسنين	٢٤٢
مُختال	٤٥١
مُخرجَ صدق	٣٥٧
مُدخَل صدق	٣٥٧
مُدْهنون	٥٣٤
مُذَبذبين	١٣٠
المرء وقلبه	٢٢٣
مَردودون	٥٥٦
مرض	٧
مُرضعَة	٤٠٥
لمريض	٥١٧
مُسْتخلَفين	٥٣٥
مُستَطر	٥٢٩
مُستَقَر	١٧٨
مُستَوْدعَا	٢٦٧
المسجدَ الحرام	٤٧
مسجدا	٢٤٦
المس	٧٥
المسكنة	١٥
مساس	٣٩٨
مَشيك	٤٥٢
المصلين	٥٤٧
مصانع	٥٣٧
مطر السَّوْء	٥٣٣
المعروف	٣٨
معاذَ	٢٩٨
معيشتَهم	٥٠٤
مغلولة	٣٥٠
مفاتحُ الغيب	١٧٦
مقتا	٥٤١
مقامَ ربه	٥٣١
المكر السيءُ	٤٧٢
مكرهم	٣٢٣
مكانتكم	٢٨٠
مكانا	١٥٧
الملوك	٤٣٩
مُنوعا	٥٤٧
مَناص	٤٨١
موزون	٣٢٦
موعظة	٢٥٧
موقوتا	١١٨
موازينُه	١٩٥
الماء	٤٠٢
الماعون	٥٦٦
ما كتب الله لنا	٢٣٨
ماينفع الناسَ	٣٠٧
ميثاقه	١٤١
ميسَرة	٧٦
قيْلةً واحدة	١١٧
الميِّت	٤٤٧

حرف النون

نَئا بجانبه	٣٦٠	النفس	٢٩٣
نَبأ	١٧٨	نفسَه	٣٠
نتوكلَ على الله	٣١٤	نفسا	١٩٠
نَجيا	٢٩٩	نفسى	٣٩٢
نداء خفيا	٣٧٧	نفعهما	٥٤
نُراود عنه أباه	٢٩٥	نَفقا فى الأرض	١٧٢
نستعين	٣	نقضت	٣٣٦
النساء	١٠٤	نكداً	٢٠٣
نساؤكم	٥٦	نكص	٢٣٠
نُشورا	٤٣٤	النهارَ	٤٣٤
نَطبع	٢٠٩	نور السموات والأرض	٤٢٩
نَطمس	١٠٩	النومَ	٤٣٤
نَظرَةٌ	٧٦	النوى	١٨١
نعمَةَ الله	٣٢٠	الناس	٢٠٥ـ٢٧٦
النعاس	٢١٨	ناصيتها	٢٧٢
نفس	٥٨ـ١٩٢ـ ٣٤١ـ٥٦٠		

حرف الهاء

هُزُوًا	١٨	هَيْتَ لك	٢٨٧
هَلوعا	٥٤٧	الهيم	٥٣٣
هواء	٣٢٢	هَيْهات	٤١٨
الهوى	١٢٨		

حرف الواو

وجهُ أبيكم	٢٨١	الوسيلة	١٥٢
وجهَك	٢٦٣	وَطَرًا	٤٦٤
وجهه	٤١٠	وَقْرا	١٧٠
وجوههم	٢٥٥ـ٢٥٦	وقَع القولُ	٤٤١
وجوها	١٠٩	وُقفوا	١٧١
وجهى	٨٨	الولدانَ	٥٥١
وزر	٣٤٧	الوارثون	٣٢٨
وسعْتَ	٤٨٧	وازرة	١٩٣
وُسْعَها	٥٨		

حرف الياء

يؤثرون على أنفسهم ٥٣٩
يئوس ٤٩٤
يتخبطه ٧٥
يَترِكم ٥١٤
يَتَفرقا ١٢٦
يَتق ٣٠١
يتق الله ٥٤٤
يَتوكل على الله ٥٤٤
يَثنون ٢٦٥
يُحرفون ١٠٨ ـ ١٥٣
يَحوك ٢٢٣
يُحاط بكم ٢٩٦
يَحيى ٣٨٠
يَخْلُ ٢٨١
يَد ٢٣٥
يَدْرَؤون ٣٠٨
يدك ٣٥٠
يداه ١٥٩
يَدَى الله ورسوله ٥١٩
يَرْبط ٢١٩
يَرْم ١٢٠
يسألون ٧٤
يُسَبح ٣٠٥
يَسْتغشون ٢٦٦
اليُسرى ٥٦١
يسومونكم ١٤
يَشرح ١٨٦
يُشرك بالله ٤١٢
يَشْف ٢٣٣
يشاء اللهُ ٣٦٨
يَصْبر ٣٠١
يَصَّعد ١٨٧
يَصْفحوا
يَعْدلون ١٦٧
يَعْرُج إليه ٤٥٦
يَعْزب ٤٦٧
يَعْشى عن ذكر الرحمن ٥٠٥
يَعَض ٤٣٢
يَعفُوا ٤٢٤
يُعلمكمُ اللهُ ٨٠
يَعمهون ٤٢٢
يُغشيكم ٢١٨
يَغضُضن ٤٢٧
يُغيروا ما بأنفسهم ٢٣١ ـ ٣٠٤
يقبضون ٢٤٠
يَقذفون ٤٦٩
يُقرض الله ٦٢
يَقُص الحقَّ ١٧٥
يقطعون ١٠
يُقلب كفيه ٣٧١
يُقيمون ٤
يُكشَف عن ساق ٥٤٦
يكفيكهُمُ اللهُ ٣٢
يَلبسكم شيَعاً ١٧٧
يَلمزك ٢٣٩
يَلهث ٢١٤
يُمَحص ٩٧
ينصرُه ٤١٤
يَنعق ٣٧
يَهبط ١٩
يُوصَل ١٠
يوم الحسْرَة ٣٨٣
يوم لا بيعٌ فيه ولا خلال ٣١٩
يوما عند ربك ٤١٦
يوما يجعل الولدان شيبا ٥٥١

الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5875-02-1
رقم الإيداع ٩٧/١٤٦٦١
تمت الطباعة بالمطبعة العصرية ٧٢٠٦٢٤